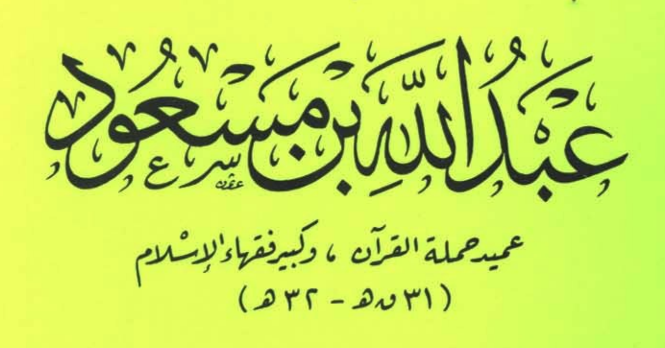
أعلام المسلمين

٢٤



عبد الستار الشيخ



دار القلم

دمشق

أعلام المسلمين
٢٤

عبد الله بن مسعود

عميد حملة القرآن، وكبير فقهاء الإسلام
(٠٠٠ - ٣٢ هـ)

عبد الستار الشيخ

دار القلم
دمشق

الطبعة الثالثة
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م

تطلب جميع كتبنا من :
دار القلم - دمشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدار الشامية - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق
دار البشير - جدة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

الإهداء

إلى مَنْ غذَاني مولوداً وعالني يافعاً. إلى الذي نَصِب لراحتي وشقي لسعادتي، ومهّد لي الصعوبات وذلّل العقبات، كي أسير في بحر الزمن مطمئناً راشداً.

إلى الذي شقَّ لي درب الحياة، وأضاء من جسده سراجاً لفكري وعقلي. إلى الذي انتزع من نفسه التي حُرمت نور العلم شعاراً لي لأرأب الصَّدْع، وأسدّ أبواب الجهل وأقرع باب «إقرأ».

إلى والدي

• • •

إلى التي جعلت نفسها بيتاً لي، وضنّت عن الكون بي خشيةَ المخاوف. إلى التي حملتني تسعة أشهر وفصلتني في عامين. إلى التي ألقمتني الحنان، وأرضعتني العطف، وكلّلتني بالعناية، وأحاطتني بالحبِّ والرعاية.

إلى التي خدمتني بنفسها، وبسطت لي الأرض فراشاً من الراحة، فمشيتُ وعينها ترمقني، وسعيتُ وقلبها يتبعني.

إلى والدتي

• • •

هـــذا الرَّجـــل

«خذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عَبْد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة».

«إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذين من بعدي ـ وأشار إلى أبي بكر وعمر ـ. واهتدوا بهدي عمّار، وما حدَّثكم ابن مسعود فصدّقوه».

محمد رسول الله ﷺ

«لقد آثرت أهل الكوفة بابنِ أمِّ عبدٍ على نفسي ـ إنه من أطولنا فُوقاً، كُنَيْف ملىء علماً».

عمر بن الخطاب

«لمّا قدم عليٌّ الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، قال: وأنا أقول مثل الذي قالوا أو أفضل: قرأ القرآن فأحلّ حلاله وحرّم حرامه، فقيه في الدين، عالم بالسُّنَّة».

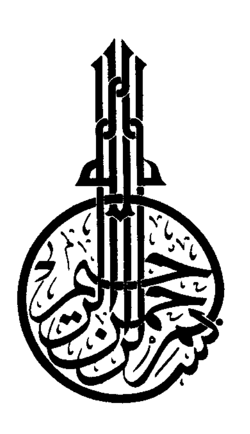
علي بن أبي طالب

«كان أقربَ الناس هدياً ودَلاًّ وسَمْتاً برسول الله ﷺ ابنُ مسعود حتى يتوارى منَّا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمَّد أنَّ ابن أمِّ عبد من أقربهم إلى الله زلفى».

حذيفة بن اليمان

«لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحَبْر بين أظهركم».

أبو موسى الأشعري



المقــدّمة

الحمد لله ربِّ العالمين القائل في كتابه العظيم: ﴿ لقد رضي اللَّهُ عن المؤمنين إذ يُبايعونَك تحت الشجرة، فعلم ما في قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحاً قريباً ﴾، والذي امتنَّ على نبيِّه ﷺ فقال: ﴿ هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين، وألَّـف بين قلوبهم. لو أنفقتَ ما في الأرض جميعاً ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكنَّ الله ألّف بينهم، إنَّه عزيز حكيم ﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي امتدح ذلك الرعيل فقال: (خير الناس قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادةُ أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادته)[١].

أما بعد:

فلئن كانت شمس النبوة قد أشرقت في بلاد العرب التي كانت تغطّ في جاهليتها، فبدَّدت ظلماءها، وجعلت ليلها كنهارها؛ فإن صحابة رسول الله ﷺ كانوا النجوم التي تعانق تلك الشمس وتدور في فلكها، فقبست من نورها، ونهلت من بحرها الزاخر، ويمَّمت

---

(١) رواه الشيخان والترمذي من حديث ابن مسعود.

شطر بقاع الأرض، فتألقت في سماء الشمال والجنوب، وأضاءت دنيا الشرق والغرب، وعكست تلك الأنوار النبوية، فكانت تمشي على الأرض بشخوصها وتعانق السماء بأرواحها، متمثلة بتلك المبادىء التي نزل بها الوحي الأمين، فغدت تعاليم القرآن رجالاً ينطقون بآيه، ويهتدون بهديه. وإذا الإسلام واقع يُنظر ومجتمع يتحرك، لا قوانين تسنّ ونظريات تُتلَى. هذا وإنّ تلك النجوم لا تزال وسوف لا تزال تأتلق، وتنشر نورها على الدنيا، فالشمس التي تأخذ منها لا تفتأ تتّقد وتعطي بجود وسخاء حتى يأذن الله بانكسافها، عندئذٍ (لا ينفع نفساً إيمانُها لم تكن آمنتْ مِنْ قَبْلُ، أو كسبت في إيمانها خيراً).

ولقد حاز أصحاب رسول الله ـ رضي الله عنهم ـ قَصَب السَّبْق في كل شيء: فهم قمة في التقوى والوَرَع، وآية في التجرِّد والإخلاص، ومشعل في العلم والعمل، ونبراس في الدعوة والحركة، فرضي الله عنهم «فأيُّ خصلة خير لم يسبقوا إليها؟! وأيُّ خطّة رشد لم يستولوا عليها؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً، وأيَّدوا قواعد الإسلام فلم يَدَعوا لأحدٍ بعدهم مقالاً، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان، والقرى بالجهاد والسِّنان، وألْقَوا إلى التابعين ما تلقَّوه من مِشْكاة النبوَّة عذباً صافياً، وكان سندهم فيه عن نبيِّهم صلى الله عليه وآله وسلم، عن جبريل، عن رب العالمين، سنداً صحيحاً عالياً، وقالوا: هذا عهد نبينا إليكم، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم. فجرى التابعون لهم بإحسان على منهاجهم القويم، واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم، ثم سلك تابعو التابعين هذا المسلك الرشيد، وهُدوا إلى الطيِّب من القول وهُدوا إلى صراط

الحميد، وكانوا بالنسبة إلى مَن قبلهم كما قال أصدق القائلين: [ثُلَّةٌ من الأوَّلين وقليلٌ من الآخِرين]»[٢].

وإذا ما توهَّم امرؤ أنَّ هذه الشُّهب قد أَفَلت إلى غير رجعة، وعَفَت معالم سيرتها إلى غير أوبة، فإنَّ مرجع ذلك إلى الضَّباب الكثيف الذي حال دون رؤيتها، وهي لا تزال نبراس الأجيال على مرِّ الأعصار وكرِّ الأدهار، وتحتاج من المرء أن يتعب ناظريه في تتبُّعها، وأن يجهد نفسه في التزام غَرْزها.

* * *

إنَّ الكتابة عن هؤلاء العظماء وكشف الستار عن الصفحات الناصعة التي سطَّروها، لهي من الواجب الذي يحتِّمه علينا هـذا العصر الذي نعيش فيه في معمعة الأفكار واضطراب الموازين، وهي من الواجب الذي تحتمه علينا أيضاً الأمور التالية:

● إقامة الدليل على عظمة ديننـا الحنيف الذي تـربَّى عليه هؤلاء؛ إذ إنَّ سلوك الأشخاص دليل صدق المبدأ الذي تربَّوا عليه ونهلوا منه.

● تبيان عظمة نبيِّنا محمد ﷺ الذي صنع هذا الجيل، وكان السببَ في تحويل تلك القلوب إلى الله.

● الوفاء لهم ببعض الشيء، فهم الذين نقلوا لنا هذا الدين، وبهم حفظ الله لنا سُنَّة رسوله ﷺ وسيرته المنيرة العطرة.

● لفت أنظار الدنيا إلى هؤلاء ومقارنتهم بتلك الرجالات التي مرَّت في تاريخ الأمم غير الإسلامية؛ ممَّا يعطي أكبر دليل على

(٢) أعلام الموقعين: ج ١ ص ٥ - ٦.

تفاهة المبادىء الوضعية التي تربّى عليها من يزعم التاريخُ لهم أنهم عظماء!!.

● الكشف عن اليد الخبيثة اللئيمة التي تحول دون اتصال أبنائنا بذلك الرعيل، وتقيم لهم رجالاً مبتورين، فتقطع صلة أجيالنا بماضيهم، وبالتالي بهذا الدين العظيم.

● الردُّ على انحرافات المستشرقين وفيالق أنصاف المتعلِّمين - بَلْهَ المتعالمين - من أبناء المسلمين، الذين انطلت عليهم حيل المستشرقين وأراجيفهم، فراحوا يخبطون في متاهات الظلام بلا هادٍ، ويكتبون عن الأصحاب ما لا يليق بآحاد الناس في هذا الزمان!!..

وموقفنا نحن في الكتابة عن الصحابة الكرام هو موقف رجل يقف في خفر وحياء بين يدي جبل أشمّ شامخ، فينظر من سفحه إلى قمته وقد كلَّلتها الأزاهير، وزينتها الأشجار، وفاحت من جنباتها رائحة المسك؛ فيصوِّر ذلك المشهد الخلاَّب، وينقل للناس جماله وبهاءه، مبيِّناً أنَّ شذاها هو ما يفيض من هؤلاء الأصحاب، وثمارها ما أنتجته أعمالهم، وخضرتها ما كساهم ربُّهم في جنات النعيم. وليس موقفنا كذاك الذي يتربَّع على كثيب مهيل،، فيطلُّ على من يكتب عنهم من عَلٍ، فهو إن لم يَزُل الكثيب من تحته ، فيسقط على رأسه - لا يأمن أولئك الناس الذين ينتظرون ما سيقوله لهم عن هؤلاء أن تسفي عليهم الريح رمال الكثيب، فتعمي أبصارهم، ويكون هذا حظهُّم من صاحبهم الذي أراد أن يعلِّمهم.

وللأسف الشديد فقد خاض أناس في تلك البحار الهائجة، وحاولوا السباحة في تاريخ الأصحاب، فغرقوا وأغرقوا، وضلّوا وأضلّوا، وأساؤوا ولم يحسنوا؛ ذلك أنَّ خوض غمار الكلام عن ذلك

الرعيل الطيب يتطلب ـ قبل كل شيء ـ صفاءً في العقيـدة، وإخلاصاً في القصد، وأمانة في النقل، وكل ذلك محاطاً بدقّة الفهم، مكللاً بالنظرة الفاحصة المدقِّقة لأراجيف المغرضين، وروايات المتروكين بَلْهَ الوضّاعين.

وليس لرجل زائغ العقيدة مشوّش الفكر مضطرب الموازين أن يتجاسر على الصَّحْب الكرام، وأحْرِ بهؤلاء النـاس أن يكسـروا أقلامهم، ويلزموا حدّهم، وإن أبَوا ذلك ورفضوا إلاَّ الاجتراء، فلن يضرَ السماءَ أن تمتد إليها يد شلّاء.

* * *

ولخطورة البحث في هذا المجال من الكتابة؛ لا بدّ من وضع بعض القواعد والمنطلقات التي يجب الرجوع إليها والصدور عنها؛ حتى يسير الكاتب على هـدىً وبصيرة. وأرى أنَّ منهـج ترجمـة الصحابة ينبغي أن يقوم على الأسس التالية:

١ ـ أنَّ الصحابة هم خير جيل في تاريخ البشرية المتطاول، ولم يأتِ زمان اجتمع فيه امثالهم في العدد والصفات، لذا فلا بدُّ من الدقَّة في وصفهم والوضوح في عرض سيرتهم.

٢ ـ أنّهم أنصار الدين في مبتدأ نشأته، وأنّهم خَلُصوا من كل رواسب الجـاهلية لمّـا دخلوا في هذا الـدين، وتوجَّهـوا إلى الله بكليتهم، فـلا سبيل لمتَّهِمٍ أن ينـال منهم في جـانب الإخـلاص والتجردِ للحق.

٣ ـ أنَّهم كانوا يلتزمون ما يقولون، ولا ينزعون إلى النصح والإرشاد دونما عمل ولا تطبيق، لذا فإذا صدرت عنهم أقوال ونصائح

وتوجيهات، فالنظرة الصحيحة السليمة تقتضي منا التيقن بأنهم كانوا كما يقولون.

٤ ـ أنَّهم كان يتلقَّون من منبع واحد لا يخلطون معه غيره، ويتحاكمون إليه دون سواه، لذا فلا سبيل لإلصاق أفكار مستجدّة بهم،وتفسير أفعالهم على أنها مشابهة لفكرة من فِكَر العصر الحاضر..

٥ ـ أنَّهم بشر، تلقَّوا الشريعة عن نبيٍّ معصوم، وأنَّهم ارتفعوا بسلوكهم إلى صفوف الملائكة في الزهد الإخلاص والتجرد؛ ولكن دون أن نعتقد فيهم العصمة ونوصلهم إلى مستوى عدم الخطأ، فهذا ما يأباه الدين الحنيف، وأن منزلتهم السامقة لا تعدو بهم إلا أن يكونوا عباداً لله يجتهدون في أعمالهم، فيصيبون كثيراً، ويخطئون قليلاً.

٦ ـ وبما أنَّهم بشر فلا بدّ أن يقع بينهم شيء من الخلاف في وجهات النظر وفي فهم أمور الشرع، ولكنَّ اختلافهم هذا نابع من حرصهم على الحق، ومن أن منطلق كل واحد منهم كان دينه لا نفسه، ولا مدخل فيه لنزعات الشيطان ووسوسات النفس، ولذا فلا منفذ لطاعن أن يتلاعب بالنصوص ويلوي عنقها ليصل إلى حاجة في نفسه، يوضح من خلالها أنَّهم كانوا طلّاب مناصب ورجال زعامات، وأنهم كانوا يكيدون لبعضهم، ويدبِّرون الحِيَل، ويحيكون المؤامرات من وراء حجاب!!.

٧ ـ أنَّهم إذا اختلفوا في شيء، ثم بان لهم الحق وظهرت الحجة واضحة؛ فإنَّ كلاً منهم يثوب إليها، ويلزم غَرْزها، لأن نفوسهم مطواعة للحق، مقادة بالشرع، ولا مطمع لهم بعَرَض زائل ولعاعة من الدنيا.

٨ ـ وَثمَّة ناحية أخيرة هي الرجوع إلى المصادر: ففي قمتها يـأتي القرآن الكـريم، ثم كتب الحديث، وبعـدها كتب التـراجم والتأريخ، ولا مانع من الرجوع إلى كتب الأدب؛ بشرط أن يكون النص سليماً من القدح وموافقاً لما صحَّ من الأحاديث ومنسجماً مع القواعد التي سبقت آنفاً. والمزلق الخطر هنا أن نلهث وراء كتب الأدب وندع وراءنا دواوين السُّنَّة؛ فنستبدل الأدنى بالذي هو خير.

وفي إطار هذه المنطلقات الواضحة والأسس السليمة ينبغي أن يسير كل كاتب عن الصَّحب الكرام، فيفسر الروايات ضمنها، ولا يخرج بها عن نطاق الحقيقة والموضوعية.

وإنما مهَّدت بهذه القواعد لأن ثمة منعطفاً خطيراً برز حديثاً في كتابة حياة الأصحاب، يفسّر الأحداث حسب الأهواء، ويغرق في الأباطيل، ويخبط خبط عشواء. هذا أولاً، وثانياً لأنّ حياة عبد الله بن مسعود ـ الصحابي الكبير الذي نترجم له في هذا الكتاب ـ لا تخلو من نقاط خطيرة ينبغي عند مطالعتها الرجوع إلى تلك الأسس حتى لا نضل الطريق.

* * *

والكتابة عن ابن مسعود رضي الله عنه لها عندي قصّة، فكثيراً ما كان اسمه يطرق سمعي، وكنت لا أجد كتاباً في الحديث أو السيرة، أو التراجم أو التأريخ، أو الأدب، أو التفسير أو الفقه؛ إلَّا واسمه يذكر في كثير من صفحاته، ثم إنه كان يتراءى لي بجسمه الضئيل، وحياته المغمورة في الجاهلية، حيث كان رُوَيعياً للغنم، يقضي أيامه ولياليه في جبال مكة وشِعابها ـ فيعظم في نفسي ويكبر في عيني، وأقول: أيُّ أمر عظيم صنعه الإسلام لهؤلاء الناس؟!. وهممت بجمع أخباره لأول مرة فتحصّل

لدي قرابة أربعين صفحة كبيرة، ثم جدّدت البحث ووسعت أفقه، وخلال مدة ليست باليسيرة تضاعف حجم الصفحات، وفي المحاولة الثالثة والأخيرة وقعت يدي على مصادر أخرى كثيرة وجليلة، أضافت للبحث أبعاداً كبيرة وللكتاب فصولاً جديدة، حتى أصبح بين يدي ستة أضعاف المحاولة الأولى، وغـدا الكتاب في ثوبه الجديد هذا.

ولا أكتم القارىء سرّاً إن قلت له أنني فوجئت، بشخصية عبد الله، وأنني لم أكن أحسبه هكذا، والذي رسخ في ذهني أخيراً أنّ شخصيته متعدِّدة الجوانب، متشعِّبة المناحي، تنطوي على كثير من صفات العظمة التي يمكن إجمالها فيما يلي:

● كان مولعاً بالجهاد، راغباً في بذل نفسه في سبيل الله، لذا لم يتخلَّف عن واحدة من غزوات رسول الله ﷺ ومشاهده.

● وكـان من كبار قـرَّاء الصحابـة، وحفَّاظ القـرآن الكريم، ويكفي دلالة على ذلك توجيه النبي ﷺ صحابته إلى أن يأخذوا القرآن عنه.

● وكان من أبرز المفسّرين، مع رشاقة في الأسلوب، ودقَّة في الفهم، وعمق في الاستنباط، وزخم في العطاء، وحسبك أن تراجع طرفاً من ذلك في تفسير ابن كثير مثلاً.

● وأما في مجال الحديث فكان من الصحابة المكثريـن عن النبي ﷺ رواية وحفظاً، وإن كانت حصيلة مروياته قليلة إذا ما قيست بالمدَّة التي صحب فيها رسول الله وما حفظ عنه؛ ومردُّ ذلك أنه كان يتحرّى ويتحرج في الرواية.

● وكان فقيهاً متيناً وقاضياً متحفِّظاً، لا يتهالك على الفتوى، ويتردد في إصدار الأحكام، وله في ذلك قصص عجيبة.

● وكان معلِّماً موفَّقاً، ورث ـ فيما ورث ـ الأسلوب النبويَّ المتفرد في الإقراء والتعليم، وخلّف من ورائه جماً غفيراً من العلماء النُّجباء في الكوفة.

وكان راغباً في أخذ العلم، شغوفاً بتحصيله، لذا أكثر من صحبة النبي ﷺ ولازمه، وكان يتفنَّن في طرق الأخذ عنه.

● وكان ذكياً ألمعياً، فطناً يقظاً، يحسن الخروج في ما يعرض له، فلا تنطلي عليه المتشابهات، ولا يخبط تائهاً عند اشتداد الأمور واصطراع الأحداث، ويخرج في النهاية مظفَّراً موفّقاً.

● وكان شديد الالتزام باحترام النبي ﷺ، واسع الحبِّ له، يخدمه في ليله ونهاره، وحلّه وترحاله.

● وكان ربَّانياً عابداً، أوّاهاً أوّاباً، خاشعاً بكّاءً، رقيق الحاشية، واسع الخوف من الله تعالى، عريض الأمل والرجاء، راضياً بالقضاء.

كل هذه الصفات ـ وأكثر منها ـ كان ينطوي عليها قلب عبد الله، وسكنت في جسمه (الضئيل). ولأجل هذا كله وجدتني ـ بفضل الله تعالى ـ مولعاً بالبحث عنه، راغباً في تقصّي أخباره أنّى كانت، فكان شغلي الشاغل في الليل والنهار، إلى أن انتهيت من كتابة هذه الفصول في سيرته المباركة.

ولم أعمد في هذا البحث إلى تسجيل ما استقصيت من أخبار، فذلك يتطلَّب صفحات طويلة وكثيرة، ورحم الله الإمام

الذهبي إذ يقول: «يمكن أن تجمع سيرة ابن مسعود في نصف مجلد، فلقد كان من سادة الصحابة، وأوعية العلم وأئمة الهدى»، ولو قال في مجلد لم يخطىء الحقيقة.

ولقد وضعت نصب عينيَّ أن أسلِّط الضوء على كل ما يساعدني في كشف جانب مخبوء في شخصية ابن مسعود رضي الله عنه. ولم أكن في هذا حاطبَ ليل أجمع ما هَبَّ ودبَّ، بل عمدت - في حدود علمي وتوفيق الله لي قبل ذلك - إلى التمحيص والتحقيق وغربلة الروايات المتعارضة والتوفيق بينها؛ كلٌّ ذلك ضمن القواعد التي قعّدتها في الترجمة للصحابة.

واعتمدت في بحثي هذا على كتب الحديث، وكانت هي المرتكز الأساسي وعليها المعوَّل، ثم لجأت إلى كتب التفسير والتراجم والطبقات والتاريخ.

* * *

هذا وإنني لأسأل الله الرحمة الواسعة للعالم المؤرِّخ الشيخ نايف العباس الذي تفضل بقراءة مخطوطة هذا الكتاب، فأقال ما فيه من عثرات، وسدّ ما فيه من ثغرات، فجزاه الله عني وعن المسلمين خير الجزاء، وأسكنه فسيح جناته.

وأرى من الواجب عليّ تقديم جزيل الشكر للعالم الفاضل الأستاذ عبد الحميد الأحدب، فقد قرأ مخطوطة هذا الكتاب كلمة كلمة، وأفدت منه كثيراً جزاه الله خيراً.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الفاضل محمد علي دولة - صاحب دار القلم - مرتين: أولاهما لأنه قرأ مخطوطة هذا

البحث وقوّم فيه ما احتاج إلى تقويم، وثانيتهما أنه يسّر لي ما احتجت إليه من المراجع الهامّة حيث وضع مكتبته العامرة تحت تصرفي آخذ منها ما أشاء وأدع ما أشاء.

وممن يتوجب عليّ شكرهم في هذا البحث صديقي الفاضل بسام الجابي - صاحب دار البصائر - الذي أرشدني إلى بعض المراجع ومظانٍّ البحث الهامّة، كما أمدني ببعضها من مكتبته العامرة، جزاه الله خيراً.

* * *

وأنا أستمد العون في هذا البحث من القويِّ المتين، وأمدُّ أكفَّ الضراعة إلى من يجيب دعوة المضطرين، وأسأله أن ينفعني به وقارئه وناشره وجميع المسلمين، وأن يرزقني منه من الإخلاص ما يكون كفيلاً لي بالخلاص يوم الدين، وأن يجعله في صحيفة حسناتي يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وأن يفيض عليّ من التوفيق ما يدلني على أرشد طريق، وأستمد منك - اللَّهمَّ - العون على حَزَن الأمر وسَهْله، وأتوكل عليك في أمري كلِّه، فأنت حسبي ونعم الوكيل.

الفصل الأول

نَسَبُهُ، وَحِلِيَتُهُ، وَطَرفٌ مِنْ أخبَاره الخاصّة

- اسمه ونسبه وكنيته ولقبه
- أبواه
- جدته لأمه
- حلف أبيه
- قبيلة هذيل
- بنو زهرة
- أين ولد عبد الله
- إسلام أمه وصحبتها
- إخوته
- زوجه زينب
- هل لابن مسعود زوج أخرى؟
- أولاده
- أحفاده
- بيت علم
- مواليه
- حليته

نَسَبُهُ، وَحِليَتُهُ، وَطرَفٌ مِنْ أخبَارهِ الخاصّة

اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

«هو عبد الله بن مسعود، بن غافل، بن حبيب، بن شَمْخ، بن فأر، بن مخزوم، بن صاهلة، بن كاهل، بن الحارث، بن تميم، ابن سعد، بن هُذيل، بن مُدْركة، ـ واسم مدركة عمرو ـ ابن إلياس، ابن مضر»[1].

وكان يكنى بأبي عبد الرحمن، كنَّاه بذلك رسول الله ﷺ كما ذكر الذهبي: عن علقمة عن عبد الله قال: «كنَّاني النبي ﷺ أبا عبد الرحمن قبل أن يولد لي»[2].

أمَّا لقبه: فكان يعرف بأمِّه، فيقال له: ابن أمِّ عبد[3].

---

(١) كذا في طبقات ابن سعد: ٣/١٥٠، وفي الإصابة (٦/٢١٤): بإسقاط «كاهل» وتيم بدلاً من تميم، وفي الاستيعاب (ذيل الإصابة ٧/٢٠): ابن هذيل بن خزيمة بن مدركة، وفي سير أعلام النبلاء (١/٣٣١) بمثل ما ذكر ابن سعد.

(٢) سير أعلام النبلاء: (١/٣٣٣)، وطبقات ابن سعد: ٣/١٥٠، والإصابة: ٦/١٤، والاستيعاب: ٧/٢٠.

(٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٢.

أبواه:

أمَّا أبوه: فهو مسعود بن غافل، بن حبيب، بن شمخ، ابن فأر... إلخ[٤].

وأمَّا أمه: فهي أمُّ عبد بنت عبد ودّ، بن سواء، بن قريم، ابن صاهلة، بن كاهل، بن الحارث، بن تميم، بن سعد، بن هُذَيل، ابن مدركة، بن إلياس، بن مضر[٥]..

جدته لأمِّه:

هند بنت عبد، بن الحارث، بن زُهْرة، بن كلاب[٦].

ومن هذا النسب لعبد الله يتضح لنا أنَّه هُذَلي النسب من جهة أبويه، كما أنَّه يمتّ بصلة القرابة إلى بني زُهْرة من جهة جدَّته لأمه.

حلف أبيه:

«حالف مسعود بن غافل عبدَ بن الحارث بن زُهْرة في الجاهلية»[٧]..

والمتأمل لهذا الحلف ولنسب جدة عبد الله لأمِّه؛ يرى أن مسعوداً لم يحالف غرباء عنه، بل إنهم يمتّون إليه بصلة القرابة، فالذي حالفه هو جدّ زوجه أم عبد لأمها.

---

(٤) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٠، الاستيعاب: ٧/٢٠.
(٥) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٠، ٨/٢٨٩.
(٦) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٠.
(٧) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٠، الاستيعاب: ٧/٢٠.

وهكذا فعبد الله بن مسعود هُذَلي النسب زُهْري الحلف، فأين كانت قبيلة هذيل وما خبرها؟

قبيلة هذيل

هُذَيل من العدنانية، وهم بنو هُذَيل بن مدركة، بن إلياس، ابن مضر ابن نزار، بن معدّ، بن عدنان. كانت ديارهم بالسرات، وسراتهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف.

وكان لهم أماكن ومياه في أسفلها من جهة نجد وتهامة بين مكة والمدينة، وهم بطنان: سعد بن هُذَيل، ولِحيْان بن هُذَيل. وقد افترقوا في الإسلام على الممالك، ولم يبق لهم حيٌّ يُطرق. وكانت بإفريقية منهم قبيلة بنواحي باجة، يعسكرون مع جند السلطان ويؤدون المغرم، وكانت منهم طائفة بطوخ الجبل من إخميم بالديار المصرية. من منازلهم وديارهم: عرنة، عرفة، بطن نعمان، نخلة، رحيل، أوطاس، وغيرها. ومن مياههم: المجاز، الرجيع، بئر معونة.

وكانوا يعبدون صنماً اسمه سُوَاع كان برُهاط يحجُّون إليه، وقد هدمه عمرو بن العاص سنة ٨هـ[٨].

أما بنو زُهْرة:

«فهم بطن من بطون قريش، لهم في تاريخ الإسلام مكان الصدارة بعد بني هاشم، ففيهم عبد مناف جدّ آمنة بنت وهْب أم

---

(٨) باختصار عن «معجم قبائل العرب» لعمر رضا كحالة، ٣/١٢١٣ ـ ١٢١٤.

الـرسول عليـه الصلاة والسـلام، ومنهم هـالـة أم حمـزة بن عبـد المـطلب، وعبـد الله بن الأرقم، وسعــد بن أبي وقـاص، وعبــد الرحمن بن عوف(٩).

أين ولد عبد الله؟

الأغلب أنّه ولد في مضارب بني زُهْرَة ـ حلفاء أبيه ـ وذلك لأن مسعوداً قد حالف هؤلاء في الجاهليّة ـ كما مرَّ آنفاً ـ ولأن عبد الله رضي الله عنه قد أسلم مبكراً وهو غلام ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ ولأنَّ أباه قد مات قبل الإسلام على أصح تقدير، حيث لم تذكره الروايات فيمن شهد البَعْثة، في حين أنَّ أمَّ عبد تذكرها المصادر في الصحابيات(١٠).

إسلام أمِّ عبد وصحبتها رضي الله عنها:

قال ابن سعد: «أسلمت وبايعت رسول الله ﷺ»(١١).

وقـد روت عن النبي ﷺ أنَّها رأتـه يقنت في الـوتـر قبـل الركوع(١٢)، وقد ساق ابن عبد البَرِّ هذا الحديث مسنداً عن علقمة عن عبد الله قال: «أرسلتُ أمِّـي ليلة لتبيت عند رسول الله ﷺ فتنظر

---

(٩) باختصار عن كتاب «عبد الله بن مسعود» للدكتور عبده الراجحي ص ١٠، ونسب آمنة هو: آمنة بنت وهب، بن عبد مناف، بن زهرة، بن كـلاب. طبقات ابن سعد: ١/ ٩٤ ـ ٩٥.

(١٠) وقد أشار إلى هذا الاستنتاج الدكتور الراجحي في كتابه عن ابن مسعود ص ١٠.

(١١) طبقات ابن سعد: ٨/ ٢٨٩.

(١٢) أسد الغابة: ٧/ ٣٦٣.

كيف يوتر، فباتت عند النبي، فصلَّى ما شاء الله أن يصلي، حتى إذا كان آخر الليل وأراد الوتر قرأ بسبِّح اسم ربك الأعلى في الركعة الأولى، وقرأ في الثانية قل يا أيها الكافرون، ثم قعد، ثم قام ولم يفصل بينهما بالسلام، ثم قرأ [بقل هو الله أحد. الله الصمد. لم يلد. ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد]، حتى إذا فرغ كبَّر ثم قنت، فدعا بما شاء الله أن يدعـو، ثم كبَّر وركع»(١٣).

وقد فرض لها عمر رضي الله عنه عطاءً في جملة من النساء المهاجرات كما ذكر ابن سعد: «وقال ـ يعني عمر بن الخطاب ـ: لئن كثر المال لأفرضنَّ لكل رجل أربعة آلاف درهم: ألف لسفره، وألف لسلاحه، وألف يخلِّفها لأهله، وألف لفرسه وبغله. وفرض لنساء مهاجرات: فرض لصفية بنت عبد المطلب ستة آلاف درهم، ولأسماء بنت عُمَيس ألف درهم، ولأمِّ كلثوم بنت عقبة ألف درهم، ولأم عبد الله بن مسعود ألف درهم»(١٤).

إخوة عبد الله:

أنجب مسعود بن غافل ثلاثة أبناء، هم: عبد الله، وعتبة، وعُمَيس.

---

(١٣) الاستيعاب: ٢٥٢/١٣، وقد أورد هذا الحديث البيهقي في السنن الكبرى (٤١/٣) بسياق قريب منه ثم قال: ومدار الحديث على أبان بن أبي عيّاش ـ أحد رجال السند ـ وهو متروك. لكن ابن التركماني تعقبه في ذيل السنن (٤٢/٣) فقال: قد تابعه على ذلك الأعمش. قلت: أورد سيد سابق في فقه السنة (١٩٦/١) حديثاً «عن حميد قال: سألت أنساً عن القنوت قبل الركوع أو بعد الركـوع؟ فقال: كـنـا نفعل قبـل وبعد. رواه ابن مـاجه ومحمد بن نصر. قال الحافظ في الفتح: إسناده قوي».

(١٤) طبقات ابن سعد: ٢٩٧/٣ ـ ٢٩٨، ٣٠٤/٣، وقد روي أنه فرض للنساء المهاجرات لكل واحدة ثلاثة آلاف درهم. طبقات ابن سعد ٢٩٨/٣.

● عتبة بن مسعود:

«أخو عبد الله بن مسعود لأبيه وأمِّه»[١٥].

«كان قديم الإسـلام بمكة، وهـاجر إلى أرض الحبشـة في الهجرة الثانية في روايتهم جميعاً، ثم قدم المدينة فشهد أحداً»[١٦].

وكان عالماً فقيهاً، رُوي عن الزُّهْري أنّـه قال: «ما عبد الله عندنا بأفقه من عتبة، ولكن عتبة مات سريعاً»[١٧].

مات عتبة رضي الله عنه في خلافة عمر، و «لما جاء عبدَ الله نعيُ أخيه عتبة دمعت عيناه، فقال: إن هذه رحمة جعلها الله، لا يملكها ابن آدم»[١٨].

وسئل عبد الله عن بكائه «فقيل له: أتبكي؟ قال: نعم، أخي في النسب، وصاحبي مع رسول الله ﷺ، وأحبُّ الناس إليّ إلَّا ما كان من عمر بن الخطاب»[١٩].

مات عتبة بالمدينة المنوَّرة وصلى عليه عمر بن الخطاب[٢٠].

● أما عُمَيس بن مسعود: فلم أعثر له على ترجمة فيما بين يديّ من كتب الرجال والتراجم.

---

(١٥) طبقات ابن سعد: ١٢٦/٤، الإصابة: ٣٨٠/٦، الاستيعاب: ١٦/٨.
(١٦) طبقات ابن سعد: ١٢٦/٤، وبمثله في الاستيعاب: ١٧/٨، وفيه أنه شهد ما بعد أحد من المشاهد.
(١٧) الاستيعاب: ١٧/٨، أسد الغابة: ٥٦٩/٣.
(١٨) طبقات ابن سعد: ١٢٧/٤، الاستيعاب: ٨/ ١٧ ـ ١٨.
(١٩) الاستيعاب: ٨/ ١٧ ـ ١٨، الاصابة: ٣٨٠/٦ ـ ٣٨١، أسد الغـابة: ٥٦٩/٣، وفي الحلية: ٩٤/٤ قريباً منه بزيادة: وما أحب مع ذلك أني كنت قبله، أن يموت فأحتسبه أحب إلي من أن أموت فيحتسبني.
(٢٠) الاستيعاب: ١٨/٨.

زوجه زينب:

هي «زينب بنت عبد الله، بن معاوية، بن عتاب، بن الأسعد، ابن غاضرة، بن حُطَيط، بن جُشَم ـ وهو ثقيف ـ فهي ابنة أبي معاوية الثقفي»(٢١).

«روت عن النبي ﷺ، وعن زوجها عبد الله بن مسعود، وعمر بن الخطاب، وعنها: ابنها أبو عبيدة، وابن أخيها ـ ولم يسمَّ ـ وعمرو بن الحارث بن أبي ضرار، وابنه محمد بن عمرو ـ أو عبد الله بن عمرو على خلاف فيه ـ وبُسْر بن سعيد، وعبيد بن السبّاق»(٢٢).

● حديثها في خروج المرأة إلى المسجد:

عن زينب امرأة عبد الله قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: (إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسنَّ طيباً)(٢٣).

● حديثها في الصدقة على الزوج والأقارب:

«عن زينب امرأة عبد الله قالت: قال رسول الله ﷺ: (تصدَّقنَ يا معشر النساء ولو من حُلِيكنَّ)، قالت: فرجعت إلى عبد الله فقلت: إنك رجل خفيف ذات اليد، وإنَّ رسول الله ﷺ قد أمرنا بالصدقة، فأْته فأسأله، فإن كان ذلك يجزي(٢٤) عني، وإلَّا صرفتها

---

(٢١) الاستيعاب: ١٣ / ٢٩.

(٢٢) تهذيب التهذيب: ١٢ / ٤٢٢.

(٢٣) أخرجه مسلم: رقم ٤٤٣، والنسائي: ٨ / ١٥٤، وفي الموطَّأ بلاغاً، وانظر جامع الأصول بتحقيق عبد القادر الأرناؤوط: ٤ / ٧٧٢. ومعنى إذا شهدت: إذا أرادت شهودها.

(٢٤) أي: يكفي.

إلى غيركم. قالت: فقال لي عبد الله: بل ائتيه أنت، قالت: فانطلقتُ فإذا امرأة من الأنصار بباب رسول الله ﷺ حاجتي حاجتها ـ قالت: وكان رسول الله ﷺ قد أُلقيت عليه المهابة ـ قالت: فخرج علينا بلال فقلنا له: ائتِ رسول الله ﷺ فأخبره أن امرأتين بالباب تسألانك: أتجزي الصدقة عنهما على أزواجهما وعلى أيتام في حجورهما(٢٥)؟ ولا تخبره من نحن. قالت فدخل بلال على رسول الله ﷺ فسأله، فقال له رسول الله ﷺ: (من هما)؟ فقال امرأة من الأنصار وزينب، فقال رسول الله ﷺ: (أي الزيانب)؟ قال: امرأة عبد الله، فقال له رسول الله ﷺ: (لهما أجران: أجر القرابة، وأجر الصَّدَقة)(٢٦)».

وفي رواية أخرى للبخاري أنَّ زينب جاءت فاستأذنت على النبيِّ ﷺ فأذن لها «قالت: يا نبي الله، إنك أمرت اليوم بالصدقة، وكان عندي حُلِيٌّ لي، فأردت أن أتصدق بها، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحقُّ مَنْ تصدقت عليهم!! فقال النبي ﷺ: (صدق ابن مسعود، زوجكِ وولدكِ أحق من تصدقتِ به عليهم)(٢٧).

هل لابن مسعود زوج أخرى؟

ذكرت كثير من المصادر أن لابن مسعود زوجين هما:

---

(٢٥) الحجور: جمع حجر ـ بالفتح والكسر ـ وهو الحضن، يقال: فلان في حجر فلان: أي في كنفه ورعايته.

(٢٦) أخرجه البخاري: فتح الباري ٣/٣٢٨ ـ طبعة المكتبة السلفية ـ، ومسلم: رقم ١٠٠٠ واللفظ له، وعند النسائي أخصر منه، وانظر جامع الأصول: ٦/٤٧٠.

(٢٧) فتح الباري: ٣/٣٢٥، ويمكن الجمع بين الروايتين أنَّ زينب لما علمت ما قاله رسول الله ﷺ وأخبرت زوجها، قال لها بجواز النفقة عليه وعلى أولاده، ثم ذهبت للتأكد فصدَّق النبي قوله.

ريطة ـ أو رائطة، وزينب. وقد نسب ابن عبد البر ريطة فقال: ريطة بنت عبد الله، بن معاوية الثقفية، قيل: إنها زينب امرأة ابن مسعود وإن ريطة لقب لها، وقيل: بل ريطة زوجة أخرى له، وقد قيل: ليست امرأة ابن مسعود[٢٨].

وقد فعل مثله الحافظ ابن حجر في الإصابة[٢٩]، وقال في «تهذيب التهذيب»: فرّق أبو سعيد وابن حِبّان والعسكري وابن منده وأبو نُعيم وغير واحد بين زينب ورائطة امرأتي ابن مسعود[٣٠].

وروت هذه المصادر عن كلتيهما حادثة النفقة ـ آنفة الذكر ـ على زوجها ومَنْ في حجرها[٣١].

أقول: والذي ترجَّح لديّ ـ والله أعلم ـ أنَّهما واحدة، وأن «رائطة» أو «ريطة» لقب لزينب، وذلك لعدة أمور:

١ ـ أن الذي في الصحيحين صريح بأن زينب هي التي جاءت وسألت النبي ﷺ عن النفقة على زوجها؛ فأقرها على ذلك، وهذا يدل على أنها كانت غنية، ويرد قول ابن سعد.

٢ ـ اضطراب الروايات في أن «رائطة» لقب لزينب، ثم اضطرابها في نسبة النفقة لكلتيهما، يسمح لنا بالقول أنهما واحدة.

٣ ـ إن الناظر في النسب الذي ساقه ابن عبد البر يلاحظ أن كلتيهما

---

(٢٨) الاستيعاب: ١٣/١٣.
(٢٩) الإصابة: ٢٦٩/١٢.
(٣٠) تهذيب التهذيب: ٤٢٢/١٢.
(٣١) وذكر ابن سعد رائطة بأنها أم ولده، وأنها كانت ذات صنعة، وألصق بها قصة النفقة. الطبقات ٢٩٠/٨.

بنت عبد الله بن معاوية (أبو معاوية)، وهذا يعني أنهما أختان، والجمع بين الأختين حرام.

● لكن أغلب الظنِّ أنَّ لابن مسعود زوجة أخرى، تحمل اسماً غير «رائطة» أو «زينب» وأنَّه أنجب من كلتيهما؛ كما يدل على ذلك رواية صريحة في «حلية الأولياء»؛ «فعن أبي عثمان النَّهْدي عن ابن مسعود: أنه كان يجالسه بالكوفة، فبينما هو في صفّة له وتحته فلانة وفلانة ـ امرأتان ذواتا منصب وجمال ـ وله منهما ولد كأحسن الولد، إذ شقشق على رأسه عصفور، ثم قذف أذى بطنه، فنكته بيده إلخ...[٣٢]».

أولاد عبد الله:

ذكر صاحب الحلية «عن أبي الأحوص قال: دخلنا على ابن مسعود وعنده بنون ثلاثة كأمثال الدنانير، فجعلنا ننظر إليهم، ففطن بنا، فقال: كأنكم تغبطوني بهم؟! قلنا: وهل يغبط الرجل إلا بمثل هؤلاء؟!» الخ.

ولقد ذكرت المصادر اسم ولدين له هما: عبد الرحمن وأبو عبيدة، وأما الثالث فلم أقف على ذكر له.

---

(٣٢) حلية الأولياء: ١/١٣٣. وقد نقل الحافظ في الفتح (٣/ ٣٢٨ - ٣٢٩) عن الطحاوي ما يؤيد الذي ذهبنا إليه حيث قال: رائطة هي زينب لا يُعلم أن لعبد الله امرأة زمن رسول الله ﷺ غيرها. وهذا الذي ذهب إليه الطحاوي يدعم أن زينب ورائطة اسمان لمسمى واحد، ويحمل على أن ذلك كان بزمن النبي ﷺ وأن ابن مسعود تزوج بالكوفة ثانية كما في الحلية.

قال ابن حجر: روى عن أبيه وعلي بن أبي طالب والأشعث ابن قيس ومسروق بن الأجدع. وعنه: ابناه القاسم ومَعْن، وسِماك بن حرب، وأبو إسحاق السَّبيعي وغيرهم. قال يعقوب بن شيبة: كان ثقة قليل الحديث، وقد تكلموا في روايته عن أبيه وكان صغيراً، فأمّا علي بن المديني فقال: قد لقي أباه، وقال ابن معين: عبد الرحمن وأبو عبيدة لم يسمعا من أبيهما. وقال أحمد بن حنبل عن يحيى بن سعيد: مات عبد الله وعبد الرحمن ابن ست سنين أو نحوها. وقال أحمد: أمَّا سفيان الثوري وشَرِيك فإنهما يقولان: سمع، واما إسرائيل فإنه يقول في حديث الضبِّ: سمعت. وقال العجلي: يقال: إنه لم يسمع من أبيه إلا حرفاً واحداً: مُحرِّم الحلال كمستحلّ الحرام(٣٣). وقال معاوية بن صالح عن ابن معين: سمع عن أبيه، وقال أبو حاتم: صالح، وروى البخاري في التاريخ الصغير بإسناد لا بأس به عن القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: لِمَّا حضر عبدَ الله الوفاة قال له ابنه عبد الرحمن: يا أبتِ أوصني، قال: ابكِ من خطيئتك. وثَّقه ابن مَعِين والعِجْلي وابن سعد وأبو حاتم. وقال الحاكم: اتفق مشايخ أهل الحديث أنه لم يسمع من أبيه. انتهى، وهو نقل غير مستقيم ـ كذا قال ابن حجر(٣٤).

---

(٣٣) أورد هذا الحديث مسنداً ابن سعد في الطبقات: ١٨١/٦.

(٣٤) تهذيب التهذيب: ٢١٥/٦ ـ ٢١٦ باختصار، وانظر ميزان الاعتدال: ٥٧٣/٢. قلت: إنَّ صغر سنِ عبد الرحمن لمَّا مات أبوه لا يمنع من أن يكون سمع منه، فالمعروف أنَّ الصغير أقدر على الحفظ من الكبير، وفي زمانهم كان العلم يؤخذ بالتلقِّي، والمتوقَّع من ابن مسعود أن يعلّم ابنه بعضاً من الأحاديث أو أن يصطحبه إلى المسجد فيسمع بعض أحاديثه ودروسه.

٢ - أبو عبيدة:

عامر بن عبد الله بن مسعود الهـذلي، أبو عبيـدة الكوفي. ويقال: اسمه كنيته. روى عن أبيه ولم يسمع منه، وعن أبي موسى الأشعري، وعمرو بن الحارث من بني المصطلق، وكعب بن عجرة، وعائشة، وأمه[٣٥] زينب الثقفية، وغيرهم. وعنه: إبراهيم النخعي، وأبو إسحاق السَّبيعي، ونافع بن جبير، وعمرو بن مرّة، وغيرهم.

ذكره ابن حِبَّان في الثقات، وقال: لم يسمع من أبيه. وقال الدارقطني: أبـو عبيدة أعلم بحـديث أبيـه من حُنيف بن مـالـك ونظرائه[٣٦].

وقال ابن سعد: روى عن أبيه رواية كثيرة، وذكروا أنه لم يسمع من أبيه شيئاً، وكان ثقة كثير الحديث[٣٧].

وكان أبو عبيـدة رجلاً جميـلاً، روى ابن سعد بسنـده عن إسماعيل بن أبي خالد قال: رأيت أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود شيخـاً حسن العينين[٣٨]. وعن يـونس بن عبيـد قـال: رأيت أبـا عبيدة بن عبد الله على راحلة كأن وجهه دينار[٣٩].

وكان يعتمّ بعمامة سوداء كما ذكر ابن سعد عن عثمان بن أبي هند قال: رأيت أبا عبيدة وعليه عمامة سوداء[٤٠].

---

(٣٥) بالأصل: وأم.

(٣٦) تهذيب التهذيب: ٥/٧٥ باختصار.

(٣٧ و٣٨ و٣٩ و٤٠) طبقـات ابن سعد: ٦/٢١٠. والـذي يستنتج من تلك الروايات أن عبـد الرحمن كـان أكبر من أبي عبيـدة، وأن الأخير أعلم بالحديث من عبد الرحمن وأكثر رواية له منه. وأنه طالت به الحياة.

بنات عبد الله:

لابن مسعود أكثر من بنت كما يدل على ذلك رواية ساقها ابن سعد عند الحديث على وصية عبد الله للزبير وابنه عند وفاته حيث قال: «وإنه لاتزوّج امرأة من بناته إلاَّ بعلمها، ولا يُحْجَر ذلك عن امرأته زينب بنت عبد الله الثقفية»[٤١].

منهن ابنة تسمى سارة روت قول رسول الله ﷺ في أبيها: «عن أبي حرملة، حدثتني سارة بنت عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (والذي نفسي بيده إنَّ عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أُحد)[٤٢]».

أما باقي بناته فلم تسعفني المصادر في الوقوف على أسمائهن.

أحفاد عبد الله:

ذكر المؤرخون أنَّ لعبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود ولدين هما: القاسم، ومعن.

١ ـ القاسم بن عبد الرحمن:

ولي قضاء الكوفة[٤٣]، وقد نقل ابن سعد عن الأعمش قال: كنت أجلس إلى القاسم بن عبد الرحمن وهو على القضاء[٤٤].

وكان كريماً عابداً تقياً، ذكر ابن سعد عن محارب بن دِثار

---

(٤١) طبقات ابن سعد: ١٥٩/٣.
(٤٢) سير أعلام النبلاء: ٣٤٣/١.
(٤٣ و ٤٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ٣٠٣.

قال[٤٥]: صحبنا القاسم بن عبد الرحمن في سفر فغلبنا بثلاث: بطول الصمت، وكثرة الصلاة، وسخاء النفس.

توفي بالكوفة في ولاية خالد بن عبد الله القَسْري[٤٦].

٢ ـ معن بن عبد الرحمن:

كان أصغر سناً من القاسم، وقد روي عنه أحاديث، وكان ثقة قليل الحديث[٤٧].

بيت علم:

وهكذا فبيت عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قد أسس على التقوى، وشيدت أركانه على العلم، فكانت رائحة الحكمة تفوح من جنباته، فأمّه أمُّ عبد لم يفتها شرف التحديث عن النبي ﷺ، وزوجه زينب حفظت عن رسول الله أكثر من حديث، أما هو فكان رأس العلماء، وأخوه عتبة لا يقل عنه شأناً، وابناه عبد الرحمن وأبو عبيدة أثنى عليهما مؤرخو الإسلام جميعاً، وكذا حفيداه القاسم ومَعْن امتدحهما العلماء النقّاد الثقاة.

وهكذا نلاحظ ونحن نستعرض ذرية عبد الله أنه قد أكرمه الله بهذا النسل الصالح الذي يذكِّر بما توحي إليه الآية الكريمة: ﴿ كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزُرَّاع ليغيظ بهم الكفار ﴾.

---

٤٥ و٤٦) طبقات ابن سعد: ٦/٣٠٣.

(٤٧) طبقات ابن سعد: ٦/٢٠٤.

مواليه:

كان لابن مسعود رضي الله عنه أكثر من مولى، منهم:

١ ـ عمير:

يكنى بأبي عمران، مولى عبد الله بن مسعود عتاقة[٤٨].

روى عن مولاه، وعنه ابنه عمران وابن ابنه إسحاق بن إبراهيم ابن عمير[٤٩].

وكان عمير يصحب عبد الله وينقل بعضاً من أخباره، روى ابن سعد عن عمران بن عمير عن أبيه قال: «خرجت مع عبد الله إلى مكة فصلَّى ركعتين بقنطرة الحيرة[٥٠].

ولقد أعتقه ـ رضي الله عنه ـ فيما رواه البيهقي «عن عمران بن عمير عن أبيه ـ وكان مملوكاً لعبد الله بن مسعود ـ قال: قال له عبد الله: ما مالك يا عمير، فإني أريد أن أعتقك؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من أعتق عبداً فماله للذي أعتق)»[٥١].

ويبدو أن ذلك السؤال من عبد الله لمولاه كان مداعبة وتعليماً له ما سمع من النبي ﷺ، فقد روى البيهقي من وجه آخر «عن عمران بن عمير عن أبيه أن ابن مسعود أعتق أباه عميراً ثم قال: أما إنَّ مالك لي، ثم تركه»[٥٢].

---

(٤٨) طبقات ابن سعد: ٦/٢٠٩.

(٤٩) تهذيب التهذيب: ٨/١٥١. وقال ابن حجر هناك: ذكره ابن حبان في الثقات.

(٥٠) طبقات ابن سعد: ٦/٢٠٩.

(٥١ و٥٢) السنن الكبرى: ٥/٣٢٦.

٢ ـ نُوَيفع (أو نُفَيع):

ذكره الذهبي في «سِيَر أعلام النبلاء» فقال: «عن نويفع مولى ابن مسعود قال: كان عبد الله من أجود الناس ثوباً أبيض، وأطيب الناس ريحاً»[٥٣].

٣ ـ وقد توفي ابن مسعود رضي الله عنه وعنده مولىً، كما ذكر ابن سعد، قال: «وكان فيما أوصى به في رقيقه: إذا أدَّى فلان خمسمائة فهو حر»[٥٤].

ولا ندري أهو نويفع آنف الذكر، أم غيره، فالله أعلم..

ولربّ سائل يسأل: لماذا لم يعتق عبد الله هذا المولى لوجه الله دون مقابل؟ فلعلّ ابن مسعود كان يرى أن الأفضل أن يترك بناته في غنى لأنهن قاصرات عن العمل، أما ذلك المولى فهو قادر على الكسب ويمكنه أن يفك رقبته بنفسه.

حليته رضي الله عنه:

● عن زرِّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتني سواكاً من الأراك ـ وكان دقيق الساقين ـ فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (ممَّ تضحكون)؟ قالوا: يا نبي الله من دقَّة ساقيه!! فقال: (والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد)[٥٥].

---

(٥٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٣، وابن سعد: ٣/١٥٧ وسماه نفيعاً.

(٥٤) ابن سعد: ٣/١٥٩.

(٥٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم ٣٩٩١، والطيالسي، والهيثمي وقال: أمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النجود وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. ورواه الحاكم. وقال ابن حجر في الإصابة (٧/٢٨ ـ ٢٩): أخرجه أحمد بسند حسن.

● وكان رضي الله عنه قصيراً جداً، فعن زيد بن وَهْب قال: «إني لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود، يكاد الجلوس يوارونه من قِصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل يكلم عمر ويضاحكه وهو قائم، ثم ولّى، فأتبعه عمر بصره حتى توارى، فقال: كُنَيْفٌ ملىء علماً»(٥٦).

● وعن عبد الله بن سَخْبرة قال: «كان عبد الله رجلاً آدمَ، له ضفيرتـان، عليه مسحة أهل البادية(٥٧)».

● وعن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: «كان عبد الله نحيفاً، قصيراً، شديد الأُدْمَة، وكان لا يغيِّر شيبه»(٥٨).

● وعن هُبَيرة بن يريم: «كان شعر عبد الله بن مسعود يبلغ ترقوته، فرأيته إذا صلَّى يجعله وراء أذنيه»(٥٩).

● وعن إبراهيم النخعي قال: «كان عبد الله لطيفاً فطيناً»(٦٠).

وقال الذهبي: «كان معدوداً في أذكياء العلماء»(٦١).

---

(٥٦) أسد الغابة: ٣٨٩/٣، وأخرجه الحاكم في المستدرك نحوه وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرِّجاه». وكُنيف: تصغير كِنْف، والكنف هو الوعاء، والمقصود بالتصغير ـ هنا ـ التعظيم.

(٥٧) المسنـد: رقم ٣٩٦١، والسنن الكبرى: ١٣٨/٥. ومعنى آدم: شـديد السمرة، والضفيـرة: الخصلة من الشعر المنسوج بعضه على بعض.

(٥٨) سير أعلام النبلاء: ٣٣٢/١.

(٥٩) طبقات ابن سعد: ١٥٨/٣، ولا يتمسك بهذه الأخبار أحد مدعياً الاقتداء بالصحابة، لأنه الآن زي أهل المعاصي ومطلوب من المسلم مخالفتهم.

(٦٠) سير أعلام النبلاء: ٣٣٢/١.

(٦١) المرجع السابق.

● وعن قيس بن أبي حازم قال: «رأيت عبد الله بن مسعود رجلاً خفيف اللحم[٦٢]».

● وعن ابن المسيب قال: «رأيت ابن مسعود عظيم البطن، أحمش الساقين»[٦٣].

● وقد تقدم قبل قليل عن نُفيع مولى عبد الله قال: «كان عبد الله بن مسعود من أجود الناس ثوباً أبيض، ومن أطيب الناس ريحاً».

● وعن عبد الرحمن بن خُنَيس قال: «رأيت ابن مسعود نظيف الثوب، طيب الريح»[٦٤].

● وعن طلحة ـ بن مصرِّف ـ قال: «كان عبد الله يعرف بالليل بريح الطيب»[٦٥].

● وعن إبراهيم ـ النخعي ـ «إن ابن مسعود كان خاتمه من حديد»[٦٦].

* * *

---

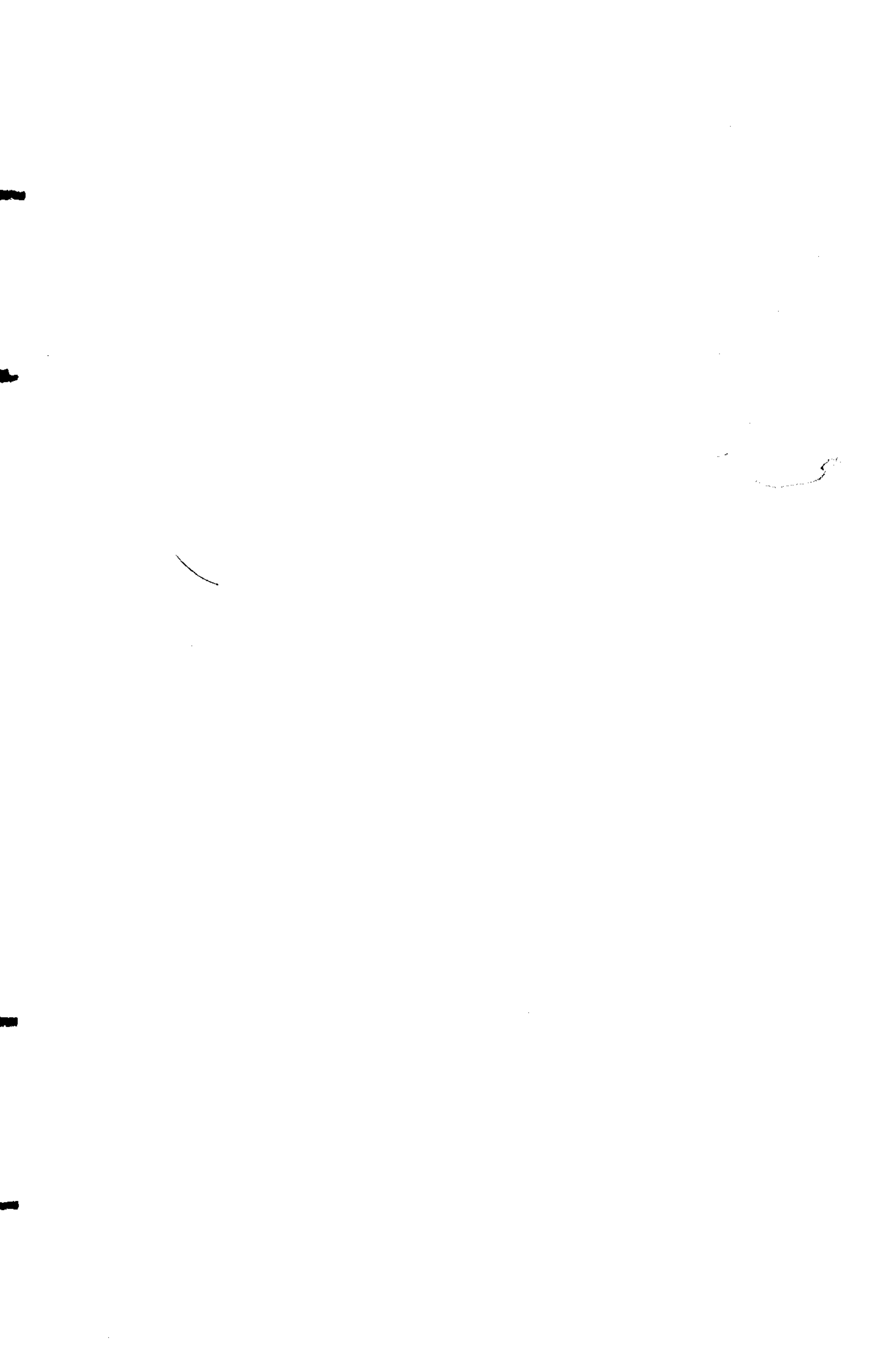
(٦٢) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٧، سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٢.

(٦٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٢، قال الذهبي تعليقاً على هذا الخبر: رآه سعيد لما قدم المدينة عام توفي سنة اثنتين وثلاثين. ومعنى أحمش الساقين: دقيقهما.

(٦٤) طبقات ابن سعد: ٦/٢٠٩.

(٦٥) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٧.

(٦٦) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٨.



الفصل الثاني

إسْلَامُهُ وَهِجْرَتُهُ وَجِهَادُهُ

أولاً ـ إسلامه وحياته في مكة

- مسؤولية مبكرة
- لقاء مثير
- لقاء حاسم وطريق جديد
- من السابقين الأولين
- أول من جهر بالقرآن
- تزايد المسلمين وتفاقم الاضطهاد
- ابن مسعود وقصة سلا الجزور
- تحت أستار الكعبة ونزول القرآن
- إسلام عمر والصلاة عند البيت
- ليلة الجن
- ليلة الملائكة

ثانياً ـ الهجرة إلى الحبشة

- سبب الهجرة
- هل هاجر ابن مسعود هجرة الحبشة الأولى؟
- هجرة الحبشة الثانية
- من أين هاجر ابن مسعود للمدينة؟

ثالثاً ـ مشاهده وغزواته

- منزله في المدينة والمؤاخاة
- ولعه بالجهاد
- في بدر
- في أحد
- في غزوة الخندق
- في غزوة الحديبية
- في غزوة خيبر
- في فتح مكة
- في غزوة حنين
- في غزوة تبوك

رابعاً ـ جهاده في عهد أبي بكر وعمر

- بيعة الصدّيق
- مشاركته في حروب الردة
- في اليرموك
- حضوره فتح حمص ثم توفيده معلماً للكوفة

أولاً ـ إسلامه وحياته في مكة

مسؤولية مبكرة:

مات مسعود بن غافل وعبد الله ـ كما تدل الروايات[1] ـ لا يزال غلاماً، ممَّا فرض على الأسرة أن تكدّ وتعمل في سبيل الحصول على رزقها، وكان هذا من حسن حظ عبد الله الذي أصبح فيما بعد يعمل عند عُقْبة بن أبي معيط، يرعى له الغنم لقاء أجر معلوم. ولعل هذا الأمر قد وضع عبد الله منذ نعومة أظفاره على عتبة المسؤولية، وقدح في ذهنه عوامل الجدِّ والاجتهاد والبحث والتطواف؛ شأن الرعاء الذين يقصدون أماكن الخصب ومظانّ الكلأ.

لقاء مثير:

وحدث أنَّ عبد الله بن مسعود خرج في ركب من قومه يقصدون مكة لشراء حاجات لهم، فكان أن رجع بما هو أخطر وأعظم، وهذا ما يرويه لنا الحافظ الذهبي فيقول: «عن زيد بن وهب قال: قال عبد الله: إنَّ أول شيء علمته من أمر رسول الله ﷺ قدمت مكة مع عمومة لي ـ أو أناس من قومي ـ نبتاع منها متاعاً، وكان في بغيتنا شراء عطر، فأرشدونا على العبَّاس، فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم، فجلسنا إليه، فبينا نحن عنده إذ أقبل رجل من باب الصَّفا، أبيض تعلوه حمرة، له وفرة جعدة إلى أنصاف أذنيه،

---

(١) صرح ابن حجر بهذا فقال بعد أن نسب ابن مسعود: مات أبوه في الجاهلية، وأسلمت أمه وصحبت. الفتح/ شرح الحديث ٣٧٦٣.

أشمُّ، أقنى، أذلف، أدعج العينين، برّاق الثنايا، دقيق المسربة، شَثْن الكفين والقدمين، كث اللحية، عليه ثوبان أبيضان كأنه القمر ليلة البدر. يمشي على يمينه غلام حسن الوجه، مراهق أو محتلـم. تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها، حتى قصد نحو الحجر، فأستلم، ثم استلم الغلام، واستلمت المرأة. ثم طاف بالبيت سبعاً وهما يطوفان معه، ثم استقبل الركن فرفع يديه وكبَّر، وقام ثم ركع، ثم سجد ثم قام. فرابنا شيء أنكرناه لم نكن نعرفه بمكة، فأقبلنا على العبّاس فقلنا: يا أبا الفضل، إنَّ هذا الدين حدث فيكم، أو أمر لم نكن نعرفه؟! قال: أجل، والله ما تعرفون هذا، هذا ابن أخي محمد بن عبد الله، والغلام علي بن أبي طالب، والمرأة خديجة بنت خويلد امرأته. أما والله ماعلى وجه الأرض أحد يعبد الله بهذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة»[٢].

وانطبعت هذه الصورة الرائعة في ذهن عبد الله المتوقِّد وها هوذا يصفهم ذلك الوصف الدقيق ويصوِّرهم ذلك التصوير المعبِّر، حتى كأنه أدرك أن هذا الرجل الرائع الحسن لا بد أنه يحمل مبدءاً رائعاً يسطع كالشمس، فماذا حدث معه بعد ذلك؟.

(٢) قال الذهبي: قال ابن شيبة: لا نعلم روى هذا إلاَّ بشر الخصّاف، وهو رجل صالح. والى القارىء تفسير لبعض غريب هذا الخبر:
وفرة: الوفرة: شعر الرأس إذا وصل إلى شحمة الأذن. أشمّ: الشَّمَم: ارتفاع قصبة الأنف واستواء أعلاها وإشراف الأرنبة قليلاً. أقنى: القَنَا في الأنف؛ طوله ورقة أرنبته مع حَدَب في وسطه.
أذلف: الذَّلَف: قصر الأنف وانبطاحه، وقيل: ارتفاع طرفه مع صغر أرنبته.
أدعج: الدّعَج: السواد في العين وغيرها، يريد أن سواد عينيه كان شديداً.
المسرُبة بضم الراء: ما دقّ من شعـر الصدر سـائلاً إلى الجـوف. شثن الكفين: أي أنهما يميلان إلى الغلظ والقصر.
أقول: وكلام العباس يُحمل على أنه لم يعلم بكل من أسلم؛ فأبو بكر الصديق كان في ركب الايمان آنذاك قطعاً.

لقاء حاسم وطريق جديد:

«عن زرٍّ بن حُبَيش، عن ابن مسعود أنه قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعُقْبة بن أبي مُعَيط، فجاء النبي ﷺ وأبو بكر وقد فرّا من المشركين، فقالا: (ياغلام، هل عندك من لبن تسقينا)؟ قلت: إنّي مؤتمن، ولست ساقيكما. فقال النبي ﷺ: (هل عندك من جذعة لم ينزُ عليها الفحل)؟ قلت: نعم، فأتيته بها، فاعتقلها النبي ﷺ، ومسح الضرع ودعا، فحفل الضرع، ثم أتاه أبو بكر بصخرة منقعرة، فاحتلب فيها فشرب، وشرب أبو بكر، ثم شربت، ثم قال للضرع (اقلِصْ)، فقلص. فأتيته بعد ذلك فقلت: علّمني من هذا القول! قال: (إنَّك غلامٌ مُعَلَّم). قال: فأخذت من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد»[٣].

وهكذا كان مفتاح إسلامه كلمتين عظيمتين: الأولى قالها عن نفسه: «إني مؤتمن»، والثانية كانت من الصادق المصدوق حيث قال له: (إنك غلام معلَّم). ولقد كان لهاتين الكلمتين دور عظيم في

---

(٣) المسند: رقم ٣٥٩٨، ٣٥٩٩، ٤٤١٢، وهو في حلية الأولياء: ١/١٢٥، والطبقات: ٣/١٥٠ ـ ١٥١، وأسد الغابة: ٣/٣٨٥، رواه الطيالسي في مسنده مطولاً. قال الذهبي: هذا حديث صحيح الإسناد (سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٥)

وقال الحافظ العراقي (الاحياء: ٢/٣٨٦): إسناد جيد.. وصحح إسناده أيضاً أحمد شاكر، وانظر الفصول في اختصار سيرة الرسول ص ٢٠٧ هامش رقم (١).

ومعنى جذعة: هو من الضأن ما تمت له سنة. ينزو: يقال: نزوت على الشيء أنزو نزواً، إذا وثبت عليه.

اعتقلها: اعتقال الشاة هو أن يضع رجلها بين ساقه وفخذه ثم يحلبها.

اقلص: اجتمع.

حياته كما سيتضح في ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله، فلقد أصبح من أعيان علماء الصحابة، -رضوان الله عليهم - والعلم يقتضي أمانة في التبليغ وتحرّجاً في الفتيا، فكانت إحداهما متممة للأخرى، حتى أصبح ابن مسعود ذلك الرجل الذي يُشار إليه بالبنان وتضرب إليه أكباد الإبل طلباً لعلمه.

ودخل عبد الله في ركب الإيمان الآخذ بالاطِّراد، وهو يمخر عباب بحار الشرك في قلعة الأصنام، فكان واحداً من أولئك السابقين الذين مدحهم الله في قرآنه العظيم.

من السابقين الأولين:

قال الحافظ ابن حجر: «أحد السابقين الأوَّلين، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين، وشهد بدراً والمشاهد بعدها، ولازمَ النبي ﷺ، وكان صاحبَ نعليه»[٤].

ثم قال: «أخرج البغوي من طريق القاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: قال عبد الله: لقد رأيتني سادس ستة وما على ظهر الأرض مسلم غيرنا. وقال أبو نعيم: كان سادس من أسلم[٥].

ونقل الذهبي عن ابن اسحاق قوله: «أسلم ابن مسعود بعد اثنين وعشرين نفساً»[٦]، «وعن يزيد بن رومان قال: أسلم عبد الله

---

(٤) الإصابة: ٦/ ٢١٤.
(٥) الإصابة: ٦/ ٢١٥،
(٦) سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٣٤.

قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم»[٧].

قلتُ: كـلام ابن اسحاق أدنى للصواب وأقرب إلى الواقع، ويحمل كلام ابن مسعود رضي الله عنه على أنه لم يعلم ـ حينما قال هذا ـ كلَّ من أسلم، ويؤيد قولنا هذا الحديثُ الذي رواه الإمام البخاري عن عمّار رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلاَّ خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر»[٨] ويؤيد ما ذهبنا إليه أيضاً قصته إسلام ابن مسعود نفسها حيث تبين أنها حدثت وقد فرّ النبي والصدِّيق، وهذا يدل على أنَّ أمر الإسلام قد فشا وعدد المسلمين قد ازداد، مما دعا للاضطهاد. كذلك إذا أخذنا في تعداد الذين أسلموا مبكراً نجد منهم: أبو بكر، علي، خديجة، زيد بن حارثة، ثم اسلم على يد الصدّيق: عثمان بن عفان، الـزبير بن العـوام، سعد بن أبي وقاص، طلحة بن عبيد الله، أضف إلى كل هؤلاء بلالاً ثم عماراً وأسرته، تجد العدد يتجاوز الاثني عشر نفساً. أضف إلى ذلك أنه قد جاء عن بعض الصحابة مثل كلام ابن مسعود؛ فعمرو بن عبسة يقول عن نفسه إنه «ربع الإسلام» . وأبو ذر الغفاري يقول: «كنت ربـع الإسـلام، أسلم قبلي ثـلاثـة نفـر وأنـا الـرابـع»[٩]. وكلامهما مؤول دون شـك. كلُّ هـذا يجعلنا نميـل إلى رأي ابن إسحاق.

أول من جهر بالقرآن:

بالرغم من أنَّ ابن مسعود كان حليفاً وليس له عشيرة تحميه،

(٧) البداية والنهاية ٢٨/٣.
(٨) البداية: ٢٨/٣.
(٩) البداية والنهاية ٣٤/٣.

ومع أنه كان ضئيل الجسم دقيق السّاقين، فإن ذلك لم يَحُلْ دون ظهور شجاعته وقوة نفسه رضي الله عنه، وله مواقف رائعة في ذلك، منها ذلك المشهد المثير في مكة، وإبان بدء الدعوة وشدة وطأة قريش عليها، فلقد وقف على مَلَئِهم وجهر بالقرآن، فقرع به أسماعهم المقفلة وقلوبهم المغلَّفة.

حدّث ابن إسحاق «عن يحيى بن عروة بن الزبير عن أبيه قال: أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود، قال: اجتمع يوماً أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا: واللهِ ما سمعتْ قريش هذا القرآن يُجهر لها به قطْ، فَمَنْ رجل يسمعهموه؟ فقال عبد الله بن مسعود: أنا! قالوا: إنَّا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه! قال: دعوني فإنَّ الله سيمنعني! قال: فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام في الضحى، وقريش في أنديتها، حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» ـ رافعاً بها صوته ـ «الرحمن. عَلَّمَ القرآن»، قال: ثم استقبلها يقرؤها، قال: فتأمَّلوه فجعلوا يقولون: ماذا قال ابن أمِّ عبد؟! قال: ثم قالوا: إنه ليتلو بعض ما جاء به محمد! فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثَّروا في وجهه، فقالوا له: هذا الذي خشينا عليك! فقال: ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينّهم بمثلها غداً! قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون»[10].

---

(١٠) سيرة ابن هشام: ١/٣١٤ ـ ٣١٥، أسد الغابة: ٣/٣٨٥ ـ ٣٨٦. وقد قال محققو سيرة ابن هشام عن عبد الله: هو عبد الله بن مسعود بن عمرو بن عمير، عم جبير بن أبي جبير، أخو أبي عبيد بن مسعود الثقفي، استشهد =

تزايد المسلمين وتفاقم الاضطهاد:

أخذ أمر الإسلام يعلو وعدد المسلمين يـزداد، وكثر عليهم الأذى وتعاظم الاضطهاد، فلقد نكّلت قريش بضعفاء المسلمين الذين كانت تملكهم، وطمع النبي ﷺ بإسلام ذلـك النَّفر الـطاغي من قـريش، رغبـة في إسـلام مَنْ وراءهـم ورفعـاً لـلأذى عن ظهـور المسلمين، وهذا ما يحدثنا عنه ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: «مرَّ الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده: صهيب وبلال وعمار وخبّاب، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء من قومك؟! أهؤلاء الذين منَّ الله عليهم من بيننا؟! اطردهم عنك، فلعلَّك إن طردتهم أن نتبعك! فنزلت هذه الآية: [ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيِّ يريدون وجهه] - [وكذلك فتنا بعضهم ببعض] إلى آخر الآية»[11].

وكان ابن مسعود أحد المعنيِّين بهذه الآية كما قال سعد بن أبي وقاص فيما نقله الذهبي عنه: «[ولا تطرد الذين يدعون ربهم] قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم»[12]. وهذا فيه مدحة عظيمة

= مع أخيه يوم الجسر.

قلت: ليس كما قالوا فالنص يأبى كلامهم ويرده، بل هو عبد الله بن مسعود ابن غافل بن حبيب بن شمخ بن فأر، المشهور بابن أم عبد، ففي النص: «نريد رجلاً له عشيرة يمنعونـه» وابن مسعود كـان حليفاً لا عشيـرة له، وفيه: «ماذا قال ابن أم عبد» وهذا عَلَم على صاحبنا ابن مسعود، عرف به بين الناس. أضف إلى ذلك أن كتب التراجم تنص على أنه ابن مسعود بن غافل المشهور بابن أم عبد. وقد تنبه الراجحي لهذا وردّه بنحو ما ذكرت.

(١١) رواه ابن جرير الطبري، وهو بنحوه عند الإمام أحمد، وانظر تفسير ابن كثير: ٣/٢٥٤ - ٢٥٥، والمسند رقم ٣٩٨٥، والآيتان من سورة الأنعام (٥٢ - ٥٣).

(١٢) سير أعلام النبلاء: ١/٧٣، ٢٥٥.

لابن مسعود ومن معه، وبيان أنَّ هؤلاء مؤمنون صادقون، يريدون وجه الله وثوابه ليس غير.

ابن مسعود وسَلاَ الجزور:

ولم يكن النبي ﷺ بمعزل عن أذى قريش وقبائحها، فلقد ائتمروا به ذات يوم ليلقوا عليه الأقذار، وكان عبد الله شاهداً لذلك الموقف المؤلم المخيف بآن واحد، وها هو ينقله كما وقع، ويصوّر لنا أحداثه وعواقبه، روى الشيخان «عن ابن مسعود قال: بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس - وقد نُحرت جزور بالأمس - فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سَلا[١٣] جزور بني فلان، فيأخذه فيضعه بين كتفي محمد إذا سجد؟! فانبعث أشقى القوم[١٤] فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كان لي مَنَعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ، والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت وهي جويرية، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي ﷺ صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم - وكان إذا دعا دعا ثلاثاً، وإذا سأل[١٥] سأل ثلاثاً - ثم قال: (اللّهم عليك بقريش) ثلاث مرات. فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك وخافوا دعوته، ثم قال: (اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة،

---

(١٣) السَلاَ: هو اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان، وهي من الآدمية: المشيمة.

(١٤) هو عقبة بن أبي مُعَيط كما صرح بذلك مسلم في رواية أخرى.

(١٥) السؤال: هو الدعاء، لكن عطفه لاختلاف اللفظ توكيداً.

والوليد بن عتبة[١٦] وأمية بن خَلَف، وعقبة بن أبي معيط، وذكر السابع ولم أحفظه[١٧]، فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحقِّ لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب[١٨] قليب بدر»[١٩].

تحت أستار الكعبة ونزول القرآن:

لا تزال الدعوة سرية، والنبي وأصحابه صابرون على الأذى في سبيل الله، والقرآن يتنزل مفرَّقاً يثبِّت فؤاده ﷺ، ويبين للمسلمين أصول دينهم، ويروي لنا عبد الله واحداً من تلك المواقف وما نزل فيه من القرآن فيقول: «إني لمستتر بأستار الكعبة، إذ جاء ثلاثة نفر: ثقفي وخَتَناه قرشيّان، كثير شحم بطونهم، قليل فقه قلوبهم، فتحدَّثوا بينهم بحديث، قال: فقال أحدهم: ترى أن الله يسمع ما قلنا؟ قال الآخر: أُراه يسمع إذا رفعنا، ولا يسمع إذا خفضنا! فقال الآخر: إن كان يسمع شيئاً منه، إنه ليسمعه كله!!، قال: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل: [وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم] حتى [الخاسرين]»[٢٠].

إسلام عمر والصلاة عند البيت:

كان إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصراً للإسلام وعزّاً

---

(١٦) في أصل مسلم: «الوليد بن عقبة» واتفق العلماء على أنه غلط وصوابه ما أثبته، وهو في البخاري كما أثبته.

(١٧) القائل هو أبو إسحاق أحد رواه الحديث، وقد جاء ذلك مصرحاً به في مسلم بعد روايتين.

(١٨) القليب: هي البئر التي لم تطوَ، وإنما وُضعوا في القليب تحقيراً لهم، ولئلا يتأذَّى الناس برائحتهم، وليس هو دفناً لهم لأنَّ الحربي لا يجب دفنه.

(١٩) الفتح: ١/٣٤٩، ومسلم؛ رقم ١٧٩٤، والمسند: ٣٧٢٢، ٣٩٦٢.

للمسلمين، وطعنة مدمية في قلب الشرك الذي أخذ يلفظ أنفاسه منذ رفع النبي ﷺ راية التوحيد في مكة، ولقد عرف ابن مسعود الأثر الذي تركه اسلام عمر فقال: «ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر»[٢١]، وهذا معنى قوله عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر: «اللهم أعزّ الإسلام بأحبِّ الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر، قال: فكان أحبهما إليه عمر»[٢٢].

وعندئذ ازدادت قوة المسلمين، ووقف الفاروق يصلِّي عند الكعبة جَهاراً، وصلى معه الأصحاب ومنهم ابن مسعود الذي يقول في هذا الأمر الجليل: «كان إسلام عمر عزّاً، وهجرته نصراً، وإمارته رحمة، والله ما استطعنا أن نصلي حول البيت ظاهرين حتى أسلم عمر»[٢٢].

ليلة الجن:

لم يقف أمر الدعوة الجديدة عند حدود الإنس، بل لقد شاركت السماءُ الأرضَ أحداثها، فانقضّت النجوم على الشياطين

---

(٢٠) رواه البخاري: الفتح ٥٦١/٨، ومسلم: رقم ٢٧٧٥، والترمذي؛ وأحمد في مسنده برقم ٣٦١٤، ٣٨٧٥ واللفظ له. وذكر ابن حجر أن القرشي هو الأسود بن عبد يَغوث والثقفي الاخنس بن شَريق، ولم يسمِّ الثالث. وقد استظهر الحافظ اسم الذي قال: «إن كان يسمع منه شيئاً، إنه ليسمعه كله» - كما في رواية البخاري، فقال: وأخلِق به أن يكون الأخنس بن شريق لأنه أسلم بعد ذلك. ومعنى ختناه: زوجا بنتيه. والآيات من سورة فصّلت: ٢٢ - ٢٣.

(٢١) الفتح: ٤١/٧، وانظر جامع الأصول: ٦١١/٨.

(٢٢) قال الحافظ في الفتح (٧/ ٤٨): قال الترمذي؛ حسن صحيح، وصحّحه ابن حبان أيضاً.

(٢٢) (مكرر) الفتح: ٤٨/٧، قال الحافظ: رواه ابن أبي شيبة والطبراني من طريق القاسم عبد الرحمن.

تحرقهم، وفزع الجنُّ ممّا حدث، وضربوا مشارق الأرض ومغاربها يستجلون الخبر، ووصل نفر منهم إلى مكة وسمعوا القرآن من النبي ﷺ.

ولقد تعدد مجيء الجنِّ إلى النبي عليه الصلاة والسلام وسماع القرآن منه، وحضر عبد الله بن مسعود واحداً من تلك المشاهد المثيرة، وها هوذا يحدث عنه فيقول: «قال رسول الله ﷺ لأصحابه وهو بمكة: (من أحبَّ أن يحضر أمر الجن الليلة فليفعل)، فلم يحضر منهم أحد غيري، قال: فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكَّة خطَّ لي برجله خطاً، ثم أمرني أن أجلس فيه، ثم انطلق حتى قام، فافتتح القرآن فغشيته أسْوِدَة[23] كثيرة حالت بيني وبينه، حتى ما أسمع صوته، ثم طفقوا يتقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين، حتى بقي منهم رَهْط، ففرغ رسول الله ﷺ مع الفجر، فانطلق فتبرَّز، ثم أتاني فقال: (ما فعل الرهط)؟ فقلت: هم أولئك يا رسول الله، فأعطاهم عظماً وروثاً زاداً، ثم نهى أن يستطيب أحد بروث أو عظم»[24].

---

(٢٣) جمع قلة لسواد، وهو الشخص لأنه يرى من بعيد أسود. وأساود جمع الجمع.

(٢٤) رواه ابن جرير الطبري، وأورده ابن كثير في تفسيره: ٢٧٥/٧، وهناك أحاديث أخرى في المسند: ٤٣٥٣، ٤٣٨١ تفيد حضور ابن مسعود ليلة الجن، وفي المسند أيضاً رواية أنه لم يحضرها وهي عند مسلم برقم ٤٥٠، والجمع بين هذه الروايات أن نقول: خرج ابن مسعود مع النبي ﷺ ولم يكن معه حال المخاطبة وهذا ظاهر في الرواية التي سقناها، كما يحتمل أنه لم يخرج معه أول ليلة وخرج معه ليلة أخرى (تفسير ابن كثير: ٢٧٩/٧)،وهذا ظاهر إذا لاحظنا أن الجن جاؤوا النبي أكثر من مرة كما صرح بذلك ابن حجر في الفتح (١٧٣/٧)، ولعلَّ هذا من ذكاء البخاري حيث بوب لسماع الجن بعد المبعث وقبل هجرة الحبشة.

وأما الرواية التي تذكر أن النبي ﷺ قد توضأ من إداوة نبيذ كانت مع ابن =

ليلة الملائكة:

روى عمرو البكالي «عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: صلى النبي ﷺ العشاء ثم انصرف، فأخذ بيد عبد الله بن مسعود حتى خرج إلى بطحاء مكة، فأجلسه ثم خط عليه خطاً[٢٥]، ثم قال: (لا تبرحنّ خطّك فإنّه سينتهي إليك رجال فلا تكلِّمهم فإنّهم لن يكلموك. ثم مضى رسول الله ﷺ حيث أراد، فبينا أنا في خطي إذ أتاني رجال كأنهم الزط[٢٦] أشعارهم وأجسامهم، لا أرى عورة ولا أرى قشراً[٢٧]، وينتهون إليّ ولا يجاوزون الخط، ثم يصدرون إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا كان من آخر الليل جاءني رسول الله ﷺ وأنا جالس فقال: (لقد أُراني منذ الليلة)، ثم دخل عليَّ في خطي، فتوسّد فخذي فرقد - وكان رسول الله ﷺ إذا رقد نفخ - فبينا أنا قاعد ورسول الله ﷺ متوسد فخذي، إذ أتى رجال عليهم ثياب بيض، الله أعلم ما بهم من الجمال!! فجلس طائفة منهم عند رأس رسول الله ﷺ، وطائفة منهم عند رجليه، ثم قالوا بينهم: ما رأينا عبداً قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي!! إن عينيه تنامان وقلبه يقظان! اضربوا له مثلاً[٢٨]، فقالوا: مثل سيِّد بنى قصراً ثم

= مسعود؛ فقد قال فيها الحافظ في الفتح:
هذا الحديث أطبق علماء السلف على تضعيفه، انظر جامع الأصول: ٧ / ٧٩.

(٢٥) أي علّم له خطاً على الأرض وحدّده كي لا يتجاوزه.

(٢٦) الزطّ: جيل من الهنود.

(٢٧) أي لا أرى منهم عورة منكشفة ولا أرى عليهم ثياباً.

(٢٨) في المسند (٣٧٨٨): «قال بعضهم لبعض: اضربوا له مثلاً ونؤوّل نحن، أو نضرب نحن وتؤوّلون انتم، فقال بعضهم لبعض: مثله كمثل سيد ابتنى بنياناً حصيناً، ثم أرسل إلى الناس بطعام، فمن لم يأتِ طعامه - أو قال: لم يتبعه - عذّبه عذاباً شديداً. قال الآخرون: أما السيد فهوربُّ العالمين،

جعل مائدة، فدعا الناسَ إلى طعامه وشرابه، فمن أجابه أكل من طعامه وشرب من شرابه، ومن لم يجبه عاقبه - أو قال: عذَّبه - ثم ارتفعوا. واستيقظ رسول الله ﷺ عند ذلك فقال: (سمعتْ ما قال هؤلاء؟ وهل تدري من هم) قلت: الله ورسوله أعلم - قال: (هم الملائكة، فتدري ما المثل الذي ضربوه)؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (المثل الذي ضربوه: الرحمن بنى الجنة، ودعا إليها عباده، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه عاقبه وعذَّبه)»[29].

ثانياً - الهجرة إلى الحبشة

سبب الهجرة:

قال ابن إسحاق رحمه الله: «فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية[30]، بمكانه من الله ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ممَّا هم فيه من البلاء؛ قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً ممّا أنتم

= وأما البنيان فهو الإسلام. والطعام الجنة، وهو، الداعي فمن اتبعه كان في الجنة ومن لم يتبعه عُذِّب».

فلعل ابن مسعود أراد أن يزداد علماً باستماع تأويل النبي ﷺ فيجمعه إلى تأويل الملائكة. والله أعلم.

(٢٩) جامع الأصول: ٨/ ٥٤٠ - ٥٤١، أخرجه الترمذي رقم ٢٨٦٥ وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، ورواه أحمد برقم ٣٧٨٨ وبسياق أطول، والهيثمي (٨/ ٢٦٠ - ٢٦١) وقال: رجاله رجال الصحيح غير عمرو البكالي وذكره العِجْلي في ثقات التابعين، وابن حبان وغيره في الصحابة.

(٣٠) هذا لا يحمل على اطلاقه فرسول الله ﷺ نال نصيبا من الأذى من قريش.

فيه، **فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله بدينهم**، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام[٣١].

وكأن ابن إسحاق يرد منذ اثني عشر قرناً على ذلك الطابور من المغفّلين الذين يقولون: إن هجرة الصحابة كانت بسبب الجوع!! فهو يحدد أسبابَ الهجرة في نقطتين ولم يعلم ما سيقوله المغرضون:

١ - مخافة الفتنة: حتى لا يفتنهم الذين كفروا عن دينهم نتيجة لهيب السياط وحرّ الرمضاء.

٢ - وفراراً إلى الله بدينهم: فالوجهة خالصة لله، منصرفة لوجهه، لا لدنيا ولا لتجارة، لا طمعاً في الشبع وخوفاً من الجوع! وإذا كان الأمر كما يدَّعي أولئك؛ إذاً فلماذا هاجر عثمان بن عفان رأس أغنياء مكة؟ ولِمَ هاجرت سهلة بنت سهيل بن عمرو الزعيم المكِّي؟! ولماذا هاجر - بعد ذلك - مصعب بن عمير فتى قريش المنعّم؟!.

هل هاجر ابن مسعود هجرة الحبشة الأولى؟

يرى ابن سعد انه هاجر هذه الهجرة، فيقول وهو يعدِّد من هاجر هجرة الحبشة الأولى: «وعبد الله بن مسعود حليف بني زهرة»[٣٢]. ثم يذكره في الذين عادوا إلى مكة لمَّا ترامَى لمهاجرة الحبشة نبأ إسلام قريش ومتابعتهم النبي ﷺ فيقول: «دخلوا مكة ولم

(٣١) سيرة ابن هشام: ١/٣٢١ - ٣٢٢.
(٣٢) طبقات ابن سعد: ١/٢٠٤.

يدخل أحد منهم إلاَّ بجوار، إلاَّ ابن مسعود فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى أرض الحبشة»[٣٣].

أمّا ابن إسحاق فيرى أنه لم يهاجر هذه الهجرة، فقد ذكر عشرة رجال وأربع نسوة هاجروا هجرة الحبشة الأولى ولم يذكر ابن مسعود فيهم[٣٤].

وأمّا ابن حجر فقد أيّد ابن إسحاق قائلاً: وأمّا ابن مسعود فقد جزم ابن إسحاق بأنه إنما كان في الهجرة الثانية، ويؤيِّده ما روى أحمد -بإسناد حسن- عن ابن مسعود قال: «بعثنا النبي ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم عبد الله بن مسعود، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن عُرْفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى الأشعري»[٣٥].

وقال في موضع آخر: «وظهر بما تقدم من أسماء أهل الهجرة الأولى إلى الحبشة وَهَمُ من زعم أن ابن مسعود كان منهم، وإنما كان من أهل الهجرة الثانية»[٣٦].

(٣٣) طبقات ابن سعد: ١/٢٠٦.
(٣٤) سيرة ابن هشام: ١/٣٢٢ - ٣٢٣.
(٣٥) الفتح: ٧/١٨٩، لكن ابن حجر ذكر في الجزء الثالث ما نصه: «وذلك أن بعض المسلمين هاجر إلى الحبشة ثم بلغهم أن المشركين أسلموا فرجعوا إلى مكة، فوجدوا الأمر بخلاف ذلك، واشتد الأذى عليهم فخرجوا إليها أيضاً، فكانوا في المرة الثانية أضعاف الأولى، وكان ابن مسعود مع الفريقين» كذا في الفتح: ٣/٧٤. ولعل هذا سبق قلم منه رحمه الله حيث جزم بخلافه في الجزء السابع، أو لعله بانت له أدلة جديدة فيما بعد فرجّح عدم حضوره الهجرة الأولى، خاصة إذا علمنا أن الفارق الزمني بين الجزء الثالث والسابع لا يقل عن خمس سنوات، حيث مكث في شرحه ربع قرن، وخلال هذه المدة يكون قد حصّل علماً غزيراً.
(٣٦) الفتح: ٧/١٩٠.

قلت: بالنظر في الروايات ومقارنتها ببعضها والربط فيما بينها؛ ترجَّح عندي ـ والله أعلم ـ أن ابن مسعود لم يهاجر الهجرة الأولى، وذلك للأسباب التالية:

١ أن ابن سعد قال: «فخرجوا متسلِّلين، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة[٣٧]». ثم شرع في الفقرة التي بعدها مباشرة[٣٨] في عدّ أسمائهم فبلغ اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان آخر من ذكر منهم ابن مسعود، فأين الوهم: أهو في الرواية الأولى أم في الثانية؟ في الإجمال أم في التفصيل؟! لعلَّ الصواب هو الرواية الأولى وكان ذكر ابن مسعود أخيراً سبق قلم.

٢ ـ ثم إنَّ ابن سعد ذكر ابن مسعود رضي الله عنه في الذين عادوا إلى مكة من الهجرة الأولى وأنه لم يدخلها، في حين أن ابن مسعود نفسه يقول: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي ونحن نحو من ثمانين رجلاً»[٣٩] وهذا ظاهر الدلالة على أن عبد الله كان مع النبي عليه الصلاة والسلام، والبعث هذا كان في الهجرة الثانية دون شك، فهل كان ابن مسعود داخل مكة وخارجها في آن واحد؟!.

٣ ـ إن قول ابن مسعود: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه[٤٠]»، أقول: إن قول ابن مسعود هذا يدل على أنه كان في مكة عندما أسلم عمر، وصلى معه أيضاً، وإسلام عمر

---

(٣٧) طبقات ابن سعد: ١/٢٠٤.
(٣٨) طبقات ابن سعد: ١/٢٠٤.
(٣٩) سيأتي الحديث مفصلاً عند ذكر هجرة الحبشة الثانية إن شاء الله.
(٤٠) سيرة ابن هشام: ١/٣٤٢.

كان بعد هجرة الحبشة الأولى كما تقول واحدة من المهاجرات فيما رواه ابن إسحاق قال: «عن أم عبد الله بنت أبي حَثْمة قالت: والله إنَّا لنترحّل إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شركه ـ قالت: وكنّا نلقى منه البلاء؛ أذىً لنا وشدّة علينا ـ قالت: فقال: إنَّه الانطلاق يا أمَّ عبد الله؟ قالت: فقلت: نعم، والله لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجاً! قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رِقَّة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا»(٤١).

وهذا واضح الدلالة في أنَّ ابن مسعود لم يهاجر الهجرة الأولى، والله تعالى أعلم.

هجرة الحبشة الثانية:

روى الإمام أحمد في مسنده قال: «عن ابن مسعود قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحوٌ من ثمانين رجلاً، فيهم عبد الله بن مسعود، وجعفر، وعبد الله بن عُرْفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى. فأتوا النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعُمارة بن الوليد بهديَّة، فلما دخلا على النجاشي سجدا له، ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله ثم قالا له: إنَّ نفراً من بني عمِّنا نزلوا أرضك، ورغبوا عنا وعن ملتنا! قال: فأين هم؟ قال: هم في أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم: فقال جعفر: أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلّم ولم يسجد، فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟! قال: إنَّا لا نسجد إلاَّ لله عز وجل! قال: وما ذاك؟ قال: إنَّ الله عز وجل بعث إلينا رسوله ﷺ، وأمر ألاَّ نسجد لأحد إلاَّ لله عز وجل،

(٤١) سيرة ابن هشام: ١/٣٤٢ ـ ٣٤٣، البداية والنهاية: ٣/٧٩.

وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك في عيسى بن مريم! قال: ما تقولون في عيسى بن مريم وأمه؟ قالوا: نقول كما قال الله عز وجل: هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسَّها بشر، ولم يفرضها ولد، قال: فرفع عوداً من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان، والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يسوى هذا! مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنَّه رسول الله، فإنَّه الذي نجد في الإنجيل، وإنه الرسول الذي بشَّر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضّئه. وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما، ثم تعجّل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً. وزعم أنَّ النبيﷺ استغفر له حين بلغه موته»(٤٢).

وهكذا عاش هؤلاء المسلمون في دار أمان، يظهرون شعائر دينهم في جوار الملك الصالح رضي الله عنه، وبقوا هكذا ينتظرون أن يهيىء الله لهم دار أمن وإيمان، إلى أن ساق الله لنبيه ﷺ - بعد صبر على البلاء ومصابرة للأعداء - جماعة من الأوس والخزرج، فأبرم معهم بيعتي العقبة، وأصبح للمسلمين قاعدة إيمانية في المدينة المنورة، ثم هاجر إليها رسول الله عليه الصلاة والسلام، وتعجل ابن مسعود فلحق به لينال شرف حضور المشاهد معه.

---

(٤٢) المسند: رقم ٤٤٠٠، سير أعلام النبلاء: ١/١٥١، وقال ابن كثير في البداية والنهاية (٣/٦٩): إسناد جيد قوي وسياق حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٢٤) بعد ذكر الحديث: رواه الطبراني وفيه حُدَيج بن معاوية، وثَّقه أبو حاتم وقال: في بعض أحاديثه ضعف، وضعفه ابن معين وغيره، وبقية رجاله ثقات، وحسّنه الحافظ في الفتح: ٧/١٨٩.
ومعنى لم يفرضها: أي لم يؤثر فيها ولم يحزّها، يعني قبل المسيح عليه السلام. والبتول: المرأة المنقطعة عن الرجال لا شهوة لها فيهم. وذكر أبي موسى مشكل، ويرجع في ذلك إلى الفتح المكان السابق.

من أين هاجر ابن مسعود إلى المدينة؟

يرى البيهقي -رحمه الله تعالى- أنَّ ابن مسعود قد رجع من الحبشة إلى مكة، ثم هاجر من مكة إلى المدينة، فحضر بدراً، فقد روى عن ابن مسعود قال: «كنا نسلّم على رسول الله ﷺ وهو يصلّي فيردُّ علينا، فلما قدمنا من الحبشة سلَّمت فلم يرد عليّ، فقلت: يا رسول الله إنك كنت تردّ علينا! قال: كفى بالصلاة شغلاً»[43]. ثم عقَّب على ذلك فقال: «قال ابن مسعود - فيما رويناه عنه في تحريم الكلام - : فلما رجعنا من أرض الحبشة؛ ورجوعه من أرض الحبشة كان قبل هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، ثم هاجر إلى المدينة وشهد مع النبي ﷺ بدراً، فقصة التسليم كانت قبل الهجرة».

وقد ذهب ابن عبد البر إلى هذا الرأي[44]، ومال إليه الدكتور الراجحي في كتابه عن عبد الله بن مسعود[45]، وخالف ابن التركماني في كتابه «الجوهر النقي» فقال: «أخرج الشيخان وغيرهما عن زيد بن أرقم قال: «كنّا نتكلم في الصلاة، يكلِّم الرجل صاحبه وهو إلى جنبه في الصلاة حتى نزلت: [وقوموا لله قانتين][46]، فأُمرنا بالسكوت ونهينا عن الكلام»، وهو حديث صحيح صريح في أنَّ تحريم الكلام كان بالمدينة، لأنَّ صحبة زيد لرسول الله ﷺ إنَّما كانت بالمدينة وسورة البقرة مدنية»[47]. وابن حجر يؤيد أن نسخ التسليم وقع بالمدينة وعبد الله اجتمع بالنبي ﷺ هناك، فيقول:

(٤٣) السنن الكبرى للبيهقي: ٢/٣٥٦، والحديث عند الشيخين. الفتح: ٧/١٨٨، ومسلم: رقم ٥٣٨.
(٤٤) الاستيعاب: ٧/ ٢٢ - ٢٣.
(٤٥) ابن مسعود: ص ١٦.
(٤٦) سورة البقرة: الآية ٢٣٨.
(٤٧) الجوهر النقي - بذيل السنن الكبرى: ٢ / ٣٦١.

«وفي السِّيَر لابن إسحاق: إن المسلمين بالحبشة لمَّا بلغهم أنَّ النبي ﷺ هاجر إلى المدينة، رجع منهم إلى مكة ثلاثة وثلاثون رجلاً، فمات منهم رجلان بمكة، وحبس منهم سبعة، وتوجَّه إلى المدينة أربعة وعشرون رجلاً، فشهدوا بدراً، فعلى هذا كان ابن مسعود من هؤلاء، فظهر أن اجتماعه بالنبي ﷺ بعد رجوعه كان بالمدينة، وإلى هذا الجمع نحا الخطَّابي، ولم يقف من تعقب كلامه على مستنده(٤٨)». قلت: وهكذا فابن مسعود مكث في الحبشة إلى أن جاء خبر هجرة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فرغب بأن يصحبه في مهجره، فلما وصل مكة ولم يجده تابع السير إلى المدينة واجتمع بالنبي ﷺ بها؛ وبهذا ينحلّ الإشكال في قول من قال أنه هاجر من مكة إلى المدينة، فهو لم يمكث بمكة شيئاً، ولم يسمع له صوت فيها بالفترة التي تلت هجرة الحبشة الثانية، فكأنه هاجر إلى المدينة من الحبشة ومكة معاً، إن صح تقديرنا(٤٩) والله أعلم.

ثالثاً ـ مشاهده وجهاده

منزله في المدينة والمؤاخاة:

قال ابن سعد: «لمَّا قدم رسول الله ﷺ المدينة أقطعِ الناسَ الدُّور، فقال حيّ من بني زُهْرة يقال لهم بنو عبد بن زهرة: نكِّب عنَّا

(٤٨) الفتح: ٣/ ٧٤.
(٤٩) أما الدكتور الراجحي فيقول: «ثم عاد من أرض الحبشة إلى مكة يواصل حياة الدعوة، وقد منحته الهجرة قوة جديدة حتى أذن الرسول ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى المدينة، فهاجر إليها» ص ١٦. أقول: وهو كلام يعوزه الدليل وترده عبارة المسند: «ثم تعجل عبد الله بن مسعود حتى أدرك بدراً»، كما أنَّ رواية نسخ التسليم تدل على طول الفراق بين ابن مسعود والنبي ﷺ، والله أعلم

ابن أمٍّ عبد، فقال رسول الله ﷺ: فلِمَ، أيبعثني الله إذاً؟! إنَّ الله لا يقَدِّس قوماً لا يُعطى الضعيف منهم حقه»[٥٠].

وقال أيضاً: «إنَّ رسول الله ﷺ خطَّ الدور، فخط لبني زُهْرة في ناحية مؤخر المسجد، فجعل لعبد الله وعتبة ابني مسعود هذه الخطة عند المسجد[٥١]».

ثم إنّ النبي ﷺ آخى بين المهاجرين إلى الله وفي سبيله وبين أنصاره وحماة دينه، فمن عساه يكون أخاً لعبد الله في الإسلام؟ هذا ما يحدثنا عنه ابن سعد فيقول: «وآخى رسول الله ﷺ بين عبد الله ومعاذ بن جبل»[٥٢]. وهكذا التقى القارىء المعلَّم مع أعلم الناس بالحلال والحرام[٥٣]؛ فكان اجتماعهما نوراً على نور، ولقد حفظ كل منهما هذا العهد وذلك الودَّ «العقدي»، فلقد أوصى معاذ تلامذته عندما طُعن[٥٤]: أن يأخذوا العلم من عبد الله، كما أنّ ابن مسعود أثنى خيراً على معاذ في أكثر من موقف[٥٥].

وثمَّة مؤاخاة أخرى عقدها النبي عليه الصلاة والسلام بين قلوب المهاجرين، وألّف الله بين قلوبهم على يديه ﷺ، وكان حظ عبد الله حواريّ رسول الله كما قال ابن الأثير: «وآخى رسول الله بينه

---

(٥٠) طبقات ابن سعد: ١٥٢/٣.

(٥١، ٥٢) طبقات ابن سعد: ١٥٢/٣، وهناك رواية تقول أن المؤاخاة بينه وبين سعد بن معاذ، الإصابه. ٢١٥/٦.

(٥٣) أعني معاذاً وما قاله فيه النبي ﷺ: (وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل)، وقد قال الحافظ في الفتح بعد ذكر هذا الحديث: رجاله ثقات. أسد الغابة: ١٩٥/٥.

(٥٤) أصابه الطاعون سنة ثماني عشرة.

(٥٥) سيأتي الكلام عن هذا في ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالى.

ـ يعني الزبير ـ وبين عبد الله بن مسعود لمّا آخى بين المهاجرين بمكة»[٥٦].

ولعه بالجهاد:

لقد آمن عبد الله وهو غلام يافع وزهر الدعوة لا يزال برعماً آخذاً بالتفتح، ورعاية الله تكلؤه وترعاه، وهو لا يزال ينمو ويأخذ عبيره بالانتشار، وكانت هناك محاولات يائسة جريئة، رعناء، تحاول ـ عبثاً ـ عدم وصول شذاه إلى أرواح الناس، وتأبى إرادة الله إلّا أن ينفذ ما قدّر سبحانه. ولقد كان ثمن ذلك غالياً، فكان طريق ذلك الرعيل مفروشاً بالتضحيات، مترعاً بالصبر، متوَّجاً بالنصر... ولقد تربى ذلك الرهط الكريم على الجهاد، وآلوا على أنفسهم ألّا يستكثروا شيئاً في سبيل ما يعتقدون. فقدموا بين يدي رسول الله ﷺ الغالي والرخيص، وبذلوا النفس والنفيس، وحضروا المشاهد الكثيرة، نصرة لله ورسوله، ولم يتخلف ابن مسعود عنهم، فكان معهم في كل هذه المشاهد.

في بدر:

١ ـ **المسير إليها:** «عن عبد الله بن مسعود قال: كنّا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، كان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميليْ رسول الله ﷺ، قال: وكانت عُقْبة رسول الله ﷺ، قال: فقالا: نحن نمشي عنك، فقال: (ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما)[٥٧]».

---

(٥٦) أسد الغابة: ٢/٢٥٠، سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٦.

(٥٧) المسند: رقم ٣٩٠١، وابن حبان، والحاكم، والنسائي، والبيهقي في السنن: ٥/٢٥٨، والبزار، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٦/٦٩): وفيه عاصم بن بهدلة وحديثه حسن، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وانظر =

٢ ـ مع المقداد: وسارت جحافل الجيش المؤمن تريد الغنيمة والله يريد ذات الشوكة، ونجى الله أبا سفيان وعيره لحكمة أعظم، وخرجت قريش بخيلائها، واستشار النبي أصحابه في مقارعة القوم، فألفَى ما أثلج صدره عليه الصلاة والسلام، ولندع عبد الله بن مسعود يصف لنا واحداً من تلك المشاهد العظيمة، ويسمعنا ما انطوى عليه قلبه المؤمن في هاتيك المعركة المرهوبة، فيقول: «**لقد شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحبّ إلي ممّا عُدل به،** أتى رسولَ الله ﷺ - وهو يدعو على المشركين - فقال: يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: [اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا ههنا قاعدون]، ولكن: نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومِنْ بين يَدَيْك، ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق، وسرَّ بذلك»(٥٨).

٣ ـ مصارع القوم: ولما رأى النبيُّ ﷺ عزم أصحابه على مجالدة القوم، قام يبعث فيهم الأمل بالنصر، ويحثهم على الثبات، فأراهم مصارع الطغاة، وفي هذا يقول ابن كثير: «ومشى ﷺ في أرض المعركة، وجعل يريهم مصارع رؤوس القوم واحداً واحداً ويقول: هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، قال عبد الله بن مسعود: فوالذي بعثه بالحق ما أخطأ

= حياة الصحابة: ٢٣١/٣. وذكره ابن كثير في البداية والنهاية (٢٦١/٣) وقال: ولعل هذا قبل أن يردّ أبا لبابة من الرَّوْحاء، ثم كان زميلاه علي ومرثد بدل أبي لبابة، والله أعلم. قلت: وإنما قال ابن كثير هذا لأن النبي ﷺ ردَّ أبا لبابة إلى المدينة واستخلفه عليها، وضرب له بسهمه وأجره. انظر أسد الغابة: ٢٦٥/٦.

(٥٨) رواه البخاري، الفتح: ٢٨٧/٧، والمسند: رقم ٣٦٩٨، والحاكم، وتفسير ابن كثير: ٧٢/٣. وسيرة ابن هشام: ٦١٤/١ ـ ٦١٥. والمقداد هو ابن عمرو، لكن الأسود بن عبد يغوث تبنَّاه فصار ينسب إليه.

واحد منهم موضعَه الذي أشار إليه رسول الله ﷺ»[٥٩].

٤ ـ إغراء كل طرف بالآخر ومناشدة النبي ﷺ ربَّه:

وعزم النبي عليه الصلاة والسلام وصحابته على منازلة أعداء الله الصادّين عن سبيله، ورَغِب ـ بحكمة الله ـ كل فريق بالآخر، وتقالَّ كل طرف خصمه كما قال الله تعالى: [وإذ يُريكُموهُم إذ التقيتُم في أعينكم قليلاً، ويُقَلِّلُكُم في أعينهم ليقضيَ الله أمراً كان مفعولاً، وإلى الله ترجع الأمور]، وينقل لنا عبد الله من أرض المعركة الترجمة العملية لهذه الآية الكريمة فيقول: «**لقد قُلِّلوا في أعيننا يوم بدر، حتى قلتُ لرجلٍ إلى جانبي**: تراهم سبعين؟ **قال: لا، بل مائة!! حتى أخذنا رجلاً منهم، فسألناه، فقال: كنا ألفاً**»[٦٠].

وابتدأت المعركة بالمبارزة، ثم احتدم الجيشان، وأيّد الله جنده بالملائكة، وأعمل المسلمون السيف في عدوّهم، وأخذ النبي ﷺ يلحّ في الدعاء ويرغب في المناشدة كثيراً، ويصور ابن مسعود هذه المناشدة، فيقول: «ما سمعنا مناشداً ينشد ضالة أشد مناشدة من محمد لربه يوم بدر: اللهم إني أنشدك ما وعدتني»[٦١].

واستمر المسلمون في القتال بشجاعة نادرة وفداء فريد، وأنزل الله عليهم النصر فركبوا أكتاف العدو وأعملوا فيه السيف.

٥ ـ مصرع أبي جهل: ومع قعقعة السيوف وحمحمات الخيول لم ينسَ ابن مسعود ذلك الموقف الرهيب في مكة، وتلك

---

(٥٩) الفصول في اختصار سيرة الرسول: ص ١١٧.

(٦٠) تفسير ابن كثير: ١٣/٤، البداية والنهاية: ٢٦٩/٣، وفيه أبو عبيدة ولم يسمع من أبيه، ولكن الآية تؤيده وتعاضده.

(٦١) فتح الباري: ٢٨٩/٧ ـ قال الحافظ: رواه الطبراني بإسناد حسن، وانظر البداية والنهاية: ٢٧٦/٣.

الدعوة المستجابة التي نطق بها رسول الله ﷺ على ذلك النفر الطاغي الذين ألقَوا عليه «سَلاَ الجزور»، فلقد أودعها عبد الله قلبه وانتظر الساعة التي تتحقق بها، ولعل هذا اللقاء الأول بين الإيمان والكفر يكون متوَّجاً بإجابة تلك الدعوة النبوية!.

عن أنس قال: «قال النبي ﷺ يوم بدر: من ينظر ما فعل أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَد، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل!! قال: وهل فوق رجل قتله قومه؟! أو قال: قتلتموه»[٦٢].

وعن رزين عن عبد الله قال: «فأتيت أبا جهل وبه رَمَق، وقد قال رسول الله ﷺ: من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فانطلقت فوجدته قد ضربه ابنا عفراء حتى برد، **فقلت: أنت أبو جهل!! وأخذت بلحيته وهو صريع وقد ضُربت رجله، فقلت: هل أخزاك الله يا عدو الله؟!** - قال: ولا أهابه عند ذلك - فقال: هل فوق رجل قتلتموه - أو قال: قتله قومه - فلو غير أكَّارٍ قتلني؟! قال: فضربته بسيفي وسيفه بيده، فلم يغن شيئاً، فبصق إلى وجهي وقال: سيفك كهام، خذ سيفي فاحتز به رأسي من عُرشي!! فأُجهزت عليه، فنفلني رسول الله ﷺ سيفه لمَّا أجهزت عليه، وكان قد أُثخن. قال: وكان عتبة قد أشار على أبي جهل بالانصراف، فقال له أبو جهل: قد انتفخ سَحْره من الخوف! فقال له عتبة: سيعلم مصفرٌ استه أيُّنا انتفخ سَحْره»[٦٣].

---

(٦٢) البخاري، الفتح: ٢٩٣/٧، وما بعدها.

(٦٣) جامع الأصول: ١٩٧/٨. ومعنى برد: مات، وظاهر الرواية يدل على أن ابن مسعود كلّمه؛ فيحتمل أن يكون المراد بهذه الكلمة أنه صار في حالة موت وقد أثخنته الجراح ولم يعد يستطيع القيام، فأطلق عليه باعتبار ما سيؤول إليه. فوق رجلٍ: هل زاد على رجل قتله قومه؟ يهوّن على نفسه ما حلّ به من الهلاك. أكّار: الأكار هو الفلاح، وأراد بقوله ذلك استصغاراً =

وينقل لنا عبد الله سرور النبي ﷺ بمقتل أبي جهل، فيقول: «**ثم خرجت حتى أتيت النبي ﷺ كأنما أقلّ من الأرض، فأخبرته فقال: «آللهِ الـذي لا إله إلاَّ هو»؟ قال: فردَّدها ثلاثاً، قال: قلت: آللّهِ الـذي لا إله إلاَّ هو، قال: فخرج يمشي معي حتى قام عليه فقال: (الحمد لله الذي أخزاك يا عدو الله؛ هذا كان فرعون هذه الأمة)**[٦٤]».

ولا بدّ لنا من وقفة مع هذا المشهد المثير نتبين فيها أبعاد نفسية كل من الطرفين:

فأبو جهل رأس الكفر تبدو لنا شخصيته من خلال تلك الكلمات الفجّة التي قالها لابن مسعود: فمن خلال قوله: «هل فوق

واستعظاماً، كيف مثلُه يقتل مثلَه. كهام: كليل الحدّ لا يقطع. عُرشي: العُرش عرق فى أصل العنق: أجهزت عليه: أتممت قتله بالسيف وأسرعت في ذلك. أُثخن: الإثخان شدة القتل وألم الجراح. سَحْره: رئته، وهذا يكون عند شدة الخوف. مصفّر استه: هذه كلمة تقال للمتنعِّم الذي لم تحنّكه التجارب.

(٦٤) المسند: رقم ٣٨٢٤، ٣٨٥٦، ٤٢٤٥، ورواه الطيالسي بنحوه، وأبو داود بمعناه، والهيثمي (٦/٧٨ ـ ٧٩) بنحوه في كتاب المغازي وقال: رواه كله أحمد، والبزار باختصار، وهو من رواية أبي عبيدة عن أبيه ولم يسمع منه، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وانظر ابن هشام: ١/٦٣٥ ـ ٦٣٦، والبداية والنهاية: ٣/٢٨٧. ولقد شهد عبد الله مصرع الباقين الذين سمّى رسول الله ﷺ وهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وأمية بن خلف، والسابع هو عمارة بن الوليد ـ كذا ذكر في رواية من وجه آخر ـ وقد استشكل بعضهم عدّه في قتلى بدر (فالمعروف أنه مات بالحبشة) ويحمل كلام ابن مسعود على أنه رأى أغلبهم في القليب، والدليل على هذا أن عقبة لم يطرح في القليب وإنما قتل صبراً بعد أن رحلوا عن بدر مرحلة، وأمية بن خلف لم يطرح بالقليب قطعاً.
الفتح ١/٣٥١.

رجل قتلتموه» تظهر عنجهيته وتمسكه بكفره حتى وهو يعالج سكرات الموت. وأما قوله: «فلو غير أكَّارٍ قتلني»؛ فهو ينضح بالكبر والإعجاب بالنفس، والنظرة السطحية للأمور وتقييم الأشخاص من خلال المظهر لا المخبر! وتزداد حماقته في ذلك الفعل الذي قام به وبصق إلى وجه ابن مسعود تعبيراً عما تغلي به نفسه من حنق وغيظ، ويبلغ به السخف وسماجة الرأي أن يعطي عبد الله سيفه ويطلب إليه أن يحتزَّ به الرأس المتعنت!! فكان ما أراد، واستقبلت جهنم واحداً من طواغيت الأرض الذين لا تزال تترقبهم بحنق وغيظ: [إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تَغَيُّظاً وزفيراً]!!.

وأما ابن مسعود فيتجلَّى لنا في موقفه مصداق قول الله تعالى: [ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين. ونُريَ فرعونَ وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون]! فلم يكن يخطر ببال فرعون قريش أن يطأ عنقه عبد الله بن مسعود! ولكنها إرادة الله ووعده المطّرد أبَداً ما قامت حياة ووجد إيمان وكفر، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٦ - **الأسرى**: وبدأ النبي ﷺ بعد انتهاء المعركة وانتصار المسلمين، يستشير الصحابة ماذا يفعل بالأسرى، وينقل ابن مسعود ذلك الموقف وما دار فيه من آراء، فيقول: «لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: (ما تقولون في هؤلاء الأسرى)؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استبقهم واستأنِ بهم، لعلَّ الله أن يتوب عليهم. قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذبوك، قرّبهم فاضرب أعناقهم. قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثم أضرم عليهم ناراً،

قال: فقال العباس(٦٥): قطعت رحمك! قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يردّ عليهم شيئاً، قال: فقال ناس: يأخذ بقولٍ أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة. قال: فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: (إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدّ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال: [فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم]، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى قال: [إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم]. وإن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: [رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً]، وإن مثلك يا عمر كمثل موسى قال: [ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم]. أنتم عالة فلا ينفلتنَّ أحد منهم إلّا بفداء أو ضربة عنق). قال عبد الله: إلا سهل(٦٦) بن بيضاء فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال: فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارة من السماء في ذلك اليوم حتى قال: (إلا سهل بن بيضاء)(٦٧)، قال: فأنزل الله عز وجل: [ما كان لنبيٍّ أن يكونَ له أسْرَى حتى يُثْخِنَ في الأرض، تريدون عَرَضَ الدنيا واللهُ يريد الآخرةَ واللهُ عزيزٌ حكيمٌ] - إلى قوله: [لولا كتابٌ

(٦٥) وكان يومئذٍ مع الأسرى.

(٦٦، ٦٧) في الأصل: «سهيل بن بيضاء»، والصواب ما أثبته، فسهل أسلم بمكة وكتم إسلامه فأخرجته قريش معها في نفير بدر، فشهد بدراً مع المشركين، فأُسر يومئذ، فشهد له عبد الله بن مسعود أنّه رآه يصلي بمكة فخلّي عنه. أما سهيل فقد أسلم قبل ابن مسعود ولم يستخفِ بإسلامه، وهاجر إلى المدينة وشهد بدراً مع المسلمين. وانظر الطبقات لابن سعد: ٤/٢١٣.

من الله سبق لمسَّكم فيما أخذتم عذاب عظيم][٦٨]».

في غزوة أحد:

ولقد حضر عبد الله معركة أحد، تلك الموقعة التي أراد الله سبحانه ـ من خلالها ـ أن يمرس المؤمنون على لزوم الطاعة التامَّة لرسول الله ﷺ، وأن يروا ثمن المخالفة باهظاً في درس عملي، إبان اصطلاء السيوف واحمرار الحدق، وانتشارات الجراحات ـ التي لم يسلم منها حتى النبي ﷺ ـ وحصول الآلام واستشهاد الشهداء حتى لا يعودوا لمثلها أبداً، ولقد صوّر عبد الله تلك المعركة الحاسمة بطورَيْها وهو يقف في معمعتها ويخوض غمارها، فعنه قال: «إن النساء كنّ يوم أحد خلف المسلمين يجهزن على جرحى المشركين، فلو حلفت يومئذٍ رجوت أن أبرَّ، إنه ليس أحد منا يريد الدنيا حتى أنزل الله عز وجل: [منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم]، فلما خالف أصحاب النبي ﷺ وعصَوا ما أُمروا به، أُفرد رسول الله ﷺ في تسعة: سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، وهو عاشرهم، فلما رهقوه[٦٩] قال: (رحم الله رجلاً ردَّهم عنا)، قال: فقام رجل من الأنصار، فقاتل ساعة حتى قتل، فلما رهقوه أيضاً قال: (يرحم الله رجلاً ردَّهم عنا)، فلم يزل يقول ذا حتى قُتل السبعة، فقال النبي ﷺ لصاحبيه: (ما أنصفْنا أصحابنا)! فجاء أبو سفيان فقال: اعلُ هُبَل، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا: الله أعلى وأجلّ) فقالوا: الله أعلى وأجل: فقال أبو سفيان: لنا عزّى ولا عزّى

(٦٨) المسند: رقم ٣٦٣٢، والبداية والنهاية: ٣/٢٩٦، وحياة الصحابة: ٢/١٤٩، وتفسير ابن كثير: ٤/٣٢. وقد رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، والحاكم في مستدركه وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٦٩) يقال: رهق فلان فلاناً: إذا تبعه فقارب أن يلحقه.

لكم، فقال رسول الله ﷺ: (قولوا: الله مولانا والكافرون لا مَوْلى لهم). ثم قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، يوم لنا ويوم علينا، ويوم نُساء ويوم نُسّر، حنظلة بحنظلة، وفلان بفلان، وفلان بفلان، فقال رسول الله ﷺ: (لا سواء، أمّا قتلانا فأحياء يرزقون، وقتلاكم في النار يعذبون). قال أبو سفيان: قد كانت في القوم مُثْلَة[٧٠]، وإن كانت لَعَنْ غير مَلأٍ[٧١] منا، قال: فنظروا فإذا حمزة قد بُقر بطنه، وأخذت هند كبده ولاكتها، فلم تستطع أن تأكلها، فقال رسول الله ﷺ: (أأكلت منه شيئاً)؟ قالوا: لا، قال: (ما كان الله ليدخل شيئاً من حمزة النار)[٧٢]».

وهذا الحديث يدلُّ على أنَّ ابن مسعود كان قريباً من النبي ﷺ - الذي كان في معاركه أقربَ الناس للعدو - ومن الذين ثبتوا معه حين انكشف الناس: فهو يعرف عدد الذين كانوا يدافعون عنه ﷺ، وأنهم قرشيون وأنصار، ثم هو يسمع مخاطبة النبي لهم ويرى استشهاد الواحد بعد الآخر، ويزيد في الدلالة على ثباته ما روي عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: «**ما بقي مع رسول الله ﷺ يوم أحد إلاَّ أربعة، أحدهم ابن مسعود**[٧٣]».

---

(٧٠) مَثَلْت بالقتيل: إذا جدعت أنفه أو أذنه أو مذاكيره أو شيئاً من أطرافه، والاسم: المثْلة، فأما مثّل - بالتشديد - فهو للمبالغة.

(٧١) أي عن غير مشورة.

(٧٢) المسند: رقم ٤٤١٤، ورواه الهيثمي (٦/١٠٩ - ١١٠) وقال: فيه عطاء بن السائب وقد اختلط، قلت: له شواهد في الصحاح وغيرها أورد طرفاً منها ابن كثير في البداية والنهاية: ٤/٢٥ - ٢٨، وانظر الفتح حديث رقم ٤٠٤٣، وتفسير ابن كثير: ٢/١١٥.

(٧٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣٣٦، وهذا يحمل على أن ذلك كان بعد استشهاد ذلك النفر من الأنصار - رضي الله عنهم - الذين ذكرهم ابن مسعود آنفاً.

في غزوة الخندق:

لقد آثر أبو عبد الرحمن ألَّا يغيب عن واحد من مشاهده ﷺ، مثلما رغب ألّا يفوته مجلس علم يفيض فيه فم النبوة بما أوحى إليه ربه، وكان له في عام خمسة للهجرة مشهد رائع في غزوة الخندق، حيث حوصر فيها المسلمون من فوقهم ومن أسفل منهم. وذات يوم بلغ الأمر قمته، فلقد رمى المشركون المسلمين بالنبل، فتصدَّى لهم المسلمون وطالت المعركة حتى ذهبت بعض الصلوات عن أوقاتها، مما أدخل الهمَّ على قلب عبد الله، ويحدثنا عن ذلك فيقول: «**كنا مع رسول الله ﷺ، فحبسنا عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فاشتدّ ذلك عليَّ، ثم قلت: نحن مع رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله**، فأمر رسول الله ﷺ بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بنا الظهر، ثم أقام فصلى بنا العصر، ثم أقام فصلى بنا المغرب، ثم أقام فصلى بنا العشاء، ثم طاف علينا رسول الله ﷺ ثم قال: (ما على الأرض عصابة يذكرون الله غيركم)(٧٤)».

---

(٧٤) المسند: رقم ٣٥٥٥، و٤٠١٣، والنسائي والترمذي، انظر جامع الأصول: ٥ / ٢٠٠ ـ ٢٠١، قال الشيخ الأرناؤوط: أبو عبيدة يروي عن أبيه عبد الله ولم يسمع منه، ولكن للحديث شواهد بمعناه في الصحيحين وغيرهما يقوى بها. أقول: والذي يؤيد أن ذلك كان في غزوة الخندق ما أخرجه الترمذي والنسائي عن ابن مسعود: «أن المشركين شغلوا رسول الله ﷺ عن أربع صلوات يوم الخندق، حتى ذهب من الليل ما شاء الله ـ فأمر بلالاً فأذن ثم أقام فصلى الظهر، ثم أقام فصلى العصر، ثم أقام فصلى المغرب، ثم أقام فصلى العشاء».

أما عن تأخير الصلوات هكذا فلأن صلاة الخوف شرعت في ذات الرقاع التي جزم البخاري أنها بعد الخندق وهكذا بوَّب لها في صحيحه؛ قال الحافظ(الفتح: ٧/٤١٧): «بل الذي ينبغي الجزم به أنها ـ أي ذات الرقاع ـ بعد غزوة بني قريظة، لأنه تقدم أن صلاة الخوف في غزوة الخندق لم تكن شرعت، وقد ثبت وقوع صلاة الخوف في ذات الرقاع، فدل على تأخرها بعد الخندق».

ووقفة قصيرة مع عبارة ابن مسعود «فاشتد ذلك عليّ» تبين لنا ما كان ينطوي عليه قلبه من طاعة الله وخوف من مخالفة أمره، أو التقصير في واحد من الواجبات حتى في ساعة الصدام والجلاد، وهذا أكبر عامل من عوامل النصر، وإن الذي يهمه أمر الصلاة وهو يرى الموت أمامه لا شك يهون عليه كل شيء في الدنيا في سبيل ركيعات يؤديها لله رب العالمين، فكيف بأولئك الذين يستبيحون تأخير الصلوات حتى يفوت وقتها في سبيل مغنم زائل وعرض حقير؟! ودع عنك الذين يستهينون بالصلاة كاملة هل تراهم أهلاً لرحمة الله وتأييده؟!

في غزوة الحديبية:

● «عن عبد الله قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر فلم يجدوا ماءً، فأُتي بتَوْرٍ من ماء، فوضع النبي ﷺ فيه يده وفرّج بين أصابعه، قال: فرأيت الماء يتفجر من بين أصابع النبي ﷺ، ثم قال: (حيَّ على الوضوء والبركة من الله). قال الأعمش: فأخبرني سالم بن أبي الجَعْد قال: قلت لجابر بن عبد الله: كم كان الناس يومئذٍ؟ قال: كنا ألفاً وخمسمائة[٧٥]».

● وبعد أن وصل المسلمون إلى مشارف مكة وصدّهم المشركون عنها لحكمة يريدها الله، قفلوا إلى مدينتهم الطَّيِّبة فأكرمهم الله بنزول القرآن، ولما أدركهم الليل أراد النبي ﷺ أن ينتخب من يحرس القوم، ويروي لنا عبد الله ذلك فيقول: «لما

(٧٥) المسند: رقم ٣٨٠٧، ورواه النسائي والدارمي والطيالسي وعبد الرزاق والبيهقي. وقوله: «كنا ألفاً وخمسمائة» هو الدليل على أن ذلك كان يوم الحديبية، فقد كان عددهم آنذاك كذلك. ومعنى تَوْر: إناء من نحاس أو حجارة.

انصرفنا من غزوة الحديبية قال رسول الله ﷺ: (من يحرسنا الليلة)؟ قال عبد الله: فقلت؛ أنا، حتى عاد مراراً، فقلت: أنا يا رسول الله، قال: (فأنت إذاً). قال: فحرستهم حتى إذ كان وجه الصبح أدركني قول رسول الله ﷺ: (إنك تنام)!! فنمت، فما أيقظنا إلَّا حرُّ الشمس في ظهورنا، فقام رسول الله ﷺ وصنع كما كان يصنع من الوضوء وركعتي الفجر، ثم صلَّى بنا الصبح، فلما انصرف قال: (إن الله عز وجل لو أراد ألَّا تناموا لم تناموا، ولكن أراد أن تكونوا لمن بعدكم، فهكذا لمن نام أو نسي). قال: ثم إنَّ ناقة رسول الله ﷺ وإبل القوم تفرقت، فخرج الناس في طلبها، فجاؤوا بإبلهم، إلَّا ناقة رسول الله ﷺ، فقال عبد الله: قال لي رسول الله ﷺ: (خذ هٰهنا)، فأخذت حيث قال لي، فوجدت زمامها قد التوى على شجرة، ما كانت لتحلّها إلا يَدٌ، قال: فجئت بها النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً، لقد وجدت زمامها ملتوياً على شجرة، ما كانت لتحلّها إلَّا يدٌ. قال: ونزلت على رسول الله ﷺ سورة الفتح: [إنَّا فتحنا لك فتحاً مبيناً][76]».

ويصف ابن مسعود حال النبي ﷺ ساعة نزول الوحي آنذاك، وبعدما جاء له بناقته، فيقول: «وضلّت ناقة رسول الله ﷺ فطلبتها فوجدت حبلها قد تعلّق بشجرة، فجئت بها إلى النبي ﷺ فركب مسروراً، وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي اشتد ذلك عليه، وعرفنا ذاك فيه، قال: فتنحَّى منتبذاً خلفنا، قال: فجعل يغطي رأسه

---

(٧٦) المسند: رقم ٣٧١٠، ورواه الهيثمي (١/٣١٨ - ٣١٩) وعزاه إلى البزار والطبراني في الكبير وأبي يعلى، وقال: فيه عبد الرحمن بن عبد الله المسعودي، وقد اختلط في آخر عمره. وقال ابن كثير في تفسيره (٧/٣٠٩): رواه أحمد وأبو داود والنسائي من غير وجه. وقد جاءت قصة النوم عن بلال أيضاً، فلعلها تكررت والله أعلم.

بثوبه ويشتد ذلك عليه حتى عرفنا أنه قد أنزل عليه، فأتانا فأخبرنا أنه قد أُنزل عليه: [إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً](٧٧)».

في خيبر:

لقد شارك عبد الله المسلمين فتوح خيبر، وعاين نصرة الله لجنده المؤمنين الذين خضدوا شوكة يهود، وأزالوا ما تبقّى في نفوسهم الخبيثة من تفكير في الجمع ضد المسلمين، ويروي لنا في تلك الغزاة واحدة من معجزاته عليه الصلاة والسلام التي تكررت غير ما مرة، فيقول: «كنا نعدّ الآيات بركة وأنتم تعدونها تخويفاً، كنا مع رسول الله ﷺ في سفر فقلّ الماء، فقال: اطلبوا فضلة من ماء، فجاؤوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء ثم قال: (حيّ على الطّهور المبارك والبركة من الله)؛ فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل»(٧٨).

وكان من المواقف العاصفة التي شهدها في تلك الغزوة، ـ ذلك الموقف الخائن الخبيث اللئيم، من هاتيك المرأة اليهودية الماكرة التي قدمت للنبي ﷺ شاة مسمومة، فبقي في قلب عبد الله حتى بعد وفاته ﷺ، ويذهب إلى أنَّ النبي قد مات شهيداً من آثار تلك

---

(٧٧) المسند: رقم ٤٤٢١، ومعنى منتبذاً: منفرداً بعيداً عنا.

(٧٨) رواه البخاري، الفتح: ٥٨٧/٦، والذي يدل على أنَّ ذلك في خيبر ما أورده الحافظ في شرحه عن أبي نُعيم في «الدلائل» عن عبد الله قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر، فأصاب الناسَ عطش شديد، فقال: يا عبد الله التمس لي ماءً، فأتيته بفضل ماء في إداوة» الفتح: ٥٩١/٦.
قلت: وهذا لا يتعارض مع عبارة الحديث: «فجاؤوا بإناء»، إذ يحتمل أنه ﷺ طلب منهم عامة وخصّ ابن مسعود لأنه كان يخدمه، ثم جاؤوا هم قبله بالإناء، والله أعلم.

الشاة، فيقول: «لأن أحلف بالله تسعاً أن رسول الله ﷺ قُتل قتلاً، أحب إليّ من أن أحلف واحدة أنه لم يُقتل، وذلك بأن الله عز وجل اتخذه نبياً وجعله شهيداً»(٧٩).

فتح مكة

وجاء عام ثمانية للهجرة وأهلَّ شهر الصوم الذي أنزل فيه القرآن بمكة وهو يحمل للمسلمين بشريات العودة إلى مكة، ورفع فيه النبي ﷺ لواء التوحيد ليسوق المسلمين لتحطيم الأصنام في قلعة الأوثان، وتثبيت أركان التوحيد إلى يوم الدين.

وأوعب مع النبي ﷺ عشرة آلاف مسلم وساروا في جيش لجب، وسار عبد الله إلى جانب النبي عليه الصلاة والسلام، ودخلوا مكة التي ضجرت أرضها من الأصنام التي أثقلت كاهلها، وكأنها تنتظر الساعة التي تتهاوى فيها هاتيك النُّصُب، وقد أزفت تلك الساعة المنتظرة التي يشخّصها ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: «دخل النبي ﷺ مكة وحول البيت ثلاثمائة وستون نُصُباً، فجعل يطعنُها بعود كان بيده ويقول: [جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً] [جاء الحق وما يبدىء الباطل وما يعيد](٨٠)».

---

(٧٩) المسند: رقم ٣٦١٧، ٣٨٧٣، ورواه الحاكم وعبد الرزاق في المصنف.

(٨٠) رواه البخاري، الفتح: حديث رقم ٤٢٨٧، ٤٧٢٠، ومسلم: رقم ١٧٨١، والترمذي، وأحمد في مسنده: رقم ٣٥٨٤. والنُصُب: هي واحدة الأنصاب، وهو ما ينصب للعبادة من دون الله تعالى، ويطلق النصب ويراد به الحجارة التي كانوا يذبحون عليها للأصنام وليست مرادة هنا. يطعُنُها: بضم العين وبفتحها والأول أشهر. يزهق: يهلك. ما يبدىء الباطل وما يعيد: أي ذهب وزهق واضمحلّ.

في حُنَين:

وبعد فتح مكة انطلق النبي ﷺ بجيش لجب لتأديب ما تبقّى من القبائل التي كانت تفكر بالإغارة على المسلمين، وتوجه تلقاء هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً، واغتر بعض المسلمين بهذا العدد الكبير، وكان مالك بن عوف قد تهيأ في أودية حُنَين وشعابها بمن معه، وما إن وصل المسلمون في عماية الصبح حتى فوجئوا بالعدو يبغتهم، فانكشف المسلمون، وثبت مع النبي ﷺ عدد قليل كان عبد الله بن مسعود واحداً منهم وها هو ذا يتحدث عن ذلك الموقف العصيب فيقول: «**كنت مع رسول الله ﷺ يوم حُنَين، قال: فولّى عنه الناس، وثبت معه ثمانون رجلاً من المهاجرين والأنصار**[٨٢]**، فنكصنا على أعقابنا نحواً من ثمانين قدماً، ولم نولّهم الدُّبُر، وهم الذين أنزل الله عز وجل عليهم السكينة، قال: ورسول الله ﷺ على بغلته يمضي قُدماً، فحادت به بغلته فمال عن السَّرج، فقلت له: ارتفع رفعك الله! فقال: (ناولني كفاً من تراب)، فضرب به وجوههم فامتلأت أعينهم تراباً، ثم قال: (أين المهاجرون والأنصار)؟ قلت: هم أولاء، قال: (اهتف بهم)، فهتفت بهم فجاؤوا وسيوفهم بأيمانهم كأنها الشهب، وولى المشركون أدبارهم**»[٨٣].

وعاد المسلمون إلى نبيهم ﷺ، وشدُّوا على العدو فانكشف أمامهم بجموعه، وولَّوا الأدبار، وغنم المسلمون ما لا يدخل تحت

---

(٨٢) عبارة البيهقي: وبقيتُ معه في ثمانين رجلاً من المهاجرين والأنصار، قدمنا ولم نولِّهم الدبر.

(٨٣) المسند: رقم ٤٣٣٦، ورواه الهيثمي (٦/ ١٨٠) وعزاه إلى البزارِ والطبراني وقال: رجال أحمد رجال الصحيح غير الحرث بن حصيرة وقد وُثِّق. ورواه البيهقي في الدلائل وانظرتفسيرابن كثير: ٤/ ٧١. ومعنى نكصنا: رجعنا وأحجمنا. حادت: مالت.

الحصر، وتحلَّبت أشداق بعض المنافقين لذلك المال الزائل، وتمنَّوا أن يميل إليهم، ورأوا النبي ﷺ يعطي بعض الناس الشيء الكثير يتألف به قلوبهم، فقدحوا في قسمته العادلة، وهذا ما يرويه ابن مسعود الذي استشاط غضباً أن يتكلم أحد من الناس بالنبي المعصوم عليه الصلاة والسلام، فيقول: «لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناساً في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناساً من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة، فقال رجل: والله إنَّ هذه لقسمة ما عُدل فيها، وما أُريد فيها وجه الله، قال: فقلت: والله لأخبرنَّ رسول الله ﷺ قال: فأتيته فأخبرته بما قال، قال: فتغيَّر وجهه حتى كان كالصِّرْف، ثم قال: (فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله)؟! قال: ثم قال: (يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)، قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثاً»[٨٤].

في تبوك:

● ولما جاء عام تسعة تجهَّز النبي ﷺ لغزو الروم استجابة لقول الله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفَّار وليجدوا فيكم غلظة، واعلموا أنَّ الله مع المتَّقين]، وسار عليه الصلاة والسلام في ثلاثين ألف مسلم، وتركوا المدينة وقد نضجت ثمارها وطاب ظلُّها، وآثروا الله والآخرة، وشدَّ ابن مسعود رحله، وصحب

(٨٤) رواه البخاري، الفتح: رقم ٣١٥، ومسلم: رقم ١٠٦٢ واللفظ له، والمسند: رقم ٣٦٠٨، ٣٧٥٩، ٣٩٠٢. والذي تكلم في قسمته ﷺ هو معتّب بن قُشير من بني عمرو بن عوف ـ أحد المنافقين ـ كذا قال الواقدي.
الصِّرف: صبغ أحمر يصبغ به الجلود، قال ابن دريد: وقد يُسمّى الدم أيضاً صِرْفاً، ومعنى لا جرم: لا بدّ، أو حقاً، أو لا محالة.

النبي ﷺ في هذا السفر البعيد، وها هوذا يروي لنا ما حدث معهم في طريقهم فيقول: «لمَّا سار رسول الله ﷺ إلى تبوك، جعل لا يزال الرجل يتخلَّف فيقولون: يا رسول الله تخلَّف فلان! فيقول: (دعوه فإن يكُ فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه)، حتى قيل: يا رسول الله تخلَّف أبو ذر وأبطأ به بعيره! فقال: (دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه)، فتلوَّم[٨٥] أبو ذر بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره، ثم خرج يتبع رسول الله ﷺ ماشياً، ونزل رسول الله ﷺ بعض منازله، ونظر ناظر المسلمين فقال: يا رسول الله إنَّ هذا الرجل ماش على الطريق، فقال رسول الله ﷺ: (كن أبا ذر)! فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: (يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده)[٨٦] وأودع عبد الله تلك الكلمات قلبه، وكرَّت الأعوام والسنون متلاحقة، ورأى فيما بعد مصداق كلمات رسول الله ﷺ.

● ولابن مسعود في غزوة تبوك موقف يدلُّ على النفس الشَّفوف التي كان أعظم شيء عندها أن تفوز برضوان الله عز وجل وأن تلقاه ـ سبحانه ـ على ذلك، ويحدثنا عن ذلك الموقف فيقول: «قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها،

---

(٨٥) تمكَّث وتمهَّل.

(٨٦) البداية والنهاية؛ ٥/٨، تاريخ الطبري: ١٠٧/٣، والخبر له تتمة فيها كيفية وفاة أبي ذر ودفنه سيأتي ذكرها في مكانها المناسب إن شاء الله تعالى، وقد عقب الحافظ ابن كثير على الخبر قائلاً: إسناده حسن ولم يخرِّجوه.

فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البِجَادَيْن المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدلّيانه إليه، وهو يقول: (أدنيا إليَّ أخاكما)، فدلّياه إليه، فلما هيأه لشقّه قال: (اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارضَ عنه)، قال: يقول عبد الله بن مسعود: **يا ليتني كنت صاحبَ الحفرة**»[٨٧] هكذا يتمنى مثل هذه الموتة لا لشيء إلاَّ رغبة في الظفر بدعوة النبي ﷺ!!.

جهاده في عهد أبي بكر وعمر

بيعة الصدّيق:

لحق النبي ﷺ بربه سنة إحدى عشرة للهجرة، وخيَّم على الدنيا صمت مهول، واكتست الدنيا سربالاً مِن الحزن لفقد الحبيب وانقطاع غدوات جبريل وروحاته، وفقدان المعلِّم الأول ﷺ، ولَشَدّ ما كانت لوعة عبد الله عظيمة حيث فقد الآسي والحاني، والمعلم المرشد، السالك بمن يتبعه سبل السلام، ولكنه قضاء الله ولا رادّ لحكمه سبحانه.

وذهب الناس إلى سقيفة بني ساعدة لمبايعة خليفة لرسول الله ﷺ، يسوس الأمة ويتابع مدّ انتشار الإسلام. وينقل عبد الله صورة عن ذلك فيقول: «لما قبض النبي ﷺ قالت الأنصار: منا أمير

(٨٧) سيرة ابن هشام: ٢/ ٥٢٧ ـ ٥٢٨، البداية والنهاية: ١٨/٥. وسمي ذو البجادَيْن بهذا لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره ـ والبجاد: الكساء الغليظ الجافي ـ فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كانَ قريباً منه شق بجاده باثنين، فاتّزر بواحد واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين لذلك، رضي الله عنه.

ومنكم أمير، فأتاهم عمر فقال: يا معشر الأنصار ألستم تعلمون أنَّ رسول الله ﷺ أمر أبا بكر أن يؤمّ الناس؟ قالوا: بلى، قال: فأيكم تطيب نفسه أن يتقدَّم أبا بكر؟! قالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[٨٨]».

مشاركته في حروب الردة:

ما إن دفن رسول الله ﷺ وترامت إلى القبائل أخبار وفاته؛ حتى ارتدت القبائل ومنعت الزكاة، ولسان حال قائلهم ينعق[٨٩]:

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيا لَعبادِ الله ما لأبي بكر؟!

أيورثها بكراً إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر؟!

وعزم الله للصدِّيق على حربهم، حتى يضعهم على الجادة، ويقفهم على الحق، وكان لعبد الله شرف حضور تلك المعارك، ويذكر لنا ابن جرير الطبري مشاركته فيقول: «فعزم الله لأبي بكر على الحق، وقال: لو منعوني عقالاً لجاهدتهم عليه - وكانت عقل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة - فردّهم، فرجع وفد مَنْ يلي المدينة من المرتدة إليهم، فأخبروا عشائرهم بقلّة أهل المدينة، وأطمعوهم فيها، وجعل أبو بكر بعدما خرج الوفد على أنقاب

(٨٨) المسند: رقم ٣٧٦٥، ٣٨٤٢، ورواه النسائي والحاكم والهيثمي (١٨٣/٥) وعزاه إلى أبي يعلى وقال: فيه عاصم بن أبي النُّجود، وهو ثقة وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح. وفي البداية والنهاية (٢٤٧/٥) زاد ابن كثير: ورواه علي بن المديني عن حسين بن علي وقال: صحيح لا أحفظه إلاَّ من حديث زائدة عن عاصم. وفي جامع الأصول: ٥٩٥/٨: رواه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(٨٩) تاريخ الطبري: ٣ / ٢٤٦.

المدينة نفراً: علياً والزبير وطلحة وعبد الله بن مسعود[٩٠].

وبعد قتال مرير وتضحيات جسام هزم الله المرتدين، ونصر المسلمين، وجاءت الصدقات إلى الصدِّيق، يقول الطبري: «وطرقت المدينة صدقات نفر: صفوان، الزبرقان، عدي. صفوان، ثم الزبرقان، ثم عدي: صفوان في أول الليل، والثاني في وسطه، والثالث في آخره. وكان الذي بشّر بصفوان سعد بن أبي وقّاص، والذي بشّر بالزبرقان عبد الرحمن بن عوف، والذي بشّر بعديّ عبد الله بن مسعود»[٩١].

في اليرموك:

انتصر جند الإسلام في معاركهم، ووصلت جحافل خيولهم إلى عَرْشَي كسرى وقيصر فأتت على بنيانهما من القواعد، وكانت وقعة اليرموك الخالدة التي زلزلت ما تبقى من عرش قيصر، ولقد حضرها ابن مسعود كما روى الطبري، قال: «وكان القاضي أبو الدرداء، وكان القاصّ أبو سفيان بن حرب، وكان على الطلائع قُباث بن أشيم وكان على الأقباض عبد الله بن مسعود»[٩٢].

---

(٩٠) تاريخ الطبري: ٣/٢٤٤ - ٢٤٥. ومعنى عقالاً: الحبل الذي يُعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة، لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع القبض بالرباط. وقيل: أراد ما يساوي عقالاً من حقوق الصدقة. وقيل: إذا أخذ المصدِّق أعيان الإبل. قيل: أخذ عقالاً، وإذا أخذ أثمانها قيل: أخذ نقداً. وقيل: أراد بالعقال صدقة العام.

(٩١) تاريخ الطبري: ٣ / ٢٤٧.

(٩٢) تاريخ الطبري: ٣ / ٣٩٧. والاقباض: جمع قَبَض - بفتحتين - وهو ما جمع من الغنائم.

حضوره فتح حمص ثم توفيده إلى الكوفة:

ولقد شارك ابن مسعود في فتح حمص، وكان ذلك في فصل الشتاء، حيث حاصرها المسلمون وطمع أهلها بأن يسأم المسلمون من طول الحصار، فوجدوا منهم الصبر والمصابرة، حتى نزل أهلها على الصلح، وأن يأخذ المسلمون أنصاف دورهم، وعلى أن يتركوا أموال الروم وبنيانهم، لا ينزلونه عليهم، وكتب أبو عبيدة إلى الفاروق بالفتح كما روى الطبري، قال: «وكتب إلى عمر بالفتح، وبعث بالأخماس مع عبد الله بن مسعود وقد وفّده، وأخبره خبر هرقل، وأنَّه عبر الماء إلى الجزيرة، فهو بالرهاء ينغمس أحياناً ويطلع أحياناً، فقدم ابن مسعود على عمر فردّه، ثم بعثه بعد ذلك إلى سعد بالكوفة[٩٣].

* * *

(٩٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٦٠١



الفصل الثالث

ملازمته للنبي ﷺ وخدمته له

- إذنُ النبي ﷺ له بالدخول عليه
- أخذه القرآن من في النبي ﷺ
- طلب النبي ﷺ منه أن يقرأ عليه القرآن
- أخذه للحديث
- ملازمة في الصباح والمساء
- مع النبي ﷺ في صلاته
- تصحيح النبي ﷺ لعبد الله صلاته
- مع النبي ﷺ في صلاة الليل
- زيارته القبور مع النبي ﷺ
- خدمته للنبي ﷺ في بيته
- مع النبي ﷺ في أسفاره
- ما قيل فيه لكثرة دخوله على النبي ﷺ
- استماع النبي ﷺ لخطبته
- مع النبي ﷺ في حجة الوداع
- آخر أيامه مع النبي ﷺ وحضوره وفاته

ملازمته للنبي ﷺ وخدمته له

أسلم عبد الله بن مسعود وهو فتىً حَدَث، وكان صافي السريرة، متوقِّد الذهن، مجدّاً مجتهداً، ذكياً ألمعياً. ولقد قرعت سمعه آيات القرآن الكريم، ولفت نظره أول سورة نزلت وهي قوله تعالى: ﴿ اقرأ باسم ربِّك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم ﴾. ولاحظ في هذه الآيات - موجزة المبنى معجزة المعنى - التأكيد على العلم بأدواته وأساليبه: اقرأ، علّم، القلم. وأدرك بفطنته النادرة أن من أكبر أهداف هذا الدين العلمَ؛ بل هو أحد أركانه ودعائمه، ولاحظ أنه لكي يحصّل ذلك لابد من ملازمة النبي ﷺ لأنه هو الذي يتلقَّى الوحي من جهة، ويفترّ ثغره الشريف عن كلمات جامعات من جهة ثانية - وهذان المصدران مع فعل النبي ﷺ، قوام الإسلام ومرجعه الذي لا مرجع له سواه.

وأخذ عبد الله نفسَه بالعزيمة، وحملها على ملازمة رسول الله ﷺ، فحفظ القرآن عنه، وأخذ الحديث منه، وازداد بذلك شغفاً وعليه إقبالاً؛ والنبي ﷺ يلمح ذلك من ابن مسعود، فأحب أن ييسِّر له السبيل، ويوسع له الطريق، ويعدد له المنافذ؛ ليحقق ما يصبو إليه.

إذن النبي ﷺ له بالدخول عليه:

عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «قال لي رسول الله ﷺ: **(إذنك عليّ أن يرفع الحجاب، وأن تستمع سِوادي حتى أنهاك)**[1]».

---

(1) رواه مسلم: رقم ٢١٦٩، وانظر جامع الأصول: ٥٨٧/٦، والمسند: رقم =

أخذه القرآن من في النبي ﷺ :

أخذ عبد الله يكثر من ملازمة النبي عليه الصلاة والسلام في حلّه وترحاله، ولقد كان سروره عظيمًا بإذنه له بالدخول عليه، وركز جلّ اهتمامه على حفظ القرآن وأخذه عن رسول الله ﷺ دونما واسطة، ويحدثنا عن واحد من مواقفه تلك فيقول: «بينا أنا مع النبي ﷺ في حَرْث وهو متكىء على عسيب، إذ مر اليهود، قال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال: ما رابكم[2] إليه، وقال بعضهم: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه، فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي ﷺ فلم يردّ عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي، فلما نزل الوحي قال: ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ﴾[3].

ولم يكتفِ بالحفظ عنه ﷺ، بل كان يقرأ عليه ليتأكّد من صحة حفظه، وإذا أخطأ رده النبي للصواب؛ وهذا ما حدّث به عن نفسه فقال: «قرأت على النبي ﷺ [فهل من مذِّكر]؛ فقال النبي ﷺ: [فهل من مدَّكر][4]».

٣٦٨٤. سِوادي: المراد به السرار، وهو السر والمساررة، يقال: ساودت الرجل مساودة إذا ساررته، قالوا: وهو مأخوذ من إدناء سوادك من سواده عند المساررة، أي شخصك من شخصه، والسواد: اسم لكل شخص.

(٢) أي ما دعاكم إلى سؤاله، أو ما شكككم فيه حتى احتجتم إلى سؤاله؟.

(٣) البخاري، الفتح، رقم ١٢٥، ٤٧٢١، مسلم: رقم ٢٧٩٤، المسند: رقم ٣٦٨٨. وظاهر الروايات الأخرى تبين أن ذلك كان بالمدينة، والآية هذه مكية، ويمكن الجمع بالقول بتعدد النزول، ويحمل سكوته ﷺ في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك، انظر الفتح في المكان السابق، وتفسير ابن كثير: ٥/١١١-١١٢.

(٤) البخاري، الفتح: رقم ٤٨٧٤.

ولقد حفظ ذلك عن رسول الله ﷺ، وأودعه قلبه الذكي، حتى إذا ما استدرك على حفظه أحدهم بين له وجه الحق في الأمر، يروي الأسود بن يزيد عن عبد الله قال: «أقرأني رسول الله ﷺ: [ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدَّكر]، فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، [مدّكر] أو [مذّكر]؟! قال: أقرأني رسول الله ﷺ: [مدّكر](٥)».

وهكذا، بقي ابن مسعود ملازماً للنبي ﷺ حتى أخذ عنه معظم سور القرآن مشافهة، وقد تحدث بذلك فقال: «والله لقد أخذتُ من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحِلق أسمع ما يقولون، فما سمعت رادّاً يقول غير ذلك»(٦).

طلب النبي ﷺ منه أن يقرأ عليه القرآن:

عن عبد الله قال: «قال لي رسول الله ﷺ: (اقرأ عليًّ)، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟! قال: (إني أشتهي أن أسمعه من غيري)، قال: فقرأت النساء حتى إذا بلغت: [فكيف إذا جئنا من كلٍّ أمةٍ بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً]، قال لي: (كُفَّ) ـ أو (أمسك) ـ فرأيت عينيه تذرفان»(٧).

---

(٥) البخاري، الفتح: رقم ٤٧٨٠، مسلم: رقم ٨٢٣، المسند: رقم ٣٧٥٥.

(٦) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٠٠، مسلم: رقم ٢٤٦٢ بنحوه، المسند: رقم ٣٦٩٧، وغيرها. وشقيق هو ابن سلمة احد كبار تلاميذ ابن مسعود.

(٧) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٥٥، ومسلم: رقم ٨٠٠، والمسند: رقم ٣٥٥٠، ٣٥٥١.

قال الحافظ ابن حجر: والذي يظهر أنه بكى رحمة لأمته، لأنه علم أنه لا بدّ أن يشهد عليهم بعملهم، وعملهم قد لا يكون مستقيمًا فقد يفضي إلى تعذيبهم، والله أعلم.

وهذا منه ﷺ على سبيل التواضع، فهو يستمع لتلامذته الذين تخرجوا من مدرسته، ويعلمهم بذلك أن يحذوا حذوه، ومن جهة ثانية يلفت أنظار الصحابة إلى ما عند عبد الله من قرآن وصوت نديّ مؤثر.

أخذه للحديث:

كان عبد الله مع اهتمامه الكبير بالقرآن الكريم وإعطائه الأولوية في الاهتمام؛ كان متيقظاً إلى معين ثرٍّ آخر من فم النبي ﷺ الذي لا ينطق إلَّا حقاً، ولا يقول إلَّا صدقاً ـ لذا كان يملأ الوقت إمّا بأخذ القرآن، وإن لم يكن ذلك فبالحديث الشريف، فكان يسأل النبي ﷺ عن الحلال والحرام، وعن الأوامر والنواهي، وعن فضائل الأعمال وكبائر الذنوب، وعن فروع الإسلام وأصوله، ويودع كل ذلك في قلب يقظ فطن.

● فهو تارة يسأل عن الفضائل وجميل الخصال فيقول: «سألت رسول الله ﷺ، قلت: يا رسول الله، أيُّ العمل أفضل؟ قال: (الصلاة على ميقاتها). قلت: ثم أيّ؟ قال: (ثمّ بر الوالدين). قلت: ثم أيّ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). فسكتّ عن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني»[٨].

● ومرة يسأله عن الظلم فيقول: «قلت: يا رسول الله، أيُّ الظلم أعظم؟ قال: (ذراع من الأرض ينتقصه من حق أخيه، فليست حصاة من الأرض أخذها إلّا طُوِّقها يوم القيامة إلى قعر الأرض، ولا يعلم قعرها إلَّا الذي خلقها)[٩]».

(٨) البخاري، الفتح: رقم ٥٢٧، ٢٧٨٢، مسلم: رقم ٨٥، والترمذي والنسائي والمسند: رقم ٣٨٩٠، وغيرهم.

(٩) المسند: رقم ٣٧٦٧، ورواه الهيثمي (٤/١٧٤ ـ ١٧٥) وعزاه الى الطبراني في الكبير، وقال: إسناد أحمد حسن.

● ثم يوسع نطاق استفساره عن الكبائر فيقول: «قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم! قال: (أن تجعل لله نداً وهو خلقك). قلت: ثم أيّ؟ قال: (أن تقتل ولدك خشية أن يأكل معك). قلت: ثم أي؟ قال: (أن تزاني حليلة جارك)، وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: [والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر][10]».

ملازمة في الصباح والمساء:

عن عمران بن حصين عن عبد الله بن مسعود قال: «أكرينا[11] ذات ليلة عند رسول الله ﷺ ثم غدونا عليه، فقال: (عرضت عليّ الأنبياء وأتباعها بأجمعها، فيمرّ عليّ النبي، والنبي في العصابة، والنبي في الثلاثة، والنبي ليس معه أحد ـ وتلا قتادة[12] هذه الآية: [أليس منكم رجل رشيد]؟ ـ قال: حتى مرَّ عليّ موسى بن عمران في كبكبة[13] من بني إسرائيل، قال: قلت: ربِّ، من هذا؟ قال: هذا أخوك موسى بن عمران ومن معه من بني إسرائيل، قال: قلت ربِّ، فأين أمّتي؟ قال: انظر عن يمينك في الظِّراب[14]، قال: فإذا وجوه الرجال، قال: قال: أرضيت؟ قال: قلت: قد رضيت، ربِّ. قال: انظر إلى الأفق عن يسارك، فإذا وجوه الرجال، قال: أرضيت؟ قلت: رضيت، ربِّ. قال: فإن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب). قال: وأنشأ عكاشة بن محصن من بني أسد ـ قال سعيد: وكان بدرياً ـ قال: يا نبي الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: فقال:

(١٠) البخاري، الفتح: رقم ٦٠٠١، ٦٨١١، مسلم: ٨٦، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والمسند: رقم ٣٦١٢. ومعنى حليلة جارك: هي زوجته، سميت بذلك لكونها تحلّ له، تزاني: أي تزني بها برضاها.

(١١) أطلنا وأخرنا.

(١٢) أحد رجال السند.

(١٣) كبكبة بضم الكافين وفتحهما: الجماعة المتضامة من الناس.

(١٤) الظراب: بكسر الراء ـ الجبال الصغار.

(اللهم اجعله منهم). قال: أنشأ رجل آخر قال: يا نبي الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: (سبقك بها عكاشة). قال: فقال رسول الله ﷺ: (فـإن استطعتم ـ فـداكم أبي أمي ـ أن تكونـوا من أصحاب السبعين فافعلوا، وإلَّا فكونوا من أصحاب الظِّراب، وإلَّا فكونوا من أصحاب الأفق، فإني قد رأيت ناساً كثيراً قد تأشَّبوا[15] حوله. ثم قال: إنيٍّ لأرجو أنّ تكونوا ربع أهل الجنة، فكبَّرنا، ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، قال: فكبَّرنا، قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة، قال: فكبَّرنا، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: [ثُلَّة من الأوَّلين وثُلَّة من الآخرين]. قال: فقلنا بيننا: من هؤلاء السبعون ألفاً؟ فقلنا: هم الذين ولدوا في الإسلام ولم يشركوا، قال: فبلغه ذلك فقال: (بل هم الذين لا يكتوون ولا يَسْتَرقون ولا يتطيَّرون وعلى ربهم يتوكلون)[16]».

مع النبي ﷺ في صلاته:

وكان من أبرز اهتمامات ابن مسعود ملازمة النبي في صلاته، وتعلُّم كيفيتها وفرائضها وسننها، وكيفية الدخول بها والخروج منها. وإذا ما تتبع المرء أحاديث عبد الله في الصلاة وجد عجباً من العجب، ولكي نقف على ذلك لا بد من متابعة مروياته عن النبي ﷺ في أفعال الصلاة:

---

(١٥) أي اجتمعوا اليه وأطافوا به.

(١٦) أخرجه ابن أبي حاتم، والحاكم في المستدرك بطوله بنحوه وقال: هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة، وقال الذهبي: صحيح، انظر حياة الصحابة: ٤٧٣/٤ ـ ٤٧٥. وقال ابن كثير في تفسيره (١٤/٨): وكـذا رواه ابن جرير من طريقين آخرين عن قتادة به نحوه، ولهذا الحديث طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها. وهو في المسند: رقم ٣٨٠٦ بنحو هذا السياق، وقال الهيثمي (٤٠٥/١٠ ـ ٤٠٦): أحد أسانيد أحمد والبزار رجاله رجال الصحيح.

● روى النَّسائي بسنده عن عبد الله قال: «كنا لا ندري ما نقول في كل ركعتين، غير أن نسبِّح ونكبِّر ونحمد ربنا، وإنَّ محمداً ﷺ عُلِّم مفاتح الخير وخواتمه، فقال: (إذا قعدتم في كل ركعتين فقولوا: التحيَّات لله والصلوات والطَّيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إلَه إلَّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)[17].

وروى الإمام أحمد بسنده عنه قال: «علَّمني رسول الله ﷺ التشهُّد كفِّي بين كفَّيه، كما يعلِّمني السورة من القرآن[18]...».

● وفي تكبيرات الانتقال من ركن لآخر يقول عبد الله: «أنا رأيت رسول الله ﷺ يكبِّر في كل خفض ورفع، وقيام وقعود، ويسلِّم عن يمينه وعن يساره، حتى يُرى بياض خدِّيه - أو خدِّه - ورأيت أبا بكر وعمر يفعلان ذلك[19]».

● ويصف لنا ما يقوله النبي ﷺ في سلامه بصلاته، فعنه: «أنَّ رسول الله ﷺ كان يسلِّم عن يمينه: السلام عليكم ورحمة الله؛ حتى يُرى بياض خده الأيمن، وعن يساره: السلام عليكم ورحمة الله؛ حتى يُرى بياض خده الأيسر[20]».

● وعن انصرافه ﷺ من صلاته يروي لنا عبد الله فيقول: «لا

---

(١٧) انظر الموضوع بطوله في جامع الأصول: ٥/٣٩٦ - ٣٩٨.

((١٨) المسند: رقم ٣٩٣٥.

(١٩) المسند: رقم ٣٦٦٠، ورواه الترمذي - مفرقاً - والنسائي والبيهقي والطيالسي وغيرهم.

(٢٠) هكذا رواه البيهقي في السنن: ١/١٧٧، وبنحوه أبو داود والترمذي والنسائي، وقال الشيخ الأرناؤوط في جامع الأصول (٥/٤٠٩ - ٥١٠): حديث صحيح.

يجعلنّ أحدكم للشيطان شيئاً من نفسه ولو جزءاً، لا يرى إلَّا أنَّ حقاً عليه أن لا ينصرف إلَّا عن يمينه، أكثر ما رأيت رسول الله ﷺ ينصرف عن شماله[21]».

● بل إنه ينقل لنا سهوَ النبي ﷺ في صلاته ذات مرة، قال: «صلى النبي ﷺ فزاد أو نقص ـ شك بعض الرواة والصحيح أنه زاد ـ فلما سلَّم قيل له: يا رسول الله، أحَدَث في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صلَّيت كذا وكذا، قال: فثنى رجليه، واستقبل القبلة وسجد سجدتين ثم سلَّم، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «إنه لو حدث بالصلاة شيء أنبأتكم به، ولكني إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكِّروني، وإذا شكَّ أحدكم في صلاته، فليتحرَّ الصواب، فليبني عليه، ثم يسجد سجدتين[22]».

وهكذا نلاحظ أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه يتابع النبي عليه الصلاة والسلام في صلواته كلها، فيأخذ عنه فروضها وسننها، واجباتها وأبعاضها، وكل أمورها.

تصحيح النبي ﷺ لعبد الله صلاته:

قال عبد الله رضي الله عنه: «رآني رسول الله ﷺ قد وضعت

---

(21) البخاري، الفتح: رقم ٨٥٢، ومسلم: رقم ٧٠٧، وأبو داود والنسائي، والمسند: رقم ٣٦٣١، وانظر جامع الأصول: ٦/٢٥٥. ومعنى لا يرى إلَّا أن حقاً عليه: لا يعتقد إلا وجوب الانصراف عن يمينه.

(22) الحديث له روايات كثيرة، وقد رواه الخمسة ـ وانظر جامع الأصول: ٦/٥٤١ ـ ٥٤٣. وقال الشافعي رحمه الله معلِّقاً على تكلم النبي ثم سجوده للسهو: وذلك لأنه إنما ذكر السهو بعد السلام، فسأل، فلما استيقن أنه قد سها، سجد سجدتي السهو، ونحن نأخذ بهذا. الأم: ١/١٧١.

شمالي على يميني في الصلاة؛ فأخذ بيميني فوضعها على شمالي[٢٣]».

مع النبي ﷺ في صلاة الليل:

لم يكن ابن مسعود رضي الله عنه يكتفي بحضور الجماعة مع رسول الله ﷺ، بل كان يشهد معه صلاة الليل، ويحافظ على ذلك، ويحدثنا عن واحدة من تلك الليالي وما جرى له فيها، فيقول: «**صلَّيت مع النبيِّ ﷺ ذات ليلة، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمرٍ سوءٍ! قلنا: وما هممت به؟ قال: هممت أن أجلس وأدعه**[٢٤]».

زيارته القبور مع رسول الله ﷺ:

عن عبد الله قال: «خرج رسول الله ﷺ يوماً إلى المقابر فاتبَّعناه، فجاء حتى جلس إلى قبر منها، فناجاه طويلاً ثم بكى، فبكينا لبكائه، فقال: (إنَّ القبر الذي جلست عنده قبر أمِّي، وأستأذنت ربي في الدُّعاء لها فلم يأذن لي، فأنزل عليِّ: [ما كان للنبي والذين آمنوا معه أن يستغفروا للمشركين][٢٥]».

خدمته للنبي ﷺ في بيته:

لم يقف عبد الله بن مسعود عند أخذ العلم من رسول الله ﷺ،

---

(٢٣) رواه أبو داود والنسائي - قال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. جامع الأصول: ٥/ ٣٢٠.

(٢٤) رواه البخاري، الفتح، رقم ١١٣٥، ومسلم: ٧٧٣، والمسند: رقم ٣٦٤٦. قال الحافظ: وقد كان ابن مسعود قوياً محافظاً على الاقتداء بالنبي ﷺ، وما همّ بالقعود إلَّا بعد طول كثير ما اعتاده.

(٢٥) أخرجه الحاكم وابن أبي حاتم، وأورده الحافظ في فتحه عند شرح آية: ﴿إنَّك لا تهدي من أحببت﴾ في الحديث رقم ٤٧٧٢، وساق طرقاً أخرى للحديث وقال: فهذه طرق يعضد بعضها بعضاً، وأورده ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٥٩) عند كلامه على قوله تعالى: ﴿ما كان للنبي والذين آمنوا..﴾.

بل كان يقوم على خدمته وشؤونه، لأنه يعلم أن كل أخذ لا بد له من عطاء، وكل إنعام لا بد له من شكر، وهذا طرف من خدمته له ﷺ:

● فكان يخدمه في بيته، ويروي لنا ما حدث معه ذات مرة فيقول: «**اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثر في جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه وقلت: يا رسول الله، ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟** فقال رسول الله ﷺ: (ما لي وللدنيا؟ ما أنا والدنيا؟ إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظلَّ تحت شجرة، ثم راح وتركها)[٢٦]».

● وروى ابن سعد بسنده قال: «**كان عبد الله يستر رسول الله ﷺ إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويمشي معه في الأرض وحشاً**»[٢٧].

● حتى لقد كان يخدمه في ذهابه إلى الخلاء، وهذا ما حدَّث به رضي الله عنه فقال: «أتى النبي ﷺ الغائط، فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين، والتمست الثالث فلم أجده، فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين وألقى الروثة، وقال: (إنها رِكْسٌ)[٢٨]».

● بل ويخدمه في ما هو أبعد من ذلك فهذا ابن سعد يروي لنا في طبقاته فيقول: «**كان عبد الله يلبس رسول الله ﷺ نعليه، ثم يمشي أمامه بالعصا، حتى إذا أتى مجلسه نزع نعليه، فأدخلهما في ذراعيه**

---

(٢٦) رواه الترمذي وأحمد في المسند: رقم ٣٧٠٩، وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن صحيح، وانظر تفسير ابن كثير (٨/٤٤٧)، والترغيب والترهيب: ٤/١٩٨.

(٢٧) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٣، ومعنى وحشاً: وحده ليس معه غيره.

(٢٨) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي وقال النسائي: الركس: طعام الجن. وانظر جامع الأصول: ٧/١٤٤. وقال ابن الأثير (النهاية: ٢/٢٥٩): ركس: هو شبيه المعنى بالرجيع، يقال: ركست الشيء وأركسته إذا رددته ورجعته.

وأعطاه العصا، فإذا أراد رسول الله ﷺ أن يقوم ألبسه نعليه ثم مشى بالعصا أمامه، حتى يدخل الحجرة قبل رسول الله ﷺ»(٢٩).

مع النبي ﷺ في أسفاره:

قال ابن سعد: «كان عبد الله بن مسعود صاحبَ سواد رسول الله ﷺ - يعني سرَّه - ووساده - يعني فراشه - وسواكه، ونعليه وطهوره، وهذا يكون في السَّفر»(٣٠).

ولكن أبا عبد الرحمن رضي الله عنه ما كان يكتفي بشرف خدمته ﷺ، بل كان يكتسب علمًا ويزداد فقهاً في هاتيكِ الأسفار، ولقد روى لنا مشاهد عظيمة، ونقل خلالها أحكاماً جليلة وقعت إبّان سفره معه ﷺ، ولو لم يكن معه آنذاك لفاته خير كثير.

● فعنه رضي الله عنه «أنَّ رسول الله ﷺ كان يصوم في السفر ويفطر، ويصلي ركعتين لا يدعهما، يقول: لا يزيد عليهما - يعني الفريضة -»(٣١).

● وعنه أيضاً قال: «بينما نحن مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، سمعنا منادياً ينادي: الله أكبر - الله أكبر، فقال نبي الله ﷺ: (على الفطرة)، فقال: أشهد أن لا إله إلَّا الله، فقال نبي الله ﷺ: (خرج من النار)، قال: فابتدرناه، فإذا هو صاحب ماشية

---

(٢٩) طبقات ابن سعد: ١٥٣/٣، سير أعلام النبلاء: ٣٣٧/١، صفة الصفوة: ٣٩٧/١.

((٣٠) طبقات ابن سعد: ١٥٣/٣.

(٣١) المسند: رقم ٣٨١٣، ورواه الهيثمي (١٥٨/٣ - ١٥٩) وعزاه إلى أبي يعلى والبزار بنحوه، وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

أدركته الصلاة فنادى بها[٣٢]».

● ويروي موقفاً آخر فيقول: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته، فرأينا حُمَّرة معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمَّرة فجعلت تُعَرِّش، فلما جاء رسول الله ﷺ قال: (من فجع هذه بولدها؟ رُدُّوا إليها ولدها!!)، ورأى قرية نمل قد أحرقناها فقال: (من أحرق هذه)؟ قلنا: نحن، قال: (إنَّه لا ينبغي أن يعذِّب بعذاب النار إلَّا ربُّ النَّار)[٣٣]».

وهكذا فما كانت مصاحبة ابن مسعود للنبي ﷺ في أسفاره للمتعة وتزجية الوقت، بل كانت خدمة له، وتعلماً منه، وتفقهاً به، ومن ثم التزام ما سمع، وتطبيق ما عقل، وتبليغه للناس.

ما قيل فيه لكثرة دخوله على النبي ﷺ:

ولكثرة دخوله على النبي ﷺ ولزومه له؛ حَسِبَه بعض الصحابة الذين قدموا المدينة منذ عهد قريب بأنه واحد من أهل بيته عليه الصلاة والسلام، فهذا أبو موسى الأشعري رضي الله عنه يقول: «**قدمت أنا وأخي من اليمن، فمكثنا حيناً ما نرى إلَّا أنَّ عبد الله بن مسعود رجل من أهل بيت النبي ﷺ، لما نرى من دخوله**

---

(٣٢) المسند: رقم ٣٨٦١، ورواه الهيثمي (٣٣٤/١) وعزاه إلى أبي يعلى والطبراني في الكبير وقال: رجال أحمد رجال الصحيح.

(٣٣) أخرجه أبو داود، قال الشيخ الأرناؤوط: وهو حديث صحيح، وبنحوه في المسند: رقم ٤٠١٨، ورواه الهيثمي (٤١/٤) وقال: رجاله رجال الصحيح. والحمّرة: ضرب من الطيور في قدِّ العصفور، يعرّش، يقال: عرّش الطائر اذا رفرف، وذلك بأن يرخي جناحيه ويدنو من الأرض ليسقط ولا يسقط. قرية نمل: مساكنها. وانظر جامع الأصول: ٥٢٨/٤ - ٥٢٩.

ودخول أمه على النبي ﷺ»[٣٤].

استماع النبي ﷺ لخطبته:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة خفيفة، فلما فرغ من خطبته قال: (يا أبا بكر، قم فاخطب)، فقصّر دون رسول الله ﷺ، فلما فرغ من خطبته قال: (يا عمر، قم فاخطب)، فقام فقصّر دون رسول الله ﷺ، ودون أبي بكر، فلما فرغ من خطبته قال: (يا فلان، قم فاخطب)، فشقّق القول، فقال له رسول الله ﷺ: (اسكت ـ أو: اجلس ـ فإنَّ التشقيق من الشيطان، وإنَّ البيان من السحر) وقال: (يا ابن أمِّ عبد، قم فاخطب)، فقام ابن أمِّ عبد، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يا أيهُّا الناس، إنَّ الله عز وجل ربنا، وإن الإسلام ديننا، وإنَّ القرآن إمامنا، وإن البيت قبلتنا، وإن هذا نبينا ـ وأومأ بيده إلى النبي ﷺ ـ، رضينا ما رضي الله تعالى لنا ورسوله، وكرهنا ما كره الله تعالى لنا ورسوله؛ فقال النبي ﷺ: **(أصاب ابن أمِّ عبد، أصاب ابن أم عبد وصدق، رضيت بما رضي الله تعالى لي ولأمتي وابنُ أم عبد)**[٣٥]».

---

(٣٤) البخاري، الفتح: رقم ٧٣٦٣، مسلم: رقم ٢٤٦٠، سير أعلام النبلاء: ٣٣٦/١.

(٣٥) أخرجه الطبراني وقال الهيثمي (٢٩٠/٩): رجاله ثقات إلاَّ أن عبيد الله بن عثمان بن خُثيم لم يسمع من أبي الدرداء. وانظر حياة الصحابة: ٣١٨/٤، وسير أعلام النبلاء: ٣٤٦/١. قال الذهبي: إسناده منقطع. قلت: وجاء في سير أعلام النبلاء (٣٤٣/١) موصولاً عن زيد بن وَهْب عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: (رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد) ومعنى شقق: تطلّب فيه ليخرجه أحسن مخرج.

مع النبي ﷺ في حجة الوداع:

صحب عبد الله النبي ﷺ في حجة الوداع - ولم يحجَّ النبيُّ غيرَها - وأخذ عنه المناسك والتزمها في حجِّه في السنوات التالية التزاماً عجيباً، ولقد شهد هنالك مواقف جليلة، وروى واحدة من الخطب الجامعة التي نطق بها النبي ﷺ، فعنه قال: «قام رسول الله ﷺ، وهو على ناقته المخضرمة(٣٦) بعرفات، فقال: (أتدرون أيّ يوم هذا، وأيّ شهر هذا، وأيّ بلد هذا)؟ قالوا: هذا بلد حرام - وشهر حرام - ويوم حرام، قال: (ألاَ وإنَّ أموالكم ودماءكم عليكم حرام، كحرمة شهركم هذا، في بلدكم هذا، في يومكم هذا، ألاَ وإني فَرَطكم(٣٧) على الحوض، وأكاثر بكم الأمم، فلا تسوّدوا وجهي. ألاَ وإني مستنقذ أناساً، ومستنقَذ مني أناس، فأقول: يا ربّ، أصحابي، فيقول: إنك لا تدري ما أحدثوا(٣٨) بعدك)(٣٩)».

ولقد حفظ عبد الله عن النبي ﷺ شعائر الحج، وأودع فؤاده الفَطِن كل أدعيتها وكيفية تأديتها، وثمّةَ مشهد يدل على ذلك؛ منها ما يرويه تلميذه عبد الله بن سَخْبرة فيقول: «غدوت مع عبد الله بن مسعود من مِنى إلى عرفات، فكان يلبِّي - قال: وكان عبد الله رجلاً آدَمَ، له ضِفْران، عليه مسحة أهل البادية - فاجتمع عليه غوغاء الناس، قالوا: يا أعرابي إنَّ هذا ليس يومَ تلبية، إنمَّا هو يوم تكبير!! قال: فعند ذلك التفت إلي فقال: أجهل الناس أم نسُوا؟! والذي

---

(٣٦) هي التي قطع طرف أذنها.
(٣٧) متقدمكم.
(٣٨) هم المرتدون.
(٣٩) أخرجه ابن ماجة وقال هذا الحديث غريب، وأحمد بنحوه، انظر حياة الصحابة: ٤/١٩٨ - ١٩٩.

بعث محمداً ﷺ بالحق، لقد خرجت مع رسول الله ﷺ فما ترك التلبية حتى رمى جمرة العقبة، إلاَّ أن يخلطها بتكبير أو تهليل[٤٠]».

آخر أيامه مع النبي ﷺ وحضوره وفاته:

قال عبد الله رضي الله عنه: «دخلت على رسول الله ﷺ وهو يوعك[٤١]، فمسسته بيدي، فقلت: يا رسول الله، إنَّك لتوعك وَعْكاً شديداً؟ فقال رسول الله ﷺ: (أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم)، قال: فقلت: ذلك أنَّ لك أجرين؟! فقال رسول الله ﷺ: (أجل)، ثم قال رسول الله ﷺ: (ما من مسلم يصيبه أذىً من مرض فما سواه، إلاَّ حطّ الله به سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها)[٤٢]».

وثقل المرض برسول الله ﷺ، وجمع الصحابة في بيت عائشة رضي الله عنها، وكان عبد الله في مقدمتهم، ملتاع القلب، كَمِدَ النفس أن ينقطع عن صحبة النبي، وهذا ما يرويه لنا في هذه الصورة الناطقة البليغة، فيقول: «نُعي إلينا حبيبنا ونبينا ـ بأبي هو ونفسي له الفداء ـ قبل موته بستٍ[٤٣]، فلما دنا الفراق جمعنا في بيت أمنا عائشة فنظر إلينا فدمعت عيناه ثم قال: (مرحباً بكم، وحيّاكم الله، وحفظكم الله، آواكم الله، ونصركم الله، رفعكم الله، هداكم الله، رزقكم الله، وفقكم الله، سلَّمكم الله، قبلكم الله. أوصيكم بتقوى الله، وأوصي الله بكم، وأستخلفه عليكم، إني لكم نذير

---

(٤٠) المسند: رقم ٣٩٦١، وسيأتي الكلام عن حجه بالتفصيل في فصل «الرباني» إن شاء الله تعالى.

(٤١) الوعك: الحمى، وقيل: ألمها ومغثها.

(٤٢) البخاري، الفتح: رقم ٥٦٤٨، مسلم: ٢٥٧١، المسند: رقم ٣٦١٨.

(٤٣) أي ست ليال.

مبين، ألاَّ تعلو على الله في عباده وبلاده، فإنَّ الله قال لي ولكم: ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾، وقال: ﴿ أليس في جهنم مثوىً للمتكبرين ﴾؟! ثم قال: (قد دنا الأجل، والمنقلب إلى الله، وإلى سِدْرة المنتهى، وإلى جنّة المأوى، والكأس الأوفى، والرفيق الأعلى) ـ أحسبه قال ـ فقلنا: يا رسول الله، فمنِ يغسلك إذاً؟ قال: (رجال أهل بيتي الأدنى فالأدنى). قلنا: ففيمَ نكفِّنك؟ قال: (في ثيابي هذه إن شئتم، أو في حلَّة يمنية، أو في بياض مُضَر). قال: فقلنا: فمن يصلي عليك منا؟ فبكى وبكينا، وقال: (مهلاً، غفر الله لكم، وجازاكم عن نبيكم خيراً، إذا غسلتموني ووضعتموني على سريري في بيتي هذا على شفير[44] قبري، فاخرجوا عني ساعة، فإنَّ أول من يصلي عليَّ خليلي وجليسي جبريل ﷺ ثم ميكائيل ثم إسرافيل، ثم ملك الموت مع جنوده، ثم الملائكة صلى الله عليهم بأجمعها، ثم ادخلوا عليَّ فوجاً فوجاً فصلّوا عليَّ وسلّموا تسليماً، ولا تؤذوني بباكية ـ أحسبه قال ـ ولا صارخة ولا رانَّة، وليبدأ بالصلاة عليَّ رجال أهل بيتي، ثم أنتم بعد، وأقرئوا أنفسكم مني السَّلام، ومن غاب من إخوانكم فأقرئوه مني السَّلام، ومن دخل معكم في دينكم بعدي فإني أشهدكم إنِّي أقرأ السلام ـ أحسبه قال ـ عليه، وعلى كل من تابعني على ديني من يومي هذا إلى يوم القيامة).

قلنا: يا رسول الله، فمن يدخل قبرك منا؟ قال: (رجال أهل بيتي مع ملائكة كثيرة، يرونكم من حيث لا ترونهم)[45]».

---

(٤٤) أي جانبه وحرفه.

(٤٥) أخرجه البزار، قال الهيثمي (٢٥/٩): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن إسماعيل بن سمرة الأحمسي، وهو ثقة: انظر حياة الصحابة: ٥٩٧/٢ - ٥٩٩.

ولحق النبي ﷺ بربِّه وانقطع دخول ابن مسعود على بيت النبوّة، وافتقد بذلك الآسي الرفيق، والمعلم والمربي، والمرشد النـاصح، ولكن بعد أن عبّ من بحر النبوة واغترف من نبعها الثّر الشيء الكثير من القرآن والحديث، وأسكنه ذاكرته المتوقدة وعقله الذكي، وابتـدأ في حياته فصلاً جديداً: انتقل مْن الأخذ إلى العطاء، من التعلُّم إلى التعليم، من أخذ القرآن إلى إقراء الناس، من التفقُّه إلى التفقيه، من السؤال والاستفتاء إلى الإجابة والقضاء، وإن شئت فقل: انتقل من طالب في مدرسة النبوة إلى أستاذ للمسلمين في أماكن عديدة ثم في الكوفة، يتصدّر مجالسهـا، ويفتي السائلين فيهـا، ويؤمُّهم ويعلمهم ويقضي بينهم.

الفصل الرابع

القارئ المُلقَّن وقضيَّة المُصْحَف

- إقراء النبي ﷺ القرآن للصحابة مشافهة ومنزلة عبد الله في ذلك
- جمع ابن مسعود للقرآن كله، وحضوره العرضة الأخيرة
- نزول القرآن على سبعة أحرف
- اختلاف الصحابة في القراءة زمن النبي ﷺ وزجره لهم على تخطئة بعضهم بعضاً
- القرآن لم يجُمع في عهد النبي ﷺ
- جمع أبي بكر للقرآن العظيم.
- جمع عثمان بن عفَّان
- أفراد الجمع العثماني، ومؤهلات زيد بن ثابت
- منهج الجمع وكيفيته
- ارسال عثمان المصاحف للآفاق وحرق ما سواها ورضى المسلمين بذلك.
- عدم حضور ابن مسعود الجمع، وموقفه من حرق المصاحف.
- مؤهلات عبد الله وعذر عثمان، وأن عدم حضور ابن مسعود الجمع لا يطعن به.
- رضى ابن مسعود ومتابعته لعثمان، والردّ على المنحرفين.
- مصحف ابن مسعود وما أثير حوله.
- نماذج من قراءة عبد الله.
- تلاميذ عبد الله في القراءة، وإلى من تنتهي قراءته من القرَّاء العشرة.

القَارئ المُلقَّن وَقضيَّة المُصْحَف

إقراء النبي ﷺ القرآن للصحابة مشافهة ومنزلة عبد الله في ذلك:

تلقّى رسول الله ﷺ القرآن مشافهة عن جبريل، والأخير عن ربِّ العالمين، ثم عمد النبي عليه الصلاة والسلام إلى إقرائه الصحابة كما أنزل على قلبه دون نسيان حرف واحد، وبعده قام الأصحاب بإقراء التابعين، الذين بلّغوه ـ بدورهم ـ مَنْ بعدهم، وجرت السنَّة كذلك إلى يوم الناس هذا، فحفظ الله القرآن مصداقاً لوعده جلَّ جلاله: ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا الذِّكْر وإنَّا له لحافظون ﴾، وقوله: لا تحرِّكْ به لسانَك لِتَعْجَلَ به إنَّ علينا جمعَه وقرآنه ﴾، فجاء مبرءاً عن النَّقص، منزَّهاً عن التحريف، بعيداً عن النسيان.

ولقد كان ابن مسعود أحد كبار الصحابة الذين تلقَّوا القرآن العظيم من في رسول الله ﷺ، وبلغ في ذلك شأواً يُغبط عليه، وقد بينَّ ذلك للناس، وصحَّح لهم قراءتهم على النحو الذي سمعه من المعصوم، ومن الأمثلة على ذلك ما ينقله الأسود بن يزيد عنه قال: **«قرأت على النبي ﷺ: [فهل من مذَّكر]، فقال النبي ﷺ: [فهل من مدَّكر]**(1)**»**.

فرسخ ذلك في قلب عبد الله، واتبع ما أقرأه رسول الله ﷺ، لذا عندما استشكل أحدهم قراءة تلك الآية صححها له فيما رواه أيضاً الأسود عن عبد الله بن مسعود قال: «أقرأني رسول الله ﷺ [ولقد يسَّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر]، فقال رجل: يا أبا عبد

(1) البخاري، الفتح: رقم ٤٨٧٤.

الرحمن: [مدَّكر] أو [مذَّكر]؟ قال: أقرأني رسول الله ﷺ [مدَّكر][٢]».

ويروي علقمة بن قيس حادثة أخرى في هذا الشأن فيقول: **«أتى عبد الله الشام، فقال ناس من أهل حمص: اقرأ علينا، فقرأ عليهم سورة يوسف، فقال رجل من القوم: والله ما هكذا أُنزلت!! فقال عبد الله: ويحك!! والله لقد قرأتها على رسول الله ﷺ هكذا، فقال: (أحسنت)!! فبينا هو يراجعه إذ وجد منه ريح الخمر، فقال: أتشرب الرجس وتكذِّب بالقرآن؟! والله لا تزاولني حتى أجلدك، فجلده الحدَّ»**[٣].

جمع ابن مسعود للقرآن كله، وحضوره العرضة الأخيرة:

● ولقد كان ثمرة تلك الصحبة الطويلة للنبي ﷺ، وذلك التلقين المباشر من فيه إلى في عبد الله، أن تحصّل لديه معظم سور القرآن مشافهة ودونما واسطة، ولقد أوضح ذلك لتلامذته، معترفاً بفضل الله عليه، وهذا ما ينقله تلميذه شقيق بن سلمة، قال: «خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: **«والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة»**؛ واللهِ لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم. قال شقيق: فجلست في الحِلَق أسمع ما يقولون فما سمعت رادّاً يقول غير ذلك»[٤].

وفي رواية أحمد: «**«فأخذت** من فيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد»[٥].

(٢) هذه رواية المسند: رقم ٣٧٥٥، وأصله في البخاري، الفتح: رقم ٤٨٧٠، ٤٨٧١، ورواه مسلم مختصراً، وأبو داود، والترمذي.
(٣) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٠١، ومسلم، والمسند: رقم ٤٠٣٣، وهذا لفظه، وفضائل القرآن لابن كثير: ص ٤٥، والسنن الكبرى: ٣١٥/٨.
(٤) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٠٠، وفضائل القرآن: ص ٤٥.
(٥) المسند: رقم ٤٤١٢.

قال ابن كثير: وهذا كله حقٌّ وصدق، وهو من إخبار الرجل عمّا يعلم من نفسه مما قد يجهله غيره، فيجوز ذلك للحاجة كما قال تعالى إخباراً عن يوسف لما قال لصاحب مصر: [اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم]. ويكفيه مدحاً قول الرسول ﷺ: (استقرئوا القرآن من أربعة) فبدأ به»[٦].

● ونظراً لتلك المكانة التي بلغها امتدحه النبي ﷺ في غير ما موقف، وأرشد الصحابة فمن بعدهم إلى ما عنده فقال: (خذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عبد ـ فبدأ به ـ، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة)[٧].

بل لقد وصف قراءته بأنها غضّة، وامتدحها بما لا مزيد عليه، فقال: (من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد)[٨].

● ولقد كان من أوائل ما أخذه عن رسول الله ﷺ ما حدّث به تلميذه عبد الرحمن بن يزيد قال: «سمعت ابن مسعود يقول في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: إنهنَّ من العتاق الأول، وهن من تلادي»[٩].

● أما بقية القرآن الحكيم فقد أخذه عن الصحابة، وهذا ما

---

(٦) فضائل القرآن: ص ٤٥.

(٧) البخاري، الفتح: رقم ٣٧٦٠، ومسلم: ٢٤٦٤، وفضائل القرآن: ص ٤٤، وجامع الأصول: ٥٦٨/٨ ـ ٥٦٩.

(٨) المسند: رقم ٤٢٥٥، ٤٣٤٠، وسيأتي إن شاء الله بسياق أطول مع تخريجه في فصل «مكانته».

(٩) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٩٤، فضائل القرآن: ص ٤٢، والمراد بالعتاق أنهن من قديم ما نزل، والتالد: القديم، والطارف. الجديد.

أوضحه ابن حجر معلِّقاً على الرواية السابقة فقال: «زاد عاصم عن زر[١٠] عن عبد الله: وأخذت بقية القرآن عن أصحابه»[١١].

ولذا عندما جاءه رَهْط من الناس يسألونه عن سورة لم يكن أخذها عن النبي ﷺ صرَّح لهم بذلك ـ وهذا مما يرفع منزلته ـ ودلّهم على من تلقاها عن المعصوم شفاهاً، فعن معد يكرب قال: «أتينا عبد الله فسألناه أن يقرأ علينا (طَسِم) المائتين، فقال: ما هي معي، ولكن عليكم من أخذها من رسول الله ﷺ: خبّاب بن الأرت، قال: فأتينا خباب بن الأرت، فقرأها علينا»[١٢].

● ولقد كان لابن مسعود شرف حضور العرضة الأخيرة التي عارض فيها جبريلُ رسول الله ﷺ بالقرآن مرتين، ومثل هذا الأمر له أهميته وجلالته؛ إذ يتأكد كل واحد من الصحابة مما أخذه عن النبي ﷺ ويصحِّح شيئاً قد يكون نسخ ولم يعلم به.

فعن أبي ظبيان قال: «قال لي عبد الله بن عباس: أيُّ القراءتين تقرأ؟ قلت: القراءة الأولى، قراءة ابن أمِّ عبد، فقال: أجل، هي الأخيرة، إنَّ رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبرئيل في كل عام مرّة، فلّما كان العام الذي قُبض فيه رسول الله ﷺ عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبد الله، فعلم ما نسخ من ذلك وما بُدِّل»[١٣].

---

(١٠) في الفتح: عن بدر، والصواب ما أثبته، فليس من تلاميذ ابن مسعود من اسمه بدر، وعاصم هو ابن بهدلة، يروي عن زرّ بن حُبَيش.

(١١) الفتح: شرح الحديث ٥٠٠٠.

(١٢) المسند: رقم ٣٩٨٠، ورواه الهيثمي (٨٤/٧) وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات، ورواه الطبراني. والسورة المقصودة هي الشعراء.

(١٣) الاستيعاب: ٣٠/٧، والحديث أخرجه النسائي وأورده ابن حجر في شرح الحديث ٤٩٩٧ وقال: إسناده صحيح. وطبقات ابن سعد ٣٤٢/٢.

ولقد صرَّح ابن مسعود نفسه بحضوره تلك العَرْضة، فقد قال ابن حجر: «ولأبي عبيدة من طريق ابن سِيرِين: **نُبئتُ أنَّ ابن مسعود قال: لو أعلم أحداً تُبلِّغنيه الإبل أحدث عهداً بالعرضة الأخيرة مني لأتيته - أو قال: لتكلَّفت أن آتيه**»(١٤).

نزول القرآن على سبعة أحرف:

والقرآن العظيم نـزل موسَّعاً على النـاس تلاوتـه على سبعـة أحرف، ولم يحملهم منزِّله سبحانه على حرف واحد يقرؤون به، وفي هذا جاء الحديث الصحيح عن ابن عبـاس رضي الله عنهما: «أنَّ رسول الله ﷺ قال: (**أقرأني جبريل على حرف، فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف**)(١٥)».

وفي رواية عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه)(١٦).

وأما معنى السبعة الأحرف، فقد كثـرت فيها أقـوال العلماء، ولخصها ابن كثير في عدة أقوال، أسوق اثنين منها: «الأول: وهو قول أكثر أهل العلم - منهم سفيان بن عيينة، وعبد الله بن وَهْب، وأبو جعفر محمد بن جرير، والطحاوي - أن المراد سبعة أوجه من المعاني المتقاربة بألفاظ مختلفة، نحو: أقبل، وتعال، وهلمَّ. الثاني: أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وليس المراد أنَّ جميعه يُقرأ على سبعة أحرف،

---

(١٤) الفتح: شرح الحديث ٥٠٠٢.

(١٥) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٩١، ومسلم، وغيرهما. وقد استوفى ابن كثير طرقه وسياقاته، انظر فضائل القرآن: ص ٢٨ - ٣٥، وكذا الجمع الصوتي ص ٩١ فما بعدها.

(١٦) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٩٢، فضائل القرآن: ص ٣٥.

ولكن بعضه على حرف، وبعضه على حرف آخر. قال الخطابي: وقد يُقرأ بعضه بالسبع لغات كما في قوله: [وعبد الطاغوت]، و[يرتع ويلعب]. قال القرطبي: ذهب إلى هذا القول أبو عبيد، واختاره ابن عطية[١٧]».

ويلخص ابن حجر أقوال العلماء في هذا، فيقول: «وحاصل ما ذهب إليه هؤلاء أنَّ معنى قوله: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي نزل موسّعاً على القارىء أن يقرأه على سبعة أوجه، أي يقرأ بأيِّ حرف أراد منها على البدل من صاحبه، كأنه قال: أنزل على هذا الشرط، أو على هذه التوسعة، وذلك لتسهيل قراءته، إذ لو أُخذوا بأن يقرؤوه على حرف واحد لشقّ عليهم»[١٨].

اختلاف الصحابة بالقراءة زمن النبي ﷺ، وزجره لهم على تخطئة بعضهم بعضاً:

ولما كان القرآن قد أنزل كذلك، فمعنى هذا أنَّ القراءة بأيِّ حرف مأذون بها جائزة، وهذا ما يرويه الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال: (**أنزل القرآن على سبعة أحرف، أيّما قرأت أجزأك**)[١٩]!

لذا نراه عليه الصلاة والسلام يزجر أصحابه إذا حمل أحدهم الآخر على قراءة نفسه وخطّأه فيما يقرأ هو!! فعن ابن مسعود قال: «**سمعت رجلاً يقرأ آية، وسمعت من رسول الله ﷺ غيرها، فأتيت**

---

(١٧) فضائل القرآن: ص ٣٦ - ٣٩.

(١٨) ويظن بعض الجهلة أن القراءات السبع الموجودة الآن هي المذكورة في الخبر، وهو خلاف اجماع أهل العلم قاطبة. انظر الفتح شرح الحديثين ٤٩٩١، ٤٩٩٢.

(١٩) فضائل القرآن: ص ٣٢، وقال ابن كثير: هذا اسناد صحيح ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة.

به رسول الله ﷺ، فتغيّر وجه رسول الله ﷺ - أو: عرفت في وجه رسول الله ﷺ الكراهية - فقال رسول الله ﷺ: (كلاكما محسن، إنّ من قبلكم اختلفوا فيه فأهلكهم). قال شعبة: وحدثني مِسْعَر عنه، ورفعه إلى عبد الله إلى النبي ﷺ: **(فلا تختلفوا)**(٢٠).

وفي رواية أخرى عن زِرٍّ عن ابن مسعود قال: «أقرأني رسول الله ﷺ سورة الأحقاف، وأقرأها رجلاً آخر، فخالفني في آية، فقلت له: من أقرأكها؟ فقال: رسول الله ﷺ! فأتيته وهو في نفر، فقلت: يا رسول الله، ألم تقرئني آية كذا وكذا؟ فقال: (بلى)، قال: قلت: فإن هذا يزعم أنك أقرأتها إياه كذا وكذا؟! فتغيّرَ وجه رسول الله ﷺ! فقال الرجل الذي عنده(٢١): ليقرأ كل رجل منكم كما سمع، فإنما هلك من كان قبلكم بالاختلاف. قال: فوالله ما أدري رسول الله ﷺ أمره بذلك أم هو قاله؟!»(٢٢).

القرآن لم يُجمع في عهد النبي ﷺ:

جَمْعُ القرآن لغةً: هو جمع متفرقه في صحف، ثم جمع تلك الصحف في مصحف واحد مرتَّب السور(٢٣).

---

(٢٠) هذه رواية المسند رقم ٣٧٢٤، ٣٨٠٣، وهو عند البخاري، الفتح: رقم ٥٠٦٢ بنحوه، وفضائل القرآن: ص ٨٥، ورواه الطيالسي وابن حبان مطوّلاً.

(٢١) هو علي بن أبي طالب كما في رواية المسند رقم ٣٩٨١.

(٢٢) المسند: رقم ٣٩٩٢. والظاهر أن النبي ﷺ أمر علياً بذلك. إذ أن الرواية السابقة صرحت بنهيه عليه الصلاة والسلام عن الخلاف. ولقد جاء مثل ذلك الاختلاف عن أبي بن كعب مع صحابي آخر، فجاء النبي ﷺ، فزجرهما، وضرب بيده في صدر أبيّ، انظر الفتح شرح الحديثين ٤٩٩١، ٤٩٩٢، وفضائل القرآن: ص ٢٩، ٣١.

(٢٣) الفتح: شرح الحديث ٤٩٨٦.

والجمع على هذا النحو لم يقع زمن رسول الله ﷺ، فلقد كان القرآن محفوظاً بجملته في صدور الصحابة، ومكتوباً على اللِّخاف، والعُسُب، والأكتاف، والرقاع، والأقتاب، وقطع الأديم[٢٤].

وفي هذا يقول زيد بن ثابت ـ عندما أمره الصدّيق بجمع القرآن ـ: «فتتبَّعت القرآن أجمعه من العُسُب، واللِّخاف، وصدور الرجال»[٢٥].

جمع أبي بكر رضي الله عنه للقرآن العظيم:

وما إن لحق النبي ﷺ بربه، حتى ارتد الأعراب، وظهر مسيلمة الكذاب، فتصدَّى لهم الصدّيق، وكانت موقعة اليمامة التي قتل فيها عدد كبير من حفظة القرآن؛[٢٦]؛ ممَّا أفزع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وخشي أن يضيع القرآن بموت حَمَلته؛ وهذا ما يرويه البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «أرسل إلي أبو بكر الصديق مقتلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإني أخشى إن استحرّ القتل بالقرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن! قلت لعمر: كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟! قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي

(٢٤) الجمع الصوتي: ص ٣٢ ـ ٣٣، الفتح: شرح الحديث ٤٩٨٦. ومعنى اللِّخاف: الحجارة الرقاق. والعسب: جريد النخل. والأكتاف: العظم العريض الذي للبعير والشاة. والرقاع: تكون من جلد أو ورق. والأقتاب: الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه. والأديم: الجلد المدبوغ.

(٢٥) البخاري: الفتح: رقم ٤٩٨٦.

(٢٦) عددهم خمسمائة وقيل: سبعمائة.

رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لانتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخاف وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: [لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم] حتى خاتمة براءة. فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه(٢٧).

وبذلك حفظ الله القرآن من الضياع، إذ أنه بموت حفظته قد يذهب مع بعضهم آيات يحفظونها دون غيرهم، وبذلك كان لأبي بكر الصديق - رضي الله عنه - الفضل الكبير على الأمة الإسلامية جميعها، وفي هذا يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، إنَّ أبا بكر أول من جمع القرآن بين اللَّوحين»(٢٨).

---

(٢٧) البخاري، الفتح: ٤٩٨٦، فضائل القرآن: ص ١٤ - ١٥، وانظر تبيان الخطة الصدِّيقية في الجمع: الجمع الصوتي ص ٣٤ - ٣٨. ومعنى استحر: اشتد وكثر.

(٢٨) فضائل القرآن: ص ١٥، قال ابن كثير: هذا اسناد صحيح. وقد حسّن الحافظ اسناده في الفتح شرح الحديث ٤٩٨٦. وأما الرواية التي تقول بأن علياً جمع القرآن فقد ضعّفها ابن حجر في المكان السابق، وقال: وعلى تقدير أن يكون ذلك محفوظاً فمراده بجمعه حفظه في صدره. وانظر فضائل القرآن: ص ٢٥.

جمع عثمان بن عفان رضي الله عنه

حدّث أنس بن مالك «أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان. يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى!! فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردها إليك. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنمًا نزل بلسانهم، ففعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رَدّ عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[29]».

وفي رواية أخرى ساقها ابن حجر: «أنَّ حذيفة قدم من غزوة فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس! قال: وما ذاك؟! قال: غزوت فرج أرمينية، فإذا أهل الشام يقرؤون بقراءة أبي بن كعب فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة عبد الله بن مسعود فيأتون بما لم يسمع أهل الشام؛ فيكفّر بعضهم بعضاً[30]».

(٢٩) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٨٧، فضائل القرآن: ص ١٨، الجمع الصوتي مفصّلاً: ص ٤٥ ـ ٤٩.

(٣٠) الفتح شرح الحديث السابق.

«**وصادف أن عثمان كان وقع له نحو ذلك**، فقد أخرج ابن أبي داود - أيضاً في المصاحف - من طريق أبي قِلابة قال: لما كان ما كان في خلافة عثمان جعل المعلِّم يعلّم قراءة الرجل، والمعلم يعلّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون، حتى ارتفع ذلك إلى المعلِّمين، حتى كفَّر بعضهم بعضاً!! فبلغ ذلك عثمان فخطب فقال: أنتم عندي تختلفون، فمن نأى عني من الأمصار أشد اختلافاً! فكأنه - والله أعلم - لما جاءه حذيفة وأعلمه باختلاف أهل الأمصار تحقَّق عنده ما ظنه من ذلك[31].

● وعندئذٍ عزم الخليفة على جمع الناس على قراءة واحدة، فقام باستشارة الصحابة، وهذا ما ينقله الحافظ فيقول: «أخرج ابن أبي داود بإسناد صحيح - من طريق سويد بن غَفَلة قال: **قال علي**: «**لا تقولوا في عثمان إلاَّ خيراً، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلاّ عن ملأ منا**»، قال: ما تقولون في هذه القراءة؟ قد بلغني أن بعضهم يقول: إن قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً؟! قلنا: ما ترى؟ قال: أرى أن نجمع الناس **على** مصحف واحد، فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعمَ ما رأيت[32]».

أفراد الجمع العثماني، ومؤهلات زيد بن ثابت:

أمر عثمان الأربعة السابق ذكرهم بجمع المصحف، وهم: زيد بن ثابت الأنصاري، أحد كتّاب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن الزبير بن العوَّام القرشي، وسعيد بن

(31، 32) الفتح، شرح الحديث السابق، والجمع كان سنة خمس وعشرين للهجرة.

العاص بن سعيد بن العاص بن أمية القرشي ـ وكان أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ ـ وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة القرشي[٣٣].

وقد روى ابن أبي داود عن كثير بن أفلح قال: «لما أراد عثمان أن يكتب المصاحف جمع له اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، فيهم أبيّ بن كعب وزيد بن ثابت»[٣٤].

لكن الحافظ الذهبي قال: «وما أحسب أن عثمان ندب للمصحف أبيّاً، ولو كان كذلك لاشتهر، ولكان الذكر لأبيّ لا لزيد»[٣٥].

ولزيد على وجه الخصوص مؤهلات كثيرة:

قال ابن حجر تعليقاً على قول أبي بكر الصديق: (إنك رجل شاب، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي»: «ذكر له أربع صفات مقتضية خصوصيته بذلك، كونه شاباً فيكون أنشط لما يطلب منه، وكونه عاقلاً فيكون أوعى له، وكونه لا يتهم فتركن النفس إليه، وكونه كان يكتب الوحي فيكون أكثر ممارسة له. وهذه الصفات التي اجتمعت له قد توجد في غيره لكن مفرقة»[٣٦].

زد على ذلك أن زيداً هو الذي تولى الجمع زمن الصدِّيق ـ كما سبق ـ وأنه كان يكتب للنبي ﷺ إلى الملوك، مع ما كان يكتبه

---

(٣٣) فضائل القرآن: ص ١٩.
(٣٤) فضائل القرآن: ص ٢٤، الجمع الصوتي: ص ٤٨.
(٣٥) سير أعلام النبلاء: ١/٢٨٧، الجمع الصوتي: ص ٤٨.
(٣٦) الفتح: شرح الحديث ٤٩٨٦.

من الوحي، وهو من أصحاب الفتوى الستة الكبار، وموضع ثقة النبي ﷺ وعمر[٣٧].

منهج الجمع وكيفيته:

روى ابن أبي داود في المصاحف: «عن مصعب بن سعد قال: قام عثمان فخطب الناس..... فلما فرغ من ذلك عثمان قال: من أكتب الناس؟ قالوا: كاتب رسول الله ﷺ زيد بن ثابت، قال: فأي الناس أعرب؟ قالوا: سعيد بن العاص، قال عثمان: فليملِ سعيد وليكتب زيد. فكتب زيد مصاحف ففرقها في الناس، فسمعت بعض أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: قد أحسن[٣٨]».

وقد سبقت رواية البخاري: «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن؛ فاكتبوه بلسان قريش، فإنَّما نزل بلسانهم، ففعلوا»[٣٩]».

ويمكن إيجاز المنهج العثماني في الجمع بالنقاط التالية:

١ ـ الاعتماد على عمل اللجنة الأولى التي تولت الجمع على عهد أبي بكر، أي على ربعة حفصة، والتي هي مستندة إلى الأصل المكتوب بين يدي النبي ﷺ بأمره، وبذلك ينسدّ باب القالة فلا يزعمِ زاعم أنَّ في الربعة شيئاً لم يكتب في المصحف العثماني، أو أنه كُتب في هذا ما لم يكن في تلك.

٢ ـ أن يتعاهد اللجنةَ خليفةُ المسلمين نفسه.

---

(٣٧) يراجع بالتفصيل: الجمع الصوتي: ص ٥٢ ـ ٥٤.
(٣٨) فضائل القرآن: ص ٢٣ ـ ٢٤، قال ابن كثير: إسناد صحيح.
(٣٩) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٨٧.

٣ ـ أن يأتي كل من عنده شيء من القرآن سمعه من النبي ﷺ بما عنده، وأن يشترك الجميع في علم ما جُمع، على نحو ما اتُبع في الجمع البكري، فلا يغيب في هذه المرة أيضاً عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشك في أنه جمع عن ملأ منهم.

٤ ـ إذا اختلفوا في أية آية قالوا: هذه أقرأها رسول الله ﷺ فلاناً: فيُرسل إليه وهو على رأس ثلاث ليال من المدينة، فيقال له: كيف أقرأك رسول الله ﷺ آية كذا وكذا؟ فيقول: كذا وكذا، فيكتبونها وقد تركوا لها مكاناً.

٥ ـ يُقتصر عند الاختلاف على لغة قريش.

٦ ـ المقصود من الجمع على لغة واحدة الجمع على القراءة المتواترة المعلوم عند الجميع ثبوتها عن النبي ﷺ، وإن اختلفت وجوهها حتى لا تكون فرقة واختلاف.

٧ ـ وعند كتابة لفظٍ تواتر عن النبي ﷺ النطق به على أكثر من وجه، تبقي اللجنة هذا اللفظ خالياً من أية علامة تقصِر النطق به على وجه واحد، لتكون دلالة اللفظ الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المَتْلُوَّين شبيهة بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المنقولين المفهومين. مثل:

«فتبيّنوا» التي رويت أيضاً: «فتثبتوا».

و «نُنْشِزُها» التي رويت «ننْشِرُها» و «نَنْشُرُها».

و «هيت لك» التي قرئت بسبع قراءات، مع بقاء رسمها كما هو.

٨ - وخشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعدُ، يمنع - كما منع في الجمع البكري - عن كتابة ما يأتي، فضلاً عن قراءته وسماعه: ما نُسخت تلاوته، وما لم يكن في العرضة الأخيرة، وما لم يثبت من القراءات، وما كانت روايته آحاداً، وما لم تعلم قرآنيته أو ما ليس بقرآن؛ كالذي كان يكتبه بعض الصحابة في مصاحفهم الخاصة، شرحاً لمعنى، أو بياناً لناسخ أو منسوخ، أو نحو ذلك.

٩ - في شأن ترتيب آيات كل سورة يلتزم ما كان النبي ﷺ قد اتَّبعه في العرضة الأخيرة، في السنة التي توفي فيها، ويعتبر هذا الترتيب توقيفياً من الله تعالى.

١٠ - بعد الفراغ من كتابة المصحف الإمام، وحمل الناس على كتابة المصاحف على نمطه، يراجعه زيد بن ثابت المرات المناسبة[٤٠]، ثم يراجعه خليفة المسلمين نفسه، تأكيداً للأمان من أي نسيان[٤١].

وهكذا يتضح لنا من هذا العرض السريع للجمعين[٤٢] - البكري والعثماني - أن الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً قد بذلوا أقصى ما يمكن تصوّره من البشر، في سبيل جمع آيات القرآن العظيم، ونسخوا مصحفاً إماماً هو عين ما نزل على قلبه ﷺ لا يزيد

---

(٤٠) ذكر الطبري أن زيد بن ثابت قد راجع المصحف ثلاث مرات.

(٤١) باختصار عن الجمع الصوتي: ص ٥٨ - ٦٣.

(٤٢) الفرق بين جمع أبي بكر وجمع عثمان: أن جمع أبي بكر كان لخشية ذهاب القرآن حيث لم يكن مجموعاً في مكان واحد، فجمعه في صحائف مرتباً لآيات سورة كما وقفهم النبي ﷺ. وأما جمع عثمان فكان لما كثر الاختلاف في وجوه القراءة، وتخطئة بعض الناس لبعض، فجمعهم على قراءة واحدة وحرق ما سوى ذلك.

حرفاً، ولا ينقص حرفاً، وحفظ الله بهم كتابه مصداقاً لوعده المطّرد: [إن علينا جمعه وقرآنه].

إرسال عثمان المصاحف للآفاق وحرق ما سواها، ورضى المسلمين بذلك:

● جاء في الجزء الأخير من حديث البخاري: «**فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق**[٤٣]».

قال الحافظ: «واختلفوا في عدد المصاحف التي أرسل بها **عثمان** إلى الآفاق، فالمشهور أنها خمسة[٤٤]». ثم قال: «قال ابن أبي داود: سمعت أبا حاتم السجستاني يقول: كُتبتْ سبعة مصاحف: إلى مكة، وإلى الشام، وإلى اليمن، وإلى البحرين، وإلى البصرة، وإلى الكوفة، وحبس بالمدينة واحد[٤٥]».

● وقال بعدها: «وفي رواية أبي قِلابة: **فلما فرغ عثمان من المصحف كتب إلى أهل الأمصار: «إني قد صنعت كذا وكذا ومحوت ما عندي، فامحوا ما عندكم»**، والمحو أعم من أن يكون بالغسل أو التحريق، وأكثر الروايات صريح في التحريق؛ فهو الذي وقع، ويحتمل وقوع كل منهما، بحسب ما رأى من كان بيده شيء من ذلك. وقد جزم عياض بأنهم غسلوها بالماء ثم أحرقوها، مبالغة في إذهابها»[٤٦].

---

(٤٣) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٨٧.

(٤٤، ٤٥، ٤٦) شرح الحديث السابق، فضائل القرآن: ص ٢١ - ٢٢، الجمع الصوتي: ص ٥٤ - ٥٥، وقد قال أبو عمرو الداني في عدد النسخ أنها خمسة، وعليه الأئمة.

● ولقد رضي المسلمون ـ الصحابة فمن بعدهم ـ فعل عثمان هذا، وامتدحوه، لما كان فيه من حفظ كتاب الله وحماية المسلمين من نائرة الخلاف:

فعن سويد بن غَفَلة «قال علي حين حرق عثمان المصاحف: **لو لم يصنعه هو لصنعته»**[٤٧].

وعن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال: **«أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف، فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد»**[٤٨].

ويقول غنيم بن قيس المازني: «قرأت القرآن على الحرفين جميعاً، والله ما يسرني أنَّ عثمان لم يكتب المصحف وأنه وُلد لكل مسلم كلما أصبح غلام فأصبح له مثل ما له!! قال: قلنا له: يا أبا العنبر لِمَ؟! قال: لو لم يكتب عثمان المصحف لطفق الناس يقرؤُون الشعر»[٤٩].

وأما ابن مهدي الإمام العَلَم فيقول: «خصلتان لعثمان بن عفان ليستا لأبي بكر ولا لعمر: صبره نفسه حين قُتل مظلوماً، وجمعه الناس على المصحف»[٥٠].

ويقول الزركشي: «ولقد وفِّق لأمر عظيم، ورفع الاختلاف، وجمع الكلمة، وأراح الأمة». ويقول أيضاً: «وفي الجملة: إنه إمام عدل غير معاند، ولا طاغ في التنزيل، ولم يحرق ما لم يجب

---

(٤٧) فضائل القرآن: ص ٢٢.
(٤٨) فضائل القرآن: ص ٢٢، ابن أبي داود في المصاحف: ص ١٢، الجمع الصوتي: ص ٥٥، وقد قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.
(٤٩، ٥٠) فضائل القرآن: ص ٢٢.

إحراقه، ولهذا لم ينكر عليه أحد ذلـك، بل رضـوه، وعدُّوه من مناقبه»[٥١].

عدم حضور ابن مسعود الجمع وموقفه من ذلك:

● وقع جمع المصحف ـ كما أسلفت ـ سنة خمس وعشرين للهجرة، وقد كان عبد الله آنئذٍ والياً لعثمان على بيت مال الكوفة، ولم يحضر ذلك الأمر الجليل والعمل الذي يعتبر من أكثر القربات إلى الله تعالى؛ ممَّا أبقى في نفسه الحزن لما فاته من ثواب عظيم في خدمة كتاب الله سبحانه، فوقف موقفاً مخالفاً لباقي الأصحاب، وهذا ما يرويه لنا تلميذه شقيق بن سلمة قال: «خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة وزيد بن ثابت غلام له ذؤابتان، يلعب مع الغلمان»[٥٢].

● وأما موقفه من حرق المصاحف فيوضحه خمير بن مالك فيقول: **أُمر بالمصاحف أن تُغيَّر، قال: قال ابن مسعود: من استطاع منكم أن يغلَّ مصحفه فليغلَّه، فإن من غلّ شيئاً جاء به يوم القيامة. قال: ثم قال: قرأت من فم رسول الله ﷺ سبعين سورة، أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ؟!**[٥٣]».

وقد روى الترمذي عنه قال: «يا معشر المسلمين أُعزل عن نسخ كتابة المصاحف ويتولاها رجل والله لقد أسلمت وإنـه لفي

---

(٥١) الجمع الصوتي: ص ٥٥.
(٥٢) المسند: رقم ٣٩٠٦، وكذلك ٣٦٩٧، ٣٨٤٦، وقد رواه النسائي مطولاً، وانظر البخاري «باب القراء من أصحاب النبي ﷺ، ومسلم» «الفضائل- فضائل ابن مسعود وأمه».
(٥٣) المسند: رقم ٣٩٢٩، وقد رواه الطيالسي بنحوه.

صلب رجل كافر»(٥٤).

وقد روى ابن أبي داود في «المصاحف» عن أبي وائل قال: «خطبنا ابن مسعود على المنبر فقال: ومن يغلل يأتِ بما غلّ يوم القيامة، غلّوا مصاحفكم! وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت وقد قرأت القرآن من في رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان، والله ما أنزل من القرآن شيء إلا وأنا أعلم في أي شيء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله مني، وما أنا بخيركم....(٥٥).

يقول ابن حجر موضحاً موقف ابن مسعود هذا: «وكأنَّ ابن مسعود رأى خلاف ما رأى عثمان ومن وافقه في الاقتصار على قراءة واحدة وإلغاء ما عدا ذلك. أو كان لا ينكر الاقتصار لما في عدمه من الخلاف؛ بل كان يريد أن تكون قراءته هي التي يعول عليها، دون غيرها، لما له من المزية في ذلك مما ليس لغيره، كما يؤخذ ذلك من ظاهر كلامه، فلما فاته ذلك، ورأى أن الاقتصار على قراءة زيد ترجيح بغير مرجّح عنده؛ اختار استمرار القراءة على ما كانت عليه»(٥٦).

مؤهلات عبد الله، وعذر عثمان، وأن عدم حضور ابن مسعود الجمعَ لا يطعن به:

● لا شك أن لابن مسعود مؤهلات كثيرة تجعله حقيقاً بأن

---

(٥٤) الفتح: شرح الحديث ٤٩٨٧.
(٥٥) سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٨ - ٣٤٩، فضائل القرآن: ص ٢٢ - ٢٣.
(٥٦) الفتح: شرح الحديث ٥٠٠٠.

يحضر لجنة الجمع، ومن ذلك(٥٧):

١ - أنه أخذ من في النبي ﷺ أكثر من سبعين سورة مشافهة دونما واسطة.

٢ - أن رسول الله ﷺ امتدح قراءته، ووصفها بأنها غَضَّـة، فقال: (من أحب أن يقرأ القرآن غضاً كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أمٍّ عبد).

٣ - ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام وجّه الناس لأخذ القرآن عن أربعة، فذكر ابن مسعود على رأسهم.

٤ - كما أنه ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن، وهذا يوحي بمنزلته العالية، وأنه أهل لأن يعتمد في الجمع، فيسمع منه ما أخذ من القرآن.

٥ - أنه شهد العَرْضة الأخيرة كما مر قبل قليل، وهذا يعني أنه جمع القرآن كله.

٦ - أنه كان - كما وصفه الذهبي -: «ممن يتحرَّى في الأداء، ويشدّد في الرواية، ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ»(٥٨).

● ونحن لا نريد أن نسعى وراء من ينسب لابن مسعود أنه إنما نزع للخلاف لهوى شخصي، وأنه استمر على ذلك الموقف حتى توفي، كما أننا لا نقبل موقف من ينفي أن ذلك الرفض قد وقع منه؛ فلا مكابرة مع تضافر النصوص وتوافرها، والذي نرضاه في هذا أن عبد الله جدير بحضور الجمع، ولكن عدم حضوره له لا ينبغي

(٥٨) الفتح: شرح الحديث ٤٩٨٧، سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٩.
(٥٧) انظر الجمع الصوتي: ص ٥١ - ٥٩.

أن يكون منه ذلك الموقف الذي إنما أنتجه الغضب، وليس ذلك بمستغرب من إنسان جُبل من اللحم والدم، ويرى أنه حقيق بمثل ذلك العمل الخطير، بل وبشهادة الصادق المصدوق والصحابة العظام، ونحن لسنا نطلب من أحد - حتى ولو كان من الصحابة - أن يتجرَّد عن بشريته، ولا أن يصل إلى صف الملائكة، إذ أن الإنسان كائن عاقل مفكر، وما دام كذلك فلا بد أن يؤديه عقله - في موقف ما - إلى خلاف ما يراه غيره، وليس في ذلك ما يستقبح!! والذي نريده إن حدث أمر على خلاف ما يجب أن يقع هو أن تعود الأمور إلى نصابها إذا استبان وجه الحق، وهذا ما كان من ابن مسعود رضي الله تعالى عنه.

● وعثمان كان له العذر في ذلك لأمور عدة:

١ - تمَّ الجمع بالمدينة المنورة، وابن مسعود عندئذٍ بالكوفة، والأمر لا يحتمل التأخير ريثما يرسل إليه عثمان ليحضر الجمع.

٢ - ثم إن عثمان إنما أراد نسخ الصحف التي كانت في عهد أبي بكر، وأن يجعلها مصحفاً واحداً، وكان الذي نسخ ذلك في عهد أبي بكر هو زيد بن ثابت لكونه كان كاتب الوحي، فكانت له في ذلك أولية ليست لغيره.

٣ - وزيد شهد - بيقين - العرضة الأخيرة التي بيّن فيها ما نسخ وما بقي، وكتبها لرسول الله ﷺ، وقرأها عليه، وكان يقرىء الناس بها حتى مات(٥٩). ولا يضيره أنه كان في صلب رجل كافر عندما كان ابن مسعود يحفظ بضعاً وسبعين سورة.

---

(٥٩) الجمع الصوتي: ص ٥٢.

٤ ـ ثمَّ إنَّ ابن مسعود قد أخذ من في النبي ﷺ بضعاً وسبعين سورة، واستكمل القرآن من الصحـابة فيما بعد، بينما حفظ زيد القرآن كله والنبي ﷺ حيٌّ، وهذا ممَّا ينضاف إلى مبررات عثمان بالاعتماد على زيد.

٥ ـ ثم إنَّ زيداً كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ فهو إمام في الرسم، وابن مسعود إمام في الأداء[٦٠]، وجمع عثمان كان يقتضي الميزة التي عند زيد، لذا أمر بالكتابة، وأمر سعيد بالإملاء عليه. وسعيد أشبه الناس لهجة برسول الله ﷺ، فتوفّرت للجمع العثماني كافة الشروط: الرسم والإملاء، وهذا يعني أن عـدم حضور ابن مسعود لن يحدث خللاً في كفاءة وتكامل لجنة الجمع العثماني.

٦ ـ ثم إن ابن مسعود رضي الله عنه يقرأ بلهجة هُـذَيل، والمصحف كتب بلغة قريش عند الاختلاف، وليس لعبـد الله أن يحمل الأمة على أن يقـرؤوا بلهجته، بـل لهجة النبي ﷺ أولى بذلك، علماً بأن لعبد الله قراءات شاذَّة مثل [عتى حين] بدلاً من [حتى حين].

٧ ـ وناحية هامة هي أن رضى الصحابة رضي الله عنهم جميعاً بصنيع عثمان في تحريق المصحف دليل خيريَّة ذلك الفعل وصوابه، فأمة رسول الله ﷺ لا تجتمع على ضلالة. ومما يؤكد هذه الناحية إجماع الخلفاء الراشدين على جمع المصحف، واتفاق آخر خليفتين منهم على تحريق ما سوى المصحف الإمام. وفعلهم هذا واجب

---

(٦٠) سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٩.

الاقتداء به كما قال عليه الصلاة والسلام: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي)[٦١].

٨ ـ زد على ذلك أنه لما علم الصحابة بموقف عبد الله ذاك، وأنه أمر بغلّ المصاحف، كرهوا ذلك منه، وما رضوه فقد قال الزهري: «فبلغني أن ذلك كرهه من قول ابن مسعود رجال من أصحاب رسول الله»[٦٢].

وينقل ابن كثير عن علقمة قال: «قدمت الشام فلقيت أبا الدرداء فقال: كنا نعد عبد الله حناناً، فما باله يواثب الأمراء»[٦٣].

● **ولكن لا يفهم من ذلك كله أن زيداً مقدم على ابن مسعود، فليس من رابط بين هذا وذاك، وعبد الله أفضل من زيد**، وفي ذلك يقول أبو بكر الأنباري: «ولم يكن لاختيار زيد من جهة أبي بكر وعمر وعثمان على عبد الله بن مسعود في جمع القرآن ـ وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الاسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل ـ إلا لأن زيداً كان أحفظَ للقرآن من عبد الله، إذ وعاه كلَّه ورسول الله ﷺ حي، والذي حفظه عنه عبد الله في حياة الرسول ﷺ نيِّف وسبعون سورة، ثم تعلَّم الباقي بعد وفاة الرسول ﷺ. فالذي ختم القرآن وحفظه ورسول الله ﷺ حي أولى بجمع المصحف وأحق بالإيثار والاختيار. ولا ينبغي أن يظن جاهل أن في هذا طعناً على عبد الله بن مسعود، لأن زيداً إذا كان أحفظ للقرآن منه، فليس ذلك موجباً لتقدّمه عليه، لأن أبا بكر وعمر رضي الله

(٦١) فضائل القرآن: ص ١٨ ـ ١٩.
(٦٢) الفتح: شرح الحديث ٥٠٠٠.
(٦٣) فضائل القرآن: ص ١٣، سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٤٩.

عنهما كان زيداً أحفظ منهما للقرآن، وليس هو خيراً منهما، ولا مساوياً لهما في الفضائل والمناقب. **قال أبو بكر: وما بدا من عبد الله بن مسعود من نكيرٍ ذلك فشيء نتجه الغضب، ولا يُعمل به ويؤخذ به»**[٦٤].

رضى ابن مسعود ومتابعته لعثمان، والردّ على المنحرفين:

● من النقاط الأساسية التي بنينا عليها هذا البحث أن الصحابة رضي الله عنهم لا يغضبون إلا للحق، وإذا ما حدث أمر وقع فيه نزاع حكَّموا الشرع لا الهوى، حتى إذا بان لهم الصواب دَلَفوا إليه مسرعين. وأؤكد ههنا على فكرة أنهم بشر، وأنه لا يمكن أن تُنزع منهم فطرتهم، فلا يقعون في الخطأ، ولا يفعلون في كل موقف إلا ما ينبغي؛ فالعصمة للأنبياء وحدهم، والذي بدر من ابن مسعود رضي الله عنه شيء طبيعي إذا وضعنا ذينك المبدأين في عين الاعتبار، ثم إنَّ ما يجب أن يقع منه بعد ذلك هو أن يتابع الصحابة بعد ما يستبين له السبيل، وهذا ما حصل.

فهو ابتداءً رفض تسليم مصحفه كردة فعل لما يرى من نفسه وأحقيته في حضور ذلك الأمر الهام الجليل، ولكن ما إن تمكَّث وتمهّل قليلاً وجاءت نسخة عن المصحف الإمام إلى الكوفة حتى عاد إلى فج عثمان، واعترف بفضل عمله وعبقرية رأيه، وهذا ما يرويه ابن الأثير في تاريخه فيقول: **«وأرسل عثمان إلى كل أفق بمصحف، وحرق ما سوى ذلك، وأمر أن يعتمدوا عليها ويدعوا ما سوى ذلك، فكل الناس عرف فضل هذا الفعل إلاَّ ما كان من أهل**

---

(٦٤) المصاحف: ص ١٢، نقلاً عن: «عبد الله بن مسعود للراجحي ص٥٨».

الكوفة، فإنَّ المصحف لما قدم عليهم فرح به أصحاب النبي ﷺ، وإن أصحاب عبد الله ومن وافقهم امتنعوا من ذلك وعابوا الناس، فقام فيهم ابن مسعود وقال: ولا كل ذلك؟! فإنكم والله قد سبقتم سبقاً بيّناً، فأربعوا على ظلعكم»[٦٥].

ويؤكد ذلك ابن كثير قائلاً: «ثم رجع ابن مسعود إلى الوفاق»[٦٦].

ويقول الذهبي: «وقد ورد أن ابن مسعود رضي وتابع عثمان، ولله الحمد»[٦٧].

بل إن خطبة لابن مسعود نفسه تؤكد ذلك فيما روى زيد بن وهب قال: «لما بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالمجيء إلى المدينة اجتمع إليه الناس فقالوا: أقم فلا تخرج ونحن نمنعك أن يصل إليك شيء تكرهه! فقال: إنَّ له عليَّ حق الطاعة، وإنها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها، فردّ الناس وخرج إليه»[٦٨].

وهذه الخطبة كانت سنة اثنتين وثلاثين للهجرة، ولو أنه كان مخالفاً لعثمان لكان بإمكانه إثارة أهل الكوفة عليه، وكذلك لو أنه استمر على منع تسليم مصحفه لعزله الخليفة استئصالاً للفتنة ولم يبقه هذه الفترة الطويلة والياً، ولكن لم يكن من هذا شيء، وابن

(٦٥) الكامل: ٥٤/٣، نقلاً عن «ابن مسعود» للراجحي: ص ٥٩.. ومعنى (اربعوا على ظِلعكم) أي كفوا عن هذا الأمر.

(٦٦) سير أعلام النبلاء: ٣٤٩/١.

(٦٧) فضائل القرآن: ص ١٨.

(٦٨) سير أعلام النبلاء: ٣٥٠/١، أسد الغابة: ٣٩٠/٣، الاستيعاب ذيل الاصابة: ٣٣/٧ ـ ٣٤.

مسعود تابع عثمان، ولا علاقة بين استقدامه من الكوفة وقضية المصحف لطول الزمن بينهما.

ثم إنَّ ابن مسعود إذ ينهاهم عن الخلاف في ذلك الأمر؛ فمن باب أولى أن يزجرهم عن الاختلاف في كتاب الله الذي هو عمدة حياة المسلمين، وهو إذ نبههم على خوف وقوع الفتنة، فأي فتنة أفظع من الاختلاف في القرآن الكريم؟!.

كل ذلك مما يجعل في القلب اطمئناناً، ويغرس في النفس قبولاً، بأن عبد الله رجع عن رأيه الأول وتابع باقي الأصحاب، فالتأم الشمل، ورئب الصَّدْع، ولله الحمد والمنة.

● وما دمنا في الحديث عن موقف ابن مسعود من عثمان في قضية المصحف، فلا بد أن أعرّج على كلمة عرجاء سقيمة ساقها طه حسين فقال:

«ظل ابن مسعود على بيت المال صدراً من أيام الوليد بن عقبة، ثم استقرض الوليد شيئاً من المال فأقرضه ابن مسعود، وكان هذا شيئاً مألوفاً، فلما حلّ الأجل طلب ابن مسعود إليه الأداء، فالتوى، فألحّ عليه، فكتب الوليد إلى عثمان يشكو ابن مسعود، وكتب عثمان إلى ابن مسعود: إنما أنت خازن لنا فلا تعرض للوليد فيما أخذ من بيت المال! فغضب ابن مسعود، وألقى مفاتيح بيت المال، وأقام في داره يعظ الناس ويعلمهم. ومنذ ذلك الوقت بدأت معارضة ابن مسعود لعثمان في أمور السياسة وفي أمور المال، ثم ازدادت معارضته تعقداً حين وحَّدَ عثمان المصحف وجعل كتابته إلى نفر من المسلمين عليهم زيد بن ثابت، وتقدم في إحراق غيرها من المصاحف، فانكر ابن مسعود وأنكر كثير من الناس ما كان من

تحريق المصاحف، واشتد نقد ابن مسعود لعثمان. فكتب الوليد إلى عثمان وقال: إنه يعيبك ويطعن عليك!! فكتب إليه عثمان يأمره بإشخاصه إلى المدينة، فأشخص إليها، وخرج معه أهل الكوفة مشيِّعين ومودِّعين أحسن التشييع وأحرّ التوديع. وبلغ ابن مسعود المدينة، فدخل المسجد وعثمان يخطب على منبر النبي، فلما رأى مدخله قال: ألا انه قد قدمت عليكم دويبة سوء، من يمشي على طعامه يقيءُ.. وكذلك انتقل ابن مسعود بمعارضته من الكوفة إلى المدينة، وأقام فيها مذيعاً لمعارضته هذه عامين أو ثلاثة أعوام، ثم حضرته الوفاة»[٦٩].

ولولا أن يغترّ بهذه السياقة بسطاء الناس لضربت عنها صَفْحاً، لأنها أقل من أن تسمع بلهَ الردّ عليها. وطه لم يأت بالجديد من التقوّلات على الصحابة، وكلامه لا يعدو أن يكون تضخيماً لكلام المستشرقين واجتراراً لأراجيفهم الماكرة.

وكلامه جملة وتفصيلاً يناقض الواقع وأحداث التاريخ، وكل جملة قالها مردودة بأدنى تأمل، وسيرد[٧٠] في ثنايا هذا الكتاب ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يبين وجه الحق ويكشف مواضع المغالطة فيما ذكر الدكتور «طه». والذي يعنينا هنا هو قضية المصحف.

فمن الواضح الجليِّ في الروايات التاريخية أنَّ ابن مسعود بقي في الكوفة عقيب حادثة الجمع العثماني، ولم يشخص إلى

---

(٦٩) الفتنة الكبرى: ١/١٥٩، نقلاً عن «ابن مسعود» للراجحي: ص ٦٢.

(٧٠) موقف ابن مسعود من الوليد وعثمان سيمر مفصلاً - إن شاء الله تعالى ـ في فصلين مستقلين، لكنني أستبق الأمر هنا فأقول: قضية قرض المال لم تكن للوليد بل لسعد بن أبي وقاص، وهذا ممّا يدل على تعمق الدكتور في تاريخ الصحابة!!.

المدينة إلا في آخر أيام حياته، وليس في عهد الوليد كما ذكر. ثم إنه لم يلبث فيها إلا مدة قصيرة توفي بعدها وصلّى عليه عثمان، وليس كما قال أنه بقي ثلاثة أعوام!! كما أنه لم (يعثر) على روايات تاريخية ـ ولو من تلك التي يفضّلها الدكتور ـ تذكر أن ابن مسعود قام بمعارضة عثمان سواءً في الكوفة أو المدينة المنورة؛ بل العكس من ذلك، فقد منع الذين وقفوا يريدون منه البقاء بالكوفة، وأنهم يدافعون عنه إن وصل إليه سوء، وأثنى بعدها على عثمان خيراً. وليس من علاقة ـ كما ذكرت آنفاً ـ بين مقدم ابن مسعود للمدينة المنورة وقضية المصحف لسعة الفاصل الزمني بينهما والذي يزيد على ست سنوات!!

وما أظن أن ما نقله «طه» بحاجة إلى أكثر من هذا التعليق، فهو لا يعدو أن يكون خيالاً عبر عنه بأسلوب مسموم، أو أفكاراً أخذها عن أساتذته!!

ولا تسل بعد ذلك عن الكذب على لسان عثمان رضي الله عنه. وأنه قال في عبد الله ـ صاحب نعلي رسول الله ﷺ وسرّه ووساده ـ أنه «دويبة سوء»(٧١)!!

● وثمة رواية كاذبة تُنقل عن ابن مسعود بشأن المصحف وهي قوله: «لو ملكت كما ملكوا، لصنعت بمصحفهم كما صنعوا»(٧٢).

---

(٧١) سيتضح للقارىء الكريم كذب هذه القولة المنسوبة لعثمان رضي الله عنه، وسيرى أن الخصومة بين الصحابيين الجليلين أقل بكثير مما يصورها أهل الأهواء والدّس، وانظر فيما يأتي فصل (مع الخليفة عثمان بن عفان).

(٧٢) الجمع الصوتي: ص ٥٥ ـ ٥٦.

وهذه أيضاً من تبجُّحات بعض الرواة وافترائهم على عبد الله ما لم يقله، وكأنها تصور أن هناك تيارات واتجاهات بين الصحابة، تصطرع فيما بينها، ويكيد بعضها بعضاً!! وقد كذّب الآلوسي رحمه الله تلك الرواية[73].

مصحف ابن مسعود وما أُثير حوله:

كان بعض الصحابة يكتبون لأنفسهم مصحفاً خاصاً بهم، ولعلَّ ذلك من باب المساعدة على تمكين الحفظ الذي كان المعوّل الأساسي فيه على الذاكرة، ومن أولئك: عبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، وعلي بن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وأنس، وابن عباس، والسيدة عائشة، وغيرهم[74].

وقد نُسبت إلى مصحف عبد الله بن مسعود أشياء كثيرة، وأُثيرت حوله تساؤلات وتشككات لا بد من الإلماح إليها وتبيان وجه الحق فيها:

١ ـ ترتيب سوره:

يخالف ترتيب «المفصَّل»[75] في مصحف ابن مسعود ترتيبه في المصحف الإمام، فهو عنده يبتدىء من سورة الرحمن.

عن زِرٍّ عن عبد الله قال: «قد علمت قرائن رسول الله ﷺ التي كان يقرن، قرينتين قرينتين من أول المفصّل، وكان أول مفصّل

---

(٧٣) روح المعاني: ١/٢٢، نقلاً عن المرجع السابق.
(٧٤) الجمع الصوتي: ص ٣١٩.
(٧٥) هو كما رجَّح ابن حجر من «ق» إلى آخر المصحف الشريف.

ابن مسعود: الرحمن»(٧٦).

وعند البخاري عن شقيق قال: «قال عبد الله: لقد تعلمت النظائر التي كان النبي ﷺ يقرؤهن: اثنين اثنين في كل ركعة، فقام عبد الله ودخل معه علقمة، وخرج علقمة فسألناه، فقال: عشرون سورة من أول المفصّل على تأليف ابن مسعود، آخرهن الحواميم، حم الدخان وعمَّ يتساءلون»(٧٧).

قال الحافظ: «فيه دلالة على أن تأليف مصحف ابن مسعود على غير تأليف العثماني، وكان أوله الفاتحة ثم البقرة ثم النساء ثم آل عمران، ولم يكن على ترتيب النزول»(٧٨).

وهذا الأمر لا غبار عليه إذا علمنا أن ترتيب السور في المصحف ليس توقيفياً بل هو من اجتهاد الصحابة، وعلى ذلك جمهور العلماء(٧٩). لكن الذي رضيه المسلمون هو ما عليه المصحف الإمام.

٢ ـ إدخاله كلمات تفسيرية للآيات في مصحفه:

ينقل عن ابن مسعود أنه كان يقرأ بعض الآيات بزيادة ألفاظ عما هي عليه في المصحف الإمام، ومن ذلك:

ـ «قرأ [ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم] (في

(٧٦) المسند: رقم ٣٩١٠، وانظر كذلك ٣٦٠٧، ٣٩٦٨.
(٧٧) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٩٦.
(٧٨) شرح الحديث السابق، وانظر الحديث رقم ٧٧٥ وشرحه.
(٧٩) الفتح شرح الحديث ٤٩٩٣، وفضائل القرآن: ص ٤١.

مواسم الحج) بزيادة (في مواسم الحج) على القراءة المشهورة»[٨٠].

- وقرأ [فصيام ثلاثة أيام] (متتابعات) بزيادة (متتابعات)[٨١].
- وقرأ [السارق والسارقة فاقطعوا] (أيمانهما)[٨٢].
- وقرأ [الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس] (يوم القيامة)[٨٣].
- وعن علقمة في قوله: [وأتموا الحج والعمرة لله] قال: هي قراءة ابن مسعود: (وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت) لا تجاوز بالعمرة البيت[٨٤].

ومن خلال استعراض تلك الأمثلة يتضح بأدنى تدبُّر أنَّ ذلك ليس من باب القراءات، بل هو من باب التفسير الذي كان عبد الله يكتبه في مصحفه، إذ أنه بعيد عن جَرْس آي القرآن وفصاحته، كما أنه يوضح معاني بعض ألفاظ الآيات أو مرادها كما يبدو ذلك بوضوح، زدْ على ذلك أنَّ هذا الاتجاه ليس خاصاً بابن مسعود، فقد جاء مثله عن غير واحد من الصحابة: «كالقراءة المنسوبة إلى ابن عباس: [ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم] (في مواسم الحج)[٨٥]. وكالقراءة المنسوبة أيضاً إلى ابن الزبير: [ولتكن منكم

---

(٨٠) الجامع لأحكام القرآن: ١/١١٤، نقلاً عن الجمع الصوتي: ص ٣٢٧.
(٨١) تفسير ابن كثير: ٣/١٦٨.
(٨٢) الجمع الصوتي. ص ٢٢٢، تفسير ابن كثير: ٣/١٠٠.
(٨٣) تفسير ابن كثير: ١/٤٨٣.
(٨٤) تفسير ابن كثير: ١/٣٣٤.
(٨٥) الحديث في البخاري رقم ٤٥١٩ ونصه: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقاً في الجاهلية، فتأثموا أن يتَّجروا في المواسم، فنزلت: (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم) (في مواسم الحج). وهذا السياق واضح الدلالة على أن الزيادة تفسيرية سبب للنزول.

أمة يدعـون إلى الخير ويـأمرون بـالمعروف وينهـون عن المنكر] (ويستعينون الله على ما أصابهم). والقراءة المنسـوبة إلى عـائشة وحفصة: [حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى] (صلاة العصر). والقـراءة المنسوبـة إلى أبيّ: [فـلا تميلوا كـل الميـل فتـذروهـا] (كالمسجونة)[86]».

وهذا لا يحتاج إلى جدال في أنه من باب التفسير، وليس من القراءات في شيء، وفي ذلك يقـول الإمام النـووي: «**وأما ابن مسعود فرويت عنه روايات كثيرة: منها ما ليس بثابت عند أهل النقل، وما ثبت منها مخالفاً لما قلناه، فهو محمول على أنه كان يكتب في مصحفه بعض الأحكام والتفاسير، مما يعتقد أنـه ليس بقرآن، وكان لا يعتقد تحريم ذلك، وكان يراه كصحيفة يثبت فيها ما يشاء.**

وكان رأي عثمان والجماعة منع ذلك، لئلا يتطاول الـزمان ويُظنَّ ذلك قرآناً»[87].

أضف إلى ما سبق أنه لو كان من باب القرآن لما سكت عليه الصحابة لأنه حرام، وهم مبرؤون عن الاجتماع على الحرام، وما دام لم يحدث منهم إنكار، فهو من باب التفسيـر، لا شك في ذلك[88].

---

(٨٦) الجمع الصوتي: ص ١٣٤، ٢٢١ - ٢٢٢.
(٨٧) صحيح مسلم بشرح النووي، نقلاً عن الجمع الصوتي: ص ٣٢٧.
(٨٨) الجمع الصوتي: ص ٣٢٧.

٣ ـ إسقاطه الفاتحة من مصحفه:

و «نسبوا إلى ابن مسعود أنه أسقط الفاتحة من مصحفه»[٨٩].

وفي الردِّ على ذلك يقول ابن قتيبة: إنّ ذلك «ليس لظن ابن مسعود أن الفاتحة ليست من القرآن ـ معاذ الله!! ـ ولكنه ذهب إلى أن القرآن إنما كتب وجمع بين اللوحين مخافة الشك والنسيان، والزيادة والنقصان، ورأى أن ذلك مأمون في سورة الحمد لقصرها، ووجوب تعلمها على كل أحد»[٩٠].

ويدل على صحة ما ذهب إليه ابن قتيبة رواية جاءت عن ابن مسعود نفسه فيما رواه أبو بكر الأنباري بسنده عن الأعمش قال: أظن عن إبراهيم، قال: «قيل لعبد الله بن مسعود: لِمَ لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال: لو كتبتها لكتبت معها كل سورة». قال أبو بكر: يعني أن كل ركعة سبيلها أن تفتتح بأم القرآن. قبل السورة المتلوّة بعدها، فقال: اختصرت بإسقاطها، ووثقتُ بحفظ المسلمين لها، ولو أثبتها في موضع فيلزمني أن أكتبها مع كل سورة، إذ كانت تتقدمها في الصلاة»[٩١].

وإن العقل ليرفض أن يكون ابن مسعود قد أسقط الفاتحة لعدم اعتقاده قرآنيتها، إذ لو كان كذلك فكيف كانت تصحّ صلاته؟! ثم أما سمعها من رسول الله ﷺ وهو يتلوها في صلاته، وقد اقتدى به في الليل والنهار؟! وبعده بالشيخين!! كما أنَّه أمّ الناس بالكوفة وأقرأهم القرآن، وقد أخذ كثير من تلامذته القرآن عن غيره من الصحابة، ولو أنهم لاحظوا ذلك منه لما سكتوا!!

(٨٩، ٩٠) المرجع السابق: ص ٣٢٥.

(٩١) المرجع السابق: ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

كل ذلك يدل على سقوط تلك الرواية، وإن صحّت فإنما المراد منها أنه لم يكتبها في مصحفه لأن حفظها بدهي، ومفروض على كل مسلم أن يقرأها في صلاته. هذا مع أن ابن حجر قد ذكر أن الفاتحة مثبتة في مصحفه في أوله وبعدها البقرة فالنساء فآل عمران[٩٢].

٤ ـ قراءته: [والذكر والأنثى]:

عن إبراهيم قال: «قدم أصحاب عبد الله على أبي الدرداء، فطلبهم فوجدهم، فقال: أيكم يقرأ على قراءة عبد الله؟ قال: كلنا، قال: فأيكم يحفظ؟ وأشاروا إلى علقمة، قال: كيف سمعته يقرأ: [والليل إذا يغشى]؟ قال علقمة: [والذكر والأنثى]، قال: أشهد أني سمعت النبي ﷺ يقرأ هكذا، وهؤلاء يريدونني على أن أقرأ [وما خلق الذكر والأنثى]، والله لا أتابعهم»[٩٣].

يقول ابن حجر: «وفي هذا بيان واضح أن قراءة ابن مسعود كانت كذلك»، ثم قال: ثم هذه القراءة لم تُنقل إلا عمَّن ذكرنا هنا، ومن عداهم قرؤوا: [وما خلق الذكر والأنثى]، وعليها استقر الأمر مع قوة إسناد ذلك إلى أبي الدرداء ومن ذكر معه. ولعل هذا مما نسخت تلاوته، ولم يبلغ النسخ أبا الدرداء ومن ذكر معه. والعجب من نقل الحفَّاظ من الكوفيين هذه القراءة عن علقمة وعن ابن مسعود وإليهما تنتهي القراءة بالكوفة، ثم لم يقرأ بها أحد منهم، وكذا أهل الشام حملوا القراءة عن أبي الدرداء ولم يقرأ أحد منهم بهذا، فهذا مما

---

(٩٢) الفتح: شرح الحديث ٤٩٩٦

(٩٣) البخاري، الفتح: رقم ٤٩٤٤، وأخرجه مسلم أيضاً، وانظر تفسير ابن كثير: ٤٣٨/٨.

يقوي أن التلاوة بها نسخت»[٩٤].

ويقول المازري ـ وكلامه جيد ـ: «ولعل هذا وقع من بعضهم قبل أن يبلغهم مصحف عثمان المجمع عليه، المحذوف منه كل منسوخ، وأما بعد ظهور مصحف عثمان فلا يُظن بأحد منهم أنه خالف فيه»[٩٥].

٥ ـ حكّ المعوذتين من مصحفه:

وهذا أخطر ما نسب إلى ابن مسعود، فقد روى البخاري عن زرِّ بن حُبَيش قال: «سألت أبيّ بن كعب عن المعوِّذتين، فقال: سألت النبي ﷺ فقال: قيل لي، فقلت: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»[٩٦].

وروى أيضاً عن زر قال: «سألت أبي بن كعب قلت: أبا المنذر، إنَّ أخاك ابن مسعود يقول كذا وكذا!! فقال أبيّ: سألت رسول الله ﷺ، فقال لي، فقلت. قال: فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ»[٩٧].

---

(٩٤) الفتح شرح الحديث ٤٩٤٤ وما قيل هنا يقال فيما جاء عنه أنه كان يقرأ: (إني لأنا الرزاق ذو القوة المتين)، وهي في المصحف الإمام: (إن الله هو الرزاق) وانظر تفسير ابن كثير: ٤٠١/٧.

(٩٥) الجمع الصوتي: ص ٣٣٩، وانظر هامش نصب الراية للزيلعي بتعليق البنوري: ٣٩٨/١ فما بعدها، وفيه الرد على أبي بكر بن إسحاق الذي يقول أن ابن مسعود نسي كيف يقرأ (وما خلق الذكر والأنثى)، وأن هذا ليس من النسيان في شيء، وقد جاء عن صحابي آخر، وكلام ابن حجر جيد معقول.

(٩٦) البخاري، الفتح: الحديث رقم ٤٩٧٦.

(٩٧) المرجع السابق: رقم ٤٩٧٧.

«ولأحمد: قلت لأبيٍّ: إن أخاك يحكّها من المصحف». وله أيضاً ولابن حبان: «إن عبد الله بن مسعود كان لا يكتب المعوّذتين في مصحفه». ولعبد الله بن أحمد في زيادات المسند والطبراني وابن مردويه عن عبد الرحمن بن يزيد النخعي قال: «كان عبد الله بن مسعود يحكّ المعوذتين من مصاحفه ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله»[٩٨].

وأبادر هنا فأقول: لا شكَّ أن عبد الله بن مسعود لا ينكر قرآنية المعوّذتين، لتوافر القرائن النقلية والعقلية على ذلك، وأما عن حكِّهما من المصحف: فلعلَّ إشكالاً أو وهماً طرأ على الراوي بأنه كان يحكّ «التعوذ» بدلاً من «المعوّذتين» فنقل ذلك وحمله الرواة إلينا[٩٩].

والأدلة النقلية والعقلية التي تدل على أن ابن مسعود لم يكن ينكر المعوّذتين كثيرة، ولا يمكن ردّها بحال، ومن ذلك:

أ ـ إن ابن مسعود كان أشد الناس ملازمة لرسول الله ﷺ في حلّه وترحاله، وليله ونهاره، وصلاته بالمسجد، وقيامه الليل، والسورتان مدنيتان، ومن سنّة النبي ﷺ قراءتهما في الوتر، وعبد الله صحبه في قيام الليل، ولا بد أنه سمعه يقرؤهما في تلك النافلة، وفي غيرها من المناسبات.

ب ـ وأن ابن مسعود شهد العرضة الأخيرة للقرآن الكريم ـ كما سبق وذكرنا ـ وفيها هاتان السورتان.

---

(٩٨) أورد هذه الطرق ابن حجر في شرح الحديثين السابقين.
(٩٩) أفادني بهذا الرأيَ الأستاذ أحمد راتب النفاخ.

جـ - أمر النبي ﷺ الصحابة ومن بعدهم أن يأخذوا القرآن عن عبد الله، وهو لا ينطق عن الهوى، ولا يمكن أن يجري الله على لسانه ما يكون من نتيجته إلا الحق والخير، فهل من المعقول أن ينطق رسول الله ﷺ بكلام يحث فيه الناس أن يأخذوا القرآن عن رجل ينكر المعوذتين؟!

د - إن القرآن العظيم جمع في عهد الصدِّيق ومنه هاتان السورتان بلا خلاف، والجمع تمَّ على مرأى الصحابة وخاصة قرائهم، ومن عيونهم عبد الله، ولو كان في نفسه شيء عن تلكما السورتين لباح به، ولناظرته الصحابة، فقد تناظروا بأقل من هذا، ولو حدث مثل ذلك لذاع وانتشر.

هـ - ثم إنَّ عمر رضي الله عنه قد أقام للناس أبيّ بن كعب يصلي بهم التراويح، وابن مسعود لا بدَّ وأنَّه اقتدى به، فهو قد ذهب للكوفة سنة إحدى وعشرين للهجرة، وأبيّ يحفظ المعوّذتين - كما مر قبل قليل - ومن السنة قراءتهما في الوتر، وهذا يقتضي سماع ابن مسعود لهما منه، ولو كان عنده إشكال حولهما لظهر.

و - أضف إلى ذلك أن عمر أرسل ابن مسعود للكوفة معلِّماً ومقرئاً، ولا يخفى عليه شيء من أمر عامله، ولقد أمره أن يقرىء الناس بلغة قريش ويدع لهجة هُذَيل، فمن باب أولى أن يصحح له خطأ يقع بشأن سورتين من القرآن لو وقع منه ذلك!!

ز - ثم إن المصحف الإمام الذي أرسله عثمان إلى الكوفة يحتوي هاتين السورتين، وابن مسعود لم ينكر منه شيئاً - وغضبه كان لعدم حضور الجمع فقط - وقد رضي وتابع عثمان، وكفى بهذا دليلاً على عدم إنكاره المعوذتين.

ح ـ وعبد الله الذي كان يقرىء الناس القرآن، وفيهم تلامذة عظماء كعلقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، وعَبِيدة السلماني، والأسود بن يزيد، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي، وغيرهم مئات، وهم قد أخذوا القرآن ورووا الحديث عن عمر وعثمان وعلي وحذيفة وأبي الدرداء ومعاذ وسلمان وعائشة وأبيّ وعبد الله بن عمرو وغيرهم ـ أفيعقل من هؤلاء التلاميذ أن يسمعوا المعوّذتين من أولئك الأصحاب ويعلموا إنكار عبد الله لهما ثم يسكتون؟!!

ط ـ وقد ثبت بالأسانيد الصحاح أن قراءة عاصم وقراءة حمزة وقراءة الكسائي وقراءة خَلَف كلها تنتهي إلى ابن مسعود، وفي هذه القراءات المعوّذتان والفاتحة جزء من القرآن وداخل فيه، فنسبة إنكار كونها من القرآن إليه غلط فاحش.

وفي هذا يقول الإمام النووي: «وما نقل عن ابن مسعود في الفاتحة والمعوّذتين باطل ليس بصحيح»(١٠٠).

ويقول أيضاً ـ نقلاً عن المازري ـ في تعليل الرواية الصحيحة: «يحتمل ما روي من إسقاط المعوّذتين من مصحف ابن مسعود أنه اعتقد أنه لا يلزمه كَتب كل القرآن ـ وكتب ما سواهما، وتركهما لشهرتهما عنده وعند الناس(١٠١)».

وابن حزم يقول: «هذا كذب على ابن مسعود وموضوع، وإنما صحّ عنه قراءة عاصم عن زرّ وفيها المعوذتان والفاتحة»(١٠٢).

وكذلك الباقلاني يقول كلاماً مسدَّداً: «إن ابن مسعود لو كان أنكرَ المعوذتين ـ على ما ادعوا ـ:

(١٠٠ ـ ١٠٢) نقلاً عن الجمع الصوتي: ص ٣٣٩ ـ ٣٤١.

أ ـ لكانت الصحابة تناظره على ذلك، وكان يظهر وينتشر، فقد تناظروا في أقل من هذا.

ب ـ وهذا أمر يوجب التكفير والتضليل، فكيف يجوز أن يقع التخفيف فيه؟!

جـ ـ ويجوز أن يكون الناقل اشتبه عليه، لأنه خالف في النظم والترتيب، فلم يثبتهما في آخر القرآن، والاختلاف بينهم في موضع الإثبات غير الكلام في الأصل»(١٠٣).

وفي «فواتح الرحموت بشرح مُسَلَّم الثبوت» عن خلوِّ مصحف ابن مسعود من الفاتحة والمعوذتين: «وجهه: أن هذه السور كانت من أوراده رضي الله عنه، فاكتفى بالحفظ من الكتابة، أو كان مكتوباً عنده في قرطاس مفرد، فاستغنى عن الكتابة بالمصحف»(١٠٤). والله أعلم

٦ ـ إضافة سورتي «الحفد» و «الخلع»:

وهكذا ننتقل من النقصان إلى الزيادة، وكأن الروايات قد أخذت بالتأرجح ككفتي ميزان لا قرار لهما في الوسط، وقد أخذ بكل كفة أحد أطراف المستريبين، ليشككوا المسلمين في قرآنهم، وحَمَلة ذلك الكتاب العظيم. فقد ذكرت تلك الأخبار «أن مصحف

(١٠٣ـ١٠٤) نقلاً عن الجمع الصوتي: ص ٣٣٩ ـ ٣٤١. وابن حجر يذهب إلى أن هاتين السورتين مما لم يتواتر من القرآن عند ابن مسعود. الفتح شرح الحديثين ٤٩٧٦، ٤٩٧٧ ونحن نخالفه في ذلك لما ذكرنا من مبررات، والله تعالى أعلم.

ابن مسعود تضمّن سورتين بنصّ دعاء القنوت، هما «الحفد» و «الخلع»[١٠٥].

وقد أخرج البيهقي وأبو داود - في المراسيل - عن خالد بن أبي عمران أن جبريل نزل بذلك (يقصد: إنا نستعينك ونستغفرك) على النبي ﷺ وهو في الصلاة مع قوله: [ليس لك من الأمر شيء]... الآية، لما قنت يدعو على مُضَر»[١٠٦].

وإضافة سورتين للقرآن شيء لا يقبله عقل:

أ - فعدد السور في القرآن محدود معروف، وأي زيادة تقتضي وقوف الصحابة جميعاً في ردّها وتكذيبها.

ب - ثم إنَّ ابن مسعود الذي كان يتحرّى حتى في ألفاظ الحديث النبوي، أفيعقل عنه أن يخلط بين الحديث والقرآن؟!

جـ - وهل يجوز على أناس عرب بلغوا في تمييز كلام الله عن غيره مبلغاً لا مزيد عليه من بشر؛ أن يخفى عليهم الخلط بينهما، ولا يميزون جَرْس القرآن عن غيره؟!

د - ثم إنَّ الرواية جاءت بخبر الآحاد، فلا يعوّل عليها، ولا يقبل في القرآن إلاّ المتواتر.

هـ - ولعلَّ ابن مسعود قد كتب دعاء القنوت على ظهر مصحفه كي لا ينساه، ورآه بعضهم فظنه قرآناً!!

نماذج من قراءة عبد الله:

ابن مسعود من قبيلة هُذَيل ذائعة الصيت وذات المكانة

(١٠٥) الجمع الصوتي: ص ٣٤١. (١٠٦) الجمع الصوتي: ص ٣٤١.

المرموقة في الشعر، ولهجتها من لهجات العرب المشهورة. وقد كان عبد الله يقرأ بلهجة قومه ـ وقد أبيح لهم ذلك ـ وأسوق هنا بعضاً من الأمثلة على قراءته لتكتمل صورة البحث:

ـ قوله تعالى: ﴿ولا تُسألُ عن أصحاب الجحيم﴾ في قراءة ابن مسعود: [ولن تُسألَ عن أصحاب الجحيم](١٠٧).

ـ وقوله تعالى: ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ في قراءته: [فهلاَّ كانت قرية آمنت](١٠٨).

ـ قوله تعالى: ﴿وقالت: هيتَ لك﴾ هكذا في قراءته(١٠٩).

وقوله سبحانه: ﴿إني أراني أعصر خمراً﴾ قرأها: [إني أراني أعصر عنباً](١١٠).

وقوله عز وجل: ﴿وقضى ربـك ألاَّ تعبدوا إلاَّ إيـاه﴾ في قراءته: [ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه](١١١)

ـ وقوله تعـالى: ﴿ذلك عيسى بن مـريم قولَ الحق﴾ في قراءته: [ذلك عيسى بن مريم قالُ الحق](١١٢).

ـ وقوله سبحانه: ﴿لتركبُنَّ طبقاً عن طبق] في قراءته: [لتركبَنَّ

---

(١٠٧) البقرة: ١١٩. وقد نقلها ابن جرير عنه، والمعنى: لا نسألك عن كفر من كفر بك. تفسير ابن كثير: ١/٢٣٣.

(١٠٨) يونس: ٩٨، تفسير ابن كثير: ٤/٢٣٢.

(١٠٩) يوسف: ٢٣، تفسير ابن كثير: ٤/٣٠٨، وقد قرئت بسبعة أوجه، وفي ذلك يراجع فتح الباري تفسير تلك الآية.

(١١٠) يوسف: ٣٦. قال الضحاك: (إني أراني أعصر خمراً): يعني عنباً، وأهل عمان يسمون العنب خمراً. تفسير ابن كثير: ٤/٣١٤.

(١١١) الإسراء: ٢٣. وكذا قرأ أبي بن كعب والضحاك بن مزاحم، تفسير ابن كثير: ٥/٦١.

(١١٢) مريم: ٣٤ قال الطبري: هو بمعنى (قول الحق)، مثل: العاب والعيب، والذام والذيم، تفسير ابن كثير: ٥/٢٢٥.

طبقاً عن طبق][113].

- وقوله عز وجل: ﴿ فقد كذبوكم بما تقولون ﴾ في قراءته: [فقد كذبوكم بما يقولون][114].

- وقوله سبحانه: ﴿ ليأكلون الطعام ويَمْشُون في الأسواق][115]. في قراءته: [وَيمَشّون] [ويُمَشّون].

- وقوله تعالى: ﴿ ونُزِّل الملائكةُ تنزيلاً ﴾ في قراءته: [ونَزَّل الملائكةَ تنزيلاً][116].

- وقوله تعالى: ﴿ لنحييَ به بلدة ميتاً ﴾ في قراءته: [لننشرَ به][117].

- وقوله تعالى: ﴿ لمن أراد أن يذَّكر ﴾ في قراءته: [لمن أراد أن يتذكر][118].

تلاميذ عبد الله في القراءة، وإلى من تنتهي قراءته من القراء العشرة:

قال ابن الجزري في ترجمة ابن مسعود: «عرض القرآن على النبي ﷺ. عرض عليه الأسود، وتميم بن حذلم، والحارث بن قيس، وزرّ بن حبيش، وعبيد بن قيس، وعبيد بن نضلة، وعلقمة،

(113) الانشقاق: 19، وهكذا - بفتح التاء والباء - قرأ عمر وابن عباس وعامة أهل مكة والكوفة. والمعنى: لتركبَنَّ. يا محمد سماء بعد سماء. وهذا ليلة الاسراء والمعراج. تفسير ابن كثير: 8/381.
(114) الفرقان: 19. ووافقه مجاهد وسعيد بن جبير والأعمش وحميد بن قيس وابن جريج وعمر بن ذر وأبو حيوة.
(115) الفرقان: 20. ووافقه علي وابنه عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود وأبو عبد الرحمن السلمي.
(116) الفرقان: 25، وهكذا قرأ أبو رجاء ويحيى بن يعمر وعمر بن ذر وغيرهم.
(117) الفرقان: 49.
(118) الفرقان: 62، وهكذا قرأ علي وأبيّ وابراهيم النخعي والأعمش وغيرهم. ينظر من الحاشية (114) حتى (118) فتح الباري شرح الحديث 4992.

وعَبِيدة السلْماني، وعمرو بن شرحبيل، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو عمرو الشيباني، وزيد بن وَهْب، ومسروق[119]».

ثم قال: «وإليه تنتهي قراءة عاصم وحمزة والكسائي وخَلَف والأعمش[120]».

وفي «فواتح الرحموت»: «وقد ثبت بالأسانيد الصحاح أنَّ قراءة عاصم، وقراءة حمزة، وقراءة الكسائي، وقراءة خلف، كلها تنتهي إلى ابن مسعود»[121].

وهكذا فإنَّ ثلاثة من القرَّاء السبعة تنتهي قـراءتهم إلى ابن مسعود، وهم: عاصم، وحمزة، والكسائي، وكلهم كوفيون. والرابع هو: خَلَف البزار، من تتمة القراء العشرة.

* * *

---

(١١٩) غاية النهاية في طبقات القراء ١/٤٥٨.

(١٢٠) المرجع السابق ١/٤٥٩.

(١٢١) نقلاً عن الجمع الصوتي: ص ٣٤١، وقد ساق المؤلف سند أولئك القرّاء الى ابن مسعود الى النبي ﷺ.

(١٢٢) انظر بالتفصيل: الجمع الصوتي: ص ١٣٢ ـ ١٣٣، وانظر ما أُلّف في القراءات ص ١٣٦ ـ ١٣٨.

الفصل الخامس

المُفَسِّرُ المُلْهَمُ

- أحسن طرق التفسير
- التفسير بالرأي
- مكانة عبد الله بن مسعود في التفسير
- منابع التفسير عند ابن مسعود
- مناحي التفسير عند ابن مسعود وتشعباتها
- تفسيره القرآن بالقرآن
- استدلاله على رأيه بالآيات القرآنية
- تأييد الحديث الشريف لتفسيرات ابن مسعود
- تفسيرات في الجهاد ونحوه
- في الأحكام والفرائض ونحوها
- الترغيب والترهيب في أسلوبه في التفسير
- سعة عطائه في التفسير ودقة نظراته
- تفسيرات قصيرة موجزة
- أسلوبه الرائع في التفسير
- تفسيرات بمشاهد
- تصحيح الأخطاء
- بين ابن مسعود وابن عباس

المُفَسِّرُ المُلْهَمُ

أحسن طرق التفسير:

قال ابن كثير رحمه الله: «فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير؟ فالجواب: أنّ أصح الطرق في ذلك أن يُفسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة، فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالى: ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾، وقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نزّل إليهم ولعلَّهم يتفكرون ﴾، وقال تعالى: ﴿ وما أنزلنا عليك الكتاب إلَّا لتبيِّن لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (ألَا وإنِّي أُوتيت القرآنَ ومثلَه معه) - يعني السُّنَّة - والسنة أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، إلَّا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن». «**وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة؛ رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرآن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء**

الراشدين والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه»[1].

التفسير بالرأي:

قال ابن كثير: «فأمَّا تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام، لما رواه محمد بن جرير رحمه الله حيث قال: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا سفيان، حدثني عبد الأعلى ـ هو ابن عامر الثعلبي ـ عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (من قال في القرآن برأيه، أو بما لا يعلم، فليتبوأ مقعده من النار)[2]». ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن التفسير، من ذلك ما رواه ابن جرير بسنده عن ابن أبي مليكة: «أنَّ ابن عباس سئل عن آية لو سئل عنها بعضكم لقال فيها، فأبى أن يقول فيها»[3].

مكانة عبد الله بن مسعود في التفسير:

مرَّ بنا قول ابن كثير الذي ذكر فيه كبار الصحابة الذين يؤخذ عنهم التفسير، وعدّ من بينهم ابن مسعود رضي الله عنه، وليس ذلك مجازفة من ابن كثير ـ فما تعودّ علماؤنا هذا الخُلق ـ بل لعلوّ مكانه رضي الله عنه في هذا المجال، وقد كان هو يخبر عن مكانته في تفسير القرآن الكريم وذلك تحدثاً بفضل الله عليه وليدلَّ الناس على من يأخذون عنه دينهم، من ذلك ما حدّث به عن نفسه؛ حيث قال: **«والذي لا إلّه غيره ما من كتاب الله سورة إلاّ أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلاّ أنا أعلم فيما أُنزلت، ولو أعلم احداً هو أعلم**

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/١٢ ـ ١٣.
(٢) وهكذا أخرجه الترمذي والنسائي وأبو داود، وقال الترمذي: هـذا حديث حسن. انظر تفسير ابن كثير: ١/١٥.
(٣) تفسير ابن كثير: ١/١٦، وقال: إسناده صحيح.

بكتاب الله مني تبلغه الإبل لركبت إليه»[٤].

وعن أبي وائل - تلميذ عبد الله - عن ابن مسعود قال: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهنّ»[٥].

وقال ابن كثير: «**ولهذا غالب ما يرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدِّي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: عبد الله بن مسعود، وابن عباس**. ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكونه من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: (بلِّغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)[٦]».

وهكذا يتضح مما تقدم أنَّ ابن مسعود - رضي الله عنه - واحد من كبار مفسِّري الصحابة وأعيانهم، واسمه معدود بعد ابن عباس «حبر الأمة وترجمان القرآن». وإن معاصرة ابن مسعود لنزول القرآن، ومعرفة من نزلت به الآيات وأين نزلت؛ كل ذلك يضيف أبعاداً هامة ودعماً لآرائه ونظراته وفَلْج حجته. وستمر - بإذن الله - في ثنايا هذا الفصل أدلة ومشاهد تقرّ العين، وتطمئن القلب على صدق ما قدّمنا وصحة ما ذكرنا.

---

(٤) صحيح مسلم: رقم ٢٤٦٣.
(٥) تفسير ابن كثير: ١٣/١.
(٦) رواه البخاري، وانظر تفسير ابن كثير: ١٤/١. والأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد، وهي على ثلاثة أقسام: أحداها: ما علمنا صحته ممّا بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل، ولا من هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذبه، وتجوز حكايته لما تقدم، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود الى أمر ديني.

منابع التفسير عند ابن مسعود:

لدى استعراض آراء ابن مسعود في التفسير في واحـد من التفاسير الكبيرة المعتمدة، يمكن للمـرء أن يحدد مشاربه في ذلك، ويضع يده على المنابع التي صدر عنها، وقد تحصّل عندي أن هذا ينحصر في النواحي التالية:

- ما سمعه من النبي ﷺ كتفسير.
- الربط بين آيات القرآن الحكيم.
- ما فهمه من خلال حديث نبوي شريف.
- ما استنبطه من الوقائع والأحداث، والمشاهد والأشخاص، التي تنزلت فيها آيات قرآنية.
- ما يمكن فهمه باللغة، خاصة إذا تذكرنا أن ابن مسعود من قبيلة هُذَيل ذائعة الصيت في الشعر.
- ما أمْلته عليه روحه الشفوف من إشراقات لفهم آيات تتعلق بالدنيا والآخرة، والجنة والنار، ونحوها.
- ما يمكن أن يكون قـد أخـذه عن كعب الأحبـار من الاسرائيليات، وهذا ضئيل جداً كما سيتضح في هذا الفصل إن شاء الله تعالى.

مناحي التفسير عند ابن مسعود وتشعُّباتها:

يلاحظ في تفسير ابن مسعود للآيات أنه متشعِّب النواحي، متعـدِّد الاتجـاهـات، واسـع الأفق، زخم العـطاء، مـع دقـة في الاستنباط، وقوة في الحجة، وإبداع في الأداء، وإذا تتبعت آراءه وجدت في كل فج له رأي، وعند كل مشكلة له حلّ، وإزاء كل

موقف له أسلوب وطريقة. فتجده قد تكلم في آيات الجهاد، والأحكام والفروض، والحلال والحرام، والمشاهد والأشخاص، والترغيب والترهيب، ويصحح الأخطاء ويصوّب الآراء. ويتصدَّى لذلك بكلام طويل حيناً، وقصير حيناً آخر، وتارة يدعم رأيه بالحديث، وأخرى بالآيات، ويغتنم الفرص ويهتبل المناسبات، بأسلوب رائع، ومنطق فذ مسدَّد. وهذا ما ستجده في الفقرات التالية.

تفسيره القرآن بالقرآن:

«عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [قالوا ربنا أمتّنا اثنتين وأحيَيْتَنَا اثنتين]، قال: هي التي في البقرة: [وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم][(٧)]».

استدلاله على رأيه بالآيات:

● عن المخارق بن سُلَيم قال: قال لنا عبد الله: **«إذا حدَّثناكم حديثاً أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله، إنَّ العبد المسلم إذا قال: سبحان الله وبحمده، والحمد لله، ولا إلٓه إلا الله، والله أكبر، تبارك الله؛ أخذهن ملك فجعلهنَّ تحت جناحه، ثم صعد بهنَّ إلى السماء، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة إلَّا استغفروا لقائلهن، حتى يجيء بهن وجه الرحمن عز وجل، ثم قرأ عبد الله: [إليه يصعد الكَلِمُ الطيب والعمل الصالح يرفعه][(٨)]».**

---

(٧) تفسير ابن كثير: ٩٦/١، ١٢٢/٧، قال ابن كثير: وكذا قال ابن عباس والضحاك وقتادة وأبو مالك، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولا مرية.

(٨) تفسير ابن كثير: ٥٢٣/٦، حياة الصحابة: ٤٥/٤، وقد أخرجه الطبراني

● وعن المخارق عن عبد الله قال: «إنَّ المؤمن إذا مات أُجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ فيثبِّته الله، فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبي محمد ﷺ، وقرأ عبد الله: [يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة](٩)».

● وقال رضي الله عنه: «يطرق الناس ريح حمراء- يعني في آخر الزمان - من قِبل الشام، فلا يبقى في مصحف رجل ولا قلبه آية، ثم قرأ ابن مسعود: [ولئن شئنا لنذهبنَّ بالذي أوحينا إليك...] الآية(١٠)».

● وعن أبي الأحوص عن عبد الله قال: «كاد الجُعَل أن يُعذب في جحره بذنب ابن آدم، ثم قرأ: [ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة](١١)».

● وعن زاذان قال: قال عبد الله بن مسعود: «يؤتى بالعبد والأَمَة يوم القيامة، فينادي منادٍ على رؤوس الأولين والآخرين: هذا فلان بن فلان، من كان له حقٌّ فليأتِ إلى حقه، فتفرح المرأة أن يكون لها الحق على أبيها أو أخيها أو زوجها، ثم قرأ: [فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون]. فيغفر الله من حقه ما يشاء، ولا يغفر من

بنحوه، وقال الهيثمي (١٠/ ٩٠): وفيه المسعودي، وهو ثقة - ولكنه اختلط - وبقية رجاله ثقات.

(٩) تفسير ابن كثير: ٤/ ٤١٦، ويبدو أن هذا التفسير فهمه ابن مسعود من أحاديث نبوية، فقد أورد ابن كثير بعد كلام عبد الله هذا حديثاً صحيحاً في ذلك، وبصورة أرحب.

(١٠) تفسير ابن كثير: ٥/ ١١٤.

(١١) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٤٦.

حقوق الناس شيئاً، فينصب للناس فيُنادى: هذا فلان بن فلان، من كان له حق فليأتِ إلى حقه، فيقول: رب، فنيت الدنيا، من أين أوتيهم حقوقهم؟ قال: خذوا من أعماله الصالحة، فأعطوا كل ذي حق حقه بقدر طلبته، فإن كان ولياً لله، ففضل له مثقال ذرة ضاعفها الله له حتى يدخله بها الجنة، ثم قرأ علينا: [إن الله لا يظلم مثقال ذرة، وإن تكُ حسنة يضاعفها]، قال: ادخل الجنة. وإن كان عبداً شقياً قال الملك: ربِّ، فنيت حسناته وبقي طالبون كثير؟! فيقول: خذوا من سيئاتهم فأضعفوها إلى سيئاته، ثم صكوا له صكاً إلى النار»(١٢).

تأييد الحديث الشريف لتفسيرات ابن مسعود:

● عن زرِّ بن حُبَيش «عن ابن مسعود في هذه الآية: [ولقد رآه نزلة أخرى. عند سِدْرة المنتهى] قال: قال رسول الله ﷺ: (رأيت جبريل وله ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل: الدرر والياقوت)(١٣)».

● وعن أبي وائل عن ابن مسعود عن النبي ﷺ في قوله: [ليوفِّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله]، قال: (أجورهم: يدخلهم الجنة، ويزيدهم من فضله: الشفاعة لمن وجبت له الشفاعة، لمن صنع لهم المعروف في الدنيا)(١٤)».

---

(١٢) تفسير ابن كثير: ٢٦٧/٢، رواه ابن أبي حاتم، قال ابن كثير: ورواه ابن جرير من وجه آخر عن زاذان به نحوه، ولبعض هذا الأثر شاهد في الحديث الصحيح.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٤٢٧/٧، قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد قوي. التهاويل: الاشياء المختلفة الألوان.

(١٤) رواه الطبراني، تفسير ابن كثير: ٧٥/٦، وفي هذا دليل واضح على أن ابن مسعود أخذ التفسير من النبي ﷺ.

● وعن أبي الضُّحى أنَّ ابن مسعود قال: «زنى العينين النظر، وزنى الشفتين التقبيل، وزنى اليدين البطش، وزنى الرجلين المشي، ويصدّق ذلك الفرج أو يكذبه، فإن تقدم بفرجه كان زانياً، وإلا فهو اللمم»[١٥].

● وعن زرٍّ بن حبيش عن ابن مسعود في قوله: [وأنذرهم يوم الحسرة إذ قُضي الأمر]، قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، أُتي بالموت في صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، ثم ينادي منادٍ: يا أهل الجنة، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في أعلى عليين ولا في أسفل درج من الجنة إلَّا نظر إليه. ثم ينادي: يا أهل النار، هذا الموت الذي كان يميت الناس في الدنيا، فلا يبقى أحد في ضحضاح من نار ولا في أسفل درك من جهنم، إلَّا نظر إليه، ثم يذبح بين الجنة والنار. ثم ينادي: يا أهل الجنة، هو الخلـود أبد الآبدين، ويا أهل النار هو الخلود أبد الآبدين، فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتاً من فرح ماتوا، ويشهق أهل النار شهقة، لو كان أحد ميتاً من شهقة ماتوا، فذلك قوله: [وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر]، يقول: إذا ذبح الموت»[١٦].

---

(١٥) تفسير ابن كثير: ٤٣٥/٧. وهذا يؤيده حديث في الصحيحين عن النبي ﷺ قال: (إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنى، أدرك ذلك لا محالة، فزنى العينين النظر، وزنى اللسان النطق، والنفس تمنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه). اللمم: صغار الذنوب. كُتب: أي بناءً على ما علمه الله سبحانه من العبد أنه سيفعله، لا على وجه الإجبار.

(١٦) تفسير ابن كثير: ٢٢٨/٥. وهذا يؤيده حديث في الصحيحين بنحوه.

تفسيرات في الجهاد ونحوه:

● «قال ابن مسعود في قوله تعالى: [جاهد الكفار والمنافقين]، قال: بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، فإن لم يستطع فليكفهرً في وجهه»(١٧).

وفي رواية أخرى عنه قال: «**جاهدوا المنافقين بأيديكم، فإن لم تستطيعوا إلاَّ أن تكفهرّوا في وجوههم فاكفهرّوا في وجوههم**»(١٨).

● وفي «قوله تعالى: [والصابرين في البأساء والضرَّاء وحين البأس]، قوله: [وحين البأس]: أي في حال القتال والتقاء الأعداء»(١٩).

في الأحكام والفرائض ونحوها:

● يقول رضي الله عنه في قوله تعالى: [**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**]: «**والذي نفسي بيده إنّ حق تلاوته أن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه، ويقرأه كما أنزل الله، ولا يُحرِّف الكَلِمَ عن مواضعه، ولا يتأوّل منه شيئاً على غير تأويله** »(٢٠).

● ويقول: «القتل في سبيل الله يكفّر الذنوب كلّها إلاّ الأمانة، قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة - وإن قُتل في سبيل الله - فيقال: أدِّ

---

(١٧) تفسير ابن كثير: ١١٢/٤.

(١٨) حياة الصحابة: ٢٩٣/٣، أخرجه ابن عساكر والطبراني بمعناه، قال الهيثمي (٢٧٦/٧): رواه الطبراني بإسنادين في أحدهما شريك وهو حسن الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح

(١٩) تفسير ابن كثير: ٢٩٩/١، ووافقه ابن عباس وأبو العالية ومرة الهمداني ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة وغيرهم.

(٢٠) تفسير ابن كثير: ٢٣٥/١.

أمانتك! فيقول: أي ربّ، كيف وقد ذهبت الدنيا؟! فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فيُنطلق به إلى الهاوية، وتمثّل له أمانته كهيئتها يوم دُفعت إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلّت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين. ثم قال: الصلاة أمانة، الوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة ـ وأشياء عدّدها ـ وأشدّ ذلك الودائع. قال ـ يعني زاذان ـ: فأتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود؟! قال: كذا، قال: صدق، أما سمعت الله يقول: [إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها]؟![21].

● «وعن أبي الأحوص عن عبد الله في قوله: [ولا جدال في الحج]، قال: أن تماري صاحبك حتى تغضبه»[22]

● **وعنه رضي الله عنه: «تعدل شهادة الزور بالشرك بالله، ثم قرأ: [فاجتنبوا الرجس من الأوثان، واجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به»[23].**

● وعنه في قول الله عز وجل: ﴿وآتى المال على حبِّه ذوي القربَى واليتامَى والمساكينَ)، قال: «تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تأمل الغنى وتخشى الفقر»[24].

---

(٢١) الترغيب والترهيب: ٤/٤. قال الحافظ المنذري: رواه أحمد والبيهقي موقوفاً، وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد أنه سأل أباه عنه فقال: إسناده جيد. وهو في الترغيب والترهيب (٢/٥٧٠) وهناك قال المنذري: رواه البيهقي موقوفاً، ورواه بمعناه هو وغيره مرفوعاً، والموقوف أشبه. وهو في تفسير ابن كثير: ٢/٢٩٨، ٦/٤٧٩، مرفوعاً.

(٢٢) تفسير ابن كثير: ١/٣٤٦.

(٢٣) تفسير ابن كثير: ٥/٤١٥.

(٢٤) رواه البيهقي في السنن الكبرى: ٤/١٩٠ موقوفاً، والحاكم عن ابن مسعود =

الترغيب والترهيب في أسلوبه في التفسير

● يقول في قول الله عز وجل: [متكئين فيها على فرش بطائنها من استبرق]: «هذه البطائن، فكيف لو رأيتم الظواهر»[٢٥]؟!.

● وفي قوله تعالى: ﴿ فيهن خَيْرات حِسَان. فبأيِّ آلاءِ ربِّكما تكذِّبان. حُورٌ مَقْصوراتٌ في الخيام﴾، يقول: «إن لكل مسلم خَيْرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب، يدخل عليها كل يوم تحفة وكرامة وهدية لم تكن قبل ذلك، لا مرّاحات، ولا طمّاحات، ولا بَخِرات، ولا ذَفِرات، حُورٌ عِينٌ، كأنهن بَيْضٌ مكنون»[٢٦].

● «وعن أبي وائل قال: خرجنا مع عبد الله - يعني ابن مسعود - ومعنا الربيع بن خُثَيم[٢٧]، فمروا على حداد، فقام عبد الله ينظر إلى حديدة في النار، ونظر الربيع إليها فتمايل ليسقط، فمر عبد الله على أتّون[٢٨] على شاطىء الفرات، فلما رآه عبد الله والنار تلتهب في جوفه قرأ هذه الآية: [إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تَغيّظاً وزفيراً]، فصُعق - يعني الربيع بن خُثَيم - فحملوه إلى أهل بيته، ورابطه عبد الله إلى الظهر، فلم يفق رضي الله عنه»[٢٩].

= مرفوعاً، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرِّجاه، وتعقَّبه ابن كثير بأن الموقوف أصح: تفسير ابن كثير: ١/٢٩٧.

(٢٥) تفسير ابن كثير: ٧/٤٧٨.

(٢٦) تفسير ابن كثير: ٧/٤٨٣. خيرات: جمع خيرة، وهي المرأة الصالحة الحسنة الخلق الحسنة الوجه، قاله الجمهور. وهذا رأي ابن مسعود، أكرمنا الله بذلك بفضله وكرمه.

(٢٧) هو من تلاميذ ابن مسعود.

(٢٨) هو أخدود الجيار والجصاص.

(٢٩) تفسير ابن كثير: ٦/١٠٤.

● وفي قـوله تعالى: [إنَّ شجرة الزقوم طعام الأثيم. كالمُهْل يغلي في البطون] يروي الحسن البصري فيقول: «كان عبد الله بن مسعود والياً لعمر بن الخطاب على بيت مال الكوفة، وإنه أمر يوماً بفضّة فأذيبت، فجعلت تلوَّن ألواناً، فقال: هل بالباب من أحد؟ قالوا: نعم، قال: فأدخلوهم، فأدخلوا، فقال: إن أدنى ما أنتم راؤون شبهاً بالمهل، لهذا»!![30].

سعة عطائه في التفسير ودقة نظراته:

● جاء عنه في قوله تعالى: ﴿ فنادى في الظلمات: أن لا إلّه إلَّا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾، قال: «ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل»[31].

● وعنه في قوله عز وجل: ﴿ يسعى نورهم بين أيديهم ﴾، قال: «على قدر أعمالهم يمرُّون على الصراط: منهم من نوره مثل الجمل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الجبل القائم، وأدناهم نوراً من نوره في إبهامه يتَّقد مرة ويطفأ أخرى»[32]

● وعنه قال: «يحبس الأول على الآخر، حتى إذا تكاملت العدّة أتاهم جميعاً، ثم بدأ بالأكابر، فالأكابر جرماً، وهو قوله: [ثم لننزعَنّ من كلِّ شيعة أيُّهم أشدُّ على الرحمن عِتِيّاً]»[33].

---

(٣٠) سيرة ابن هشام: ١/٣٦٣.

(٣١) تفسير ابن كثير: ٥/٣٦١، وكذا روي عن ابن عباس، وعمر بن ميمون، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

(٣٢) تفسير ابن كثير: ٨/٤١، ١/٨٤.

(٣٣) تفسير ابن كثير: ٥/٢٤٦.

تفسيرات قصيرة موجزة:

● «عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ -: [اهدنا الصراط المستقيم]: قالوا: هو الإسلام»[٣٤].

● «وعن زرٍّ عن ابن مسعود: [ربّيّون كثير]، أي: ألوف»[٣٥].

● وعنه في قوله تعالى: [حتى يلج الجمل في سَمِّ الخِيَاط]، قال: «هو الجمل ابن الناقة، وفي رواية: زوج الناقة»[٣٦].

● وعنه قال: [السائحون]: الصائمون[٣٧].

● وعنه في قوله تعالى: [فردوا أيديهم في أفواههم]، قال: عضوا عليها غيظاً[٣٨]

● وعنه في قوله تعالى: [إنَّ المبذرين كانوا إخوانَ الشياطين]، قال: «التبذير الإنفاق في غير حق[٣٩]».

● و «عن أبي الصَّهْباء البكري أنه سمع عبد الله بن مسعود وهو يُسأل عن هذه الآية: [ومن الناس من يشتري لهوَ الحديث ليضلَّ عن سبيل الله]، فقال عبد الله: الغناء والله الذي لا إلٓه إلا هو، يردِّدها ثلاث مرات»[٤٠].

---

(٣٤) تفسير ابن كثير: ٤٢/١، وبه قال ابن عباس وجابر وغيرهما كثير.
(٣٥) تفسير ابن كثير: ١١١/٢.
(٣٦) تفسير ابن كثير: ٤١٠/٣، وفي رواية عن ابن عباس: الحبل الغليظ في خرم الإبرة، وهو اختيار سعيد بن جبير.
(٣٧) تفسير ابن كثير: ١٥٦/٤، وبه قال ابن عباس.
(٣٨) تفسير ابن كثير: ٤٠١/٤.
(٣٩) تفسير ابن كثير: ٦٦/٥، وكذا قال ابن عباس.
(٤٠) تفسير ابن كثير: ٣٣٣/٦، وكذا قال ابن عباس وجابر وعكرمة وسعيد بن =

● «وعن ابن مسعود: [كما يئس الكفار من أصحاب القبور] قال: كما يئس هذا الكافر إذا مات وعاين ثوابه واطّلع عليه»[٤١].

● وعن أبي العبيدَين قال: سألت ابن مسعود عن: [والمرسلات عُرْفاً]؟ قال: الريح. وكذا قال في: [العاصفات عصفاً. والناشرات نشراً]: إنها الريح»[٤٢].

● وفي قوله تعالى: [فإذا فرغت فانصب. وإلى ربك فارغب]، قال: «إذا فرغت من الفرائض فانصب في قيام الليل»[٤٣].

● «وعن أبي العبيدَين أن ابن مسعود سُئل عن [الماعون]؟ فقال: هو ما يتعاطاه الناس بينهم، من الفأس والقِدْر والدَّلْو، وأشباه ذلك»[٤٤].

أسلوبه الرائع في التفسير:

كان ابن مسعود رضي الله عنه مبدعاً في شرحه للآيات، يرسم لها الصور التي تنبض بالحركة والحياة، ويضرب لها أمثلة حتى لكأن شخوصها تمشي على الأرض، وهذه هي طريقة القرآن وأسلوبه، ولا يستطيعها إلاَّ من عايش التنزيل بروحه وعقله، أو حمل نفسه أن

= جبير ومجاهد ومكحول وعمر بن شعيب والحسن البصري، وخالفهم بعض متفقهة عصرنا!!.

(٤١) تفسير ابن كثير: ١٢٩/٨، وهذا قول مجاهد وعكرمة ومقاتل وغيرهم، واختاره الطبري، وقال قتادة: كما يئس الكفار أن يرجع اليهم الذين ماتوا، وهذا رأي ابن عباس والحسن البصري.

(٤٢) تفسير ابن كثير: ٣٢١/٨، وكذا قال ابن عباس ومجاهد وقتادة.

(٤٣) تفسير ابن كثير: ٤٥٥/٨، وعن ابن عباس نحوه.

(٤٤) تفسير ابن كثير: ٥١٧/٨، وقد جاء ذلك عنه من وجوه كثيرة.

تعيش «في ظلاله»، فخالطت آيات القرآن كل ذرة في جسمه، واستولت على فكره وأخذت بقلبه.

● «عن أبي الأحوص عن عبد الله قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهَوا إلى وادٍ، فدفع أحدهم فعبر، ثم دفع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب؟! إلى الهلكة! ارجع عودك على بدئك! وناداه الذي عبر: هلمَّ إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاء سيل فأغرقه!! فالذي عبر المؤمن، والذي غرق المنافق: [مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء]، والذي مكث الكافر»(٤٥).

● «وعن مرَّة عن عبد الله بن مسعود قال: يرد الناس جميعاً الصراط، وورودهم قيامهم حول النار، ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم، فمنهم من يمرُّ مثل البرق، ومنهم من يمرُّ مثل الريح، ومنهم من يمرُّ مثل الطير، ومنهم من يمرُّ كأجود الخيل، ومنهم من يمرُّ كأجود الإبل، ومنهم من يمرُّ كعدوِ الرجل، حتى إن آخرهم مراً رجل نوره على موضعَي إبهامَيْ قدميه، يمر يتكفَّأ به الصراط، والصراط دَحْضٌ مَزَلَّة، عليه حَسَك كحسك القتاد، حافّتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس»(٤٦).

---

(٤٥) تفسير ابن كثير: ٣٩٢/٢.

(٤٦) تفسير ابن كثير: ٢٤٩/٥، هكذا رواه الترمذي موقوفاً وقال: هذا حديث حسن. والحديث في مسند أحمد مرفوعاً عن ابن مسعود الى النبي ﷺ قال: (يرد الناس النار كلهم، ثم يصدرون عنها بأعمالهم)، وواضح أن عبد الله قد بنى تفسيره على تلك الكلمات النبويات. وهو في الترغيب والترهيب: ٤٢٥/٤ بنحوه، قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن وليس في أصلي رفعه. ومعنى دحض: زلق. مزلة: تزلق عليه الأقدام. حسك: شوك. القتاد: شجر له شوك.

● «وعن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود [وهم فيها كالحون]، قال: ألم تر إلى الرأس المُشَيَّط الذي قد بدا أسنانه وقلصت شفتاه»[٤٧].

تفسيرات بمشاهد:

● «عن الطِّيب[٤٨] عن ابن مسعود في قوله: [قد كان لكم آية في فئتين التقتا] ـ الآية ـ قال: هذا يوم بدر، قال عبد الله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يُضعِفون علينا، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلًا واحداً، وذلك قوله تعالى: ﴿وإذ يُريكُموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلًا ويقللكم في أعينهم[٤٩].

● «وعن مرّة عن ابن مسعود في قوله: [وداود وسليمان إذ يحكمان في الحَرْث إذ نَفَشَتْ فيه غنم القوم]، قال: كرم قد أنبتت عناقيده فأفسدته، قال: فقضى داود بالغنم لصاحب الكرم، فقال سليمان: غيرُ هذا يا نبي الله؟! قال: وما ذاك؟ قال: تدفع الكرم إلى صاحب الغنم، فيقوم عليه حتى يعود كما كان، وتدفع الغنم إلى صاحب الكرم فيصيب منها، حتى إذا كان الكرم كما كان دفعت الكرم إلى صاحبه، ودفعت الغنم إلى صاحبها، فذلك قوله: [ففهَّمناها سليمان][٥٠].

---

(٤٧) تفسير ابن كثير: ٤٩١/٥، وفي هذا حديث عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: (وهم فيها كالحون)، قال: (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته). قال الترمذي، حديث حسن صحيح غريب..

(٤٨) هو مرة الطيب أحد تلاميذ ابن مسعود.

(٤٩) تفسير ابن كثير: ١٣/٢ ـ ١٤.

(٥٠) تفسير ابن كثير: ٣٤٩/٥. وكذا قال ابن عباس.

تصحيح الأخطاء:

وثمة جانب هام في الكلام عن ابن مسعود المفسر، وهو أنَّه كان يصوّب الآراء، ويسدّد الاتجاهات، ويقوّم الخطأ إذا وقع أمامه مفصحاً عن وجه الحقِّ فيه، بكلام هو فصل الخطاب. وبين أيدينا روايات نفيسة وعزيزة تكشف هذا الجانب الهام:

● «عن مسروق قال: كنا عند عبد الله جلوساً، وهو مضطجع بيننا، فأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن قاصّاً عند أبواب كندة[٥١] يقصُّ ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام!! فقال عبد الله ـ وجلس وهو غضبان ـ: يا أيها الناس اتَّقوا الله، من علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؛ فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم ـ فإن الله عز وجل قال لنبيه ﷺ: [قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلِّفين]. إنَّ رسول الله ﷺ لمَّا رأى من الناس إدباراً فقال: (اللهم سَبْع كسَبْع يوسف)، قال: فأخذتهم سَنَة حصَّت[٥٢] كل شيء حتى أكلوا الجلود والميتة من الجوع، وينظر إلى السماء أحدهم فيرى كهيئة الدخان، فأتاه أبو سفيان فقال: يا محمّد إنك جئت تأمر بطاعة الله وبصلة الرحم، وإن قومك قد هلكوا، فادعُ الله لهم. قال الله عز وجل: [فارتقب يوم تأتِ السماء بدخان مبين. يغشى الناس هذا عذاب أليم]، إلى قوله: [إنكم عائدون]. قال: أفيكشف عذاب الآخرة[٥٣]؟!. [يوم نبطش

---

(٥١) هو باب الكوفة.

(٥٢) استأصلت.

(٥٣) هذا استفهام إنكار على من يقول إن الدخان يكون يوم القيامة، كما صرح به في الرواية الثانية فقال ابن مسعود: هذا قول باطل، لأن الله تعالى قال: =

البطشة الكبرى إنا منتقمون]، فالبطشة يوم بدر، وقد مضت آية الدخان، والبطشة، واللزام[٥٤]، وآية الروم[٥٥]» [٥٦]

● وعن أبي وائل قال: «جاء رجل إلى عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ فقال: من أين جئت؟ قال: من الشام، قال: مَن لقيت؟ قال: كعباً[٥٧]، قال: ما حدَّثك كعب؟ قال: حدثني أن السماوات تدور على منكب مَلَك! قال: أفصدقته أو كذبته؟ قال: ما صدقته ولا كذبته! قال: لوددت أنك افتديت من رحلتك إليه براحلتك ورحلها، كذب[٥٨] كعب؛ إن الله تعالى يقول: [إن الله يمسك السموات والأرض

= ﴿إنا كاشفو العذاب قليلاً إنكم عائدون﴾ ومعلوم أن كشف العذاب ثم عودهم لا يكون في الآخرة، إنما هو في الدنيا، شرح النووي لصحيح مسلم: ٦٦٦/٥.

(٥٤) اللزام: المراد به قوله سبحانه وتعالى: ﴿فسوف يكون لزاماً﴾، أي يكون عذابهم لازماً، قالوا: وهو ما جرى عليهم يوم بدر من القتل والأسر، وهي البطشة الكبرى. النووي شرح مسلم: ٦٦٨/٥.

(٥٥) آية الروم: المراد به قوله تعالى: ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾. وقد مضت غلبة الروم على فارس.

(٥٦) هذا لفظ مسلم: رقم ٢٧٩٨. وقال ابن كثير في تفسيره (٢٣٣/٧): وهذا الحديث مُخَرّج في الصحيحين ورواه الإمام أحمد في مسنده، وهو عند الترمذي والنسائي في تفسيرهما، وعند ابن جرير وابن أبي حاتم من طرق متعددة عن الأعمش به. وقد وافق ابن مسعود على تفسير الآية بهذا، وأن الدخان مضى، جماعة من السلف، كمجاهد، وأبي العالية، وابراهيم النخعي، والضحاك، وعطية العوفي، وهو اختيار ابن جرير، إهـ. وممَّن يرى أن آية الدخان لم تمض: علي وابن عباس، ورجَّحه ابن كثير، وبه قال صاحب الظلال عليه رحمات الله (١٠٩/٢٥ ـ ١١٣).

(٥٧) هو كعب بن ماتع المشهور بكعب الأحبار، أدرك عهد النبي ﷺ ولم يره، أسلم في خلافة عمر، توفي (٣٢ هـ) في حمص. أسد الغابة: ٤٨٧/٤، الأعلام: ٢٢٨/٥.

(٥٨) أي أخطأ الحق وما أصابه.

أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده]؟!(٥٩)

● وعن أبي العالية عن ابن مسعود في قوله تعالى: [يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم]... الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فآمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك فإنّ الله يقول: [عليكم نفسكم]... الآية، قال: فسمعها ابن مسعود فقال: مه! لم يجيء تأويل هذه بعد، إن القرآن نزل حيث أنزل، ومنه آيٌ قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آيٌ يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آيٌ يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آيٌ يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض؛ فأمروا وانهوا، فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، عند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية»(٦٠).

● «وعن الأسود بن هلال قال: جاء رجل إلى عبد الله فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني أخاف أن أكون قد هلكت! فقال له عبد الله: وما ذاك؟ قال: سمعت الله يقول: [ومن يوقَ شح نفسه فأولئك

---

(٥٩) تفسير ابن كثير: ٥٤٤/٦، قال: هذا إسناد صحيح إلى كعب والى ابن مسعود.

(٦٠) تفسير ابن كثير: ٢٠٨/٣، والسنن الكبرى: ٩٢/١٠.

هم المفلحون]، وأنا رجل شحيح لا أكاد أن أخرج من يدي شيئاً؟! فقال عبد الله: ليس ذلك بالشحِّ الذي ذكر الله في القرآن، إنما الشحُّ الذي ذكر الله في القرآن أن تأكل مال أخيك ظلماً، ولكن ذلك البخل، وبئس الشيء البخل»[٦١].

بين ابن مسعود وابن عباس:

يشغل اسم هذين الصحابيين الكبيرين حيِّزاً واسعاً في كتب التفسير، وفي ذلك يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وحينئذٍ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السُّنَّة؛ رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه»[٦٢].

ثم يقول: «ومنهم الحَبْر البَحْر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله ﷺ وترجمان القرآن، وببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: (اللَّهم فقِّهْه في الدين، وعلّمه التأويل)[٦٣].

ثم قال: «عن مسروق عن ابن مسعود أنه قال: نعم الترجمان للقرآن ابن عباس»[٦٤].

---

(٦١) تفسير ابن كثير: ٩٨/٨.

(٦٢)، (٦٣) تفسير ابن كثير: ١٣/١.

(٦٤) تفسير ابن كثير: ١٣/١. وقال: هذا إسناد صحيح إلى ابن مسعود أنه قال عن ابن عباس هذه العبارة، وقد مات ابن مسعود رضي الله عنه سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح، وعمِّر بعده ابن عباس ستاً وثلاثين سنة، فما ظنك بما كسبه من العلوم بعد ابن مسعود. إهـ.

والمتتبِّع للتفسير بالمأثور يرى الالتحام والتطابق في كثير من آراء هذين العَلَمين رضي الله عنهما، وهذا يدل على دقّة الفهم، وبُعد النظرة، وقوة النَّزْع في الاستنباط. ولا يخلو أن تجد بينهما اختلافاً في مواطن أخرى، مردّها سعة عطاءات النص القرآني وكأنه مثل شعاع الشمس الذي يعطي في كل ناحية اشعاعاً! ويرجع بعد ذلك إلى ترجّح الأدلة عند أحدهما على ما عند الآخر.

وقد مرّ بنا قسط طيب من هذا القبيل، وأشرت في هوامش هذا الفصل لما اتفق عليه هذا الحبران، وإلى ما اختلفا فيه. وأسوق هنا بعضاً من هذه الآراء.

فممَّا اتفقا عليه مثلاً:

- «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: [قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين]، قال: هي التي في البقرة: [وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم يميتكم ثم يحييكم].

وإلى هذا ذهب ابن عباس فقال: «كنتم أمواتاً فأحياكم]: أمواتاً في أصلاب آبائكم، لم تكونوا شيئاً حتى خلقكم ـ ثم يميتكم موتة الحق، ثم يحييكم حين يبعثكم، قال: وهي مثل قوله: [أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين](٦٥)».

- وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «[والصَّافات صفاً]. وهي الملائكة، [فالزاجرات زجراً] هي الملائكة، [فالتاليات ذكراً] هي الملائكة. وكذا قال ابن عباس ومسروق وسعيد بن جبير

---

(٦٥) تفسير ابن كثير: ١/٩٦ ـ ٩٧.

وغيرهم[٦٦].

- وفي قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّ أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون﴾ قال: عبد الله بن مسعود وابن عباس وغير واحد من السَّلَف: أولياء الله الذين إذا رؤوا ذُكر الله»[٦٧].

- وفي قوله تعالى: ﴿ رُبَما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾، عن «ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة: أنَّ الكفار لمّا عُرضوا على النار تمنَّوا أن لو كانوا مسلمين»[٦٨].

ومما اختلفا فيه:

- وقوع آية الدخان أو عدم وقوعها، وقد سبق الحديث عنها قبل قليل. - وفي قوله تعالى: [يوم نبطش البطشة الكبرى]: «قال ابن عباس: قال ابن مسعود: البطشة الكبرى يوم بدر، وأنا أقول هي يوم القيامة»[٦٩].

- وفي صحيح البخاري «عن عطاء سمع ابن عباس يقول: [وعلى الذين يُطَوَّقونَه فِدْيَةٌ طَعام مسكين] قال ابن عباس: ليست بمنسوخةٍ، هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما، فَلْيُطعمانِ مكان كل يوم مسكيناً[٧٠].

---

(٦٦) تفسير ابن كثير: ٣/٧.
(٦٧) تفسير ابن كثير: ٢١٣/٤.
(٦٨) تفسير ابن كثير: ٤٤٢/٤.
(٦٩) تفسير ابن كثير: ٢٣٧/٧، وقال: إسناد صحيح عنه.
(٧٠) الفتح: رقم ٤٥٠٥.

أما ابن مسعود فيرى أن هذه الآية منسوخة، فعن مرّة «عن عبد الله قال: لمَّا نزلت هذه الآية: [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] قال: يقول: [وعلى الذين يطيقونه] أي: يتجشّمونه، قال عبد الله: فكان من شاء صام، ومن شاء أفطر وأطعم مسكيناً، [فمن تطوَّع]، قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر [فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم]، فكانوا كذلك حتى نسختها: [فمن شهد منكم الشهر فليصمه»(٧١). قال الحافظ في الفتح تعليقاً على حديث ابن عباس السابق: «هذا مذهب ابن عباس، وخالفه الأكثر، وفي هذا الحديث الذي بعده ما يدل على أنها منسوخة»: «عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ: [فدية طعام مساكين]، قال: هي منسوخة»(٧٢). وعن سلمة بن الأكوع قال: «لمَّا نزلت: [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] كان من أراد أن يفطر ويفتدي، حتى نزلت الآية التي بعدها فنسختها»(٧٣).

ولعل فيما بيَّنت دليلاً على ما أسلفت من أنَّ ابن مسعود رضي الله عنه كان مفسِّراً مبدعاً، مسدّد الآراء، قويَّ الحجّة، دقيق الاستنباط، رائع التصوير، قويَّ التأثير.

---

(٧١) تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١.

(٧٢) البخاري، الفتح: رقم ٤٥٠٦.

(٧٣) البخاري، الفتح: رقم ٤٥٠٧ وقال الحافظ: (قوله: «هي منسوخة» هو صريح في دعوى النسخ، ورجحه ابن المنذر من جهة قوله: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ قال: لأنها لو كانت في الشيخ الكبير الذي لا يطيق الصيام، لم يناسب أن يقال له: ﴿وأن تصوموا خير لكم﴾ مع أنه لا يطيق الصيام. إهـ.

الفصل السادس

العالم بالنُّزول

- مكانته في العلم بالنزول
- علمه بمكان نزول الآيات
- علمه بنزول الآيات والأشخاص الذين نزلت فيهم
- علمه بوقت نزول الآيات ونتائجها
- علمه بالمحكم والمنسوخ من الآيات

العَالِمُ بالنُّزول

مكانته في العلم بالنزول

لا يستطيع المرء أن يفسِّر آيَ القرآن ويستنبط منه الأحكام ويفتي الناس ويرشدهم، ما لم يكن على علم واسع بناسخ القرآن ومنسوخه، وإلمام جيِّد بالعلة التي نزلت الآيات لعلاجها، والحدث الذي تدور حوله؛ وإلاَّ غلط وخلّط، وضلّ وأضلّ، وأفتى الناس بالعمل بالمنسوخ وصرفهم عن امتثال أمر المحكم، وهذا مزلق خطر، فالقول بالقرآن أمانة، كما أنَّ إفتاء الناس دين!!

ولقد كان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أحدَ كبار الصحابة الذين عايشوا نزول القرآن، وعلموا أين نزلت آياته، وفيمن نزلت، وأيُّها الناسخ وأيّها المنسوخ، ولقد عبر ابن مسعود عن ذلك فقال: «**والذي لا إله غيره، ما من كتاب الله سورة إلاَّ أنا أعلم حيث نزلت، وما من آية إلا أنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحداً هو أعلم بكتاب الله منِّي، تبلغه الإبل، لركبت إليه**»(١).

والمقطوع في جانب الصحابة أنهم صادقون مخلصون. يعلمون مسؤولية الكلمة ويقدِّرون تبعة الكلام، وحاشاهم أن يبعدوا

---

(١) مسلم: رقم ٢٤٦٣.

عن الحق أو يدلِّسوا، فهم خير قرن عرفته البشرية على مرِّ الأعصار. وابن مسعود واحد من ذلك الرعيل الطيِّب، وكلامه حق وصدق لا يعدو الحقيقة قيد شعرة. ونحن هنا لا نستطيع أن نستقصي علمَ عبد الله في هذا الجانب، وحسبنا أن نعرض نماذج وأمثلة توضح هذه الناحية في شخصيته رضوان الله تعالى عليه.

علمه بمكان نزول الآيات:

● «عن عبد الله قال: بينما نحن مع النبي ﷺ في غار إذ نزلت عليه: [والمرسلات]، فإنه ليتلوها، وإني لأتلقَّاها من فيه، وإن فاه لَرَطب بها، إذ وثبت علينا حيَّةٌ، فقال النبي ﷺ: (اقتلوها) فابتدرناها فذهبت، فقال النبي ﷺ: (وُقيتْ شركم كما وُقيتم شرَّها)، قال عمر[2]: حفظته من أبي: «في غار بمنى»[3].

● و «عن عبد الله قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حَرْث في المدينة، وهو متكىء على عسيب، فمرَّ بقوم من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سَلُوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه، قال: فسألوه عن الروح فقالوا: يا محمد، ما الروح؟ فما زال متوكئاً على العسيب، قال: فظننت أنَّه يُوحى إليه، فقال: [ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً]، فقال بعضهم لبعض: قد قلنا لكم لا تسألوه»[4].

---

(٢) هو عمر بن حفص شيخ البخاري، عليهما رحمات الله.

(٣) هذا لفظ البخاري، الفتح: رقم ٤٩٣٤، مسلم: رقم ٢٢٣٤، المسند: رقم ٣٥٧٤، ٤٠٦٣، وغيرهما، تفسير ابن كثير: ٨/٣٢٠.

(٤) البخاري، الفتح: رقم ١٢٥، ٤٧٢١، مسلم: رقم ٢٧٩٤، المسند: رقم ٣٦٨٨، واللفظ له، وانظر تفسير ابن كثير: ٥/١١١، والآية مكية، وظاهر الرْواية هذه أنها نزلت بالمدينة، فيحتمل تعدد النزول وأن النبي ﷺ انتظر في =

● وقد مرّ عند الكلام على غزوة الحديبية شهود عبد الله نزول سورة الفتح، قال: «وكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي، اشتد ذلك عليه، وعرفنا ذاك فيه، قال: فتنحَّى منتبذاً، قال: فجعل يغطي رأسه بثوبه، ويشتد ذلك عليه، حتى عرفنا أنه قد أنزل عليه، فأتانا فأخبرنا أنه قد أُنزل عليه: [إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً][5]».

علمه بنزول الآيات والأشخاص الذين نزلت فيهم:

● عن علقمة عن عبد الله قال: «إنا ليلة الجمعة في المسجد إذ جاء رجل من الأنصار فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلَّم جلدتموه، أو قَتَل قتلتموه، وإن سكت سكت على غيظ!! واللهِ لأسألنّ عنه رسول الله ﷺ. فلما كان من الغد أتى رسولَ الله ﷺ فسأله، فقال: لو أن رجلاً وجد مع امرأته رجلاً فتكلم جلدتموه، أو قتــل قتلتمـوه، أو سكت سكت على غيظ!! فقـــال: «اللهم افتح»[6]، وجعل يدعو فنزلت آية اللِّعان: [والذين يَرْمُون أزواجَهم ولم يكن لهم شهداء إلَّا أنفسَهم]... هذه الآيات، فابتلي به ذلك الرجل من بين الناس، فجاء هو وامرأته إلى رسول الله ﷺ فتلاعنا، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، فذهبت لتلعن، فقال لها رسول الله ﷺ: (مه)! فأبت، فلعنت، فلما أدبرا قال: (لعلَّها أن تجيء به أسود جَعْداً)[7]، فجاءت به أسودَ جعداً»[8].

= المرة الثانية مزيد بيان، فجاءت الآيات بنفس الجواب، والله أعلم.

(٥) المسند: رقم ٤٤٢١، وقد مرت في تضاعيف هذا الكتاب أمثلة كثيرة في هذه الناحية، كآية الدخان، والبطشة الكبرى.

(٦) أي: بيِّن لنا الحكم في هذا.

(٧) الجعد في صفات الرجال يكون مدحاً وذماً: فالمدح معناه أن يكون شديد =

● وعند أبي يعلى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما نزلت: [من ذا الذي يُقْرِض اللهَ قرضاً حسناً]، قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟! قال: (نعم يا أبا الدحداح)، قال: أرنا يدك، قال: فناوله يده، قال: قد أقرضت ربي حائطي - وحائطه فيه ستمائة نخلة - فجاء يمشي حتى أتى الحائط، وأمُّ الدحداح فيه وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح، فقالت: لبيك، قال: اخرجي فقد أقرضته ربي»[9]!!

● وعنه رضي الله عنه قال: «مرَّ الملأ من قريش على رسول الله ﷺ وعنده: خبّاب وصهيب وبلال وعمار، فقالوا: يا محمد، أرضيت بهؤلاء؟! فنزل فيهم القرآن: [وأنذرْ به الذين يخافون أن يُحشروا إلى ربهم]، إلى قوله: [أليس اللهُ بأعلمَ بالشاكرين][10].

= الأسر والخلق، أو يكون جعد الشعر، وهو ضد السَّبط، لأن السبوطة أكثرها في شعور العجم. وأما الذم: فهو القصير المتردد الخَلق، وقد يطلق على البخيل أيضاً، يقال: رجل جعد اليدين، ويجمع على الجعاد.

(٨) مسلم: رقم ١٤٩٥، المسند، رقم ٤٠٠١، ٤٢٨١، تفسير ابن كثير: ١٦/٦. والرجل هو هلال بن أمية أو عويمر العجلاني، أو أنّ الآيات نزلت فيهما لاتحاد القصة. انظر الفتح: شرح الحديث ٤٧٤٧، والنووي شرح مسلم: ٧١٣/٣.

(٩) حياة الصحابة: ٣٣٤/٢، تفسير ابن كثير: ٤٤١/١، قال الهيثمي (٣٢٤/٩): رواه أبو يعلى والطبراني، ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(١٠) المسند: رقم ٣٩٨٥، تفسير ابن كثير: ٢٥٤/٣ حلية الأولياء: ٣٤٦/١، حياة الصحابة: ٣٢/٣ - ٣٣، قال الهيثمي (٢١/٧): رجال أحمد رجال الصحيح غير كردوس، وهو ثقة. وفي المسند: (أليس الله بأعلم بالظالمين) وهو خطأ، والصواب ما أثبته.

علمه بوقت نزول الآيات ونتائجها:

● عن عون بن عبد الله عن أبيه أن ابن مسعود قال: «ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: [ألم يأنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله]. إلا أربع سنين»[11].

● وعن علقمة عن عبد الله قال: «لما نزلت: [الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟! فقال رسول الله ﷺ: ليس هو كما تظنون؛ إنَّما هو كما قال لقمان لابنه: [يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم][12]».

علمه بالمحكم والمنسوخ من الآيات:

● عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «من أراد أن يقرأ صحيفة رسول الله ﷺ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ هؤلاء الآيات: [قُلْ تعالَوا أتلُ ما حرَّمَ ربُّكم عليكم ألَّا تشركوا به شيئاً] إلى قوله: [لعلَّكم تتَّقون][13].

● وعن مرّة عن عبد الله قال: «لمَّا نزلت هذه الآية: [وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين] قال: يقول: [وعلى الذين

(١١) مسلم: رقم ٣٠٢٧، جامع الأصول: ٣٧٦/٢، تفسير ابن كثير: ٤٥/٨ بصائر ذوي التمييز: ٥٤١/٢. يأن: يَحِن.

(١٢) البخاري، الفتح: رقم ٣٢، مسلم: رقم ١٢٤ واللفظ له، والترمذي، وغيرهم، تفسير ابن كثير: ٢٨٨/٣.

(١٣) تفسير ابن كثير: ٣٥٣/٣، أخرجه الترمذي بلفظ: «من سره أن ينظر الى الصحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ...» وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، قوله «التي عليها خاتمه»: كناية عن أن هذه الآيات محكمات غير منسوخات.

يطيقونه] أي يتجشَّمونه. قال عبد الله: فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعمَ مسكينا، [فمن تطوع] قال: يقول: أطعم مسكيناً آخر، [فهو خير له، وأن تصوموا خير لكم]، فكانوا كذلك حتى نسختها: [فمن شهد منكم الشهر فليصمه](١٤).

● وفي قولـه تعالى: [ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلَّا أن تكون تجارة عن تراض منكم] روى علقمة عن عبد الله قال: «إنها محكمة، ما نُسخت، ولا تُنسخ إلى يوم القيامة»(١٥).

● وعنه في قوله تعالى: [وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله]، قال: «نسَختها الآية التي بعدها»(١٦).

* * *

وهكذا ظهر لنا بوضوح وجلاء أن ابن مسعود ذو مكانة رفيعة في قراءة القرآن، وقد أوتي صوتاً عذباً حتى وصفت قراءته «بالقراءة الغضّة». وأنه من الذين جمعوا القرآن العظيم في صدورهم ووعوه في قلوبهم. وأنَّ الخلاف الذي وقع بينه وبين عثمان ليس غريباً، ويكفيه أنه تنازل عن رأيه ولزم جماعة الصحابـة. كما تبـدَّى لنا واضحاً منزلته العالية في التفسير، ومقدرته على انتزاع المعاني من الآيات، علاوة على معرفته بناسخ القرآن من منسوخه، وأين نزل وفيمن نزل.

---

(١٤) تفسير ابن كثير: ٣٠٨/١، وقد سبق التحقيق في هذه المسألة في بحث المفسر فقرة «بين ابن مسعود وابن عباس».

(١٥) تفسير ابن كثير: ٢٣٤/٢.

(١٦) تفسير ابن كثير: ٥٠٣/١، وجاء مثله عن ابن عباس وعلي والشعبي وكعب الأحبار وسعيد بن جبير، وغيرهم والآية التي بعدها هي: (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها..).

ولكن ابن مسعود ـ وهو الصحابي الطَّموح ذو النفس التوَّاقة للعلم ـ ما اكتفى بالمصدر الأول وبالنبع الأساسي الذي هو القرآن؛ بل وجَّه اهتمامه أيضاً إلى المعين الثاني والمصدر التالي للمسلمين، وهو حديث رسول الله ﷺ، فعبَّ منه، ونهل من فيضه، وحمل قسماً كبيراً من السنة النبوية.

فلننتقل إلى هذا الجانب الهام من عِلْم الرجل لنرى أيضاً فيه سعة حفظه، ودقة فهمه، وكثرة مروياته.

* * *

الفصل السّابع

المحدّثُ الكبيرُ

- منابع حديثه
- تحرّيه الشديد في التحديث
- دقته في نقل حديث رسول الله ﷺ، وتنبه تلاميذه على عدم خلط كلامه بالحديث النبوي، وقوة ذاكرته في عدم نسيانه ما حدّث به.
- يحفظ الحديث ودليله من القرآن الكريم.
- يحدِّث ويدعم حديثه بآية من القرآن الكريم.
- هل صحيح أن عمر نهاه عن نشر حديث النبي ﷺ؟
- مكانته في الحديث بين الصحابة، وعدد مروياته، ومن روى عنه
- هل هو من العبادلة؟
- أصح الأسانيد
- نماذج من مروياته

المحدِّثُ الكبيرُ

كان سيدنا رسول الله ﷺ يتلقّى الوحي عن ربه سبحانه وتعالى، ويحفظ القرآن العظيم الذي تُنقش كلماته بأحرف من نور على قلبه الشريف، وتأبى المحوَ مصداقاً ووفاءً بموعود الله له: [سنقرئك فلا تنسى]، ثم يبلّغ ما أُنزل عليه صحابته الكرام رضوان الله عليهم كما أُنزل، ويأمر كتّاب الوحي أن يكتبوه. كما أنه ﷺ كان ينطق بجوامع الكلم، يفسّر غامض الآيات، ويوضح مقاصدها، ويبيّن مراميها، ويفصّل مجملها؛ كل ذلك بوحي منه سبحانه كما قال عز من قائل: [إن هو إلاّ وحي يوحى]. ولقد بلغت أحاديثه عليه الصلاة والسلام آلافاً كثيرة، وهذا مصداق ما قاله: (ألاَ إني أوتيت القرآن ومثله معه).

وكان الأصحاب ـ رضي الله عنهم ـ يحفظون عن نبيِّهم تلك الأحاديث التي هي المصدر الثاني لتعاليم دينهم، وكانوا يميزون بين المصدرين، فلا يخلطون بين القرآن والحديث الشريف. ولم يكن الصحابة في هذا على مستوىً واحد، فمنهم المكثر وفيهم المقلّ، ومنهم الذي تلقاه عن النبي مشافهة. وفيهم من أخذه عن أصحابه، ومنهم من لزم النبي طويلاً، وفيهم غير ذلك، وبعضهم لازمه في حلّه وترحاله، وبعضهم اقتصرت صحبته له على أوقات قليلة. ونتيجة لهذا وذاك، وُجد في الصحابة المكثرون من الحديث

والمقلّون فيه، ومنهم من أخذ الحديث مباشرة، ومنهم من حفظه بالواسطة، ومنهم من أخذ من المصدرين؛ فأين مكان ابن مسعود في ذلك، وهل هو من المكثرين أم من المقلين؟

منابع حديثه:

قال ابن حجر رحمه الله: «روى عن النبي ﷺ، وعن سعد بن معاذ، وعمر، وصفوان بن عسّال»[1].

وهؤلاء الذين روى عنهم عن النبي ﷺ هم من المقلّين في الحديث، ومعنى ذلك أن جلّ ما رواه ابن مسعود من الحديث هو عن رسول الله ﷺ دونما واسطة، وهذا ما يبدو جلياً في كتب الحديث. ولقد حصّل ذخيرته الحديثية بصور مختلفة، وبأساليب متعددة، تنم عن ذكاء كبير:

● فأحياناً يسأل النبي ﷺ بأدب جمّ: عن أبي عمرو الشيباني قال: «حدثني صاحب هذه الدار وأشار إلى دار عبد الله ـ قال سألت رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها). قلت: ثم أي؟ قال: (برُّ الوالدين). قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). قال: حدثني بهنّ ولو استزدته لزادني»[2].

● وأحياناً أخرى يكون في مشهد من الصحابة، فيستثيرهم النبي ﷺ ليسألوه فيعلّمهم، فيحفظ عبد الله ذلك الموقف وما قيل فيه: فعنه رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ (أيُّكم مال وارثه

---

(١) تهذيب التهذيب: ٢٧/٦.

(٢) البخاري، الفتح، رقم ٥٢٧، مسلم: رقم ٨٥، واللفظ له، المسند: رقم ٣٨٩٠، وغيرهم.

أحبُّ إليه من ماله)؟ قال: قالوا: يا رسول الله، ما منَّا أحد إلاَّ ما له أحب إليه من مال وارثه! قال: (اعلموا أنه ليس منكم أحد إلا مال وارثه أحب إليه من ماله؛ ما لَكَ من مالِكَ إلاَّ ما قدّمت، ومال وارثك ما أخرّت). قال: وقال رسول الله ﷺ: (ما تعدون فيكم الصُّرعة)؟ قال: قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: قال: (لا، ولكن الصُّرَعة الذي يملك نفسه عند الغضب). قال: وقال رسول الله ﷺ: (ما تعدون فيكم الرَّقوب)[3]؟ قال: قلنا: الذي لا ولد له، قال: (لا، ولكن الرقوب الذي لم يقدِّم من ولده شيئاً)[4]».

● وتارة يأتي سائل فيسأل النبي ﷺ في أمـــر من أمور الدين؛ فيهتبل عبد الله الفرصة، ويعي بقلبه الجواب: عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود قال: «قال رجل لرسول الله ﷺ: كيف لي أن أعلم إذا أحسنت وإذا أســأت؟ فقال النبي ﷺ: (إذا سمعت جيرانك يقولون: قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون: قد أسأت فقد أسأت)[5].».

● وتارة أخرى يستثيره النبي ﷺ - لمكانته عنده - ويفاجئه بأسئلة كبيرة ليزيد من اهتمامه بما وراءها، فيلزم ابن مسعود الصمت ويترك جوابها له ﷺ: وهذا ما يحدثنا عنه فيقول: «دخل رسول الله

---

(٣) هو الرجل والمرأة إذا لم يعش لهما ولد، لأنه يرقب موته ويرصده خوفاً عليه، فنقله النبي ﷺ الى الذي لم يقدم من الولد شيئاً: أي يموت قبله، تعريفاً أن الأجر والثواب لمن قدم شيئاً من الولد، وأن الاعتداد به أكثر والنفع فيه أعظم.

(٤) المسند: رقم ٣٦٢٦، وأخرج البخاري الفصل الأول منه، وأخرج مسلم أصل هذا الحديث، وانظر تفسير ابن كثير: ٢/١٠٠.

(٥) المسند: رقم ٣٨٠٨، ورواه ابن ماجه وابن حبان، والهيثمي (١٠/٢٧١) وعزاه الى الطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

ﷺ فقال: (يا ابن مسعود)، فقلت لبيك يا رسول الله ـ قالها ثلاثاً ـ قال: تدري أي الناس أفضل)؟ قلت الله ورسوله أعلم. قال: (فإن أفضل الناس أفضلهم عملاً، إذا فقهوا في دينهم). ثم قال: (يا ابن مسعود)، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: (تدري أي الناس أعلم)؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: إن أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس، وإن كان مقصِّراً في العمل، وإن كان يزحف على اسْتِه زحفاً. واختلف من كان قبلي على ثنتين وسبعين فرقة، نجا منها ثلاثة وهلك سائرهن: فرقة وازت[٦] الملوك وقاتلوهم على دينهم ودين عيسى بن مريم، وأخذوهم وقتلوهم وقطعوهم بالمناشير. وفرقة لم يكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بأن يقيموا بين ظهرانيهم، فيدعوهم إلى الله ودين عيسى بن مريم؛ فساحوا في البلاد وترهَّبوا، قال: وهم الذين قال الله عز وجل: [ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلاَّ ابتغاء رضوان الله] ـ الآية، فقال النبي ﷺ: (من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يتبعني فأولئك هم الهالكون)[٧]».

● ومن جميل استثارته وتنبيهه ﷺ لابن مسعود أنه كان يعلمه الأمور الجليلة والخطيرة، فعنه رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: (يا عبد الله، أيُّ عُرَى الإسلام أوثق)؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: (الولاية في الله: الحب في الله، البغض في الله)[٨].

● وكان في أحيان أخرى ينقل حديثاً نبوياً مع مشهد رائع

(٦) الموازاة: المقابلة والمواجهة.

(٧) حياة الصحابة: ٢٨٦/٣، قال الهيثمي (٢٦٠/٧): رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح، غير بُكير بن معروف، وثقه أحمد وغيره، وفيه ضعف.

(٨) السنن الكبرى: ٢٣٣/١٠.

مشخّص، يصور لنا فيه أفعال النبي ﷺ وطريقته في التعليم لإيصال الفكرة إلى أذهان محدِّثيه، وهذا ما يرويه لنا فيقول: «خطّ النبي ﷺ خطًّاً مربعاً، وخطّ خطاً في الوسط خارجاً منه، وخطّ خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي في الوسط، وقال: هذا الإنسانْ، وهذا أجله محيط به ـ أو: قد أحاط به ـ وهذا الذي هو خارجٌ أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض، فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا»(٩).

● ونتيجة لتلك الصحبة الطويلة، والشهود المستمر للجلسات النبوية، تحصّل لدى ابن مسعود علم غزير، وذخيرة كبيرة، دعت النبي ﷺ أن يتعجب ذات مرة من عبد الله كيف يتساءل عن أحد الأمور!! وهذا ما يرويه لنا عن نفسه فيقول: «**إن النبي ﷺ قال: (ستكون بعدي أمراء يؤخّرون الصلاة عن مواقيتها، ويحدثون البدعة، فقال ابن مسعود: وكيف أصنع إن أدركتهم؟ قال: (تسألني**

---

(٩) البخاري، الفتح: رقم ٦٤١٧، والترمذي، المسند: رقم ٣٦٥٢. قال الحافظ في الفتح: قيل: هذه صفة الخط [شكل] وقيل: صفته [شكل] وقيل: صفته [شكل] وقيل: صفته [شكل] ورسمه ابن التين هكذا

	الأجل	
الأمل IIII		الانسان

ثم قال: الأول المعتمد، وسياق الحديث يتنزَّل عليه: فالإشارة بقوله: (هذا الانسان): الى النقطة الداخلة، وبقوله (هذا أجله محيط به): إلى المربَّع، وبقوله: (وهذا الذي هو خارج أمله): إلى الخط المستطيل المنفرد، وبقوله: (وهذه): الى الخطوط، وهي مذكورة على سبيل المثال لا أنَّ المراد انحصارها في عدد معين.

الأعراض: جمع عرض ـ بفتحتين ـ وهو ما يصيبه في الدنيا من الشر.

نهشه: أي أصابه، وعبَّر بالنهش ـ وهو لدغ ذات السمّ ـ مبالغة في الاصابة والهلاك. إهـ مختصراً.

ابن أمِّ عبد كيف تصنع؟! لا طاعة لمن عصى الله)[10]».

تحرّيه الشديد في التحديث:

انطلق الصحابة الكرام بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام إلى أمصار الدنيا، يعلمون الناس الإسلام، ويبلغونهم عن نبيِّهم شرائع الدين الحنيف، ويبيِّنون لهم الحلال والحرام. وكان ابن مسعود واحداً من أولئك، وكانت وجهته إلى الكوفة، حيث لبث فيها سنين طويلة، ونشر بين أهلها علماً غزيراً، فكان بحق أستاذ الكوفة الأكبر[11].

ولكن عبد الله ـ شأن الصحابة جميعاً ـ كان يتحرَّى في تحديث الناس خشية أن يزيد حرفاً لم يقله النبي ﷺ، أو أن يفهم سامعوه أن نقل الحديث عن رسول الله عليه الصلاة والسلام سهل؛ فيخبط الناس في التيه بلا هادٍ. ولقد أوضح هذا الجانب فيه شيخ الإسلام الذهبي، فوصفه قائلاً: «كان ممَّن يتحرَّى في الأداء، ويشدِّد في الرواية، ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ»[12].

ولقد نقلت لنا كتب الحديث والتراجم صوراً عجيبة من تحريه في نقل حديث رسول الله ﷺ، وخوفه عندما يقول: قال رسول الله، وهذه جملة من تلك الأخبار:

● عن عمرو بن ميمون قال: «كان عبد الله ـ **تأتي عليه السَّنَة**

(۱۰) السنن الكبرى: ۳/١٢٤.

(۱۱) سيأتي إن شاء الله تعالى فصل مستقل عنوانه: «المعلّم الفذّ» وآخر بعنوان «تلامذته»، أوضح فيهما نشره للعلم، وأسلوبه، ونبذة يسيرة عن أبرز تلاميذه، مع إلمام كاف بأسماء قسم كبير منهم.

(۱۲) تذكرة الحفاظ: ۱/۱۳ ـ ١٤.

لا يحدّث عن رسول الله ﷺ، فحدّث ذات يوم عن رسول الله ﷺ بحديث، فعلته كآبة، وجعل العرق يتحادر[١٣] على وجهه ويقول: نحو هذا أو قريباً من هذا»[١٤].

● وهذا تلميذ آخر هو علقمة بن قيس يؤكد لنا هذا الأمر، فيروي «أن عبد الله بن مسعود كان يقوم قائماً كل عشية خميس، فما سمعته في عشية منها يقول: قال رسول الله غير مرة واحدة، قال فنظرت إليه وهو معتمد على عصا، فنظرت إلى العصا تَزَعْزَع[١٥]»!!

● ويروي عمرو بن ميمون موقفاً آخر أشدَّ تأثيراً وأعمق دلالة، فيقول: **«ما أخطأني - أو قلّما أخطأني - ابن مسعود خميساً - قال ابن أبي عدي[١٦]: عشية خميس - إلا أتيته، قال: فما سمعته لشيء قط يقول: قال رسول الله ﷺ، فلمّا كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ - قال ابن أبي عدي: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول - فنكس! قال: فنظرت إليه وهو قائم، محلول أزرار قميصه، قد اغرورقت عيناه، وانتفخت أوداجه، فقال: أو دون ذاك، أو فوق ذاك، أو قريباً من ذاك، أو شبيهاً بذاك»[١٧]!!**

● ولعل السبب في تحرِّي عبد الله رضي الله عنه هو أنه كان يلزم نفسه بأن يروي الحديث النبوي بلفظه، وهذا ما تشعِر به الرواية

---

(١٣) أي ينزل.

(١٤) أخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي: انظر حياة الصحابة: ٧٦٢/٣، طبقات ابن سعد: ١٥٦/٣.

(١٥) طبقات ابن سعد: ١٥٦/٣ - ١٥٧.

(١٦) هو أحد رجال السند، وهذا أمانة منهم رحمهم الله، في أنهم كانوا يحدثون باللفظ الذي سمعوه.

(١٧) المسند: رقم ٤٣٢١.

الأخيرة، وليعلّم ـ بعد ذلك ـ تلامذته التحرّي والتشدُّد في نقل الحديث وضبطه، ثم ـ قبل ذلك وبعده ـ ذاك الحديث المخيف الذي رواه ابن مسعود نفسه عن النبي ﷺ، كما رواه جملة من الصحابة؛ يرهّب فيه من الكذب عليه ﷺ، لأن ذلك هو اجتراء على الشرع، وإلزام الناس بما لا يلزم، وصرفهم عما هو من الفرائض ـ يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «جمعنا رسول الله ﷺ ونحن أربعون، قال عبد الله: فكنت من آخر من أتاه، فقال: (إنكم مصيبون، ومنصورون، ومفتوح لكم، فمن أدرك ذلك منكم فليتق الله، وليأمر بالمعروف، ولينهَ عن المنكر، ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار[18])».

دقته في نقل حديث رسول الله ﷺ، وتنبه تلامذته على عدم خلط كلامه بالحديث النبوي، وقوة ذاكرته في عدم نسيان ما حدث به:

● كان رضي الله عنه يحدِّث تلامذته بكلام من عنده، ويدعم قوله بحديث سمعه من رسول الله ﷺ، وينبههم على أن يميزوا بين المصدرين، وهذا ما يحدثنا به تلميذه الحارث بن سُوَيد قال: «حدثنا عبد الله حديثين، أحدهما عن نفسه والآخر عن رسول الله ﷺ، قال: قال عبد الله: إنَّ المؤمن يرى كأن ذنوبه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى كأن ذنوبه كذباب وقع على أنفه، فقال هكذا[19]، فطار. قال: وقال رسول الله ﷺ: (لَلَّهُ أفرحُ بتوبة

---

(١٨) المسند: رقم ٣٦٩٤، والترمذي مختصراً، وابن حبان، وقد أخرجه الشيخان عن غير ابن مسعود، انظر جامع الأصول: ١٠/٦١٠.

(١٩) أي: نحّاه بيده أو دفعه.

أحدكم من رجل خرج بأرض دوِّيَّة[٢٠] مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، وزاده وما يصلحه، فأضلّها، فخرج في طلبها، حتى إذا أدركه الموت فلم يجدها قال: أرجع إلى مكاني الذي أضللتها فيه، فأموت فيه، قال: فأتى مكانه، فغلبته عينه، فاستيقظ فإذا راحلته عند رأسه، عليها طعامه وشرابه وزاده وما يصلحه)[٢١]».

● وكان إذا حدث أناساً حديثاً في وقت، ثم عادوا إليه وسألوه عنه بعد مدة، فإنه يحدث به كما هو لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا ما يحدثنا به أبو رافع - مولى النبي ﷺ -: «عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب يأخذون بسننه ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوف[٢٢] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل). قال أبو رافع: فحدثت عبد الله بن عمر فأنكره عليَّ، فقدم ابن مسعود فنزل بقناة[٢٣]، فاستتبعني إليه عبد الله بن عمر يعوده، فانطلقت معه، فلما جلسنا سألت ابنَ مسعود عن هذا الحديث، فحدَّثنيه كما حدثته ابن عمر[٢٤]».

---

(٢٠) هي الفلاة والمفازة.

(٢١) البخاري، الفتح: رقم ٣٦٠٨، مسلم: رقم ٢٧٤٤، المسند: رقم ٣٦٢٧ واللفظ له، وانظر جامع الأصول: ٢/٥٠٨.

(٢٢) الخلوف: جمع خلف، وهو الخالف بالشر، وأما بفتح اللام فهو الخالف بخير.

(٢٣) واد من أودية المدينة، عليه حرث ومال وزرع، وهو غير مصروف.

(٢٤) مسلم: رقم ٥٠، جامع الأصول: ١/٣٢٥.

يحفظ الحديث ودليله من القرآن الكريم:

وهذه ناحية هامة عند عبد الله، فكان يسمع الحديث من في النبي ﷺ ويصغي إلى ما يقرؤه بعد ذلك من قرآن، وفي هذا دعم للحديث وتقوية له من جهة، وأن الحديث تفسير لتلك الآية - أو الآيات - من جهة ثانية. وله في هذا المجال صولات وجولات، ومواقف وأحاديث خالدات، نسوق بعضاً منها لإضاءة هذا الجانب المخبوء في شخصيته رضي الله عنه:

● عن عبد الله بن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: (إنَّ للشيطان لَلَمّة[٢٥] بابن آدم، وللمَلَك لَمَّة، فأمّا لمّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأمّا لمّة الملَك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوَّذ بالله من الشيطان، ثم قرأ [الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً]... الآية)[٢٦]».

● وعن أبي وائل عن عبد الله قال: «خطّ رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيماً). قال: ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: (هذه السُبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه)، ثم قرأ: [وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل][٢٧]».

---

(٢٥) اللمة: هي الهمة التي تقع في القلب من فعل الخير والشر والعزم عليه.

(٢٦) رواه ابن أبي حاتم والترمذي والنسائي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حسن غريب. انظر تفسير ابن كثير: ١/٤٧٥، جامع الأصول: ٢/٥٨.

(٢٧) المسند: رقم ٤١٤٢، ٤٤٣٧، ورواه الدارمي وابن حبان والحاكم.

● وعن ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: (إن لكل نبي ولاةً من النبيين، وإن وليِّي أبي وخليل ربِّي إبراهيم)، ثم قرأ: [إن أولى الناسِ بإبراهيمَ لَلَّذين اتبعوهُ وهذا النبي والذين آمنوا، واللهُ وليُّ المؤمنينَ][٢٨]».

● وعن أبي وائل عن عبد الله «عن النبي ﷺ قال: (من حلف على يمين يقتطع بها مال مسلم، لقي الله وهو عليه غضبان)، وقرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله عز وجل: [إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً أولئك لاخلاق لهم في الآخرة ولا يكلمهم الله][٢٩]».

● وعن ابن مسعود قال: «قال رسول الله ﷺ: (إياكم والمعاصي، إن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد هيىء له)، ثم تلا رسول الله ﷺ: [فطاف عليها طائفٌ من ربِّك وهم نائمون، فأصبحت كالصَّرِيم]، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم)[٣٠]».

يحدِّث ويدعم حديثه بآية من القرآن العظيم:

عن أبي وائلٍ عن عبد الله «عن النبي ﷺ: (لا يمنع عبد زكاة ما له إلاَّ جُعل له شُجاعٌ أقرع[٣١] يتبعه، يفرّ منه وهو يتبعه، فيقول:

---

(٢٨) أخرجه الترمذي، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي. انظر جامع الأصول: ٦٦/٢.

(٢٩) البخاري، الفتح: رقم ٤٥٤٩، مسلم: رقم ١٣٨، المسند: رقم ٣٥٧٦ واللفظ له. وعند الشيخين مطولاً، وفيه قصة الأشعث بن قيس وأنها نزلت فيه رضي الله عنه.

(٣٠) رواه ابن أبي حاتم، تفسير ابن كثير: ٢٢٢/٨.

(٣١) الشجاع - بالضم والكسر - : الحية الذكر، وقيل: الحية مطلقاً. والأقرع: الذي لا شعر على رأسه يريد حية قد تمعَّط شعر رأسه لكثرة سُمِّه وطول عمره!!.

أنا كنزك)!! ثم قرأ عبد الله مصداقه من كتاب الله: [سيطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة][32]».

هل صحيح أنَّ عمر نهاه عن نشر حديث النبي ﷺ؟

أخرج الطبراني في «الأوسط» عن إبراهيم بن عبد الرحمن قال: «بعث عمر بن الخطاب إلى ابن مسعود وأبي مسعود الأنصاري وأبي الدرداء ـ رضي الله عنهم ـ فقال: ما هذا الحديث الذي تكثرون عن رسول الله ﷺ؟ فحبسهم بالمدينة حتى استشهد»[33].

قال الهيثمي: هذا أثر منقطع، وإبراهيم ولد سنة عشرين، ولم يدرك من حياة عمر إلا ثلاث سنين[34].

قلت: بالإضافة إلى ضعف هذا الأثر، فإنَّ العقل والواقع يأباه، وذلك لأن عمر رضي الله عنه أرسل عماراً وابن مسعود إلى الكوفة وقال لأهلها: «إنني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله معلِّماً ووزيراً، وإنهما من النُّجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أصحاب بدر، وقد جعلت عبد الله بن مسعود على بيت مالكم، فتعلَّموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي[35]»؛ فكيف يرسله عمر معلماً إذا أراد أن يمنعه عن الحديث؟ ثم بماذا يحدِّثهم إن لم يكن بحديث رسول الله ﷺ؟ ولماذا يرسله معلِّماً، أليكون معلِّم شرف وكفى؟! أم ليتسنَّم وزارة

---

(32) المسند: رقم 3577، والترمذي مطولاً، وابن ماجه بنحوه، والنسائي، والبيهقي.

(33) حياة الصحابة: 3/766.

(34) مجمع الزوائد: 1/149.

(35) طبقات ابن سعد: 6/7 ـ 8.

التعليم هناك؟! إذاً فلمَ كرر كلمة العلم فقال: «معلماً» «فتعلموا منهما»؟ كيف يأمرهم بالتعلم وينهي المعلم عن التكلم؟!.

فلا شك أن الخبر ساقط مع ضعفه وانقطاعه، وسيأتي مزيد بيان - إن شاء الله تعالى - لتقدير عمر لعلمه رضي الله عنهما، في فصل «مكانته».

مكانته في الحديث بين الصحابة، وعدد مروياته، ومن روى عنه:

● يُعتبر ابن مسعود رضي الله عنه أحد كبار محدِّثي الصحابة، وإن كان عدد مروياته يعتبر قليلاً إذا ما قورنت بسنيّ الصحبة. وتمتاز مروياته بأنَّ معظمها أخذه عن النبي ﷺ مباشرة، والقليل منها عن بعض الأصحاب. وقد روت له كتب السُّنَّة ثمانمائة وثمانية وأربعين حديثاً، وفي هذا يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى: «**له ثمانمائة وثمان وأربعون حديثاً**، اتفق البخاري ومسلم منها على أربعة وستين، وانفرد البخاري بأحد وعشرين، ومسلم بخمسة وثلاثين»(٣٦).

وقد جمع الإمام أحمد أحاديث عبد الله في مسنده فبلغت بالمكرر تسعمائة حديثاً، من رقم **٣٥٤٨** وحتى الرقم **٤٤٤٧**.

ويتبوَّأ ابن مسعود من حيث عدد الأحاديث التي رواها المرتبة السابعة بين محدِّثي الصحابة، وذلك كما يلي:

١ - أبو هريرة (عبد الرحمن بن صخر، توفي سنة **٥٩** هـ): له (**٥٣٧٤**) حديثاً(٣٧).

---

(٣٦) تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٨٨، تجريد أسماء الصحابة للذهبي: ١/٣٤٤.

(٣٧) تجريد أسماء الصحابة: ٢/٢٠٩.

٢ ـ عبد الله بن عمر (توفي ٧٣ هـ): له (٢٦٣٠) حديثاً[٣٨].
٣ ـ أنس بن مالك (توفي ٩٣ هـ): له (٢٢٨٦) حديثاً[٣٩].
٤ ـ السيدة عائشة أم المؤمنين (توفيت ٥٨ هـ): لها (٢٢١٠) حديثاً[٤٠].
٥ ـ عبد الله بن عباس (توفي ٦٨ هـ): له (١٦٦٠) حديثاً[٤١].
٦ ـ جابر بن عبد الله (توفي ٧٨ هـ): له (١٥٤٠) حديثاً[٤٢].

والمتأمل في وَفَيات هؤلاء الأبرار يرى امتداد العمر بهم، فأقربهم وفاة لابن مسعود هي السيدة عائشة رضي الله عنها، والفرق بينهما ست وعشرون سنة، بينما يصل الفارق الزمني بينه وبين أنس إلى ما يزيد على ستين عاماً، وهذا زمن طويل يحصّل فيه المرء علماً جمّاً، ولا شك أن ابن مسعود لو امتد به العمر لحصّل ما عندهم من حديث رسول الله ﷺ، وخاصة من حافظ الإسلام الأكبر أبي هريرة رضي الله عنه.

وثمة ناحية أخرى هامة تبين لنا سبب قلّة مروياته عن النبي ﷺ إذا قورنت بسنِي الصحبة له؛ وهي أنه كان يبالغ في التحرِّي، ويخاف من التحديث على لسانه عليه الصلاة والسلام، وكأنه كان يلزم نفسه بأن يأتي بما قاله الصادق المصدوق حرفياً، والذي يدلنا على هذا تلك الرعدة التي كانت تأخذه عند التحديث، ثم ما يختم به حديثه

(٣٨) المرجع السابق: ١/٣٢٥.
(٣٩) المرجع السابق: ١/٣١، تهذيب الأسماء واللغات: ١/١٢٧.
(٤٠) تهذيب الأسماء: ٢/٣٥١.
(٤١) تجريد أسماء الصحابة: ١/٣٢٠، تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٧٥.
(٤٢) تهذيب الأسماء واللغات: ١/١٤٢.

فيقول: «أو دون ذاك، أو فوق ذاك، أو قريباً من ذاك، أو شبيهاً بذاك!».

● أما عمَّن روى هو رضي الله عنه، فيقول الحافظ الكبير ابن حجر رحمه الله: «روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعن سعد بن معاذ، وعمر، وصفوان بن عسال»[43].

● أما من روى عنه من الصحابة: «أبـو سعيد الخـدري، وأنس، وجابر، وابن عمر، وأبو موسى الأشعري، والحجاج بن مالك الأسلمي، وأبو أمامة، وطارق بن شهاب، وأبو الطُّفَيل، وابن الزبير، وابن عباس، وأبو ثَوْر الفَهْمي، وأبو جحيفة، وأبو رافع مولى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وعبد الله بن الحارث الزبيدي، وعمرو بن الحارث المصطلقي، وقُرَّة بن إياس، وكلثوم بن مصطلق، وأبو شُرَيح الخزاعي، وامرأته زينب بنت عبد الله الثقفية»[44].

وزاد النووي: «عمران بن الحصين، وعمرو بن حريث، وأبو هريرة»[45].

● من روى عنه من التابعين: قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «وعلقمة، والأسود بن يزيد، ومسروق، والربيع بن خُثيم، وزيد بن وهب، وأبو وائل شقيق بن سلمة، وشريـح بن الحارث القـاضي، والحارث بن سويد التيمي، وربعـي بن حراش، وزِرُّ بن حبيش، وأبو عمـرو الشيباني، وعبـد الله بن شداد، وعبـد الله بن عكيم، وعبد الـرحمن بن أبي ليلى، وعَبِيدة بن عمـرو السَّلْماني، وأبـو عثمـان

(٤٣) تهذيب التهذيب: ٦/٢٧.
(٤٤) تهذيب التهذيب: ٦/٢٧.
(٤٥) تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٨٨ ـ ٢٨٩.

النَّهـدي، وأبو الأحـوص عوف بن مـالك، وأبـو ميسـرة عمـرو بن شرحبيل، وعمرو بن ميمون الأودي، وقيس بن أبي حازم، وأبو عطية مالك بن أبي عامر، ومرة الطِّيب، والمستورد بن الأحنف، وهزيل بن شـرحبيل، والنَّـزال بن سبرة، وأبـو الأسود الـدؤلي، والمعـرور بن سويد، وآخرون»[٤٦].

● رواية ابنيه عنه:

قال الإمام أبو زكريا النووي رحمه الله: «وكان لابن مسعود ثلاثة بنين: عبد الرحمن ـ وبه كان يكنى ـ وعتبة، وأبو عبيدة ـ واسم أبي عبيدة: عامر، وقيل: اسمه كنيته ـ. واتفقوا على أن أبا عبيدة لم يسمع أباه، ورواياته عنه كثيرة، وكلها منقطعة، وأما عبد الرحمن: فقال علي بن المديني والأكثرون: سمع أباه»[٤٧].

هل هو من العبادلة؟

قال ابن الصلاح رحمه الله: «وروينا عن أحمد بن حنبل أيضاً أنه قيل له: مَنِ العبادلة؟ فقال: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الـزبير، وعبـد الله بن عمرو. قيـل له: فـابن مسعودٍ؟ قال: لا، ليس عبد الله بن مسعود من العبادلة. قال الحافظ أحمد البيهقي فيما رويناه عنه وقرأته بخطِّه: وهذا لأن ابن مسعود تقدم موته، وهؤلاء عاشوا حتى احتيج إلى علمهم، فإذا اجتمعوا

---

(٤٦) تهذيب التهذيب: ٦/٢٧، وسيأتي مزيد بيان في فصل «تلامذته» إن شاء الله.

(٤٧) تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٩٠، وقد سبق الحديث عن ابنيه اللذين يحدثان عنه في فصل «حليته وطرف من أخباره»، وانما ذكرت ذلك هنا لمناسبة المقام.

على شيء قيل: هذا قول العبادلة، أو هذا فعلهم. قلت ـ القائل هو ابن الصلاح ـ: ويلتحق بابن مسعود في ذلك سائر العبادلة المسمَّين بعبد الله من الصحابة، وهم نحو مائتين وعشرين نفساً. والله أعلم»[٤٨].

أصح الأسانيد:

أورد الإمام النووي رحمه الله أقوال العلماء في أصح الأسانيد فقال: «قال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه: أصح الأسانيد مطلقاً: الزهري عن سالم عن أبيه[٤٩]. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: أصحها الزهري عن علي بن الحسين عن أبيه عن علي. وقال علي بن المديني وعمرو بن علي الفلّاس وغيرهما: أصحها محمد بن سيرين عن عَبيدة عن علي. وقال يحيى بن معين: أصحها الأعمش عن إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود. وقال البخاري: أصحها مالك عن نافع عن ابن عمر».

ثم عقَّب النووي فقال: «والمختار أنه لا يُجزم لإسناد أنه أصحها على الإطلاق لعسر ذلك»[٥٠].

وقال أحمد محمد شاكر رحمه الله: «الذي انتهى إليه التحقيق في أصح الأسانيد أنه لا يحكم لإسناد بذلك مطلقاً من غير قيد، بل يقيَّد بالصحابي أو البلد». وشرع في سرد أصح الأسانيد عن

---

(٤٨) مقدمة ابن الصلاح: ص ١٤٧ ـ ١٤٨، والطبعة المحققة (تحقيق بنت الشاطىء): ص ٤٣٠.

(٤٩) هو سالم بن عبد الله بن عمر.

(٥٠) تهذيب الأسماء واللغات: ١/٩١، ١/٢٨٠، وانظر مقدمة ابن الصلاح: ص ٨، والطبعة المحققة: ص ٨٤ ـ ٨٥.

الصحابة ـ كما نص عليها المحدّثون ـ وذكر: «وأصح الأسانيد عن ابن مسعود: الأعمش عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود[٥١]».

نماذج من مروياته:

المتتبِّع للأحاديث التي رواها ابن مسعود رضي الله عنه يرى أنها تشمل جوانب الإسلام وتحيط بكلّياته، فهي تتحدث عن الفرائض والسنن، والحلال والحرام، وفضل القرآن العظيم والنبي عليه الصلاة والسلام، واليوم الآخر وعلامات الساعة، ومواقف الحساب والجنة والنار ومخاوف العرض بين يدي الله سبحانه، والجهاد، والترغيب في الآخرة والزهادة في الدنيا، ثم آداب الناس مع ربِّهم وفيما بينهم، كالصدق والكذب، والسلام والجوار، والضيافة والنفقة.

ولا مطمع لنا هنا أن نحيط بهاتيك النواحي وتلك الأمور[٥٢]، وحسبنا أن نقتطف بعض أزهار من تلك الجنان، فنشمّ عبيرها ونتمتع بشذاها، فنكوّن فكرة مجملة عن هذا الصحابي العَلَم في هذه الناحية.

١ ـ ففي رأس مروياته الاهتمام بالقرآن العظيم، الكتاب المهيمن، والشرعة المستقيمة للناس، يقول رضوان الله عليه: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: [ألم] حرف، ولكن «ألف»

(٥١) الباعث الحثيث: ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٥٢) من أراد مزيد بيان في هذا فليرجع الى مسند ابن مسعود في مسند الإمام أحمد، وكذا فهرس مسانيد الصحابة في «فهارس صحيح مسلم» لمحمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله تعالى.

حرف، و «لام» حرف، و «ميم » حرف)[٥٣]».

٢ ـ ومن ذلك ما حفظه عن فضل النبي ﷺ الذي تلقّى القرآن وبلّغه للناس كما أنزل، وقد جاء عنه الكثير في هذا الجانب إشارة إلى عظيم فضله عليه الصلاة والسلام على البشرية:

أخرج البزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه «عن النبي ﷺ قال: (إنَّ لله ملائكة سيّاحين يبلِّغوني عن أمتي السلام)، قال: وقال رسول الله ﷺ: (حياتي خير لكم: تحدِّثون ويحدَّث لكم،[٥٤]، ووفاتي خير لكم: تعرض عليَّ أعمالكم، فما رأيت من خير حمدت الله عليه، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم)[٥٥]».

٣ ـ وعنه في فضل الصلاة قال: «قال رسول الله ﷺ: (تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الصبح غسلتها. ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم الظهر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العصر غسلتها. ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتم العشاء غسلتها. ثم تنامون فلايكتب عليكم حتى تستيقظوا»[٥٦].

٤ ـ وعنه في فضل الصوم «عن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان أول ليلة من شهر رمضان فُتّحت أبواب الجنان، فلم يغلق منها باب

(٥٣) أخرجه الترمذي والدارمي وغيرهما، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح: جامع الأصول: ٨/٤٩٨.
(٥٤) أي أنهم يسألونه عن الأحكام في حياته ويجيبهم عليها.
(٥٥) حياة الصحابة: ٢/٦٧٢، قال الهيثمي (٩/٢٤): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وكذا صححه العراقي في الاحياء: ٤/١٤٨.
(٥٦) الترغيب والترهيب: ١/٢٣٤، قال المنذري: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن، ورواه في الكبير موقوفاً عليه، وهو أشبه، ورواته محتج بهم في الصحيح.

واحد الشهر كله، وغُلّقت أبواب النار فلم يُفتح منها باب الشهر كله، وغُلَّت عتاة الجن، ونادى منادٍ من السماء كل ليلة إلى انفجار الصبح: يا باغي الخير يمم وأبشر، ويا باغـي الشر أقصِر وأبصِرْ، هل من مستغفر يُغفر له؟ هل من تائب يتوب الله عليه؟ هل من داع يُستجاب له؟ هل من سائل يُعطى سؤله؟ ولله عز وجل عند كل فطر من شهر رمضان كل ليلة عِتقاً من النار ستون ألفاً، فإذا كان يوم الفطر أعتق الله مثل ما أعتق في جميع الشهر ثلاثين مرة ستين ألفاً ستين ألفاً»(٥٧).

٥ ـ وفي الحث على الحج والعمرة جاء عنه حديث جليل، قال: «قال رسول الله ﷺ: (تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب والفقر كما ينفي الكير خبث الحديد والذهب والفضة، وليس لحجة مبرورة ثواب إلا الجنة، وما من مؤمن يظل يومه محرماً إلا غابت الشمس بذنوبه)(٥٨)».

وزاد رزين: «وما من مؤمن يلبي الله بالحج إلا شهد له ما على يمينه وشماله إلى منقطع الأرض».

٦ ـ وفي الترهيب من منع الزكاة جاء عنه «عن النبي ﷺ قال: (ما من رجل له مال لا يؤدي حق ماله؛ إلا جعل طوقاً في عنقه شجاع أقرع، وهو يفر منه وهو يتبعه، ثم قرأ مصداقه من كتاب الله عز وجل: [ولا يحسبنَّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم، بل هو شرٌّ لهم، سَيُطوَّقون ما بخلوا به يوم القيامـة]

(٥٧) الترغيب والترهيب: ١٠٤/٢، قال المنذري: رواه البيهقي وهـو حديث حسن لا بأس به في المتابعات.

(٥٨) أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم. الترغيـب والترهيب: ١٦٥/٢، جامع الأصول: ٤٦١/٩.

الآية»[59].

٧ ـ وعنه في إخلاص الجهاد لله قال: «قال رسول الله ﷺ: (يجيء الرجل آخذاً بيد الرجل فيقول: يا ربِّ هذا قتلني! فيقول الله عز وجل: لِمَ قتلته؟ فيقول: قتلته لتكون العزّة لك! فيقول: فإنها لي، ويجيء الرجل آخذٌ بيد الرجل فيقول: إن هذا قتلني، فيقول الله عز وجل: لم قتلته؟ فيقول: لتكون العزة لفلان! فيقول: إنها ليست لفلان، فيبوء بإثمه)[60]».

٨ ـ وفي حسن الجوار يروي ـ رضي الله عنه ـ حديثاً عظيماً فيقول: «قال رسول الله ﷺ: (إنَّ الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإن الله ـ عز وجل ـ يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا من أحب، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه. والذي نفسي بيده لا يسلم عبدحتى يسلم قلبه ولسانه، ولا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه)، قالوا: وما بوائقه يا نبي الله؟ قال: (غشمه وظلمه: ولا يكسب عبدٌ مالاً من حرام فينفق منه فيُبارَك له فيه، ولا يتصدق فيقبل منه، ولا يترك خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار، إن الله ـ عز وجل ـ لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، الخبيث لا يمحو الخبيث)[61]».

٩ ـ وفي الحضِّ على السلام روى «عن النبي ﷺ قال: (السلام اسم من أسماء الله تعالى، وضعه في الأرض فأفشوه بينكم،

---

(٥٩) رواه النسائي والترمذي مطولاً، وقال الشيخ الأرناؤوط: صحيح، جامع الأصول: ٤/٥٦٨ ـ ٥٦٩، المسند: رقم ٣٥٧٧.

(٦٠) أخرجه النسائي، قال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. جامع الأصول: ١٠/٢١٠، معنى باء بإثمه: إذا احتمله ورجع به.

(٦١) المسند: رقم ٣٦٧٢. تفسير ابن كثير ٤/٢٨٦ قال الهيثمي (١/٥٣): إسناد بعضهم مستور وأكثرهم ثقات.

فإن الرجل المسلم إذا مرَّ بقوم فسلّم عليهم فردوا عليه، كان له عليهم فضل درجة بتذكيره إياهم السلام، فإن لم يردوا عليه رد عليه من هو خير منهم)[٦٢]».

١٠ ـ وفي حق الضيافة جاء عنه «عن النبي ﷺ قال: (الضيافة ثلاثة أيام، فما زاد فهو صدقة، وكل معروف صدقة)[٦٣]».

١١ ـ وفي النفقة ومراتبها قال: «قال رسول الله ﷺ: (اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول: أمك وأباك، وأختك وأخاك، وأدناك فأدناك)[٦٤]».

١٢ ـ ونقل حديثاً في الترهيب من الكبائر، جاء فيه: (ما ظهر في قوم الزنى والربا إلّا أحلّوا بأنفسهم عذاب الله)[٦٥].

١٣ ـ وفي الترهيب من الغيبة قال رضي الله عنه: «كنا عند النبي ﷺ، فقام رجل، فوقع فيه رجل من بعده، فقال النبي ﷺ: (تخلّل)! فقال: وممَّ أتخَلل؟! ما أكلت لحماً! قال: (إنك أكلت لحم أخيك)[٦٦]».

١٤ ـ وجاء عنه في النهي عن النرد قال: «قال رسول الله ﷺ:

(٦٢) الترغيب والترهيب: ٤٢٧/٣، قال المنذري: رواه البزار والطبراني، وأحد إسنادي البزار جيد قوي.
(٦٣) الترغيب والترهيب: ٣٧١/٣، قال المنذري: رواه البزار ورواته ثقات.
(٦٤) الترغيب والترهيب: ٦٢/٣، قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن.
(٦٥) الترغيب والترهيب: ٨/٣، ٢٧٨، قال المنذري: رواه أبو يعلى بإسناد جيد.
(٦٦) الترغيب والترهيب: ٥٠٦/٣، قال المنذري: حديث غريب، رواه أبو بكر ابن أبي شيبة والطبراني واللفظ له، ورواته رواة الصحيح.

(إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان اللتان تزجران زجراً، فإنهما ميسر العجم)[٦٧]».

١٥ - وفي إيثار الآخرة قال: «سمعت نبيكم ﷺ يقول: (من جعل الهموم هماً واحداً: همَّ المعاد؛ كفاه الله هم دنيـاه، ومن تشعّبت به الهموم في أحوال الدنيا، لم يبالِ الله في أي أوديتـه هلك)[٦٨]».

١٦ - وفي عدم الركون إلى الدنيا يروي فيقول: «قال رسول الله ﷺ: (من أشرب قلبه حب الدنيا التاط منها بثلاث: شقاء لا ينفد عناه، وحرص لا يبلغ غناه، وأمل لا يبلغ منتهاه، فالدنيا طالبة ومطلوبة، فمن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يدركه الموت فيأخذه، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفي منها رزقه)[٦٩]».

١٧ - وفي التوكل على الله تعالى وطلب الرزق منه جاء عنه «أن النبي ﷺ قال: (ليس من عمل يقرب من الجنة إلا وقد أمرتكم به، ولا عمل يقرب من النار إلا وقد نهيتكم عنه، فلا يستبطئنَّ أحد منكم رزقه، فإن جبريل ألقى في رُوعي أن أحداً منكم لن يخرج من الدنيا حتى يستكمل رزقه، فلا يطلبه بمعصية الله، فإن الله لا يُنال فضله بمعصيته)[٧٠]».

---

(٦٧) المسند: رقم ٤٢٦٣، ورواه الهيثمي (١١٣/٨) وعزاه للطبراني وقال: رجال الطبراني رجال الصحيح. الكعبتان: الواحدة كعبة، وهي فص النرد، وهي ما تعرف عند العامة بالطاولة. موسومتان: معلمتان بعلامات.

(٦٨) رواه ابن ماجه، انظر تفسير ابن كثير: ٣٢٢/٥.

(٦٩) الترغيب والترهيب: ١٧٦/٤، احياء علوم الدين: ٢٢٣/٤، قال المنذري: رواه الطبراني بإسناد حسن، وكذا حسّن إسناده العراقي في الإحياء. ومعنى التاط: التصق به.

(٧٠) الترغيب والترهيب: ٥٣٤/٢، قال المنذري: رواه الحاكم.

١٨ ـ وأيضاً قال: «قال رسول الله ﷺ: (من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تسدَّ فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله؛ فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل»[٧١].

١٩ ـ وينتقل في مروياته إلى داخل النفس الإنسانية، فيروي دعاء زوال الهم، قال رضي الله عنه: «قال رسول الله ﷺ: (ما أصاب أحداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أَمَتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي ـ إلَّا أذهب اللهُ همّه وحزنه، وأبدله مكانه فرجاً). قال: فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقيل: (بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها)[٧٢].

٢٠ ـ ولم يفته نقل أحاديث الفرائض، من ذلك روايته حديث دية الخطأ، فعنه قال: «قضى رسول الله ﷺ في دية الخطأ: عشرين بنت مخاض، وعشرين ابن مخاض، وعشرين ابنة لبون، وعشرين حقّة، وعشرين جذعة»[٧٣].

---

(٧١) رواه ابو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح ثابت. انظر الترغيب والترهيب: ٥٩٣/١، المسند: رقم ٣٦٩٦. ومعنى فأنزلها بالله: أي سلّمها له سبحانه، وسعى وجدّ في طلب الرزق دونما تواكل. يوشك: يسرع.

(٧٢) المسند: رقم ٣٧١٢، ٤٣١٨، ورواه الهيثمي (١٣٦/١٠) وعزاه الى أبي يعلى والبزار والطبراني وقال: رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثّقه ابن حبان، وانظر تفسير ابن كثير ٥١٦/٣ ـ ٥١٧، وجامع الأصول: ٢٩٨/٤.

(٧٣) المسند: رقم ٣٦٣٥، ٤٣٠٣، ورواه أبو داود والترمذي والنسائي والدارمي وغيرهم، وانظر تفسير ابن كثير: ٢ / ٣٣٠.

٢١ - وفي الترهيب من النار قال: «قال رسول الله ﷺ: (يؤتى بالنار يومئذٍ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف مَلَك يجرونها)[٧٤]».

٢٢ - وحديث الجهنميّين العجيب أيضاً جاء عنه «أن رسول الله ﷺ قال: (يكون قوم في النار ما شاء الله أن يكونوا، ثم يرحمهم الله فيخرجهم منها، فيكونون في أدنى الجنة، فيغتسلون في نهر يقال له الحيوان، يسميهم أهل الجنة: الجهنميون، لو ضاف أحدهم أهل الجنة لفرشهم وأطعمهم وسقاهم ولَحَفهم)، ولا أظنه إلا قال: (ولزوّجهم). قال حسن[٧٥]: (لا ينقصه ذلك شيئاً)[٧٦].

٢٣ - ويروي حديثاً عظيماً في نواح متعددة، فعنه رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ قال: (ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعن جنبتي الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعند رأس الصراط يقول[٧٧]: استقيموا على الصراط ولا تعوجّوا، وفوق ذلك داع يدعو كلما همَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. ثم فسّره فأخبر أن الصراط هو الإسلام، وأن الأبواب المفتَّحة محارم الله، وأن الستور المرخاة حدود الله، والداعي على رأس الصراط هو القرآن،

---

(٧٤) مسلم: رقم ٢٨٤٢، والترمذي مرفوعاً وغير مرفوع، جامع الأصول: ٥١٩/١٠.

(٧٥) هو أحد رجال السند.

(٧٦) المسند: رقم ٤٣٣٧. ورواه الهيثمي (٣٨٣/١٠) وعزاه الى أبي يعلى وقال: رجالهما رجال الصحيح، غير عطاء بن السائب، وهو ثقة، ولكنه اختلط ومعنى لو ضاف: أي نزل به أهل الدنيا ضيوفاً. لفرشهم: هيأ لهم الفراش. لحفهم: هيأ لهم ما يحتاجون من غطاء.

(٧٧) كذا بالأصل، ولعله: داع يقول.

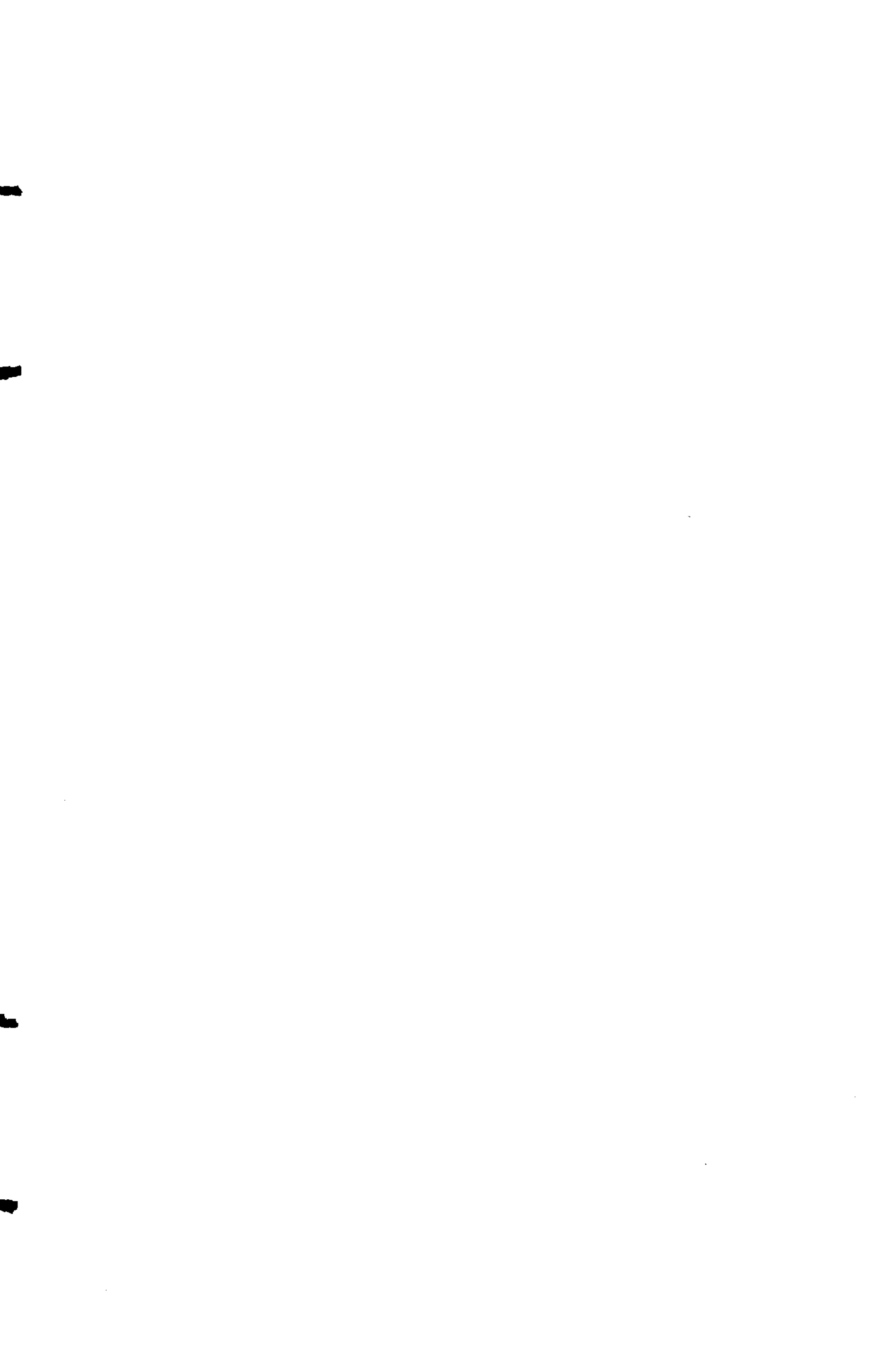
والداعي من فوقه هو واعظ الله في قلب كل مؤمن)[78]».

* * *

وإذا كان ابن مسعود رضي الله عنه أحد أعلام المفسرين، وممن أوتي باعاً طويلاً في فهم آيه، ومعرفة أغراضه، وفهم أسراره، ثم هو بعد ذلك من كبار محدِّثي الصحابة، حيث سمع من رسول الله ﷺ جملة طيبة من الحديث الشريف؛ فإن هذا كله لا يكفي، فلا بدَّ من توسيع نطاق هذا العلم في حل مشكلات الناس، وافتائهم في أمورهم، وحملهم على جادة الحقِّ، حتى لا يخبطوا في دين الله دونما هادٍ، ثم لا بدّ من نشر هذا العلم الكامن الذي انطوى عليه عقل عبد الله لتتناقله أجيال المسلمين، طبقة عن طبقة، وهذا ما فطن إليه الخليفة المحدَّث عمر رضوان الله عليه؛ فأرسل أبا عبد الرحمن إلى الكوفة، فماذا كان من شأنه هناك؟!

* * *

(78) الترغيب والترهيب: 3/244، قال المنذري: ذكره رزين ولم أره في أصوله، إنما رواه احمد والبزار مختصراً بغير هذا اللفظ بإسناد حسن.



الفصل الثامن

المعلم الفذ

- من حمص إلى الكوفة
- بين يدي التعليم ونشر العلم
- أوقات تحديثه
- عنايته العظيمة بالقرآن الكريم
- حض الناس على التمسك بهدي سيدنا محمد ﷺ ونشر فضائله
- نشر فضائل الصحابة بين الناس وحملهم على الاقتداء بهم
- تعليم الناس الصلاة وكل ما يتعلق بها
- حث الناس على الحج والعمرة وتفقيههم بهما
- أسئلة وأجوبة
- تصحيح الأخطاء
- حكمته في التعليم، ورغبة تلاميذه بحديثه، وذهابهم إليه في بيته
- زيارته للآخرين، وتحديثهم، وتعليمهم في بيتهم
- ارشادات وتوجيهات ونصائح

المُعلِّم الفذّ

من حمص إلى الكوفة:

كان من سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يستأصل الفتنة من جذورها قبل أن تشتعل ويشتد أوارها، وهذا ما فعله مع أهل الكوفة حتى لا يدع منفذاً لشغب الذين يحاولونه، فلما شكوا إليه الصحابي الكبير سعد بن أبي وقاص، استجاب لهم، لا لمطعن ثبت عنده في عامله، وإنما لقطع الطريق على المغرضين، وفي هذا يقول خليفة بن خيَّاط في أحداث سنة إحدى وعشرين: «**وفيها شكا أهل الكوفة سعدَ بن مالك**[1] **إلى عمر؛ فعزله، وولَّى عمار بن ياسر الصلاة، وابن مسعود بيت المال، وعثمان بن حُنيف مساحة الأرض**»[2].

ولقد كان مهاجر ابن مسعود بحمص، يعلِّم الناس فيها وينشر بينهم حديث النبي ﷺ، وهذا ما يرويه ابن سعد فيقول: «إن مهاجر عبد الله بن مسعود كان بحمص، فحدره عمر إلى الكوفة، وكتب إليهم: إني والله الذي لا إلّه إلا هو آثرتكم به على نفسي، فخُذوا منه[3]».

---

(١) هو سعد بن أبي وقاص.

(٢) تاريخ خليفة: ص ١٤٩.

(٣) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٧، ٦/٨.

ويوضح الطبري سبب توفيد عبد الله إلى الكوفة، ومن كان قبله على قضائها؛ فيقول: «وقد كان زياد[٤] صُرف في وسط من إمارة سعد إلى قضاء الكوفة ـ بعد إعفاء سلمان وعبد الرحمن ابني ربيعة ـ ليقضي إلى أن يقدم عبد الله بن مسعود من حمص. وقد كان عمل لعمر على ما سقى الفرات ودجلة النعمانُ وسويد ابنا مقرّن، فاستعفيا وقالا: أعفنا من عمل يتغوّل[٥] ويتزين لنا بزينة المومسة!! فأعفاهما، وجعل مكانهما حذيفة بن أسيد الغفاري، وجابر بن عمرو المزني. ثم استعفيا فأعفاهما وجعل مكانهما حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف؛ حذيفة على ما سقت دجلة وما وراءها، وعثمان على ما سقى الفرات من السوادين جميعاً، وكتب إلى أهل الكوفة: إنِّي بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، ووليت حذيفة بن اليمان ما سقت دجلة وما وراءها، ووليت عثمان بن حنيف الفرات وما سقى»[٦].

وينقل ابن سعد نصَّ الكتاب الذي أرسله عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة، وقد ضمّنه كلمات بليغات، جامعات صادقات، فعن حارثة بن المضرِّب قال: «قرىء علينا كتاب عمر: **إنِّي قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وإنهما من النُّجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أصحاب بدر، وقد جعلت عبدالله بن مسعود على بيت مالكم، فتعلَّموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي**»[٧]

(٤) هو زياد بن حنظلة.
(٥) يتلوّن.
(٦) تاريخ الطبري: ٤/١٣٩.
(٧) طبقات ابن سعد: ٦/٧ ـ ٨، ورواه الحاكم وسعيد بن منصور والبيهقي، =

مهمة عبد الله تتركز في عدة أمور: فهو أولاً قائم على بيت مال المسلمين في ذلك المصر، وقبل هذا هو معلِّم يقرىء الناس القرآن، وينشر بينهم حديث رسول الله ﷺ، ثم هو بعد ذلك يتحمل تبعة تفقيههم بفرائض الإسلام وبيان الحلال والحرام، كما أنه سوف تُعرض عليه المشكلات التي لا بدَّ من القول فيها بما يوافق الشرع ـ وتلك أمور جليلة وأعمال خطيرة تنوء بالعصبة أولي القوة! ولكن عمر قد خبر ابن مسعود، واطَّلع على مكامن الإبداع عنده، ولم تخطىء فراسته المعهودة حينما وضع في رأس خصائص عبد الله أنه «معلّم»؛ لمعرفته الكاملة بما حصّله من قرآن، وأخذه من حديث عن المعصوم ﷺ، مع الأسلوب الرائع والتصوير الجميل، وجذب الناس خاصتهم وعامتهم.

بين يدي التعليم ونشر العلم:

سمع ابن مسعود رضي الله عنه حديثاً عظيماً من النبي ﷺ يرغّب فيه بنشر العلم، ويمدح فاعله ويعده بالثواب الجزيل؛ ممّا ألهب في نفسه شعوره الكامن بتحصيل الخير من هذا الجانب، وأخرجه إلى عالم الشهادة، ويحدثنا بما وعى فيقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: (نضَّر[8] الله أمرءاً سمع منا شيئاً فبلّغه كما سمعه، فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع[9])[10]».

= والطبراني نحوه، قال الهيثمي (٩/٢٩١): رجاله رجال الصحيح، غير حارثة وهو ثقة. حياة الصحابة: ٢/١٦٧ ـ ١٦٨.

(٨) يروى بالتخفيف والتشديد، من النضارة: وهي في الأصل حسن الوجه والبريق، وإنما أراد: حسَّن خلقه وقدره.

(٩) أي قد يكون من بلغه الحديث ووصلته الحكمة ممن سمعها عن رسول الله ﷺ أوعى وأحفظ وأيقظ، وربّ تفيد التقليل والتكثير.

(١٠) رواه أبو داود والترمذي وابن حبان في صحيحه، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، الترغيب والترهيب: ١٠٨/١.

● وكذا فإنه - رضي الله عنه - أخذ يرغّب الناس في العلم، واهتبال الفرص، واغتنام وجود العلماء قبل أن يفوتهم ذلك، وله في ذلك أقوال رائعة، من ذلك قوله: **«اغدُ عالماً أو متعلِّماً، ولا تغدُ فيما بين ذلك، فإنَّما بين ذلك جاهل أو جهّل، وإن الملائكة لتبسط أجنحتها لرجل غدا يطلب العلم من الرضى لما يصنع»**(١١).

ويقول رضي الله عنه: **«عليكم بالعلم قبل أن يرفع، ورفعه موت رواته، فوالذي نفسي بيده ليودّنّ رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، فإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم»**(١٢).

● **وبعد ذلك ينبِّه طلَّاب العلم على آفته وقارضة ما يحصّله المرء فيقول: «تذاكروا الحديث فإنَّ ذكر الحديث حياته»**(١٣).

بل إنه **يعظم** شأن المدارسة وتذاكر العلم حتى يوصله إلى صف صلاة النافلة فيقول: **«الدراسة صلاة»**(١٤) كل هذا الاهتمام بالعلم - وهذا غيض من فيض - دفع نجباء الكوفة - إضافة إلى تلك الوصاة من عمر - إلى التزام ابن مسعود والنهل من بحره الزاخر، والصَّدَر عن آرائه المسدَّدة، حتى غدا أستاذ الكوفة الكبير، ومعلِّمها الأول، وفقيهها الأكبر.

---

(١١) أخرجه ابن عبد البر في «جامع بيان العلم: ١/٢٩» وانظر حياة الصحابة: ٣/٦٣٨.

(١٢) إحياء علوم الدين: ١/١٠٨.

(١٣) أخرجه الحاكم، انظر حياة الصحابة: ٣/٧٢٨.

(١٤) جامع بيان العلم: ١/٢٢، حياة الصحابة: ٣/٧٢٨.

أوقات تحديثه:

كان ابن مسعود رضي الله عنه يلقي درساً جامعاً عاماً كل يوم خميس حتى لا يملّ الناس، وأمّا أولئك الذين شغفوا بالعلم وطمعوا بأن لا يقفوا عند حدّ؛ فإنهم قد لزموا عبد الله وصحبوه طويلاً، وهذا ما يرويه لنا تلميذه الكبير شقيق بن سلمة عن ذلك المجلس الجامع فيقول: **«كان عبد الله ممّا يذكّر كل يوم الخميس، قيل له: لوددنا أنك ذكّرتنا كل يوم! قال: إني أكره أن أملّكم، إنَّ رسول الله ﷺ كان يتخولنا»(١٥) بالموعظة، كراهية السآمة(١٦) علينا»(١٧).**

ويروي ابن سعد عن تلميذ آخر هو عبد الله بن مرداس(١٨) قال: «كان عبد الله يخطبنا كل يوم خميس، فيتكلم بكلمات، فيسكت حين يسكت ونحن نشتهي أن يزيدنا»(١٩).

هذه هي جلسته العامة التي كان يتحدَّث فيها للجمّ الغفير من الناس، وأما ذوو الهمم العالية فقد شدّوا المئزر، وشمّروا عن ساعد الجد، فكان نتيجة ذلك أن تخرج به تلامذة عظماء، وفقهاء نجباء.

ولكن ماذا كان يفعل عبد الله في هاتيك الجلسات؟ وبمَ كان يعظ الناس، وماذا يحدثهم؟ وعلامَ يحثهم، وإلامَ يرشدهم؟

عنايته العظيمة بالقرآن الكريم:

● توجه ابن مسعود إلى عمدة الإسلام وهو القرآن الكريم، فحمل الناس على فهمه والعمل به وتلاوته وحفظه، ونبههم إلى أمور هامة في جانب القرآن العظيم، فكان أول ما لفتهم إليه مداومة

---

(١٥) يتعهدنا.
(١٦) الملل والضجر.
(١٧) المسند: رقم ٤٠٦٠.
(١٨) طبقات ابن سعد: ١٩٨/٦.
(١٩) طبقات ابن سعد: ١٥٧/٣.

صحبته واستذكاره حتى لا يتفلّت منهم، وهذا ما يرويه أبو وائل عن عبد الله قال: «قال النبي ﷺ: بئس ما لأحدهم أن يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نُسِّي، واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصّياً من صدور الرجال من النَّعَم»(٢٠).

● وكان يرغِّبهم في التلاوة، وتعلُّم السورة بعد السورة، بل كان يقوم بنفسه بتولي هذا الأمر الجليل، كما أخرج الطبراني عنه **«أنه كان يقرىء الرجل الآية، ثم يقول: لهي خير مما طلعت عليه الشمس أو مما على الأرض من شيء - حتى يقول ذلك في القرآن كله»**. وفي رواية أخرى: «كان ابن مسعود إذا أصبح أتاه الناس في داره، فيقول: على مكانكم، ثم يمر بالذين يقرئهم القرآن فيقول: أيا فلان بأيِّ سورة أتيت؟ فيخبر في أي آية، فيفتح عليه الآية التي تليها، ثم يقول: تعلَّمها فإنها خير لك مما بين السماء والأرض، قال: فنظر الرجل آية ليس في القرآن خير منها، ثم يمر بالأخرى فيقول: آية مثل ذلك، حتى يقول ذلك لكلهم»(٢١).

وكان يقول لهم في القرآن: «فعليكم بهذا القرآن فإنه مأدبة الله، فمن استطاع منكم أن يأخذ من مأدبة الله فليفعل، فإنَّما العلم بالتعلُّم»(٢٢).

---

(٢٠) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٣٢، مسلم: رقم ٧٩٠، والترمذي، والنسائي، والمسند: رقم ٣٦٢٠، وغيرهم. وكيت وكيت: يعبر بهما عن الجمل الكثيرة والحديث الطويل، ومثلهما ذيت وذيت. نسِّي: مبني لما لم يُسمَّ فاعله. وفي العبارة أدب في ترك إضافة ذلك الى الله تعالى. قال القرطبي: التثقيل معناه أنه عوقب بوقوع النسيان عليه لتفريطه في معاهدته واستذكاره. تفصيّاً: تفلتاً. النَّعم: الإبل.

(٢١) حياة الصحابة: ٣/٧٤٢ - ٧٤٣، قال الهيثمي (٧/١٦٧): رواه كله الطبراني ورجال الجميع ثقات.

(٢٢) حياة الصحابة: ٣/٧٤٣، قال الهيثمي (١/١٢٩): رواه البزار في حديث طويل، ورجاله موثقون.

● وكان يرهِّبهم من ترك تلاوته بأسلوب بديع وكلمات مؤثرة، ويخصِّص سوراً عظيمة بكثرة التلاوة؛ فعن أبي الأحوص قال: «قال ابن مسعود: إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلَّم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر البيوت[٢٣] من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تسمع فيه سورة البقرة[٢٤]».

● ولكنه رضي الله عنه ـ وهو الذي عايش نزول الوحي وتربَّى في حَجْر النبوة ـ ما كان يقصد أن يتعلَّموا القرآن وكفى، وما رغب في تلاوته ونثر آيه كنثر الدَّقل؛ بل كان يحملهم أن يقفوا عند تحذيراته ويحركوا القلوب بكلماته، ويتفاعلوا مع إنذاراته ويطوّعوا لها النفوس، ويمثلوا عند أحكامه ويلزموا غرزها ـ لذا كان يقول: **لا تنثروه نثر الدقل، ولا تهذّوه هذّ الشعر، قفوا عند عجائبه وحركوا به القلوب، ولا يكن همّ أحدكم آخر السورة»[٢٥].**

ولقد وجّههم إلى هذا في صور عملية، ينقل واحدة منها شقيق ابن سلمة فيقول: «جاء رجل إلى عبد الله من بجيلة يقال له: نَهيك بن سنان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، كيف تقرأ هذه الآية، أياءً تجدها أو ألِفاً: [من ماءٍ غير آسن] أو [من ماءٍ غير ياسن]؟ **فقال له عبد الله: أوَ كلّ القرآن أحصيت غير هذه؟! قال: إنّي لأقرأ المفصّل[٢٦] في ركعة! فقال عبد الله: هذّاً[٢٧] كهذّ الشعر؟!** إن من

---

(٢٣) أخلى البيوت.
(٢٤) حلية الأولياء: ١/ ١٣٠.
(٢٥) تفسير ابن كثير: ٨/٢٧٧، والسنن الكبرى: ٣/١٣.
(٢٦) قال الحافظ: المفصَّل من «ق» إلى آخر القرآن على الصحيح، وسمي مفصّلاً لكثرة الفصل بين سورة بالبسملة على الصحيح. الفتح شرح الحديث ٧٧٥.
(٢٧) الهذّ: شدة الإسراع والإفراط في العجلة.

أحسن الصلاة الركوعَ والسجودَ، وَلَيقرأنَّ القرآن أقـوام لا يجاوز تـراقيهم، ولكنه إذا قـرأه فـرسَـخَ في القلب نفـع. إني لأعـرف النظائر[28] التي كان رسول الله ﷺ يقرأ، سورتين في كل ركعة. قال: ثم قام، فدخل، فجاء علقمة فدخل عليه، قال: فقلنا له: سَلْه عن النظائر التي كان رسول الله ﷺ يقرأ، سورتين في كل ركعة؟ قال: فدخل فسأله، ثم خرج إلينا فقال: عشرون سورة من أول المفصّل في تأليف عبد الله»[29]

● ولم يكتفِ بإقرائهم القرآن والأخذ عليهم أن يرتلوه ترتيلاً ويحرِّكوا به القلوب؛ بل إنه كان يأمرهم أن يقرؤوا في حضرته، حتى يعلم إتقانهم له، ويتأكد من حفظهم، وحسن الأخذ عنه وعدم نسيان شيء منه، وهو في هذا يقفو أثر رسول الله ﷺ عندما طلب من عبد الله أن يقرأ عليه: «**عن أبي حيان الأشجعي عن ابن مسعود قال: قال لي: اقرأ عليّ** من القرآن، **قال: فقلت له: أليس منك تعلّمته وأنت تقرئنا؟** فقال: إني أتيت النبي ﷺ ذات يوم فقال: (اقرأ علي من القرآن)، قال: **فقلت**: يا رسول الله، **أليس** عليك أنزل، ومنـك تعلمنـاه؟! قـال: (بلى، ولكن أحب أن أسـمعـه مـن غيري)[30]».

---

(28) النظائر: جمع نظيرة، وهي المثل والشِّبْه في الأشكال والأخلاق والأفعال، أراد اشتباه بعضها ببعض في الطول.

(29) البخاري، الفتح: رقم ٧٧٥، مسلم: رقم ٨٢٢، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والمسند: رقم ٣٦٠٧، واللفظ له. ومعنى «في تأليف عبد الله»: أي ترتيب السور في مصحفه، وقد سبق بيان ذلك.

(30) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٥٥، مسلم: ٨٠٠، المسند: رقم ٣٥٥٠ واللفظ له، وغيرهم.

وفي هذا الحديث لفتة رائعة من ابن مسعود وهي أن المعلم يجب أن يقرِىء ويستقرىء، ويعلِّم ويسمع من تلامذته ليتأكد من إتقان ما تعلّموه، وفيه الإلماع إلى التواضع ممن يقف نفسه لتعليم الناس، وألا يكون مترفعاً عنهم، متكبِّراً عليهم، كما أن فيه منقبة عظيمة له ـ رضي الله عنه ـ في شدة اقتدائه بالنبي عليه أفضل الصلاة والسلام.

ويروي لنا علقمة بن قيس ـ أحد كبار تلامذة عبد الله ـ مشهداً رائعاً استمع فيه الأستاذ لقراءة تلميذه، فيقول: «كنا جلوساً مع ابن **مسعود فجاء خباب فقال: يا أبا عبد الرحمن، أيستطيع هؤلاء الشباب أن يقرؤوا كما تقرأ قال: أما إنك لو شئتَ أمرتُ بعضهم يقرأ عليك، قال: أجل، قال: اقرأ يا علقمة**، فقال: زيد بن حدير ـ أخو زياد بن حدير ـ أتأمر علقمة أن يقرأ وليس بأقرئنا؟ قال: أما **إنك** لو شئت أخبرتك بما قال النبي ﷺ في قومك وقومه[٣١]؟!

فقرأت خمسين آية من سورة مريم، فقال عبد الله: كيف ترى؟ قال: قد أحسن، قال عبد الله: ما أقرأ شيئاً إلاَّ وهو يقرؤه. ثم التفت إلى خباب وعليه خاتم ذهب فقال: ألم يأنِ لهذا الخاتم أن يلقى؟! قال: أما **إنك** لن تراه عليَّ بعد اليوم، فألقاه[٣٢]»[٣٣].

● ثم ارتقى بهم صُعُداً، وانتقل من إقرائهم والإصغاء لتلاوتهم إلى تدبّره معهم، فكان يجالسهم فيفسر لهم غامضه ويبيِّن

---

(٣١) يشير إلى ثناء النبي ﷺ على النخع، لأن علقمة نخعي، والى ذم بني أسد؛ وزياد بن حدير أسدي.

(٣٢) قال ابن حجر: ولعل خباباً كان يعتقد أن النهي عن لبس الرجال خاتم الذهب للتنزيه، فنبهه ابن مسعود على تحريمه، فرجع اليه مسرعاً.

(٣٣) البخاري، الفتح: رقم ٤٣٩١، المسند: رقم ٤٠٢٥.

لهم مجمله، ويوضح سبب نزول آياته، حتى يفقهوا مراميه ويعوا أغراضه، ويعرفوا أحكامه وناسخه من منسوخه، وهذا ما يرويه ابن كثير رحمه الله: **«عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن ابن مسعود أنه كان إذا اجتمع إليه اخوانه نشروا المصحف، فقرأ أو فسّر لهم»** [٣٤].

● وكانت الغاية من وراء ذلك الإقراء وهذا الاستماع والتفسير، هي أن ينطلق بهم من حيِّز العلم إلى ميدان العمل، ومن نطاق الكلام إلى جادة الالتزام، فغايته الكبرى أن يقفهم عند حدوده ويلزمهم بفرائضه، ويحملهم على ترك ما حرّم، وهجر ما استقبح - فقال لهم: «أُنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً! وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم، والعالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء، وكالجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها»[٣٥].

وروى ابن أبي حاتم **«أنَّ رجلاً أتى عبد الله بن مسعود فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: [يا أيها الذين آمنوا] فأرعها سمعك، فإنّه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»**[٣٦].

وروى عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: «أتاه رجل فقال: يا أبا عبد الرحمن، علمني كلمات جوامع نوافع، فقال: اعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وزُلْ مع القرآن حيث زال، ومن جاءك بالحق فاقبل منه وإن كان بعيداً بغيضاً، ومن جاءك بالباطل فاردد عليه وإن كان حبيباً قريباً[٣٧]».

---

(٣٤) فضائل القرآن: ص ٦٥، وقال ابن كثير: إسناد صحيح.
(٣٥) إحياء علوم الدين: ١/٦٤.
(٣٦) تفسير ابن كثير: ٣/٤.
(٣٧) حلية الأولياء: ١/١٣٤، ومعنى زُلْ: انتقل.

حض الناس على التمسك بهَدْي سيدنا محمد ﷺ، ونشر فضائله، وتعليمهم احترامه وإعظام شأنه:

● كان عبد الله يؤدب تلامذته بآداب الإسلام، ويحملهم على إعظام شأن رسوله عليه الصلاة والسلام، فتراه يحضهم على تعظيم حديثه ﷺ وعدم معارضته فيقول: «**إذا حدِّثتم عن رسول الله ﷺ حديثاً فظنوا برسول الله ﷺ أهيأه، وأهداه، وأتقاه**»[٣٨].

● وينشر فضائله بينهم ليعظِّموه ويوقِّروه، بل ويكثر من تردادها وذكرها، وهذا ما يرويه الإمام أحمد رضي الله عنه عن عمرو بن مرَّة قال: «سمعت عبد الله بن سَلِمة يقول: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: أوتي نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء، غير الخمس: [إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن الله عليم خبير]. قال: قلت: أنت سمعته من عبد الله؟ قال: نعم، أكثر من خمسين مرة!!»[٣٩].

● وكان يؤدِّبهم على احترامه ﷺ والصَّلاة عليه بأبلغ كلام وأفصح بيان فيقول: «**إذا صليتم على رسول الله ﷺ فأحسنوا الصلاة فإنكم لا تدرون لعل ذلك يعرض عليه، قال: فقالوا له: فعلِّمنا قال: قولوا: اللهم اجعلْ صلواتك ورحمتك وبركاتك على سيِّد المرسلين، وإمام المتَّقين، وخاتم النبيين، محمد عبدك ورسولك، إمام الخير، وقائد الخير، ورسول الرحمة، اللهم ابعثه**

---

(٣٨) المسند: رقم ٣٦٤٥، ورواه ابن ماجه والدارمي والطيالسي.

(٣٩) المسند: رقم ٣٦٥٩، ٤١٦٧، ورواه الهيثمي (٨/٢٦٣) وعزاه الى أبي يعلى وقال: رجالهما رجال الصحيح.

مقاماً محموداً يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم. إنك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»[40].

نشر فضائل الصحابة بين الناس وحملهم على الاقتداء بهم:

● كان من منهج عبد الله رضي الله عنه في تعليم الناس أن يضع لهم الصورة الحية التي تمثّل بها الإسلام؛ حتى لا يكون هناك فصلٌ بين الكلمة والالتزام، فتراه ينشر عبير سيرة ذلك الرعيل الذي نصر رسولَ الله ﷺ، وحمل دعوة الحق، مستخفّاً بالآلام، ساخراً بالمشقّات، مستهيناً بصنوف العذاب، حتى كانوا أهلاً لاختيار الله لهم، وفي هذا يقول: «إنَّ الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد؛ فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد؛ فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون عن دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيِّئاً فهو عند الله سيء»[41].

● ثم يحملهم بعد ذلك على اقتفاء أثرهم والنسج على منوالهم، فيقول[42]: **«من كان منكم متأسياً فليتأسَّ بأصحاب محمد ﷺ، فإنَّهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلُّفاً،**

---

(٤٠) الترغيب والترهيب: ٢/٥٠٥، قال المنذري: رواه ابن ماجه موقوفاً بإسناد حسن. وانظر تفسير ابن كثير: ٦/٤٥٣.

(٤١) المسند: رقم ٣٦٠٠، ورواه الهيثمي (١/١٧٧ - ١٧٨) وعزاه الى البزار والطبراني في الكبير، وقال: رجاله موثقون.

(٤٢) جامع بيان العلم وفضله: ٢/٩٧، حياة الصحابة: ٣/٧٧٣.

وأقومها هَدْياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم».

تعليم الناس الصلاة وكل ما يتعلق بها:

● أولى ابن مسعود الصلاة اهتماماً كبيراً لأنها عمود الإسلام، فكان يعلِّم الناس أركانها، وينبههم على مبطلاتها، فمن ذلك أنه علمهم التشهد كما حفظه عن رسول الله ﷺ، بل إنه قد حاكى فعل النبي ﷺ عندما علَّمه التشهّد، وهذا ما يرويه **القاسم بن مُخَيْمرة** قال: «**أخذ علقمة بيدي، وحدثني أن عبد الله بن مسعود أخذ بيده، وأن** رسول الله ﷺ **أخذ بيد عبد الله، فعلّمه التشهُّد في الصلاة،** قال: (قل: التحيات لله، والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمه الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين)، قال زهير»[٤٣]: **حفظت عنه إن شاء الله: (أشهد أن لا إلّه إلا الله ـ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله). قال**[٤٤]: **فإذا قضيت هذا ـ أو قال: فإذا فعلت هذا ـ فقد قضيت صلاتك، إن شئت أن تقوم فقم، وإن شئت أن تقعد فاقعد»**[٤٥]

---

(٤٣) هو زهير بن معاوية، أحد رجال السند.

(٤٤) هذا الكلام فما بعده من كلام عبد الله، وهو مدرج في الحديث، انظر مقدمة ابن الصلاح: ص ٤٥، والطبعة المحققة: ص ٢٠٨.

(٤٥) المسند: رقم ٣٩٣٥، ٤٠٠٦، والحديث عند البخاري، الفتح: رقم ٨٣١ بنحوه، ومسلم: رقم ٤٠٢. وقد أطنب الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث، ونقل عن أئمة العلم أنه ليس في التشهد أثبت من حديث ابن مسعود، ولا أصحّ أسانيد، ولا أثبت رجالاً، وقال: لا اختلاف بين أهل الحديث في ذلك، وأنه تلقاه عن النبي تلقيناً.

● وقد نقل لهم ما شهده مع النبي ﷺ في صلاته، وكيف كان يبدأ الصلاة، وأنه يكبِّر مع كل رفع وخفض، وكيفية التحلل من الصلاة والانصراف منها[٤٦].

● وقد كان يرغبهم في صلاة الجماعة بالمسجد، وروى لهم أحاديث سمعها من النبي ﷺ، فعن أبي الأحوص عن عبد الله قال: «قال رسول الله ﷺ: (فضل صلاة الرجل في الجماعة على صلاته وحده بضع وعشرون درجة)[٤٧]».

وروى لهم مرة أخرى «أن نبي الله ﷺ قال: (صلاة الجميع تفضل على صلاة الرجل وحده خمسة وعشرين ضعفاً، كلها مثل صلاته)[٤٨]».

لكنه ما كان يدعوهم إلى السعي للمساجد ويتكاسل عنها، ولا يرغّبهم في الثواب ويزهد به، بل كان سباقاً إلى ذلك، قدوة لهم فيما يقول، فتراه يصحبهم إلى بيوت الله، ويعلِّمهم كيفية الصلاة هناك، ويصحّح لهم إذا أخطأوا. روى تلميذه زيد بن وَهْب قال: «خرجت مع عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ من داره إلى المسجد، فلمَّا توسطنا المسجد ركع الإمام، فكبر عبد الله وركع، وركعت معه، ثم مشينا راكعين حتى انتهينا إلى الصَّف حين رفع القوم رؤوسهم[٤٩]، **فلما قضى الإمام الصلاة قمت وأنا أرى أني لم أدرك،**

---

(٤٦) انظر الفصل الثالث من هذا الكتاب.
(٤٧) المسند: رقم ٣٥٦٤، ورواه الهيثمي (٣٨/٢) وقال: رجال أحمد ثقات.
(٤٨) المسند: رقم ٣٥٦٧.
(٤٩) هذا الكلام يدل على قربهما من الصف الأخير، وأنهما لم يمشيا أكثر من ثلاث خطوات، لأن الزمن اللازم لهذه الخطوات الثلاث لا يزيد عن الوقت الذي تتطلبه ثلاث تسبيحات.

فأخذ عبد الله بيدي وأجلسني، ثم قال: إنك قد أدركت»(٥٠).

● وعلمهم كيفية السعي إلى المسجد والمشي إليه، والاقتداء بالنبي ﷺ وصحبه في ذلك، فقال: «**امشوا إلى الصلاة فقد مشى إليها من هو خير منكم أبو بكر وعمر والمهاجرون والأنصار ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، قاربوا بين الخطا، وأكثروا ذكر الله عز وجل، ولا عليك ألَّا تصحب أحداً إلَّا من أعانك على ذكر الله عز وجل**»(٥١).

● وصعد بهم إلى نافلة الليل ورغَّبهم في القيام بأسلوب بديع، يروي لنا ذلك واحد من كبار تلامذته، «عن زِرٍّ بن حُبَيش قال: قلت لأبيّ بن كعب: يا أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: من يقم الحول يصب ليلة القدر!! فقال: يرحمه الله، لقد أراد ألَّا يتكلوا، ولقد علم أنها في شهر رمضان، وأنها في العشر الأواخر، وأنها ليلة سبع وعشرين، قال: قلنا: يا أبا المنذر، بأي شيء تعرف ذلك؟ قال: بالعلامة التي أخبرنا رسول الله ﷺ أن الشمس تطلع من ذلك اليوم لا شعاع فيها»(٥٢).

● وعن مرَّة الهمداني قال: قال عبد الله: «فضل صلاة الليل على صلاة النهار كفضل صدقة السرِّ على صدقة العلانية»(٥٢).

● وزاد من اهتمامهم بالصلاة أن وجههم للفزع إليها عند الزلزلة أو غيرها من الآيات الكونية، فعن علقمة قال: «**قال عبد**

---

(٥٠) السنن الكبرى: ٢/٩٠.
(٥١) السنن الكبرى: ٣/٢٢٩.
(٥٢) هذا لفظ البيهقي في السنن الكبرى: ٤/٣١٢، وهو عند مسلم: الحديث الذي يلي رقم ١١٦٩، بنحو هذا السياق. وانظر تفسير ابن كثير: ٨/٤٦٩.
(٥٢) مكرر: السنن الكبرى: ٢/٥٠٢.

الله بن مسعود: إذا سمعتم هادّاً من السماء فافزعوا إلى الصلاة»[٥٣].

حث الناس على الحج والعمرة وتفقيههم بهما:

● عن عميرة بن زياد عن عبد الله قال: «حُجّ واشترط، وقل: اللَّهم الحجَ أردتُ، وله عمدت، فإن تيسّر وإلا فعمرة»[٥٤].

● وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «رمى عبد الله بن مسعود جمرة العقبة من بطن الوادي بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، قال: فقيل له: إن أناساً يرمونها من فوقها! فقال عبد الله بن مسعود: هذا والذي لا إلّه غيره مقام الذي أُنزلت عليه سورة البقرة»[٥٥].

أسئلة وأجوبة:

كان رضي الله عنه يتكلَّم ويحدّث، ويوجِّه ويرشد، ويتلقَّى الأسئلة بصدر رحب ويجيب عنها بسهولة ويسر، وعلم وفهم. وهو يصدر في ذلك عن بحر لايُـنزح ماءه، ونبعٍ دفّاق، كان ثمرة تلك الصحبة المباركة الطويلة لرسول الله ﷺ.

● روى الأسود بن يزيد قال: «سمعت رجلاً يسأل عبد الله بن مسعود عن انصراف رسول الله ﷺ من صلاتـه: عن يمينه كـان ينصرف أو عن يساره؟ قال: فقال عبد الله بن مسعود: كان رسول الله

---

(٥٣) السنن الكبرى: ٣/٣٤٣. والهادّ: صوت يسمعه أهل السواحل يأتيهم من قبل البحر، له دوي في الأرض، وربما كانت منه الزلزلة، وهديـده: دويّه، وقد هدّ يهدّ، وما سمعنا العام هادّة: أي رعداً.

(٥٤) السنن الكبرى: ٥/٢٢٢.

(٥٥) البخاري، الفتح: رقم ١٧٤٧ فما بعده بنحوه، ومسلم: رقم ١٢٩٦ وهذا لفظه، والمسند: رقم ٣٨٧٤، وأبو داود والترمذي والنسائي.

ﷺ ينصرف حيث أراد، كان أكثر انصراف رسول الله ﷺ من صلاته على شقه الأيسر إلى حجرته»[٥٦].

● وعن الأسود أيضاً قال: «أُقيمت الصلاة في المسجد، فجئنا نمشي مع عبد الله بن مسعود، فلما ركع الناس ركع عبد الله وركعنا معه، ونحن نمشي، فمرّ رجل بين يديه، فقال: السلام عليك يا أبا عبد الرحمن فقال عبد الله ـ وهو راكع ـ: صدق الله ورسوله. فلما انصرف سأله بعض القوم: لِمَ قلت حين سلّم عليك الرجل: صدق الله ورسوله؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن من أشراط الساعة إذا كانت التحية على المعرفة)[٥٧]».

● وعن مسروق بن الأجدع قال: «سألنا غبد الله ـ هو ابن مسعود ـ عن هذه الآية: [ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يُرزقون]؟ قال: أمَا إنَّا قد سألنا عن ذلك، فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث تشاء ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم إطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أيُّ شيء نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟! ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يَسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن تردّ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى! فلما رأى أنْ ليس لهم حاجة، تركوا)[٥٨]».

---

(٥٦) هذا لفظ أحمد في مسنده: رقم ٤٣٨٣، والشطر الثاني من الحديث عند البخاري، الفتح: رقم ٨٥٢، ومسلم: رقم ٧٠٧ وأبي داود والنسائي.

(٥٧) المسند: رقم ٣٦٦٤، ورواه الطيالسي والبيهقي، والهيثمي (٨/٣٢٨ ـ ٣٢٩) و عزاه الى البزار ببعضه والطبراني وقال: رجال أحمد والبزار رجال الصحيح.

(٥٨) مسلم: رقم ١٨٨٧، والترمذي، وانظر جامع الأصول: ٩/٤٩٩.

● وعن عبيد الله بن عبد الله عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء رجل فقال: هل سمعت رسول الله ﷺ يقول في الخيل شيئاً؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، اشتروا على الله، واستقرضوا على الله). قيل: يا رسول الله، كيف نشتري على الله ونستقرض على الله؟ قال: (قولوا: أقرضنا إلى مقاسمنا، وبعنا إلى أن يفتح الله لنا، لا تزالون بخير ما دام جهادكم خَضِراً، وسيكون في آخر الزمان قوم يشكُّون في الجهاد، فجاهدوا في زمانهم، ثم اغزوا فإن الغزو يومئذٍ خضِر)(٥٩)».

● وعن شِبْرمة بن طفيل عن عبد الله بن مسعود قال: «إن الرجل ليدخل على السلطان ومعه دينه، فيخرج وما معه دينه!! فقال رجل: كيف ذاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يرضيه بما يُسخط الله فيه»(٦٠).

● وعـن أبي العبيدَين «أنه جاء إلى عبد الله فقال: من نسأل إذا لم نسألك؟! فكأنّ ابن مسعود رقّ له، فقال: أخبرني عن الأُمَّة؟ فقال: الذي يعلّم الناس الخير»(٦١).

تصحيح الأخطاء:

وثَمَّة مجال ثالث كان عبد الله ينشر فيه العلم الذي أخذه عن

---

(٥٩) أخرجه أبو يعلى، وقال الهيثمي (٥/ ٢٨٠): فيه «بقيّة» وهو مدلّس، وباقي رجاله ثقات. وانظر حياة الصحابة: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥. ومعنى خضراً: أي طري محبوب لما ينزل الله فيه من النصر ويسهل من الغنائم.

(٦٠) طبقات ابن سعد: ٦/ ٢٠٨.

(٦١) تفسير ابن كثير: ٤/ ٥٣٠.

النبي ﷺ، بالإضافة إلى تحديثهم، والرد على أسئلتهم واستفساراتهم، ذلك هو تصحيح الأخطاء، وتصويب الآراء التي كانت تقع على مسمع منه، أو تنقل إليه. وفي الكوفة وقعت أحداث كثيرة، أخطأ فيها الناس؛ فسدّد ابن مسعود خطأهم، ووضعهم على المحجَّة البيضاء.

● عن يُسَيْر بن جابر قال: «هاجت ريح حمراء بالكوفة، فجاء رجل ليس له هجيّري[٦٢] إلاّ: يا عبد الله بن مسعود جاءت الساعة! قال: فقعد ـ وكان متكئاً ـ فقال: إن الساعة لا تقوم حتى لا يُقسم ميراث، ولا يُفرح بغنيمة، ثم قال بيده هكذا ـ ونحّاها نحو الشام ـ فقال: عدو يجمعون لأهل الإسلام[٦٣]، ويجمع لهم أهل الإسلام، قلت: الروم تعني؟ قال: نعم، وتكون عند ذاكم القتال رَدّة شديدة[٦٤]، فيشترط المسلمون شُرْطة[٦٥] للموت لا ترجع إلاّ غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء[٦٦] هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة. ثم يشترط المسلمون شرطة للموت، لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يحجز بينهم الليل، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة، ثم يشترط المسلمون شرطة للموت لا ترجع إلا غالبة، فيقتتلون حتى يمسوا، فيفيء هؤلاء وهؤلاء كل غير غالب، وتفنى الشرطة. فإذا كان يوم الرابع، نهد[٦٧] إليهم بقيّة أهل الإسلام، فيجعل الله الدَّبرة عليهم[٦٨]، فيقتتلون مقتلة ـ إمَّا قال: لا يُرى مثلها وإما قال: لم يُرَ مثلها ـ حتى إنَّ الطائر

---

(٦٢) أي شأنه ودأبه ذلك.
(٦٣) أي لقتالهم.
(٦٤) أي عطفة قوية.
(٦٥) طائفة من الجيش تتقدم للقتال.
(٦٦) أي ترجع.
(٦٧) أي نهض وتقدم.
(٦٨) أي الهزيمة.

ليمرّ بجنباتهم(٦٩) فما يخلّفهم(٧٠) حتى يخر ميتاً. فيتعادّ(٧١) بنو الأب، كانوا مائة، فلا يجدون بقي منهم إلاّ الرجل الواحد، فبأي غنيمة يُفرح؟! أو أي ميراث يقسم؟! فبينما هم كذلك، إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك، فجاءهم الصريخ، إن الدجَّال قد خَلَفهم في ذراريهم، فيرفُضون(٧٢) ما في أيديهم، ويقبلون، فيبعثون عشرة فوارس طليعة، قال رسول الله ﷺ «إنيِّ لأعرف أسماءهم، وأسماء آبائهم، وألوان خيولهم ، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذٍ)(٧٣)».

● وقد ردّ ابن مسعود غير ما رجل إلى الصواب، من ذلك تخطئة كعب الأحبار في أن السموات تدور على منكب ملك، وتصحيح مفهوم رجل آخر عن قوله تعالى: ﴿عليكم أنفسكم﴾، وغير ذلك مما تقدم في فصل «المفسر» ممَّا أغنى عن إعادته ههنا.

حكمته في التعليم، ورغبة تلاميذه بحديثه، وذهابهم إليهم في بيته:

● كان رضي الله عنه ذكياً فطناً، ألمعياً لبيباً، ورث ـ فيما ورث ـ عن النبي ﷺ الأسلوب المسدَّد، فكان موفقاً في تعليمه، ناجحاً في توجيهه، يعطي كل موقف ما يناسبه، وكل واحد ما يلائمه؛ فهذا عبد الرحمن بن يزيد يقول: «دخلنا على عبد الله، وعنده علقمة والأسود، فحدّث حديثاً لا أراه حدّثه إلا من أجلي، كنت أحدث القوم سناً، قال: كنا مع رسول الله ﷺ، شباباً لا نجد

---

(٦٩) أي نواحيهم. (٧٠) أي يجاوزهم.
(٧١) أي يعدّ بعضهم بعضاً.
(٧٢) أي يتركون.
(٧٣) مسلم: رقم ٢٨٩٩، واللفظ له، والمسند: رقم ٣٦٤٣.

شيئاً، فقال: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجَاء)»[٧٤].

● وكان يتبع أثر رسول الله ﷺ في كل شيء حتى في تحديثه، فهذا شقيق بن سلمة يقول: «كنا ننتظر عبد الله بن مسعود في المسجد يخرج علينا، فجاءنا يزيد بن معاوية ـ يعني النخعي ـ قال: فقال: ألا أذهب فأنظر، فإن كان في الدار لعلي أن أخرجه إليكم؟! فجاءنا فقام علينا فقال: **إنه ليُذكر لي مكانكم، فما آتيكم كراهية أن أملّكم، لقد كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهية السآمة علينا**»[٧٥].

● ولقد كان يجلس لتحديثهم كل يوم خميس، وهم يطمعون بمزيد من تلك الجلسات، وهذا ما عبر عنه أبو وائل فقال: «كان عبد الله ممّا يذكّر كل يوم الخميس، فقيل له: لوددنا أنك ذكرتنا كل يوم، قال: إني أكره أن أملّكم»[٧٦].

لذا فقد كانوا يذهبون إليه في بيته، ليأخذوا عنه وينهلوا من بحره، فعن أبي وائل قال: «**غدونا على عبد الله بن مسعود يوماً بعد ما صلينا الغداة، فسلّمنا بالباب، فأَذِن لنا، قال: فمكثنا بالباب هنيّة، قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟** فدخلنا، فإذا هو جالس يسبّح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أُذِن لكم؟! فقلنا: لا، إلا أننا ظننا أن بعض أهل البيت نائم، قال: ظننتم بآل ابن أمِّ

---

(٧٤) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٦٥، ومسلم: رقم ١٤٠٠، وأصحاب السنن، والمسند: ٤٠٣٥ واللفظ له.

(٧٥) البخاري، الفتح رقم ٦٤١١، ومسلم رقم ٢٨٢١، والترمذي والمسند رقم ٣٥٨١، واللفظ له.

(٧٦) المسند: رقم ٤٠٦٠، سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٣٩ بنحوه.

عبد غفلة؟! قال: ثم أقبل يسبّح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، فقال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فـإذا هي لم تطلع. فأقبل يسبح، حتى إذا ظن أن الشمس قد طلعت قال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ فنظرت فإذا هي قـد طلعت، فقال: الحمد لله الذي أقالنا يومنا هذا، ـ فقال مهدي: وأحسبه قال: ولم يهلكنا بذنوبنا ـ قال: فقال رجل من القوم: قرأت المفصّل البارحة كله، قال: فقال عبد الله: هذّاً كهذّ الشعر؟ إنا لقد سمعنا القرائن، وإني لأحفظ القرائن التي كان يقرؤها رسول الله ﷺ: ثمانية عشر من المفصّل، وسورتين من آل حم»[77].

زيارته للآخرين وتحديثهم وتعليمهم في بيتهم:

● عن عمـرو بن وابصة الأسـدي عن أبيه[78] قـال: «**إني بالكوفة في داري، إذ سمعت على باب الـدار: السلام عليكم، أألج؟ قلت: عليكم السلام، فَلِجْ، فلما دخل فإذا هو عبد الله بن مسعود، قلت: يا أبا عبد الرحمن، أية ساعة زيارة هذه ـ وذلك في نحر الظهيرة ـ؟! قال: طال عليّ النهار فذكرت من أتحدث إليه. قال: فجعل يحدثني عن رسول الله ﷺ وأحدثه، قال: ثم أنشأ** يحدثني، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (تكون فتنة النائم فيها خير من المضطجع، والمضطجع فيها خير من القاعد، والقاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي خير من الراكب،

(٧٧) مسلم: رقم ٨٢٢ (بالأصل: ٧٢٢)، وانظر جامع الأصول: ٨/١٤ - ١٥.

(٧٨) أبوه هو: وابصة الأسدي، صحابي سكن الكوفة، ثم تحول إلى الرقة وتوفي بها، وقبره في بلد متصل البناء بالرقة يسمّى «الرافقة» أسد الغابة: ٥/٤٢٧.

والراكب خير من المُجْري، قتلاها كلها في النار)! قال: قلت يا رسول الله، متى ذلك؟ قال: (ذلك أيام الهَرْج)، قلت: ومتى أيام الهرج؟ قال: (حين لا يأمن الرجل جليسه)؟! قال: قلت: فما تأمرني إن أدركت ذلك؟ قال: (اكفف نفسك ويدك، وادخل دارك)، قال: قلت يا رسول الله، أرأيت إن دُخل عليّ داري؟ قال: (فادخل بيتك)، قال: قلت: أفرأيت إن دخل رجل عليَّ بيتي؟ قال: (فادخل مسجدك، واصنع هكذا ـ وقبض بيمينه على الكوع ـ وقل: ربي الله حتى تموت على ذلك)[٧٩]». و«عن العيزار بن جرول الحضرمي، عن رجل منهم يكنى أبا عُمير، أنه كان صديقاً لعبد الله بن مسعود، وأن عبد الله بن مسعود زاره في أهلِه، فلم يجده، قال: فاستأذن على أهله وسلّم، فاستسقى، قال: فبعثت الجارية تجيئه بشراب من الجيران، فأبطأت فلعنتها، فخرج عبد الله! فجاء أبو عُمير فقال يا أبا عبد الرحمن، ليس مثلك يُغار عليه! هلّا سلمت على أهل أخيك، وجلست وأصبت من الشراب؟ قال: قد فعلت، فأرسلتِ الخادم، فأبطأت، إمَّا لم يكن عندهم، وإمَّا رغبوا فيما عندهم، فأبطأت الخادم، فَلَعَنْتُها، وسمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن اللعنة [إذا وجّهت] إلى من وجّهت إليه. فإن أصابت عليه سبيلاً، أو وجدت فيه مسلكاً، وإلا قالت: يا ربّ وجهت إلى فلان، فلم أجد عليه سبيلاً ولم أجد فيه مسلكاً، فيقال لها: ارجعي من حيث جئتِ)؛ فخشيت أن تكون الخادم معذورة، فترجع اللعنة، فأكون سببها»[٨٠]!!

---

(٧٩) المسند: رقم ٤٢٨٦، ورواه الحاكم، وعبد الرزاق، والهيثمي (٧/٣٠١ ـ ٣٠٢) وقال: رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما ثقات.

(٨٠) المسند: رقم ٣٨٧٦، ورواه الهيثمي (٨/٧٤) وقال: أبو عمير لم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، ولكن الظاهر أن صديق ابن مسعود الذي يزوره ثقة. وقد

ارشادات وتوجيهات ونصائح:

● عن ابن مسعود قال: «**عليكم أن تستأذنوا على أمهاتكم وأخواتكم**»، وفي رواية أخرى عنه: «**عليكم الإذن على أمهاتكم**»[٨١].

● وعن زينب - امرأة ابن مسعود رضي الله عنها - قالت: «كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهة أن يهجم منا على أمر يكرهه»[٨٢].

● ويلفت الناس للاهتمام بأبنائهم، فعن أبي الأحوص عن عبد الله قال: «**حافظوا على أولادكم في الصلاة، وعلِّموهم الخير فإنَّما الخير عادة**»[٨٣].

● وكان يوجه أنظارهم للآخرة، ويعلق قلوبهم بها، ويزهّدهم في الدنيا؛ فعن هزيل بن شرحبيل قال: «قال عبد الله: من أراد الدنيا أضرَّ بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضرَّ بالدنيا، يا قوم: فأضرّوا بالفاني للباقي»[٨٤].

● وكان يأمرهم بالاستعداد لذلك اليوم، وإعداد الخيرات والأعمال الصالحات له، عن الأسود بن يزيد قال. «قرأ عبد الله - يعني ابن مسعود - هذه الآية: [إلاَّ من اتخذ عند الرحمن عَهْداً]،

أورد المنذري القسم المرفوع من الحديث، وما بين ( ) وقال: رواه أحمد وفيه قصة. وإسناده جيد إن شاء الله تعالى. الترغيب والترهيب: ٣/٤٧٣.

(٨١) ذكرهما ابن كثير في تفسيره: ٦/٤٠.

(٨٢) تفسير ابن كثير: ٦/٤٠ - ٤١، وقال: إسناد صحيح.

(٨٣) السنن الكبرى: ٣/٨٤.

(٨٤) حلية الأولياء: ١/١٣٨.

ثم قال: **اتخذوا عند الله عَهْداً، فإنَّ الله يقول يوم القيامة: ﴿من كان له عند الله عهد فليقم﴾، قالوا: يا أبا عبد الرحمن، فعلمنا. قال: قولوا:** اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، فإني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا أنك إن تكلني إلى عملي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلاَّ برحمتك، فاجعل لي عندك عهداً تؤديه إليّ يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد»(٨٥).

● وينهاهم أن يكونوا إمّعات، يقتدون بكل ناعق، ويلهثون وراء كل دَعيّ، وهذا ما يرويه تلميذه **عبد** الرحمن بن يزيد قال: «قال عبد الله: لا يكوننَّ أحدكم إمّعة، قالوا: وما الإِمَّعة يا أبا عبد الرحمن؟ قال: يقول: أنا مع الناس، إن اهتدوا اهتديت، وإن ضلُّوا ضَلَلْت، ألاَ لِيُوَطِنَنَّ أحدكم نفسه على إن كفر الناس أن لا يكفر»(٨٦)

● وكان يحضُّهم في كل ما علّمهم إياه، أو تعلّموه من غيره؛ على أن يفزعوا به إلى العمل، فلا فائدة من العلم بدون التزام وقول الإنسان ومعرفته يكونان عليه حجّة إن لم يصحبها الفعل، فعن عبد الله بن عكيم قال: «سمعت ابن مسعود في هذا المسجد يبدأ باليمين قبل الكلام، فقال: **ما منكم من أحد إلاَّ أنَّ ربه تعالى سيخلو به كما يخلو أحدكم بالقمر ليلة البدر، فيقول: يا ابن آدم ما غرّك بي؟ ابن آدم ماذا أجبت المرسلين؟ ابن آدم ماذا عملت فيما علمت؟!**»(٨٧).

---

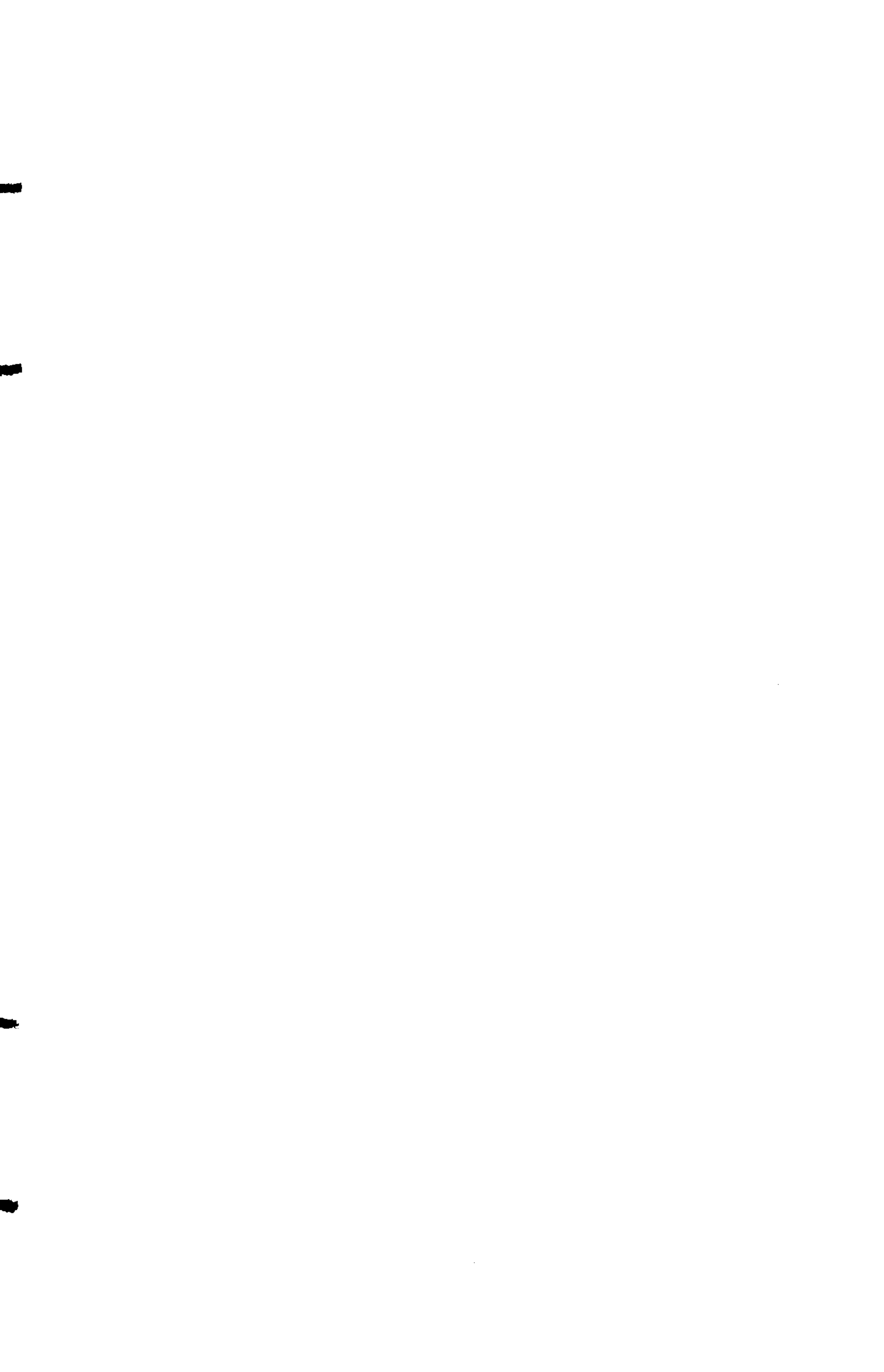
(٨٥) تفسير ابن كثير: ٥/٢٦٠، وقد أخرجه السيوطي في الدر المنثور، وابن ابي حاتم، والطبراني، والحاكم وصححه.

(٨٦) حلية الأولياء ١/١٣٦.

(٨٧) حلية الأولياء: ١/١٣١.

هكذا كان ابن مسعود رضي الله عنه ينشر من جعبته المترعة بالعلم، لقد أقرأ الناس القرآن، وفسّر لهم آيـاته، وحملهم على حفظه وتلاوته. ثم نشر بينهم حديث رسول الله ﷺ، فتلقفته جملة كبيرة من أذكياء الكوفة ونجبائها، حتى غصّت بالعلماء. وكان رضي الله عنه مرجـع الناس، ومـوئل الفتـوى، ومحط الأنظار في حـل المشكلات على ضوء الشرع، فكان لا مناص له من أن يقول كلمة الحق، ويعمل رأيه فيما لم يظهـر حكمه بشكـل جلي، فتفتقت عبقريته النادرة عن أجوبة مسدَّدة، ونظرات صائبة؛ حتى أصبح له مذهب وأتباع يصدرون عن رأيه ونظراته... فلنتابع السير مع ابن مسعود الفقيه.

* * *



الفصل التاسع

فَقيهُ الكوفـةِ الأكبرَ

- تحرّيه في الفتيا
- تتبعه للحق وتراجعه عن الخطأ
- مع بعض الأصحاب وردّهم إلى الصواب
- أسئلة وأجوبة
- نماذج من علمه بالنسخ
- كلام مردودٌ في حقِّه
- نصائح ووصايا في الفقه وأهله
- نماذج من آرائه الفقهية

فقيه الكوفة الأكبر

اجتمع لعبد الله بن مسعود من الصفات العظيمة والخصال الفريدة ما لا يجتمع إلا في القليل من الصحابة رضي الله عنهم جميعاً، وحاز قصب السَّبْق في ميادين عديدة، ومجالات واسعة كبيرة، حتى لقد أخذ من كلٍّ بحظٍّ وافر، وجمع في كل علم قدراً لا يصل إليه إلاَّ ذوو الهمم العالية. فكان ممَّا تهيأ له: الصحبة الطويلة لرسول الله ﷺ، والتي كانت منبع علومه، وأمّ معارفه، ومداد تحصيله؛ لذا وجدناه مبرزاً في قرّاء الصحابة، مبدعاً في مفسِّريهم، مكثراً بين محدِّثيهم، متفرِّداً بين معلِّميهم، نادراً بين فقهائهم.

وإن الذي اجتمع له القرآن وعلومه، وانضمت له السنة النبوية شارحة الكتاب العزيز؛ لا بدّ أن يكون من وراء ذلك فقيهاً كبيراً، وعَلَماً نِحريراً، ومُفتياً مسدّد الخطى.

ولم يكن ابن مسعود بالذي يجمع القرآن لمجرد الحفظ، ولا يحفظ الحديث اكتفاءً بالنقل؛ كيف وهو الذي روى عن رسول الله ﷺ: (فربّ مبلَّغ أوعى من سامع)، ممّا حثه على أن يكون مبلِّغاً أوعى من المبلَّغين، وسامعاً غير مكتفٍ بالنقل لغير الحاضرين. ولقد شهد له بهذا أكابر الصحابة، وسادات التابعين، ومؤرخو الإسلام الكبار، وفي هذا يقول مسروق بن الأجدع: «**كان أصحاب الفتوى**

من أصحاب رسول الله ﷺ: عمر، وعلي، وابن مسعود، وزيد، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري»[1]. ويقول عامر الشَّعْبي: «كان علماء هذه الأمة بعد نبيِّها ﷺ ستة: عمر، وعبد الله، وزيد بن ثابت، فإذا قال عمر قولاً، وقال هذان قولاً؛ كان قولهما لقوله تبعاً. وعلي، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، فإذا قال علي قولاً، وقال هذان قولاً؛ كان قولهما لقوله تبعاً»[2].

كما كان عبد الله قويّ النزع في الفتيا، مسدَّد الرأي في قضاء الناس، يصدر عن نظرة يسندها بآي القرآن وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام.

ولقد عاش في الكوفة دهراً، يعلِّم أهلها القرآن والحديث، ويفتيهم في شؤونهم، ويقضي بينهم، ويحل خصوماتهم؛ فتفتقت عبقريته الفذَّة عن فقيه عريض، دلّ عليه الجم الغفير من تلامذته الذين تخرجوا من مدرسته، وآراؤه المنثورة في كتب الفقه بجميع أبوابه.

تحرّيه في الفتيا:

● إن أول ما يتوجب على الذي يتصدر لإفتاء الناس وحل مشاكلهم في ضوء الشرع؛ هو مراقبة الله عز وجل، والتمكُّث في الفتوى، وعدم الإسراع فيها، مع هجر التنطُّع ـ وذلك لأن قوله في جانب دين الله سبحانه والناس يأخذون عنه؛ فإذا أفتاهم بما يخالف الشريعة أوقعهم في الحرام، وهذا أسوأ النتائج، والسكوت ههنا أولى.

(١ ـ ٢) طبقات ابن سعد: ٢/٣٥١.

لأجل هذا ترى ابن مسعود رضي الله عنه يقول: **«من أفتى الناس في كل ما يستفتونه فهو مجنون»**[3]!! وهذا حذيفة بن اليمان رضوان الله عليه يقول: «إنما يفتي الناسَ أحدُ ثلاثة: رجل يعلم ناسخ القرآن ومنسوخه، وأمير لا يجد بدّاً، وأحمق متكلِّف»[4].

● لذا كثيراً ما كان عبد الله يتحرّج في القول بمسألة ليس عنده فيها دليل واضح، وقد حوت بطون الكتب مواقف رائعة له، من ذلك ما رواه تلميذه علقمة بن قيس «أنَّ قوماً أتَوا عبد الله بن مسعود فقالوا له: إنَّ رجلاً منا تزوج امرأة ولم يفرض لها صداقاً، ولم يجمعها إليه حتى مات؟ فقال لهم عبد الله - رضي الله عنه -: **ما سئلت عن شيء منذ فارقت رسول الله ﷺ أشدَّ عليّ من هذه؛ فأتوا غيري!! قال: فاختلفوا إليه فيها شهراً، ثم قالوا له في آخر ذلك: مَن نسأل إذا لم نسألك وأنت أخِيَّةُ**[5] **أصحاب محمد ﷺ في هذا البلد، ولا نجد غيرك؟! فقال: سأقول فيها بجهد رأيي، فإن كان صواباً فمن الله وحده لا شريك له، وإن كان خطأً فمني، والله ورسوله منه بريء؛ أرى أن أجعل لها صَداقاً كصداق نسائها، لا وكس**[6]**، ولا شطط**[7]**، ولها الميراث وعليها العدّة أربعة أشهر وعشراً، قال: وذلك بَسْمع ناسٍ من أشجع، فقاموا فقالوا: نشهد أنك قضيت بمثل الذي قضى به رسول الله ﷺ في امرأة منا يقال لها «بروع بنت واشق». قال: فما رؤي عبد الله بشيء ما فرح يومئذ إلا**

---

(٣) جامع بيان العلم: ٢/١٦٥، والطبراني في الكبير نحوه، ورجاله موثَّقون كما قال الهيثمي (١/١٨٣). وانظر حياة الصحابة: ٣/٧٨٤.

(٤) جامع بيان العلم: ٢/١٦٦، وانظر حياة الصحابة: ٣/٧٨٤.

(٥) الأخيّة: البقية.

(٦) الوكس: النقصان والخسارة.

(٧) الشطط: الزيادة على الواجب المعتاد.

بإسلامه، ثم قال: اللَّهم إن كان صواباً فمنك وحدك لا شريك لك وإن كان خطأً فمني ومن الشيطان، والله ورسوله منه بريء[٨].

● وهكذا فإنه كان ملتزماً نهج النبي ﷺ والصالحين، وإذا احتاج الأمر للاجتهاد، ولم يجد بداً من أن يقول برأيه؛ أفتى الناس بما يريه الله ولم يتركهم في حيرتهم يترددون، لأنه يرى أن ذلك مسؤولية، ومحال أن يدع آحاد الناس يتخبطون بلا هادٍ. روى عبد الرحمن بن يزيد قال: «**أكثروا على عبد الله بن مسعود ذات يوم؛ فقال عبد الله: إنه قد أتى علينا زمان ولسنا نقضي ولسنا هنالك، ثم إنَّ الله عز وجل قدّر علينا أن بلغنا ما ترون**، فمن عرض له منكم قضاء بعد اليوم فليقضِ بما في كتاب الله، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله؛ فليقضِ بما قضى به نبيه ﷺ، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله، ولا قضَى به نبيه؛ فليقضِ بما قضى به الصالحون، فإن جاءه أمر ليس في كتاب الله، ولا قضى به نبيه ﷺ، ولا قضى به الصالحون؛ فليجتهد رأيه ولا يقول: إني أخاف، وإني أخاف، فإن الحلال بيّن، والحرام بيّن، وبين ذلك أمور متشابهات، فدع ما يريبك إلى ما لا يريبك»[٩].

تتبعه للحق وتراجعه عن الخطأ:

وكان رضي الله عنه ـ إضافة إلى تحـرّيه الحق ـ إذا أفتى

---

(٨) هذا لفظ البيهقي في سننه: ٧/٢٤٥، والحديث رواه الإمام أحمد في المسند: رقم ٤٠٩٩، ٤٢٧٦، ٤٢٧٧، وأهل السنن، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وكذا صححه ابن مهدي والترمذي وانظر جامع الأصول: ٧/١٦ ـ ١٨، وتفسير ابن كثير: ١/٤١٩.

(٩) أخرجه النسائي: ٨/٢٣٠، وقال: هذا الحديث جيد جيد. وانظر جامع الأصول: ١٠/١٧٩. وكلام ابن مسعود فيه: أن على الذي يريد أن يفتي ويجتهد أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله وأقضية الفقهاء العلماء، فتأمل!!.

الناس وحكّت الفتوى في صدره؛ يسأل غيره من الصحابة، فيبقى على رأيه إن وافقوه، وينزع عنه إن خالفوه بدليل شرعي.

● عن الأسود وعلقمة قالا: «جاء رجل إلى ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقال: كان بيني وبين امرأتي بعض ما يكون بين الناس، فقالت: لو أنَّ الذي بيدك من أمري بيدي لعلمت كيف أصنَع!! قال: فقلت: إن الذي بيدي من أمرك بيدك، قالت: فإني قد طلقتك ثلاثاً!! **قال عبد الله: أراها واحدة، وأنت أحق بها، وسألقى أمير المؤمنين عمر فأسأله عن ذلك: قال: فلقيه فسأله، فقصّ عليه القصة، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ فعل الله بالرجال،** يعمدون إلى ما جعل الله بأيديهم فيجعلونه في أيدي النساء!! بفيها التراب، بفيها التراب!! فما قلتَ؟ قال: قلت: أراها واحدة، وهو أحق بها، قال: **وأنا أرى ذلك، ولو قلتَ غير ذلك لرأيت أنك لم تُصِبْ**»(١٠)

● وعن سعد بن إياس عن عبد الله بن مسعود: «أن رجلاً من بني شمخ بن فزارة سأله عن رجل تزوج امرأة، فرأى أمها فأعجبته، فطلق امرأته، أيتزوج أمها؟ قال: لا بأس، فتزوجها الرجل. وكان عبد الله على بيت المال، وكان يبيع نفاية بيت المال، يعطي الكثير، ويأخذ القليل. حتى قدم المدينة فسأل أصحاب محمد ﷺ، فقالوا: لا يحل لهذا الرجل هذه المرأة، ولا تصلح الفضة إلا وزناً بوزن. فلما قدم عبد الله، انطلق إلى الرجل فلم يجده، ووجد قومه، فقال: إن الذي أفتيتُ به صاحبكم لا يحلّ!! فقالوا: إنها قد نثرت له بطنها! قال: وإن كان! وأتى الصيارفة فقال: يا معشر الصيارفة،

---

(١٠) السنن الكبرى: ٧/٣٤٧.

إن الذي كنت أبايعكم لا يحلّ، لا تحلّ الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن»[11].

إنها العظمة والخوف من الله تعالى التي خالطت كل ذرة من تلك القلوب، حتى غدت مطواعة للحق مجافية للباطل، وإنه الاخلاص والتواضع الذي يرفع صاحبه إلى أن يتراجع عن رأيه ويلزم الجادة؛ مهما علت مرتبته، وسمت منزلته، حتى ولو كان فقيه المِصر، ووزير ماله!!

مع بعض الأصحاب وردّهم إلى الصواب:

ولئن كان عبد الله يبحث عن الحق، ويسعى إلى من عنده علم في مسألة يريد أن يفتي الناس بها، ثم يرجع إلي رأي الشرع عندما يستبين ـ ففي الجهة المقابلة إذا ألفَى خطأً ومجانبة للسُّنَّة، لا يتردد في تقويمه وتبيان وجه الحق فيه. وكما وجدنا ابن مسعود رجّاعاً إلى الحق، فإن هذا الخلق قد تجمل به كل الصحابة رضي الله عنهم. وأسوق ههنا موقفين اثنين يلقيان الضوء على هذه الناحية في شخصيته رضي الله عنه:

● عن هزيل بن شرحبيل قال: «سأل رجل أبا موسى الأشعري عن امرأة تركت: ابنتها، وابنة ابنها، وأختها؟ فقال: النصف للابنة، وللأخت النصف، وقال: ائتِ ابنَ مسعود فإنه سيتابعني. **قالوا: فأتوا ابن مسعود، فأخبروه بقول أبي موسى، فقال: لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين، لأقضيّن فيها بقضاء رسول الله ﷺ: للابنة النصف، ولابنة الابن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأتوا أبا موسى فأخبروه بقول ابن مسعود، فقال أبو موسى: لا**

---

(11) السنن الكبرى: ٥/٢٨٢.

تسألوني عن شيء ما دام هذا الحَبْر بين أظهركم»(١٢).

● وعن محمد بن سيرين قال: «جلست إلى عبد الرحمن بن أبي ليلى وأصحابه يعظّمونه كأنه أمير، فذكروا آخر الأجلين، فذكرت حديث عبد الله في سبيعة بنت الحارث، قـال: فغمز إليَّ بعض أصحابه، ففطنت، فقلت: إني لَحريص على الكذب إن كذبت على عبد الله بن عتبة، وهو بناحية الكوفة! قال: فاستحيى وقال: ولكن عمه(١٣) لم يكن يقول بذلك، قال: ولم أكن سمعت فيه من عبد الله شيئاً. قال: فقمت فلقيت أبا عطية(١٤) مالك بن الحارث فسألته، فذهب يحدثني حديث سبيعة، قلت: إني لست عن هذا أسألك،

(١٢) البخاري، الفتح: رقم ٦٧٣٦، ورواه أبو داود، والترمذي، وفي المسند: رقم ٤٤٢٠ وغيره، واللفظ له. وفي المسند: رقم ٤١٩٥: «جاء رجل إلى أبي موسى وسلمان بن ربيعة...».
قال الحافظ في الفتح: قوله: «وائتِ ابن مسعود فسيتابعني»: هذا قاله أبو موسى على سبيل الظن لأنه اجتهد في المسألة، ووافقه سلمان، فظن أن ابن مسعود يوافقهما، ويحتمل أن يكون سبب قوله: «ائتِ ابن مسعود» الاستثبات، قوله فقال: لقد ضللت إذاً: قاله جواباً عن قول أبي موسى إنه سيتابعه، وأشار إلى أنه لو تابعه لخالف صريح السنة عنده، وأنه لو خالفها عمداً لضلّ. ثم قال: قال ابن بطال: فيه أن العالم يجتهد إذا ظن أن لا نصّ في المسألة، ولا يتولى الجواب إلى أن يبحث عن ذلك، وفيه أن الحجة عند التنازع سنة النبي ﷺ فيجب الرجوع اليها. وفيه ما كانوا عليه من الإنصاف والاعتراف بالحق والرجوع اليه، وشهادة بعضهم لبعض في العلم والفضل، وكثرة اطلاع ابن مسعود على السنة، وتثبت أبي موسى في الفتيا، حيث دلّ على من ظن أنه أعلم منه. قال: ولا خلاف بين العلماء فيما رواه ابن مسعود، وفي جواب أبي موسى اشعار بأنه رجع عما قاله.

(١٣) يريد عبد الله بن مسعود عمَّ عبد الله بن عتبة بن مسعود.

(١٤) سماه البخاري مالك بن عامر، ومرة أخرى مالك بن عامر أو مالك بن عوف بالشك، قال الحافظ: والمحفوظ مالك بن عامر، وهو مشهور بكنيته أكثر من اسمه، وذكره في تهذيب التهذيب (١٢/١٦٩). وذكر أسماءً

ولكن هل سمعتَ فيه من عبد الله شيئاً؟ قال: نعم، كنا مع عبد الله فسألناه عنها، فقال: أرأيتم إن وضعت من قبل الأربعة الأشهر وعشر!! قلنا: حتى تمضي، قال: أرأيتم إن مضت الأربعة الأشهر وعشر قبل أن تضع؟ قال: قلنا: حتى تضع! قال: فقال تجعلون عليها التغليظ ولا تجعلون لها الرخصة؟! لنزلت سورة النساء القصرى بعد الطولى: [وأولات الأحمال أجلهنّ أن يضعن حملهن][15]».

ولذا عندما بلغ ابنَ مسعود ما يقوله عليّ رضي الله عنه بخلاف ذلك؛ ردّه؛ فيما رواه أبو داود وابن أبي حاتم من طريق مسروق قال: «**بلغ ابن مسعود أن علياً يقول: تعتدّ آخر الأجلين؛ فقال: من شاء لأعنته أنّ الذي في النساء القصرى أنزلت بعد سورة البقرة، ثم قرأ: [وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن]**[16]».

أسئلة وأجوبة:

● عن أبي قيس[17]: «سمعت هزيلاً[18] يقول: رأيت عبد

كثيرة، وقال: روى عن ابن مسعود وأبي موسى وعائشة ومسروق، وعنه محمد بن سيرين وأبو اسحاق السبيعي وغيرهما، وثّقه ابن معين وابن سعد وابن حبان.

(15) البخاري، الفتح: رقم ٤٥٣٢، ٤٩١٠، وسنن البيهقي: ٧/٤٣٠ واللفظ له. قوله: «سورة النساء القصرى بعد الطولى: أي سورة الطلاق بعد البقرة، قال الحافظ: ومراد ابن مسعود إن كان هناك نسخ فالمتأخر هو الناسخ، وإلا فالتحقيق ألا نسخ هناك، بل عموم آية البقرة مخصوص بآية الطلاق.

(16) الفتح: شرح الحديث ٤٩١٠، وتفسير ابن كثير: ٨/١٧٧، وتفسير آيات الأحكام للصابوني: ٢/٦١٦.

(17) هو عبد الرحمن بن ثروان الأودي الكوفي، روى عن عمرو بن ميمون وهزيل بن شرحبيل وجماعة، وثقه ابن معين، والعجلي، وقال أبو حاتم: ليس بالقوي، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات. تهذيب التهذيب: ٦/١٥٢.

(18) هو هزيل بن شرحبيل، أحد تلاميذ عبد الله.

الله ـ يعني ابن مسعود ـ أتاه رجل بصرّة مختومة، فقال: عرَّفتها ولم أجد من يعرفها؟ قال: استمتع بها»[19].

قال الشافعي رحمه الله: «وهذا قولنا إذا عرّفها سنة فلم يجد من يعرفها، فله أن يستمتع بها، وهكذا السنة الثابتة عن النبي ﷺ، وحديث ابن مسعود أشبه بالسنة»[20].

● وعن مسروق قال: «أتيت عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فقلت: إن رجلاً كان فينا نازلاً، فخرج إلى الجبل فمات، وترك ثلاثمائة درهم؟؟ فقال عبد الله: هل ترك وارثاً، أو لأحد منكم عليه عقد ولاء؟ قلت: لا، قال: ههنا ورثة كثير، فجعل ماله في بيت المال»[21].

● وعن هزيل بن شرحبيل قال: «جاء رجل إلى عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فقال: إني أعتقت غلاماً لي، وجعلته سائبة، فمات وترك مالاً، فقال عبد الله: إن أهل الإسلام لا يسيِّبون، إنما كانت تسيّب أهل الجاهلية، وأنت وارثه ووليُّ نعمته، وإن تحرّجت من شيء فأدِّناه نجعلْه في بيت المال»[22].

نماذج من علمه بالنسخ:

لا بد للفقيه من معرفة ناسخ الحديث من منسوخه، ومعرفة الخاص من العام، وقد أضاءت لنا كتب السنة هذا الجانب الهام

---

(19) السنن الكبرى: ٦/١٨٧.
(20) الأم: ٧/١٦٥.
(21) السنن الكبرى: ٦/٢٤٣.
(22) السنن الكبرى: ١٠/٣٠٠، وهو في البخاري مختصراً برقم ٦٧٥٤، وأورده الحافظ بطوله خلال الشرح.

عند عبد الله، وقد مرّ ـ في ثنايا هذا الكتاب ـ ما يشير إلى ذلك، وأزيد ههنا في تجلية هذا الجانب، بالأمثلة التالية:

● عن عبد الله بن مسعود «أن رسول الله ﷺ قال: (إني نهيتكم عن زيارة القبور، وأكل لحوم الأضاحي فوق ثلاث، وعن نبيذ الأوعية؛ ألا فزوروا القبور فإنها تزهّد في الدنيا وتذكر الآخرة، وكلوا لحوم الأضاحي وأبقوا ما شئتم، فإنما نهيتكم عنه إذ الخير قليل فوسّعه الله على الناس، ألا إن وعاءً لا يحرم شيئاً، وإن كل مسكر حرام»[٢٣].

● وقال ابن كثير: «وقد روي أن الصيام كان أولاً كما كان عليه الأمم قبلنا، من كل شهر ثلاثة أيام: عن معاذ، وابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وزاد: لم يزل هذا مشروعاً من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان»[٢٤].

● وكان رضي الله عنه يرى أن صوم «يوم عاشوراء» كان واجباً ثم نُسخ، فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «دخل الأشعث بن قيس على عبد الله وهو يتغدّى، فقال: يا أبا محمد، ادنُ إلى الغَداء، فقال: أَوَ ليس اليوم يوم عاشوراء؟ قال: وهل تدري ما يوم عاشوراء؟ قال: وما هو؟ قال: إنما هو يوم كان رسول الله ﷺ يصومه قبل أن ينزل شهر رمضان[٢٥]، فلما نزل شهر رمضان تُرك»[٢٦].

---

(٢٣) السنن الكبرى: ٤/٧٧.

(٢٤) تفسير ابن كثير: ١/٣٠٦.

(٢٥) أراد بنزوله نزول الأمر بصيامه، ولا يبعد أن يراد نزول قوله تعالى: ﴿ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن.. ﴾.

(٢٦) البخاري، الفتح: رقم ٤٥٠٣، مسلم: رقم ١١٢٧، واللفظ له. قال=

كلام مردودٌ في حقِّه:

الأمر الذي لا يختلف فيه عاقلان أن واحداً من الصحابة لا يستطيع منفرداً أن يحيط بأمور الإسلام وبما ورد عن رسوله عليه الصلاة والسلام من أحكام، كما أن الأخذ عن أحد الأصحاب بمفرده، وترك السعي في تحصيل ما أخذه غيره هو خطل كبير. والنظرة الصحيحة والموقف السليم هو أن نأخذ عنهم جميعاً؛ ذلك أن ما أخذوه مجتمعين عن النبي ﷺ يساوي الإسلام كله قطعاً، فما قصّر فيه أحدهم سبق فيه غيره، وما فات الثاني حصّله الآخر، تلك هي الطريق المستقيمة التي عليها المسلمون، ويرضي بها أولو النُهى.

لكن الأدب يقتضي منا إذا وجدنا أحد الصحابة قصّر في أحد الجوانب، أوفاته شيء عَلِمَ به غيره؛ ألَّا نسارع في الكلام به، ونخبط ونهذي، فنهرف بما لا نعرف، فكبيرٌ منا أن نجترىء على ذلك الرعيل ونتجاسر على الكلام في علمهم.

= النووي رحمه الله: «اتفق العلماء على أن صوم عاشوراء اليوم سنة ليس بواجب، واختلفوا في حكمه في أول الاسلام، حين شرع صومه قبل صوم رمضان. فقال أبو حنيفة: كان واجباً، واختلف أصحاب الشافعي على وجهين مشهورين، أشهرهما عندهم أنه لم يزل سنة من حين شرع، ولم يكن واجباً قط في هذه الأمة، ولكنه كان متأكد الاستحباب، فلما نزل صوم رمضان صار مستحباً دون ذلك الاستحباب، والثاني كان واجباً، كقول أبي حنيفة». النووي شرح مسلم: ١٨٣/٣. قلت: قال الحافظ في الفتح: وللنسائي من طريق عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله: كنا نصوم يوم عاشوراء، فلما نزل رمضان لم نؤمر به ولم نُنه عنه، وكنا نفعله. ولمسلم من حديث جابر بن سمرة نحو هذه الرواية»، واستدل بهذا الحديث على أن صيام عاشوراء كان مفترضاً قبل أن يفرض رمضان، ثم نسخ. ثم قال: والظاهر أن صيام عاشوراء، ما كان الا عن توقيف.

وأنا أنقل هنا كلاماً كبيراً في جانب ابن مسعود رضي الله عنه، ثم أضع النقاط على الحروف، وأبيِّن وجه الحق، مستعيناً بالله تعالى، لأبرىء هذا الصحابي مما قيل فيه، حتى لا يدخل في قلوب بعض القارئين عنه شيء.

نقل الزيلعي في «نصب الراية» عند الكلام على حديث رفع اليدين وقت الركوع والاعتدال، وأن ابن مسعود لم يكن يرفع: «قال صاحب التنقيح: قال الفقيه أبو بكر[27] بن إسحاق: هذه علَّة لا يساوي سماعها، لأن رفع اليدين قد صح عن النبي ﷺ، ثم عن الخلفاء الراشدين، ثم عن الصحابة والتابعين، وليس في نسيان ابن مسعود لذلك ما يستغرب، فقد نسي ابن مسعود من القرآن ما لا يختلف المسلمون فيه بعد وهي المعوِّذتان، ونسي ما اتفق العلماء على نسخه كالتطبيق، ونسي كيف قيام الاثنين خلف الإمام، ونسي ما لم يختلف العلماء فيه أن النبي ﷺ صلى الصبح يوم النحر في وقتها، ونسي كيفية جمع النبي ﷺ بعرفة، ونسي ما لم يختلف العلماء فيه من وضع المرفق والساعد على الأرض في السجود، ونسي كيف كان يقرأ النبي ﷺ: [وما خلق الذكر والأنثى] - وإذا جاز على ابن مسعود أن ينسى مثل هذا في الصلاة، كيف لا يجوز مثله في رفع اليدين؟»[28].

---

(٢٧) هو أحمد بن إسحاق بن أيوب النيسابوري، المعروف بالصبغي، فقيه شافعي من أهل نيسابور، له تصانيف منها: الأسماء والصفات، الايمان والقدر، فضائل الخلفاء الأربعة. حياته (٢٥٨ - ٣٤٢ هـ). الأعلام: ١/ ٩٥.

(٢٨) نصب الراية: ١/ ٣٩٧-٤٠٢، وفي الهامش تعليقات لطيفة لمحمد يوسف البنوري، وفيها عبارات عنيفة في الرد على أبي بكر، وقد استفدت منها كثيراً في هذه الفقرة.

وليت الأمر وقف عند هذا الحدّ، وبقي ذلك الكلام حبيساً في تلك الكتب النادرة التداول؛ بل جاء صاحب كتاب «فقـه السنة» من المعاصرين، ونقل الكلام بفصِّه ونصّه، دونما تعقيب ولو بكلمة، وهو كتاب شائع متداول بين الناس، والذي يقرأ هذا الكلام عن ابن مسعـود تتهاوى في نفسـه صورتـه المضيئة في مجـالات التفسير والحديث والفقه، وليس من المستبعد أن يتطرق إليه الشك في علم غيره من الصحابة!!! وليس من المستغرب أن يفوت ابنَ مسعود بعض الأحكام، ولقد جاء مثل ذلك عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم: فأبو بكر سئل عن ميراث الجدة أم الأم؟ فقال: مالكِ في كتاب الله من شيء، ولكني أسأل الناس، فسأل الصحابة، فشهد المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة أن النبي ﷺ أعطاها السدس، فأمضاها أبو بكر(٢٩).

- وعمر أراد أن يفاوت بين الأصابع في الدية، حتى شهد عنده بعض الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: الخنصر والإبهام سواء، كل إصبع عشر من الإبل، فأمضاها(٣٠).

- وعن سعد بن مرجانة قال: «كنت عند ابن عمر فتلا هذه الآية: [وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه]، فقال: والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكنّ! ثم بكى حتى سُمع نشيجه، فقمت حتى أتيت ابنَ عباس، فذكرت له ما قال، فقال: يغفر الله لأبي عبـد الرحمن، لعمري لقد وجد المسلمون حين نزلت مثل ما وجد، فأنزل الله: [لا

---

(٢٩) - (٣٠) عن كتاب «الكلمات والبحوث التي ألقيت وقدمت إلى مؤتمـر السيرة والسنة النبوية في قطر» ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠ م. المجلد الأول، كلمة عبد الله بن زيد آل محمود.

يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها][31]».

- وعلي وابن عباس قالا في التي يُتوفَّى عنها زوجها وهي حامل، أنها تنتظر أربعة أشهر وعشراً، ولا تنتهي العدَّة بالوضع. وغير هذا كثير؛ فهل يقول أبوبكر: إن هؤلاء جميعاً نسوا، أم يلزم أن يبادر فيقول: إن واحداً من الصحابة لم يحط بأمور الإسلام بمفرده، وعلم الجميع هو الإسلام كله؟! أم أن النسيان مختص بابن مسعود؟!.

والحق أنه ليس في نسيان ابن مسعود ولا غيره ما يستغرب، لأنه شيء ورثه ابن آدم من أبيه عليه الصلاة والسلام، وقد قال الله تعالى: ﴿وعهدنا إلى آدم فنسي، ولم نجد له عزماً﴾. ولكن النسيان المقصود هنا غريب جداً، لأنه: إمّا يريد به المعنى الأصلي له، وهو ضد الحفظ، أو يريد به الجهل، وأيّاً ما أريد به، فهو هنا مستغرب جداً.

وأريد قبل الكلام عن هاتيك الأمور، أن أسوق كلام الإمام الشافعي رضي الله عنه في الصحابة رضوان الله عليهم، لأبين كيف يكون العالم متأدِّباً أمام من هو أعلم وأفضل منه؛ قال: «أدُّوا إلينا سنن رسول الله ﷺ، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله ﷺ عامًّا وخاصًّا، وعَزْماً وإرشاداً، وعرفوا من سننه ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استُدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا»[32].

---

(٣١) أخرجه الطبراني بإسناد صحيح كما قال الحافظ في الفتح، شرح الحديث ٤٥٤٥.

(٣٢) أعلام الموقعين: ١/ ٨٠، مقدمة ابن الصلاح: ص ١٤٨، والمحققة: ص ٤٣١، الجمع الصوتي: ص ٢٩٨.

ولنتكلم عن تلك المسائل واحدة فواحدة:

١ ـ أما نسيانه رفع اليدين عند الركوع وحين الرفع منه:

فليس هذا من النسيان في شيء، وإن واحداً كابن مسعود الذي كان كأنه من أهل بيت النبي ﷺ، ويصلِّي معه الفرائض والنوافل، وقيام الليل، وصلاة الجماعة، ويليه في الصف الأول ليأخذ عنه، ويقتدي به، ويعمل بعمله، فيراه يرفع عند الركوع والرفع منه، ثم يصلي وراء أبي بكر وعمر، ويراهما يرفعان ـ ثم ينسى مثل هذا، أو يجهل، وله مذكّر كل يوم، عن أمامه، وعلى يمينه، ويساره، وقد عمل به هو مع النبي ﷺ قرابة عشرين سنة؛ فليت شعري إن رجلاً بلغ نسيانه بهذه المثابة، أو يجهل مثل هذه الأمور، فهذا ليس بنسيان، بل هذا الرجل إن كان فدماغه مؤوف، وإلى الله المشتكى فيمن جوّز هذا في أصحاب النبي ﷺ، فضلاً عن أسبقهم في الإسلام، وألزمهم للنبي ﷺ صحبة، وأعلمهم بالقرآن(٣٣).

ثم إن هذا الرأي لم ينفرد به ابن مسعود، قال الترمذي رحمه الله تعالى: وبه يقول غير واحد من أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ والتابعين، وهو قول سفيان الثوري وأهل الكوفة(٣٤).

وروى ابن أبي شيبة في مصنَّفه الرفع في تكبيرة الإحرام فقط

---

(٣٣) هامش نصب الراية: ١/٣٩٧ ـ ٣٩٨ بتصرف.

(٣٤) جامع الأصول: ٣٠٢/٥، هامش. وحديث رفع اليدين في تكبيرة الإحرام فقط رواه عن عبد الله أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح، كما في جامع الأصول: ٣٠١/٥ ـ ٣٠٢.

عن علي، وابن مسعود، والأسود، وعلقمة، والشعبي، وإبراهيم النخعي، وخيثمة، وقيس بن أبي حازم، وأبي إسحاق السَّبِيعي، وحكاه عن أصحاب علي وابن مسعود(٣٥).

وكل ما في الأمر أن القولين واردان عن رسول الله ﷺ، وجائزان، ولا نسيان.

٢ ـ وأما نسيان المعوِّذتين، وكيفية قراءة [وما خلق الذكر والأنثى]: فقد سبق التحقيق فيهما في فصل «القارىء».

٣ ـ وأما قوله: «ونسي ما اتفق العلماء على نسخه كالتطبيق»:

عن الأسود وعلقمة قالا: «أتينا عبد الله بن مسعود في داره، فقال: أصلَّى هؤلاء خلفكم؟ فقلنا: لا، قال: فقوموا فصلوا، فلم يأمرنا بأذان ولا إقامة. قال: وذهبنا لنقوم خلفه، فأخذ بأيدينا، فجعل أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، قال: فلما ركع وضعنا أيدينا على ركبنا، قال: فضرب أيدينا وطبق بين كفيه ثم أدخلهما بين فخذيه». وفي رواية أخرى فقال عبد الله: «فلكأني أنظر إلى اختلاف أصابع رسول الله ﷺ وهو راكع»(٣٦).

أقول: وأين النسيان في هذا، بل فيه التصريح بأنه حفظ سنة النبي ﷺ في التطبيق، كأنه ينظر إلى اختلاف أصابعه عليه الصلاة والسلام، غاية ما في الأمر أنه حفظ سنة خالفها سنة أخرى.

والأكثرون على أن التطبيق نسخ بحديث سعد بن أبي وقاص، فعن مصعب بن سعد قال: «صلَّيت إلى جنب أبي، قال: وجعلت

---

(٣٥) طرح التثريب شرح التقريب: ٢/٢٥٤.

(٣٦) مسلم: رقم ٥٣٤.

يدي بين ركبتي، فقال لي أبي: اضرب بكفيك على ركبتيك، قال: ثم فعلت ذلك مرة أخرى، فضرب يديّ وقال: إنا نهينا عن هذا، وأمرنا بأن نضرب بالأكف على الركب»[٣٧].

هذا مع العلم أن ابن مسعود لم ينفرد بهذا الرأي، فقد روى ابن أبي شيبة من طريق عاصم بن ضمرة عن علي قال: «إذا ركعت فإن شئت قلت هكذا ـ يعني وضعت يديك على ركبتيك ـ وإن شئت طبقت»[٣٨].

قال ابن حجر: وهو ظاهر في أنه يرى التخيير، فإما أنه لم يبلغه النهي، وإما حمله على كراهة التنزيه، ويدل على أنه ليس بحرام كون عمر وغيره ممن أنكره لم يأمر من فعله بالإعادة[٣٩].

فهل نسي ابن مسعود وعلي بن أبي طالب؟! إنني لأستغرب وأستبعد أن يفوت هذا عبدَ الله الذي طالت صحبته للنبي ﷺ، وللشيخين من بعده، ولو أن ذلك مما ينكر لردّه النبي ﷺ إلى الصواب، وهو الذي يدخل عليه صباح مساء، ويخدمه في حلّه وترحاله. ولعل ابن مسعود كان يرى جواز الأمرين كما ذكر الحافظ عن علي، والله أعلم.

٤ ـ وأما قوله: «ونسي كيف قيام الاثنين خلف الإمام»:

فهذا أيضاً ليس من باب النسيان في شيء، بل من باب حفظ

(٣٧) البخاري، الفتح: رقم ٧٩٠، مسلم: رقم ٥٣٥ واللفظ له.
(٣٨) ذكره ابن حجر في الفتح عند شرح الحديث رقم ٧٩٠ وقال: إسناده حسن.
(٣٩) المرجع والمكان السابق.

سنة النبي ﷺ في ذلك الباب، غاية ما يقال: إن في المسألة سنة أخرى نسخت هذه السنة التي حفظها ابن مسعود، وكم من مصلٍ لا يتفق له في عمره أن يقتدي بإمام ليس معه إلا واحد؟! فإن لم يتفق لابن مسعود بعد ما حفظ السنة الأولى أن يصلي خلف النبي ﷺ ومعه رجل آخر فقط، فإن هذا قلّ ما يقع[٤٠].

عن الأسود بن يزيد قال: «دخلت أنا وعمي علقمة على عبد الله بن مسعود بالهاجرة[٤١]، قال: فأقام الظهر ليصلي، فقمنا خلفه، فأخذ بيدي ويد عمي، ثم جعل أحدنا عن يمينه والآخر عن يساره، ثم قام بيننا، فصففنا خلفه صفاً واحداً، ثم قال: هكذا كان رسول الله ﷺ يصنع إذا كانوا ثلاثة. . .»[٤٢].

٥ ـ وأما قوله: «ونسي ما لم يختلف العلماء فيه أن النبي ﷺ صلى الصبح يوم النحر في وقتها»:

فيشير إلى ما في الصحيحين وغيرهما «عن عبد الرحمن عن عبد الله رضي الله عنه قال: ما رأيت النبي ﷺ صلّى صلاة لغير ميقاتها إلا صلاتين: جمع بين المغرب والعشاء، وصلى الفجر قبل ميقاتها»[٤٣].

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «خرجنا مع عبد الله رضي الله عنه إلى مكة، ثم قدمنا جمعاً، فصلى الصلاتين: على صلاة

(٤٠) هامش نصب الراية: ١/٣٩٩.
(٤١) هي نصف النهار عند اشتداد الحر.
(٤٢) المسند: رقم ٤٣٨٦.
(٤٣) البخاري، الفتح: رقم ١٦٨٢، مسلم: رقم ١٢٨٩، والنسائي، والمسند: رقم ٣٦٣٧، والبيهقي وعبد الرزاق.

واحدة بأذان وإقامة، والعشاء بينهما، ثم صلى الفجر حين طلع الفجر ـ قائل يقول: طلع الفجر، وقائل يقول لم يطلع الفجر ـ ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: (إن هاتين الصلاتين حوِّلتا عن وقتهما في هذا المكان؛ المغرب والعِشاء، فلا يقدَمُ الناس جَمْعاً حتى يعتموا، وصلاة الفجر هذه الساعة) ثم وقف حتى أسفر، ثم قال: لو أن أمير المؤمنين أفاض الآن أصاب السُّنَّة، فما أدري أقوله كان أسرع أم دفع عثمان رضي الله عنه! فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة يوم النحر»(٤٤).

قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «قوله: عن عبد الله بن مسعود: «ما رأيت رسول الله ﷺ صلَّى صلاة إلا لميقاتها، إلا صلاتين: صلاة المغرب والعشاء بجمع، وصلى الفجر يومئذٍ قبل ميقاتها»؛ معناه أنه صلىٰ المغرب في وقت العشاء بجمع التي هي مزدلفة، وصلى الفجر يومئذٍ قبل ميقاتها المعتاد، ولكن بعد تحقق طلوع الفجر ـ فقوله: «قبل وقتها» المراد قبل وقتها المعتاد، لا قبل طلوع الفجر، لأن ذلك ليس بجائز بإجماع المسلمين، فيتعين تأويله على ما ذكرته. وقد ثبت في صحيح البخاري في هذا الحديث في بعض رواياته أن ابن مسعود صلّىٰ الفجر حين طلع الفجر، ثم قال: إن رسول الله ﷺ صلَّىٰ الفجر هذه الساعة، وفي رواية: «فلما طلع الفجر» قال: إن رسول الله ﷺ كان لا يصلي هذه الساعة إلا هذه الصلاة في هذا المكان، من هذا اليوم، والله أعلم»(٤٥).

وقال الحافظ الكبير ابن حجر: «قوله: «تُحوَّل عن وقتها» أي المعتاد، وأمّا إطلاقه على صلاة الصبح أنها تحول عن وقتها، فليس

---

(٤٤) البخاري، الفتح: رقم ١٦٧٥، ١٦٨٣، المسند: رقم ٤٢٩٣.
(٤٥) النووي شرح مسلم: ٣/٤٢٤.

معناه أنه أوقع الفجر قبل طلوعها، وإنما أراد أنها وقعت قبل الوقت المعتاد فعلها فيه في الحضر، ولا حجة فيه لمن منع التغليس[٤٦] بصلاة الصبح، لأنه ثبت عن عائشة وغيرها ـ كما تقدم في المواقيت ـ التغليس بها؛ بل المراد هنا أنه إذا أتاه المؤذن بطلوع الفجر، صلى ركعتي الفجر في بيته، ثم خرج فصلى الصبح مع ذلك بغَلَس. وأما بمزدلفة فكان الناس مجتمعين والفجر نصب أعينهم، فبادر بالصلاة أول ما بزغ، حتى إن بعضهم كان لم يتبين له طلوعه، وهو بيّن في رواية إسرائيل ـ الآتية ـ[٤٧] حيث قال: ثم صلى الفجر حين طلع الفجر، قائل يقول: طلع الفجر، وقائل يقول: لم يطلع»[٤٨].

فهذا كلام اثنين من كبار علمائنا الشافعية، أضف إليه أن الإمام المقدَّم أبا عبد الله البخاري رحمه الله، قد ذكر حديث: «وصلّى الفجر قبل ميقاتها»، ثم أتبعه مباشرة برواية أخرى فيها: وصلّى الفجر حين طلع الفجر» ـ فليت شعري إذا لم يفطن أبو بكر ومن تابعه ـ لما تنبه إليه الحافظان الكبيران النووي وابن حجر؛ فهلاَّ أمعن النظر في صنيع البخاري وقرأ الحديثين جملة دونما هذٍّ واعتساف!.

٦ ـ وأما قوله: «ونسي كيفية جمع النبي ﷺ بعرفة»:

فالظاهر أنه أراد ما يتبادر من حديث الصحيح أنه قال: «ما رأيت النبي ﷺ صلّى صلاة لغير ميقاتها إلا صلاتين: جمع بين المغرب والعشاء، وصلى الفجر قبل ميقاتها»؛ لأن الظاهر أن

---

(٤٦) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
(٤٧) هي الرواية التي أثبتّها هنا برقم ١٦٨٣.
(٤٨) الفتح: شرح الحديث رقم ١٦٧٥.

الصلاتين اللتين لم ير ابن مسعود غيرهما أنه عليه الصلاة والسلام صلاهما لغير ميقاتهما: صلاتي المغرب والفجر بمزدلفة، ولم يذكر في هذا الحديث عرفة ـ وهو أيضاً محوّل عن وقته ـ فظن أبو بكر أن ابن مسعود نسيه!! وما يدريه لعل ابن مسعود ذكر الصلاة بعرفة أيضاً فلم يذكره الراوي لنسيانه، أو لعدم تعلّق غرض السائل به حين رواه أو بشيء آخر؟! إذ يمكن أن يراد بحديث الصحيح: ما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة لغير ميقاتها إلا صلاتين: صلاة العصر بعرفة، والمغرب بمزدلفة، وهما المحوَّلتان عن الوقت الأصلي، ثم ذكر صلاة الفجر بمزدلفة على حدة، وهي ليست بمحوّلة، ولكن فيها تحويل عن الوقت المعتاد، فذكره بعد الصلاتين المحولتين لأجل التحول الذي وقع فيه، وإن لم تخرج عن الوقت المشروع كما في حديث مسلم: «تركت فيكم أمرين ـ وأراد بهما الكتاب والسنة ـ ثم ابتدأ بذكر أهل البيت، ويقع هذا من اختصار الرواة كثيراً.

والرواية التي تدل على أنه أراد بالصلاتين المحوَّلتين: عصر عرفة، ومغرب مزدلفة، وإنما ذكر الفجر لأجل مناسبة التحول؛ هي ما أخرجه النسائي ـ رحمه الله تعالى ـ في باب «الجمع بين الظهر والعصر بعرفة» عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الصلاة لوقتها، إلا بجمع وعرفات»[(٥٠)].

وفي تبيان ذلك يقول الحافظ ولي الدين أبو زرعة العراقي: «إنه ـ أي النبي ﷺ ـ قد جمع بين الظهر والعصر بعرفة بلا شك،

---

(٤٩) سبق تخريجه في الفقرة السابقة.

(٥٠) سنن النسائي: ٥/٢٥٤، وعليها شرح السيوطي، وانظر الهامش نصب الراية: ١/٤٠٠ ـ ٤٠١، باختصار.

وقد ورد التصريح بذلك في بعض طرق حديث ابن مسعود»[٥١].

فأيُّ نسيان هذا من رجل قال فيه رسول الله ﷺ وهو لا ينطق عن الهوى: (وما حدثكم ابن مسعود فصدّقوه)، وقال فيه: (إنك غلام معلّم)، وقال فيه عمر: «كُنَيف ملىء علماً»؟؟!!

٧ ـ وأما قوله: «ونسي ما لم يختلف العلماء فيه من وضع المرفق والساعد على الأرض في السجود»:

فالمتبادر إلى الذهن أنه يريد قول عبد الله رضي الله عنه: «هُيّئت عظام ابن آدم للسجود، فاسجدوا حتى بالمرافق».

وهذا أيضاً ليس من النسيان في شيء، وابن مسعود لم يرفعه إلى النبي ﷺ ـ كما هو ظاهر في قوله ـ حتى نقول أنه نسي السنة الصحيحة؛ إنما هو مجرد رأي له، وكأنه يرغب الناسَ بهذا في السجود والمبالغة فيه، لأنه أفضل الصلاة، ثم لبيان الجواز، وبعد ذلك للتخفيف عنهم إذا أطالوا القيام في الليل، كما يعرف ذلك عن تلامذته.

والحق الذي لا مرية فيه أن الأحاديث الصحيحة جاءت برفع المرفقين عن الأرض، والسجود على سبعة أعظم هي: الجبهة ـ مع الأنف ـ والكفَّين، والركبتين، وأطراف القدمين، لكن التفريج ليس بواجب، وفي هذا يقول ابن حجر: «وروى الطبراني وغيره من حديث ابن عمر بإسناد صحيح أنه قال: «لا تفترش افتراش السبع، وادعم على راحتيك، وأبْدِ ضَبْعيك[٥٢]، فإذا فعلت ذلك سجد كل عضو

(٥١) طرح التثريب: ١٢٨/٣.

(٥٢) الضَبْع: بفتح المعجمة وسكون الموحدة، وهو وسط العضد من داخل.

منك». ولمسلم من حديث عائشة: «نهى النبي ﷺ أن يفترش الرجل ذراعيه افتراش السبع، وأخرج الترمذي وحسّنه من حديث عبد الله بن أرقم «صلَّيت مع النبي ﷺ فكنت أنظر إلى عفرتي[٥٣] إبطيه إذا سجد» ولابن خزيمة عن أبي هريرة رفعه: «إذا سجد أحدكم فلا يفترش ذراعيه افتراش الكلب، وليضم فخذيه». وللحاكم من حديث ابن عباس نحو حديث عبد الله بن أرقم، وعنه عند الحاكم: «كان النبي ﷺ إذا سجد يُرى وَضَح إبطيه»، وله من حديثه، ولمسلم من حديث البراء رفعه: «إذا سجدت فضع كفيك وارفع مرفقيك». وهذه الأحاديث مع حديث ميمونة عند مسلم: «كان النبي ﷺ يجافي بين يديه، فلو أن بهيمة أرادت أن تمر لَمَرَّت»، مع حديث ابن بُحَينة هنا ـ ظاهرها وجوب التفريج المذكور، لكن أخرج أبو داود ما يدل على أنه للاستحباب، وهو حديث أبي هريرة «شكا أصحاب النبي ﷺ له مشقة السجود عليهم إذا انفرجوا، فقال: (استعينوا بالركب)، وترجم له: «الرخصة في ذلك» ـ أي في ترك التفريج، قال ابن عجلان ـ أحد رواته ـ «وذلك أن يضع مرفقيه على ركبتيه إذا طال السجود وأعيى»[٥٤] اهـ.

أقول: فهذا أبو هريرة رضي الله عنه ـ وهو الذي يحفظ ولا ينسى ببركة دعوة النبي ﷺ له ـ يروي حديثاً في عدم الافتراش، وآخر في الاستعانة بالمرافق عند طول السجود، وهذا الأخير بنحو فتيا ابن مسعود، فماذا يقول أبو بكر في أبي هريرة: أنسي أم تناقض في الرواية؟!

* * *

(٥٣) العفرة: بياض ليس بالناصع، ولكن كَلَون عَفَر الأرض، وهو وجهها.
(٥٤) شرح الحديث رقم ٨٠٧.

ولعلَّ فيما ذكرت وأوضحت ما يرد ذلك القول ويدفع عن ابن مسعود رضي الله عنه ما اتهم به، ويوضح أنه كان في الفقه إماماً مُقَدَّماً يقتدى به.

وليت أبا بكر تلوّم وتمهّل، ولم يجترىء - ومن تابعه - على ذلك البناء الذي شاده رسول الله ﷺ بيده، وليته نظر في أطراف الأحاديث ليرى صحة مواقف عبد الله. وليت تلك الكلمات بقيت داثرة غابرة في بطون الكتب ولم يأتِ من يحييها من موات!! ولكن للأسف فقد سهل على الناس امتطاء العلم، فقرؤوا دونما تحقيق، ونقلوا دونما تفحّص ولا تدقيق؛ مما هوّن عليهم الاجتراء والتجاسر على صحابة رسول الله ﷺ، بله العلماء والفقهاء منهم.

نصائح ووصايا في الفقه وأهله:

كان ابن مسعود رضي الله عنه يحض الناس على تعلم أمور الدين عامة والفرائض على الخصوص؛ لكي يعبد الواحد منهم ربَّه على بينة، ولا يخبط في أحكام دين الله.

● ففي تعلُّم الفرائض يقول فيما رواه البيهقي عن أبي إسحاق السَّبِيعي قال: سمعت أبا الأحوص يحدث عن عبدالله بن مسعود قال: «**من تعلَّم القرآن فليتعلم الفرائض، ولا يكن كرجل لقيه أعرابي فقال: يا عبد الله، أعرابي أم مهاجر؟ فإن قال: مهاجر، قال: إنسان من أهلي مات فكيف نقسم ميراثه؟ فإن علم كان خيراً أعطاه الله إياه، وإن قال: لا أدري، قال: فما فضلكم علينا؟ إنكم تقرؤون القرآن ولا تعلمون الفرائض؟!**»[٥٥].

(٥٥) السنن الكبرى: ٢٠٩/٦.

● ويقول رضي الله عنه: «الفرائض ثلث العلم»، يقول ابن رجب الحنبلي معلِّقاً على هذا: «ووجه ذلك الحديث الذي خرّجه أبو داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو مرفوعاً: (العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل: آية محكمة، أو سنة قائمة، أو فريضة عادلة»[٥٦].

● وكان كثير النصح في التزام الفقهاء، واسع الثناء عليهم، كثير تبيان فضلهم وتوضيح خطر فقدهم. أخرجٍ الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود أنه كان يقول: «المتقون سادة، والفقهاء قادة، وملازمتهم زيادة»[٥٧].

وأخرج الطبراني أيضاً في الكبير والأوسط عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «لا يزال الناس صالحين متماسكين ما أتاهم العلم من أصحاب محمد ﷺ وعن أكابرهم، فإذا أتاهم من أصاغرهم هلكوا»[٥٨].

وعنده عنه قال: «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصغير الكبير»[٥٩].

نماذج من آرائه الفقهية

تعتبر آراء الصحابة وأقضيتهم من المصادر الهامة التي اعتمد

---

(٥٦) جامع العلوم والحكم: ص ٢٢٠.
(٥٧) حياة الصحابة: ٧١٢/٣، وقال الهيثمي (١٢٦/١): ذكر هذا في حديث طويل، ورجاله موثقون.
(٥٨) حياة الصحابة: ٧٠٣/٣، وقال الهيثمي (١٣٥/١): ورجاله موثقون.
(٥٩) حياة الصحابة: ٧٠٣/٣.

عليها الفقهاء، وذلك لأنَّهم أقرب عهداً بالنبي ﷺ وأعلم الناس، وفي هذا يقول الإمام أبو عبد الله الشافعي: **«وهم فوقنا في كل علم واجتهاد، وورع وعقل، وأمر استدرك به علم واستنبط به، وآراؤهم لنا أحمد وأولى بنا من رأينا عند أنفسنا»**. ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى في فصل «من بلّغ بعد الرسول ﷺ». «ثم قام بالفتوى بعده بَرْك الإسلام[٦٠]، وعصابة الإيمان، وعسكر القرآن، وجند الرحمن، أولئك أصحابه ﷺ، ألين الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأحسنها بياناً، وأصدقها إيماناً، وأعمها نصيحة، وأقربها إلى الله وسيلة»[٦١].

بل إنّ الإمام أحمد بن حنبل يعتبر فتاوى الصحابة الأصلَ الثاني في مذهبه بعد النصوص، قال ابن القيم رحمه الله: «الأصل الثاني من فتاوى الإمام أحمد: ما أفتى به الصحابة، فإنه إذا وجد لبعضهم فتوى لا يعرف له مخالف منهم فيها؛ لم يَعْدُها إلى غيرها[٦٢]، لذا توجد له أحياناً عدة آراء، والسبب أنه كان كثير الاتباع لآراء الصحابة، حتى إذا كان للصحابة رأيان في المسألة أو ثلاثة، كان له فيها رأيان أو ثلاثة»[٦٣] وأكثر من ذلك أنه كان يقدِّم فتاواهم على الحديث المرسل[٦٤].

ولم يكن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ في مستوى واحد من الفقه والفتيا، بل كانوا على ثلاث مراتب: فمنهم المكثر في الفتيا، ومنهم المتوسط فيها، ومنهم المقلّ، وكان ابن مسعود في المرتبة العليا، وفي هذا يقول ابن القيم: **«والذين حفظت عنهم الفتوى من أصحاب رسول الله ﷺ مائة ونيف وثلاثون نفساً، ما بين رجل**

---

(٦٠) البرك: صدر كل شيء.
(٦١) أعلام الموقعين: ١/ ١١.
(٦٢) اعلام الموقعين: ١/ ٣٠.
(٦٣) السنة ومكانتها في التشريع: ص ٤٤٢.
(٦٤) اعلام الموقعين: ١/ ٢٩.

وامرأة. وكان المكثرون منهم سبعة: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعائشة أم المؤمنين، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر. قال أبو محمد بن حزم: ويمكن أن يجمع من فتوى كل واحد منهم سِفْر ضخم»[٦٥].

ولا مطمع لنا هنا أن نعرض لفتاوى عبد الله وأقضيته بصورة موسَّعة، بل يكفينا في هذا أن نتعرف على نماذج منها في مختلف أبواب الفقه تبرز لنا معالم فقه هذا الفقيه الكبير والعالم النحرير.

أولاً - في الطهارة والوضوء ونحوهما:

١ - المراد بالقرء في قوله تعالى: ﴿ والمطلَّقات يتربَّصْنَ بأنفسهنَّ ثلاثة قروء﴾[٦٦]، قال: الأقراء: الحيض[٦٧] ووافقه على هذا الخلفاء الأربعة، وأبو الدرداء، وعبادة بن الصامت، وأنس، ومعاذ، وأبو موسى، وغيرهم. وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد.

وذهب ابن عمر وزيد وعائشة إلى أن الأقراء: الأطهار، وهو مذهب الشافعي.

٢ - اللَّمس ينقض الوضوء.

ذكر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿ أو لامستم النساء﴾[٦٨]، عن طارق عن عبد الله قال: اللمس ما دون الجماع. قال: وقد رواه من طرق متعدِّدة عن ابن مسعود بمثله[٦٩].

---

(٦٥) اعلام الموقعين: ١/١٢. (٦٦) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.
(٦٧) تفسير ابن كثير: ١/٣٩٧، تفسير آيات الأحكام: ١/٣٢٨.
(٦٨) سورة النساء: الآية ٤٣.
(٦٩) تفسير ابن كثير: ٢/٢٧٦، الأم: ٧/١٥١، تفسير آيات الأحكام: ١/٤٨٦ - ٤٨٧.

وبه قال ابن عمر، والشَّعْبي، وهو مذهب الشافعي.

٣ ـ رخّص في البداءة باليسار.

روى البيهقي: «سئل ابن مسعود عن الرجل يتوضأ، فبدأ بشماله قبل يمينه، فرخّص في ذلك». ورواه عنه من وجه آخر: «أنه سئل عن رجل توضأ، فبدأ بمياسره، فقال: لا بأس»[٧٠].

٤ ـ يمسح على الخفين في ثلاثة أيام

روى البيهقي عن عمرو بن الحارث بن المصطلق قال: «خرجت مع عبد الله بن مسعود إلى المدينة، فلم ينزع الخف ثلاثاً، ويمسح عليه[٧١]».

ثانياً ـ في الصلاة

٥ ـ كان يسفر بصلاة الفجر.

قال ابن التركماني: «كان ابن مسعود ينوّر بالفجر. رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح، ورواه عبد الرزاق في مصنَّفه بسنده، ولفظه: كان عبد الله يُسْفر بصلاة الغداة»[٧٢].

٦ ـ كان يتعوّذ بعد الافتتاح.

روى البيهقي عنه أنه «كان يتعوذ في الصلاة من الشيطان الرجيم، من نفخه ونفثه وهمزه»[٧٣].

٧ ـ كان لا يقرأ الفاتحة خلف الإمام في الجهريَّة، ويقرؤها في السريّة.

---

(٧٠) السنن الكبرى: ١/ ٨٧.
(٧١) المرجع السابق: ١/ ٢٧٧.
(٧٢) ذيل السنن الكبرى: ١/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦.
(٧٣) السنن الكبرى: ٢/ ٣٦.

روى البيهقي «عن أبي وائل أن رجلاً سأل ابن مسعود عن القراءة خلف الإمام، فقال: أنصت للقرآن فإنَّ في الصلاة شُغْلاً. وسيكفيك ذاك الإمام» و«عن عبد الله بن زياد الأسدي أنه قال: صلَّيت إلى جنب عبد الله بن مسعود خلف الإمام فسمعته يقرأ في الظهر والعصر»[٧٤].

وروى الشافعي «أن ابن مسعود كان يقرأ في الآخرتين بفاتحة الكتاب»[٧٥].

وعن بشير بن جابر قال: «صلى ابن مسعود فسمع ناساً يقرؤون مع الإمام، فلمَّا انصرف قال: أما آن لكم أن تفهموا، أما آن لكم أن تعقلوا؟! [وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا] كما أمركم الله»[٧٦].

وهذا واضح في أنَّ مذهبه القراءة خلف الإمام في السرية دون الجهرية، وهذا ما قاله البيهقي عنه.

وهو مذهب مالك، وقال الشافعي وأحمد بوجوبها في الحالين، وذهب الأحناف إلى عدم قراءتها خلف الإمام مطلقاً[٧٧].

٨ ـ من أدرك الإمام راكعاً فقد أدرك الركعة.

روى البيهقي عن عبد الله قال: «من لم يدرك الإمام راكعاً لم يدرك تلك الركعة»، وفي رواية أخرى عنه: «من لم يدرك الركعة فلا يعتدّ بالسجود»[٧٨].

٩ ـ كان لا يرفع يديه إلا عند تكبيرة الإحرام[٧٩].

---

(٧٤) السنن الكبرى: ٢/١٦٠ ـ ١٦١.
(٧٥) الأم: ٧/١٧١.
(٧٦) تفسير ابن كثير: ٣/٥٤١.
(٧٧) تفسير آيات الأحكام: ١/٥٨ ـ ٥٩.
(٧٨) السنن الكبرى: ٢/٩٠.
(٧٩) مر الكلام على هذا قبل قليل.

١٠ ـ يكفي الرجل الذي لا يستطيع الركوع أو السجود أي يومىء.

روى البيهقي عن علقمة قال: «دخلت مع عبد الله على أخيه عتبة نعوده وهو مريض، فرأى مع أخيه مِرْوحة[٨٠] يسجد عليها، فانتزعها منه عبد الله وقال: اسجد على الأرض، فإن لم تستطع فأوم إيماءً، واجعل السجود أخفض من الركوع»[٨١].

١١ ـ لا يمسح وجهه من التراب في الصلاة حتى يسلّم.

روى البيهقي عن ابن مسعود أنه كان يقول: «أربع من الجفاء: أن يبول الرجل قائماً، وصلاة الرجل والناس يمرون بين يديه وليس بين يديه شيء يستره، ومسح الرجل التراب عن وجهه وهو في صلاته، وأن يسمع المؤذِّن فلا يجيبه في قوله»[٨٢].

١٢ ـ كان يردّ الرجل إذا مرًّ بين يديه وهو يصلي.

روى الشافعي عن يزيد بن هارون عن محمد بن إسحاق عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال: «رأيت ابن مسعود إذا مرًّ بين يديه رجل وهو يصلِّي التزمه حتى يردّه»[٨٣].

١٣ ـ كان يكره التربُّع في الصلاة:

روى الشافعي عن هُشَيم عن حصين قال: أخبرني الهيثم أنه سمع ابن مسعود يقول: «لأن أجلس على الرضف أحب إلي من أن أتربع في الصلاة»[٨٤].

---

(٨٠) هي الآلة التي يتروّح بها.

(٨١) السنن الكبرى: ٢/٣٠٧.

(٨٢) السنن الكبرى: ٢/٢٨٥.

(٨٣) الأم: ٧/١٧٢، قال الشافعي: ونحن نقول بهذا، وهو يوافق ما روينا عن النبي ﷺ.

(٨٤) الأم: ٧/١٧٥، قال الشافعي: ونحن نكره ما يكره ابن مسعود من تربع الرجل في الصلاة.

١٤ - يرى جواز صلاة الوتر بعد دخول وقت الفجر إذا نام المرء عن وتره.

روى البيهقي عن عبد الله قال: «ما أبالي لو أقيمت الصلاة وأنا أوتر»[٨٥]. وعنه أيضاً أنه قال: «الوتر ما بين الصلاتين»[٨٦].

وإليه ذهب ابن عباس، وابن عمر، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وحذيفة، وعائشة. وهو مذهب المالكية، قالوا: إنما يخرج بطلوع الفجر وقته - أي وقت الوتر - الاختياري، ويبقى وقته الضروري إلى صلاة الصبح.

ومذهب الحنفية والشافعية والجمهور: خروج وقت الوتر بطلوع الفجر[٨٧].

١٥ - صلاة الوتر ركعة أو ثلاث أو خمس أو سبع، وكان يوتر بخمس أو سبع[٨٨].

١٦ - الذي يصلي في بيته لا يؤذِّن ولا يقيم.

عن الأسود وعلقمة قالا: «أتينا عبد الله - يعني ابن مسعود - في داره، فقال: أصلى هؤلاء خلفكم؟ قلنا: لا، فقال: قوموا فصلوا، فلم يأمرنا بأذان ولا إقامة، ثم اقتفى صلاته بهما»[٨٩]

١٧ - كان يصلي قبل الجمعة أربعاً وبعدها أربعاً[٩٠]

(٨٥، ٨٦) السنن الكبرى: ٢/٤٨٠، طرح التثريب: ٧٩/٣.

(٨٧) طرح التثريب: ٧٩/٣.

(٨٨) طرح التثريب: ٧٨/٣، الأم: ١٧٢/٧، وفيه أن عبد الله كان يكره الوتر بثلاث.

(٨٩) مسلم: رقم ٥٣٤ مطولاً، والسنن الكبرى: ٤٤٨/١ وهذا لفظ البيهقي.

(٩٠) طرح التثريب: ٣٨/٣، ٤٣، ٤٤. وقد أطال أبو زرعة الشرح وإيراد الأحاديث والآثار عن الصحابة في الصلاة قبل الجمعة، ثم قال: «وهذه الأمور التي استدل بها على سنة الجمعة قبلها إن كان في كل منها على =

١٨ - من أدرك ركعة من الجمعة فقد أدرك الصلاة، ومن لم يدرك صلى أربعاً.

عن أبي الأحوص وهبيرة قالا: «قال عبد الله بن مسعود: من أدرك من الجمعة ركعة صلَّى إليها أخرى، ومن فاته الركعتان صلى أربعاً». وفي رواية أخرى قال: «إذا ركعت ركعة من الجمعة فأضف إليها أخرى، فإذا فاتك الركوع فصلِّ أربعاً»[٩١].

ثالثاً - في الجنائز:

١٩ - يقرأ بفاتحة الكتاب في الجنائز[٩٢].

رابعاً - في الزكاة:

٢٠ - المال المجتمع المخزون فوق الأرض أو تحتها ليس بكنز إذا أدى الرجل زكاته. وعلى هذا جماعة فقهاء الأمصار، وجاء

= انفراده نظر، فمجموعها قوي يضعف معها إنكارها، وأقوى ما يعارض ذلك أنه عليه الصلاة والسلام لم يكن يؤذن في زمنه يوم الجمعة غير أذان واحد في أول الوقت وهو على المنبر، وذلك الأذان يعقبه الخطبة ثم الصلاة فلا يمكن مع هذا أن يفعله النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه. وبالجملة: فالمسألة مشكلة». طرح التثريب: ٣/٤٢ - ٤٣. وقال ابن حجر: «وأقوى ما يتمسك به في مشروعية ركعتين قبل الجمعة: عموم ما صححه ابن حبان من حديث عبد الله بن الزبير مرفوعاً: (ما من صلاة مفروضة إلا وبين يديها ركعتان)». شرح الحديث ٩٣٧.

وقال النووي في المنهاج: «إنه يسن قبلها ما قبل الظهر، ومقتضاه أن يستحب قبلها أربع، والمؤكد من ذلك ركعتان». طرح التثريب: ٣/٤١.

(٩١) السنن الكبرى: ٣/٢٠٢، الأم: ٧/١٧٣. قال الشافعي: وبهذا نقول لأنه موافق لما روينا عن رسول الله ﷺ.

(٩٢) الأم: ٧/١٧٤، قال الشافعي: وأما نحن فنقول بهذا، نقول: يقرأ الإمام بفاتحة الكتاب.

مثله عن عمر، وابنه عبد الله، وجابر بن عبد الله، وابن عباس[٩٣].

٢١ - في الحلي زكاة.

روي البيهقي عن علقمة «أن امرأة عبد الله سألت عن حلي لها؟ فقال: إذا بلغ مائتي درهم ففيه الزكاة. قالت: أضعها في بني أخٍ لي في حجري؟ قال: نعم»[٩٤].

٢٢ - في مال الصبي اليتيم زكاة، ووليه لا يزكي عنه بل يحصي السنين ويخبره.

روى الشافعي عن ابن مسعود أنه كان يقول لولي اليتيم: «أحْصِ ما مرّ من السنين، فإذا دفعتَ إليه ماله قلتَ له: قد أتى عليه كذَا وكذا، فإن شاء زكّى وإن شاء ترك».

قال الشافعي: «ولو كان ابن مسعود لا يرى زكاة لم يأمره بالإحصاء؛ لأن من لم تجب عليه زكاة لا يؤمر بإحصاء السنين، كما لا يؤمر الصبي بإحصاء سِنِيه في صغره للصلاة، ولكن كان ابن مسعود يرى عليه الزكاة. وكان لا يرى أن يزكّي الولي، وكان يقول: يحسب الولي السنين التي وجبت على الصبي فيها الزكاة، فإذا بلغ الصبي ودفع إليه ماله؛ أعلمه بذلك. وهم - يعني العراقيين - يقولون ليس في مال الصبي زكاة، ونحن نقول: يزكي، لأنا روينا ذلك عن عمر، وعلي، وعائشة، وابن عمر، وروينا ذلك عن النبي ﷺ»[٩٥].

خامساً - في الصوم:

٢٣ - إذا رُئي الهلال نهاراً فهو لليلة المستقبلة.

قال أبو زرعة: «يتناول الحديث رؤيته - أي الهلال - ليلاً

---

(٩٣) طرح التثريب: ٤/٧.

(٩٤) السنن الكبرى: ٤/١٣٩.

(٩٥) الأم: ٧/١٧٥.

ونهاراً، لكنه إذا رئي نهاراً فهو لليلة المستقبلة، فإن كان ذلك يوم الثلاثين من شعبان لم يصوموا، وإن كان يوم الثلاثين من رمضان لم يفطروا، وسواء كان ذلك قبل الزوال أو بعده. هذا هو المشهور في المذاهب الأربعة، وحكي عن عمر، وابن مسعود، وابن عمر، وأنس»[٩٦].

٢٤ ـ من أجنب ولم يغتسل حتى طلع الفجر، صومه صحيح مطلقاً، ولا قضاء عليه، علم بذلك أو لم يعلم، في رمضان وغيره.

«وهذا قول الجمهور، حكاه ابن المنذر عن ابن عمر، وعائشة، ومالك، والثوري، والشافعي، وأحمد، وأبي ثور، وأصحاب الرأي، قال: وروي ذلك عن علي وابن مسعود، وزيد بن ثابت، وأبي الدرداء، وأبي ذر، وابن عباس»[٩٧].

٢٥ ـ يرى صحة إحداث نية صوم النفل في النهار.

روى البيهقي عن عبد الله قال: «أحدكم بالخيار ما لم يأكل أو يشرب»[٩٨].

وجاء عن حذيفة مثله، وهو قول الشافعي.

٢٦ ـ يرى جواز الخروج من صيام التطوع قبل تمامه.

روى البيهقي عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال: «إذا أصبحت وأنت تنوي الصيام، فأنت بأحد النظرين: إن شئت صمت، وإن شئت أفطرت»[٩٩].

---

(٩٦) طرح التثريب: ٤/١١٧.
(٩٧) المرجع السابق: ٤/١٢٤.
(٩٨) السنن الكبرى: ٤/٢٠٤، الأم: ٧/١٧٦.
(٩٩) السنن الكبرى: ٤/٢٧٧.

٢٧ - يصح الاعتكاف بغير صيام

وبه قال علي، والحسن البصري، والشافعي، وأحمد في أصح الروايتين عنه[١٠٠].

سادساً - في الحج:

٢٨ - أشهر الحج: شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة.

روى البيهقي «عن عبد الله في قوله [الحج أشهر معلومات]، قال: شوال، وذو العقدة، وعشر من ذي الحجة»[١٠١]. وهو مروي عن عمر، وعلي، وابن عمر، وعبد الله بن الزبير، وابن عباس، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وغيرهم كثير.

وهو مذهب الشافعي، وأحمد وأبي حنيفة، واختاره ابن جرير. ويرى مالك أنها شوال، وذو القعدة، وذو الحجة بكماله، وهو رواية عن ابن عمر أيضاً[١٠٢].

٢٩ - يرى وجوب العمرة كالحج.

روى البيهقي عن مسروق قال: قال عبد الله «أُمرتم بإقامة أربع: أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت، والحج الحج الأكبر، والعمرة الحج الأصغر»[١٠٣].

---

(١٠٠) طرح التثريب: ١٧١/٤، تفسير آيات الأحكام: ١٢٥/١.
(١٠١) السنن الكبرى: ٣٤٢/٤.
(١٠٢) تفسير ابن كثير: ٣٤٢/١ - ٣٤٣.
(١٠٣) السنن الكبرى: ٣٥١/٤. وقد ذكر الأستاذ الفاضل محمد علي الصابوني في كتابه تفسير آيات الأحكام (٢٤٦/١) أن ابن مسعود يقول أن العمرة سنة، والصواب ما ذكرته فهو واضح في كلام عبد الله: «أمرتم» ثم أنه =

وهذا مروي عن ابن عمر، وابن عباس.

وذهب إليه البخاري[١٠٤]، وهو مذهب الشافعي وأحمد. وذهب مالك وأبو حنيفة إلى أنها سنة مؤكدة[١٠٥].

٣٠ ـ يرى أن الإفراد في الحج أفضل

روى البيهقي عن الأسود عن عبد الله «أنه أمر بإفراد الحج، قال: نُسْكان أحب أن يكون لكل واحد منهما شعث وسفر»[١٠٦].

وجاء مثله عن «ابن عمر، وجابر، وعائشة، وحكاه النووي ـ في شرح المهذب ـ عنهم، وعن عمر، وعثمان وعلي»[١٠٧].

وهو مذهب مالك والشافعي، وإليه ذهب داود والأوزاعي[١٠٨].

٣١ ـ كان يكره القران والتمتع

روى البيهقي «عن طارق بن شهاب قال: قال عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ: الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة»[١٠٩].

٣٢ ـ يرى أن الإحصار في الحج يكون من عدوّ، أو مرض،

= قرنها بالفرائض، أضف إلى ذلك أن الحافظ البيهقي قال: «باب من قال بوجوب العمرة استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وأتموا الحج والعمرة لله﴾.» وذكر قول ابن مسعود هذا.

(١٠٤) الفتح: رقم ١٧٧٣.

(١٠٥) الفقه على المذاهب الأربعة: ١/٦٨٤.

(١٠٦) السنن الكبرى: ٥/٥.

(١٠٧ ـ ١٠٨) ـ طرح التثريب: ٥/٢٦.

(١٠٩) السنن الكبرى: ٥/٢٣، طرح التثريب: ٥/٢٦ مفصلاً. وإفراد الحج: هو أن يحرم بالحج في أشهره ويفرغ منه، ثم يعتمر من عامه. والتمتع: أن يحرم بالعمرة في أشهر الحج ويفرغ منها، ثم يحج من عامه. والقران: أن يجمع بينهما فيحرم بهما دفعة واحدة، (طرح التثريب: ٥/١٧، الفقه على المذاهب الأربعة: ٦٨٨. قال البيهقي في سننه (٥/٢٣): وثبت بالسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ جواز التمتع والقران والإفراد.

أو كسر، ونحو ذلك[١١٠].

روى الطحاوي من حديث عبد الرحمن بن يزيد قال: «أهلّ رجل بعمرة فلُسع، فبينا هو صريع في الطريق، إذ طلع عليه ركب فيهم ابن مسعود، فسألوه فقال: ابعثوا بالهدي، واجعلوا بينكم وبينه أمارة، فإذا كان ذلك فليحلّ»[١١١].

وعلى هذا ابن الزبير، وعلقمة، وسعيد بن المسيِّب، وعروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهم، وإليه ذهب أبو حنيفة[١١٢].

سابعاً ـ في البيوع:

٣٣ ـ نهى عن شراء السَّمك في الماء[١١٣].

٣٤ ـ نهى عن بيع المحفّلة.

روى البيهقي عن الأسود قال: قال عبد الله: «إياكم والمحفّلات[١١٤] فإنها خِلَابة[١١٥]، ولا تحل الخلابة لمسلم[١١٦]».

---

(١١٠) تفسير ابن كثير: ١/٣٣٥. والإحصار: هو أن يحصر الحاج عن بلوغ المناسك بمرض ونحوه، فيتحلل من إحرامه وعليه حجة أخرى.

(١١١) تفسير آيات الأحكام، هامش: ١/٢٤٨.

(١١٢) تفسير ابن كثير: ١/٣٣٥، تفسير آيات الأحكام: ١/٢٤٧.

(١١٣) المسند: رقم ٣٦٧٦، ورواه الهيثمي (٤/٨٠) وعزاه للطبراني في الكبير مرفوعاً وموقوفاً، وقال: رجال الموقوف رجال الصحيح، وفي رجال المرفوع شيخ أحمد لم أجد من ترجمه، وبقيتهم ثقات.

(١١٤) المحفّلة: الشاة أو البقرة أو الناقة لا يحلبها صاحبها أياماً حتى يجتمع لبنها في ضرعها، فإذا حلبها المشتري حسبها غزيرة، فزاد في ثمنها، ثم يظهر له بعد ذلك نقص لبنها عن أيام تحفيلها. سميت محفلة لأن لبنها حُفِّل في ضرعها: أي جُمع، وهي بمعنى المصراة، والنهي للتحريم، انظر (طرح التثريب: ٦/٧٧).

(١١٥) الخلابة: الخداع.

(١١٦) رواه البيهقي مرفوعاً ولكن فيه جابراً الجعفي، قال البيهقي: وروي بإسناد =

٣٥ ـ إذا اشترى المصرّاة وردها؛ ردّ معها صاعاً من تمر.

عن عبد الله بن مسعود قال: «من اشترى شاة محفّلة فردّها، فليردّ معها صاعاً من تمـر، ونهى النبي ﷺ أن تلقّى البيوع»[١١٧].

وعلى هـذا جمهور أهـل العلم، والصحابـة، وقال بـه من التابعين من لا يحصى عدده[١١٨].

ثامناً ـ في الرضاع:

٣٦ ـ يحرِم من الرضاع قليله وكثيره[١١٩]

«قالت عائشة والشافعي وأصحابه: لا يثبت بأقل من خمس رضعات. وقال جمهـور العلماء يثبت بـرضعة واحـدة، حكاه ابن المنذر عن: علي، وابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وعطاء، وطـاووس، وابن المسيب. والحسن، ومكحول، والـزهـري، وقتـادة، والحكم، وحماد، ومـالك، والأوزاعي، والثـوري، وأبي حنيفة، رضي الله عنهم»[١٢٠].

٣٧ ـ لا تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ، إنما بإرضاع من له دون سنتين.

= صحيح عن ابن مسعود موقوفاً. وصحح الحافظ الموقوف وضعّف المرفوع في شرح الحديث رقم ٢١٤٨.

(١١٧) البخاري، الفتح: رقم ٢١٤٩، مسلم: رقم ١٥١٨ ووافقه على الجزء المرفوع، المسند: رقم ٤٠٩٦. السنن: ٣١٩/٥ وتلقي البيوع: هو أن يستقبل الحضري البدوي قبل وصوله الى البلد، ويخبره بكساد ما معه كذباً، ليشتري منه سلعته بالوكس وأقل من ثمن المثل، وذلك تغـرير محرّم.

(١١٨) انظر الفتح: شرح الحديث ٢١٤٨ قبل حديث ابن مسعود.

(١١٩) جامع الأصول: ٤٨١/١١.

(١٢٠) النووي شرح مسلم: ٦٣٢/٣.

«عن أبي موسى الهلالي عن أبيه، أن رجلاً كان في سفر فولدت امرأته، فاحتبس لبنها، فجعل يمصُّه ويمجّه، فدخل حلقه، فأتى أبا موسى، فقال: حرمت عليك! قال: فأتى ابنَ مسعود فسأله؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: (لا يحرّم من الرضاع إلا ما أنبت اللحم وأنشز العظم)»[١٢١].

وبهذا قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين وعلماء الأمصار. وخالفت عائشة وداود، فقالا: تثبت حرمة الرضاع برضاع البالغ كما تثبت برضاع الطفل[١٢٢].

تاسعاً - في الطلاق:

٣٨ - الحامل التي يتوفى عنها زوجها عدتها بوضع حملها[١٢٣].

وعليه جمهور العلماء من السلف والخلف، وذهب علي وابن عباس إلى أنها تعدّ إلى أبعد الأجلين.

٣٩ - إذا قال لامرأته: استلحقي بأهلك، فهي تطليقة.

روى الشافعي بسنده عن عبد الله قال: «إذا قال الرجل لامرأته استلحقي بأهلك، أو وهبها لأهلها فقبلوها؛ فهي تطليقة، وهو أحق بها»[١٢٤].

---

(١٢١) المسند: رقم ٤١١٤، ورواه أبو داود، وعبد الرزاق، والبيهقي. أنشز العظم: أي رفعه وأعلاه وأكبر حجمه، وهو من النشز: المرتفع من الأرض. ويريد ابن مسعود أن دخول قليل اللبن في جوف البالغ لا يبني فيه بخلاف الرضيع.

(١٢٢) النووي شرح مسلم: ٦٣٣/٣، طرح التثريب: ١٣٥/٧، تفسير آيات الأحكام: ٣٥٤/١.

(١٢٣) سبق الكلام عنه.

(١٢٤) الأم: ١٦١/٧.

قال الشافعي: وبهذا نقول إذا أراد الطلاق، وهم - يعني العراقيين - يخالفونه ويزعمون أنها تطليقة بائنة.

٤٠ - يرى وقوع الطلاق الثلاث ثلاثاً وإن كن مجموعات.

عن محمد بن سيرين قال: حدثني علقمة بن قيس قال: «أتى رجل ابن مسعود فقال: إن رجلاً طلق امرأته البارحة مائة! قال: قلتها مرة واحدة؟ قال: نعم، قال: تريد أن تبين منك امرأتك! قال: نعم، قال: هو كما قلت. قال: وأتاه رجل فقال: رجل طلَّق امرأته البارحة عدد النجوم!! قال: قلتها مرة واحدة؟ قال: نعم - قال: تريد أن تبين منك امرأتك؟ قال: نعم، قال: هو كما قلت. قال محمد: فذكر من نساء أهل الأرض كلمة لا أحفظها، قال: قد بين الله أمر الطلاق، فمن طلق كما أمره الله فقد تبين له، ومن لُبِّس عليه جعلنا عليه لبسه، والله لا تلبسوه على أنفسكم ونتحمله عنكم، هو كما تقولون»[١٢٥].

وقد ساق البيهقي مثل ذلك عن: عمر، وعلي، وأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وابن عمرو، وغيرهم. وهو مذهب الأئمة الأربعة وجماهير الصحابة والعلماء سلفاً وخلفاً. وقال طاووس وبعض أهل الظاهر: لا يقع بذلك إلا واحدة[١٢٦]، وهو مذهب ابن تيمية وتلميذه ابن القيِّم.

عاشراً - في الفرائض:

٤١ - الكلالة من لا ولد له ولا والد.

وعلى هذا علي، وابن عباس، وزيد بن ثابت، والشَّعْبي،

---

(١٢٥) السنن الكبرى: ٧/٣٣٥.
(١٢٦) النووي شرح مسلم: ٣/٦٦٨.

والنخعي، والحسن البصري، والفقهاء السبعة، والأئمة الأربعة، وجمهور السلف والخلف، بل جميعهم[١٢٧].

٤٢ - يورِّث ذوي الأرحام إذا لم يكن وارث ذو قرابة.

روي البيهقي عن مسروق عن عبد الله قال: «الخالة بمنزلة الأم، والعمة بمنزلة الأب، وابنة الأخ بمنزلة الأخ، وكل ذي رحم بمنزلة الرحم التي تليه؛ إذا لم يكن وارث ذو قرابة»[١٢٨].

وروى من وجه آخر: «كان علي وعبد الله إذا لم يجدوا ذا سهم أعطوا القرابة: أعطوا بنت البنت المال كله، والخال المال كله، وكذا ابنة الأخ وابنة الأخت للأم، أو للأب والأم، أو للأب، والعمة وابنة العم، وابنة بنت الابن، والجد من قبل الأم، وما قرب أو بعد إذا كان رحماً فله المال إذا لم يوجد غيره. فإن وجد ابنة بنت وابنة أخت، فالنصف والنصف، وإن كان عمة وخالة، فالثلث والثلثان، وابنة الخال وابنة الخالة الثلث والثلثان»[١٢٩].

حادي عشر - في الصيد:

٤٣ - نهى عن أكل الصيد الذي يرمى فيقع على جبل ثم يتردى منه أو يقع في الماء.

روى البيهقي عن مسروق قال: «قال عبد الله «إذا رمى أحدكم

---

(١٢٧) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٠١.

(١٢٨) السنن الكبرى: ٢١٧/٦.

(١٢٩) السنن الكبرى: ٢١٧/٦. وقد انتصر ابن التركماني في حاشية السنن (٢١٧/٦) لهذا الرَّأي، وأورد له آثاراً عن عمر من وجوه، وقال: يشدّ بعضها بعضاً، من ذلك ما رواه عن مصنف ابن أبي شيبة عن عمر «أنه قسم المال بين عمة وخالة» وقال: سنده صحيح متصل.

صيداً، فتردى من جبل فمات فلا تأكلوا فإني أخاف أن يكون التردي قتله، أو وقع في ماء فلا تأكله، فإني أخاف أن يكون الماء قتله»[١٣٠].

ثاني عشر - في النساء:

٤٤ - الزينة في قوله تعالى: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ هي الرداء والثياب.

«عن أبي الأحوص عن عبد الله قال في قوله: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾: الزينة: القرط والدّمْلج[١٣١]، والخلخال والقلادة». وفي رواية أخرى قال: «الزينة زينتان: فزينة لا يراها إلا الزوج، الخاتم والسوار. وزينة يراها الأجانب، وهي الظاهر من الثياب»[١٣٢].

وقال بقوله: الحسن وابن سيرين وأبو الجوزاء وإبراهيم النخعي وغيرهم.

٤٥ - صلاة المرأة في بيتها أفضل.

روى البيهقي عن عبد الله موقوفاً قال: «والذي لا إله غيره، ما صلَّت امرأة صلاة خيراً لها من صلاة تصلِّيها في بيتها، إلّا أن يكون المسجد الحرام، أو مسجد الرسول ﷺ، إلاّ عجوزاً في

---

(١٣٠) السنن الكبرى: ٢٤٨/٩.

(١٣١) وهو زينة تلبس في عضد المرأة.

(١٣٢) تفسير ابن كثير: ٢٤٧/٦. وأما الحديث الذي رواه أبو داود «أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها وقال: يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض، لم يصلح أنْ يُرى منها إلا هذا - وأشار الى وجهه وكفيه -»، فقد ضعّفه أبو داود نفسه، وأهل مكة أدرى بشعابها!

نِقْلِها»[١٣٣].

فإذا كان هذا في زمانهم، فماذا يقول ابن مسعود في زماننا؟!!

* * *

(١٣٣) السنن الكبرى: ٣/١٣١. نِقْلها: يقال امرأة نِقْلة: اي تترك ولا تخطب لكبرها.

الفصل العاشر

تلاميذه

- كان له تلامذة يقولون بقوله
- نشرهم لعلم ابن مسعود بعده
- تعداد تلامذته وذكر جملة من المفتين منهم
- ذكر عدد منهم كما أورده ابن سعد
- مكانتهم وترجمة بعض أعيانهم
  1 ـ علقمة بن قيس
  2 ـ عبيدة بن عمرو
  3 ـ الأسود بن يزيد
  4 ـ مسروق بن الأجدع
  5 ـ عمرو بن شرحبيل
  6 ـ أبو عبد الرحمن السلمي
  7 ـ الربيع بن خثيم الثوري
- الكوفة بعد ابن مسعود

تَــلاَمِيــذُهُ

لقد آن لنا أن نكشف الستار عن هذه الصورة الحية الموجزة لتلامذة عبد الله، فالانسان عندما يسمع وصفاً لنهر عظيم، يفيض بخيراته وتتباهى غوطة غنّاء على جنباته، وتتعانق أشجار باسقة على ضفافه، ترتشف ماءه وتحيله ثمرات تخرج من أكمامها فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، إن هذا الانسان ليتوق إلى رؤية تلك الأشجار على مسرح الواقع، ويمتع النظر بأزهارها والنفس بشذاها، ولا يألو - إن استطاع - أن يقطف بعضاً من ثمارها.

وكما أن واحداً من جوانب عظمة سيدنا رسول الله ﷺ يتجلّى في ذلك الجيل الذي ربّاه والرعيل الذي بناه، فإن من نواحي عظمة شخصية ابن مسعود رضي الله عنه، ومن الأدلة على مكانته الفذة، ذلك الجيل الذي صنعه على عينه، وربّاه على مائدته، وسقاه من بحره، وإن من الواجب - لتتكامَلَ الصورة - أن نتكلم عن تلك المئات من العلماء الذين وردوا معينه ورتعوا في رياضه، ونهلوا من بحره، فصَدروا عنه ولم ينزحوه.

كان له تلامذة يقولون بقوله:

لقد مكث ابن مسعود في الكوفة طويلاً، وأقبل عليه عظماء التابعين، فأعجبوا بعلمه وعقله، حتى قال فيه مسروق: «شاممت[١]

(١) يقال: شاممت فلاناً إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختبار والكشف.

أصحاب رسول الله ﷺ فوجدت علمهم انتهى إلى ستة: إلى عمر، وعلي، وعبد الله، ومعاذ، وأبي الدرداء، وزيد بن ثابت، فشاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى علي وعبد الله[٢].

من أجل ذلك اعتنى أصحاب عبد الله بفتاويه وآرائه، فحفظوها ونشروها، فأصبحت له مدرسة في الكوفة، يقول علي بن عبد الله المديني: «لم يكن من أصحاب النبي ﷺ أحد له أصحاب يقولون بقوله في الفقه إلا ثلاثة: عبد الله بن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن عباس، رضي الله عنهم[٣]» وقال محمد بن جرير: «**لم يكن أحد له أصحاب معروفون، حرَّروا فتياه ومذاهبه في الفقه غير ابن مسعود**، وكان يترك مذهبه وقوله لقول عمر، وكان لا يكاد يخالفه في شيء من مذاهبه، ويرجع من قوله إلى قوله[٤]».

نشرهم لعلم ابن مسعود بعده:

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «**والدين والفقه والعلم انتشر في الأمّة عن أصحاب ابن مسعود، وأصحاب زيد بن ثابت، وأصحاب عبد الله بن عمر، وأصحاب عبد الله بن عباس**، فعلم الناس عامته عن أصحاب هؤلاء الأربعة[٥]».

ثم قال: «وأما أهل العراق فعلمهم عن أصحاب عبد الله بن مسعود[٦]».

ولقد حفظ لنا علماؤنا مواقف خالدة لهؤلاء التلاميذ

---

(٢) طبقات ابن سعد: ٢/٣٥١، اعلام الموقعين: ١/١٦.
(٣) مقدمة ابن الصلاح: ص ١٤٨، الطبعة المحققة: ص ٤٣١، تهذيب الأسماء واللغات: ١/٢٧٤.
(٤) اعلام الموقعين: ١/٢٠، وكأن هذا لما سمعه عبد الله من النبي ﷺ: (إن الله ضرب الحق على قلب عمر ولسانه). (٥) (٦) اعلام الموقعين: ١/٢١.

العظماء،وكيف كانوا ينشرون ما تعلّموه من أستاذهم بين الناس.
روى الإمام أحمد عن أبي إسحاق السَّبيعي قال: رأيت رجلاً سأل الأسود بن يزيد وهو يعلم القرآن في المسجد، فقال: كيف نقرأ هذا الحرف: ﴿ فهل من مدّكر ﴾ أذال أم دال؟ فقال: لا، بل دال، ثم قال: سمعت عبد الله بن مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها ﴿ مدَّكر ﴾ دالاً[٧].

بل إنه إذا كان في المسجد واحد من تلامذة عبد الله كانت الحلق كلها تجتمع إليه لتسمع منه، وهذا ما يرويه لنا الإمام البخاري عن أبي الضحى قال: «**اجتمع مسروق وشتير بن شكل في المسجد، فتقوَّض**[٨] **إليهما حلق المسجد، فقال مسروق: لا أرى هؤلاء يجتمعون إلينا إلا ليستمعوا منا خيراً، فإما أن تحدث عن عبد الله فأصدقك أنا، وإما أن أحدث عن عبد الله فتصدقني؟** فقال: **حدّث** يا أبا عائشة[٩]. قال: هل سمعت عبد الله يقول: العينان يزنيان، واليدان يزنيان، والرجْلان يزنيان، والفرج يصدّق ذلك أو يكذِّبه؟ فقال: نعم، قال: وأنا سمعته. قال: فهل سمعت عبد الله يقول: ما في القرآن آية أجمع لحلال وحرام وأمر ونهي من هذه الآية: ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾؟ قال: نعم، قال: وأنا قد سمعته. قال: فهل سمعت عبد الله يقول: ما في القرآن آية أسرع فَرَجاً من قوله: ﴿ ومن يتَّق الله يجعل له مخرجاً ﴾ قال: نعم، قال: وأنا قد سمعته. قال: فهل سمعت عبد الله يقول: ما في القرآن آية أشد تفويضاً[١٠] من قوله تعالى: ﴿ يا عبادي الذين

(٧) المسند: رقم ٤٤٠١.
(٨) أي تفرقت واجتمعت عندهما.
(٩) هي كنية مسروق.
(١٠) التفويض هنا الترجية.

أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ﴾؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعته[11]».

تعداد تلامذته وذكر جملة من المفتين منهم:

قال محمد زاهد الكوثري ـ رحمه الله ـ : «**فابن مسعود هذا عني بتفقيه أهل الكوفة وتعليمهم القرآن من سنة بناء الكوفة[12] إلى أواخر خلافة عثمان رضي الله عنه، عناية لامزيد عليها، إلى أن امتلأت الكوفة بالقرّاء والفقهاء والمحدِّثين، بحيث أبلغ بعض ثقات أهل العلم[13] عدد من تفقَّه عليه وعلى أصحابه نحو أربعة آلاف عالم[14]**».

وكان عدد المفتين من هؤلاء كبيراً، ذكر ابن القيِّم جملة منهم فقال: «وكان من المفتين بالكوفة: علقمة بن قيس النخعي، والأسود ابن يزيد النخعي، وعمرو بن شرحبيل الهمداني، ومسروق بن الأجدع الهمداني، وعَبيدة السلماني، وشريح بن الحارث القاضي، وسليمان بن ربيعة الباهلي، وزيد بن صوحان، وسويد بن غَفَلة، والحارث بن قيس الجعفي، وعبد الرحمن بن يزيد النخعي، وعبد

---

(11) فضل الله الصمد في توضيح الأدب المفرد: ١/٥٧٠، وبهامشه ص ٥٧١: أخرجه الحاكم في تفسير سورة النحل، والطبري، وبعض قطعات أحمد مرفوعاً، قال الحافظ: سنده صحيح، باب قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل﴾.

(12) الصواب ما ذكرته آنفاً من أنه ذهب إليها سنة ٢١ هـ، وقد ذكره الطبري في هذه السنة، كما أنه قد سبقه إليها بعض الأصحاب كولاة، وكانت مبنية.

(13) هو الإمام السرخسي في كتابه «المبسوط» كما ذكر الشيخ أبو غدة محقق رسالة «فقه أهل العراق وحديثهم».

(14) مقدمة نصب الراية: ١/٣٠، ورسالة «فقه أهل العراق وحديثهم» ص ٤١ - ٤٢.

الله[15] ابن عتبة بن مسعود القاضي، وخيثمة بن عبد الرحمن، وسلمة ابن صهيب، ومالك بن عامر، وعبد الله بن سَخْبرة، وزرّبن حبيش، وخلّاس بن عمرو، وعمرو بن ميمون الأودي، وهمام بن الحارث، والحارث بن سويد، ويزيد بن معاوية النخعي، والربيع بن خُثَيم، وعتبة بن فرقد، وصِلَة بن زفر، وشريك بن حنبل، وأبو وائل شقيق ابن سلمة، وعبيد بن نضلة، وهؤلا أصحاب علي وابن مسعود[16].

ذكر عدد منهم كما أورده ابن سعد:

أورد ابن سعد في الطبقات الكبرى أسماء الذين روَوا عن ابن مسعود، وترجم لهم، وأحاط بشيء من أخبارهم، وقد قسمهم إلى عدة طبقات، أذكرهم ههنا على سبيل الاجمال والإيجاز ليتبيَّن لنا كم كان العلم الذي نشره عبد الله والصحابة عامة، ثم مدى إقبال أولئك العظماء على الصحابة ليأخذوا عنهم ما حفظوه عن رسول الله ﷺ.

١ ـ طارق بن شهاب ـ ٢ ـ قيس بن أبي حازم ـ ٣ ـ رافع بن أبي رافع ـ ٤ ـ سُوَيد بن غَفَلة ـ ٥ ـ الأسود بن يزيد ـ ٦ ـ مسروق بن الأجدع ـ ٧ ـ سعيد بن نمران ـ ٨ ـ النزّال بن سبرة ـ ٩ ـ زهرة بن حميضة ـ ١٠ ـ معدي يكرب ـ ١١ ـ علقمة بن قيس ـ ١٢ ـ عبيدة بن قيس ـ ١٣ ـ أبو وائل ـ ١٤ ـ زيد بن وهب ـ ١٥ ـ عبد الله بن سَخْبرة ـ ١٦ ـ يزيد بن شريك ـ ١٧ ـ أبو عمرو الشيباني ـ ١٨ ـ زر بن حبيش ـ ١٩ ـ عمرو بن شرحبيل ـ ٢٠ ـ عبد الرحمن بن أبي ليلى ـ ٢١ ـ عبد الله بن عكيم ـ ٢٢ ـ عبد الله بن أبي الهذيل

---

(١٥) هو ابن أخي عبد الله بن مسعود.
(١٦) اعلام الموقعين: ١/٢٥.

ـ ٢٣ ـ حارثة بن مُضَرِّب ـ ٢٤ ـ عبد الله بن مسلمة ـ ٢٥ ـ مرة بن شراحيل ـ ٢٦ ـ عبيد بن نضلة ـ ٢٧ ـ عمرو بن ميمون ـ ٢٨ ـ المعرور بن سويد ـ ٢٩ ـ همّام بن الحارث ـ ٣٠ ـ الحارث بن الأزمع ـ ٣١ ـ الأسود بن هلال ـ ٣٢ ـ سليم من حنظلة ـ ٣٣ ـ النعمان بن حميد ـ ٣٤ ـ عبد الله بن عتبة ـ ٣٥ ـ أبو عطية الوادعي ـ ٣٦ ـ عامر بن مطر ـ ٣٧ ـ عبد الله بن خليفة ـ ٣٨ ـ عبد الرحمن بن يزيد ـ ٣٩ ـ الحارث بن سويد ـ ٤٠ ـ الحارث بن قيس ـ ٤١ ـ الحارث الأعور ـ ٤٢ ـ عمير بن سعيد ـ ٤٣ ـ سعيد بن وهب ـ ٤٤ ـ هبيرة بن يريم ـ ٤٥ ـ عمرو بن مسلمة ـ ٤٦ ـ أبو الزعراء ـ ٤٧ ـ أبو عبد الرحمن السلمي ـ ٤٨ ـ عبد الله بن معقل ـ ٤٩ ـ عبد الرحمن بن معقل ـ ٥٠ ـ سعد بن عياض ـ ٥١ ـ أبو فاختة ـ ٥٢ ـ الربيع بن عميلة ـ ٥٣ ـ قيس بن السكن ـ ٥٤ ـ الهزيل بن شرحبيل ـ ٥٥ ـ الأرقم بن شرحبيل ـ ٥٦ ـ أبو الكنود الأزدي ـ ٥٧ ـ شداد بن معقل ـ ٥٨ ـ جبة بن جوين ـ ٥٩ ـ خمير بن مالك ـ ٦٠ ـ عمرو بن عبد الله ـ ٦١ ـ عبد الله بن سنان ـ ٦٢ ـ زاذان أبو عمر ـ ٦٣ ـ عباد بن عبد الله ـ ٦٤ ـ كميل بن زياد ـ ٦٥ ـ قيس بن عبد ـ ٦٦ ـ حصين بن قبيصة ـ ٦٧ ـ أبو القعقاع الجرمي ـ ٦٨ ـ أبو رزين ـ ٦٩ ـ عرفجة ـ ٧٠ ـ عبد الرحمن(١٧) بن عبد الله ـ ٧١ ـ شتير بن شكل ـ ٧٢ ـ أبو الأحوص ـ ٧٣ ـ الربيع بن خُثَيم ـ ٧٤ ـ أبو العبيدَين ـ ٧٥ ـ حريث بن ظهير ـ ٧٦ ـ حسام أبو سعيد ـ ٧٧ ـ قبيصة بن برعة ـ ٧٨ ـ صلة بن زفر ـ ٧٩ ـ أبو الشعثاء المحاربي ـ ٨٠ ـ المستورد بن الأحنف ـ ٨١ ـ عامر بن عبدة ـ ٨٢ ـ ابن معيز السعدي ـ ٨٣ ـ شداد بن الأزمع ـ ٨٤ ـ عبد الله بن

---

(١٧) هو ابن عبد الله بن مسعود.

ربيعة - ٨٥ - عتريس ابن عرقوب - ٨٦ - عمرو بن الحارث - ٨٧ - ثابت بن قطبة - ٨٨ - أبو عقرب الأسدي - ٨٩ - عبد الله ابن زياد - ٩٠ - خارجة بن الصَّلْت - ٩١ - سَحيم بن نوفل - ٩٢ - عبد الله ابن مرداس - ٩٣ - الهيثم بن شهاب - ٩٤ - مروان أبو عثمان - ٩٥ - أبو حيان - ٩٦ - أبو يزيد - ٩٧ - عبيدة بن ربيعة - ٩٨ - الأخنس - ٩٩ - أبو ماجد الحنفي - ١٠٠ - أبو الجعد - ١٠١ - سعد بن الأخرم - ١٠٢ - ضرار الأسدي - ١٠٣ - أبو كنف - ١٠٤ - عمّ مهاجر بن شماس - ١٠٥ - أبو ليلى الكندي - ١٠٦ الخشف ابن مالك ١٠٧ - المنهال - ١٠٨ - نُفَيع - ١٠٩ - عدسة الطائي - ١١٠ - سليمان بن شهاب - ١١١ - مؤثر بن غفارة - ١١٢ - وألان - ١١٣ - عميرة بن زياد - ١١٤ - أبو الرضراض - ١١٥ - أبو زيد - ١١٦ - وائل بن مهانة - ١١٧ - بلّاز بن عصمة - ١١٨ - وائل بن ربيعة - ١١٩ - الوليد بن عبد الله - ١٢٠ - عبد الله بن حلّام - ١٢١ - فلفلة الجعفي - ١٢٢ - يزيد بن معاوية - ١٢٣ - أرقم بن يعقوب - ١٢٤ - حنظلة بن خويلد - ١٢٥ - عبد الرحمن بن بشر - ١٢٦ - البراءبن ناجية - ١٢٧ - تمام بن حذلم - ١٢٨ - حوط العبدي - ١٢٩ - عمرو بن عتبة - ١٣٠ - قيس بن عبد - ١٣١ - قيس ابن حبتر - ١٣٢ - العنبس بن عقبة - ١٣٣ - لقيط بن قبيصة - ١٣٤ - حصين بن عقبة - ١٣٥ - شبرمة بن الطفيل - ١٣٦ - عبد الرحمن بن خنيس - ١٣٧ - عمير - ١٣٨ - كردوس بن عباس - ١٣٩ - سلمة بن صهيبة - ١٤٠ - عبدة النهدي - ١٤١ - أبو عبيدة بن عبد الله[١٨]» .

---

(١٨) طبقات ابن سعد: ج ٦. وأبو عبيدة هو ابن عبد الله بن مسعود، لم يسمع من أبيه لكنه روى عنه كثيراً.

مكانتهم وترجمة بعض أعيانهم:

قال سعيد بن جبير: «**كان أصحاب عبد الله سُرُج هذه القرية**[19]».

وعن إبراهيم التَّيْمي قال: «**كان فينا ستون شيخاً من أصحاب عبد الله**[20]».

وقال عامر الشعبي: «ما رأيت أحداً كان أعظم حلماً، ولا أكثر علماً، ولا أكفّ عن الدماء؛ من أصحاب عبد الله، إلا ما كان من أصحاب رسول الله ﷺ[21]».

وإن أناساً يشهد لهم هؤلاء الثقات بذلك لهم قومٌ قد بلغوا من العلم غايته، ومن التقوى رأسها، ومن العمل ذروته، وليس بدْعاً فقد أخذوا دينهم وعلمهم عن صحابي وُصف بأنه «أقرب الناس هدياً ودَلاَ وسَمْتاَ برسول الله ﷺ».

ولنلق نظرة سريعة على بعض هؤلاء:

١ ـ علقمة بن قيس (توفي ٦٢ هـ):

ـ «هو علقمة بن قيس، بن عبد الله، بن مالك، بن علقمة، ابن سلامان، بن كهل، بن بكر، بن عوف، بن النَّخَع، من مَذْحج، ويكنى أبا شبل، وهو عم الأسود بن يزيد بن قيس[22]».

ـ «روى عن عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وسلمان، وأبي مسعود، وأبي الدرداء[23]».

---

(١٩) (٢٠) طبقات ابن سعد: ٦/ ١٠.
(٢١) طبقات ابن سعد: ٦/ ١١ ـ ١٢.
(٢٢) (٢٣) طبقات ابن سعد: ٦/ ٨٦.

ـ كان مستقيم السلوك، تقي الجنان، ومن خلاصة الصالحين، عن ابراهيم عن علقمة قال: **«كان عبد الله يشبّه بالنبيِّ ﷺ في هَدْيه ودَلّه وسَمْته، وكان علقمة يشبّه بعبد الله[٢٤]»**.

ـ لذا كان ابن مسعود يحبه كثيراً، ويسمع منه القرآن؛ فعن ابراهيم «أن علقمة قرأ على عبد الله، فقال: رتّل فداك أبي وأمي، فإنه زين القرآن[٢٥]».

ـ ولقد كان يطيل صحبة القرآن الكريم، ويكثر من تلاوته، فعن إبراهيم قال: «كان علقمة يقرأ القرآن في خمس[٢٦]». وعن إبراهيم أيضاً عن علقمة **«أنه قدم مكة ليلاً، فطاف سبعاً، وقرأ الطُّوَل، ثم طاف سبعاً فقرأ المئين، ثم طاف سبعاً فقرأ المثاني، ثم طاف سبعاً فقرأ ما بقي[٢٧]»!!**

ـ وكان متواضعاً يكره أن يُشار إليه بالبنان، كما كان يكره الدخول على الأمراء خشية على دينه؛ فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**قلنا لعلقمة: لو صلّيت في المسجد، وتجلس ونجلس معك فنسأل! فقال: أكره أن يقال: هذا علقمة**. قالوا: لو دخلت على الأمراء فعرفوا لك شرفك! فقال: إني أخاف أن يتنقصوا مني أكثر **مما أنتقص منهم[٢٨]»!!**.

ـ وكان على جانب كبير من العلم، استحق شهادة أستاذه فيه،

---

(٢٤) طبقات ابن سعد: ٦/٨٦.
(٢٥) طبقات ابن سعد: ٦/٨٦، ٨٩، ٩٠.
(٢٦) طبقات ابن سعد: ٦/٨٦.
(٢٧) (٢٨) المرجع السابق: ٦/٨٨.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «لا أعلم شيئاً إلاّ وعلقمة يعلمه[29]».

و «عن قابوس قال: قلت لأبي: كيف تأتي علقمة وتدع أصحاب النبي ﷺ؟ فقال: يا بنيَّ، لأن أصحاب النبي ﷺ يستفتونه[30]»!!.

ـ وكان ورعاً، بعيداً عن الشبهات؛ استبراءً لدينه، روى ابن سعد عنه أنه «باع بعيراً أو دابة من رجل فكرهها، فأراد أن يردها ومعها دراهم، فقال علقمة: هذه دابتنا فما حقنا في دراهمك؟! فقبل دابته وردّ الدراهم[31]».

ـ أما وصيته عند موته فتدلُّ على التزام بالسُّنَّة وتمسك بها، عن إبراهيم عن علقمة أنه أوصى «إن استطعت أن تلقنني آخر ما أقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ فافعل، ولا تؤذنوا بي أحداً[32] إني أخاف أن يكون كنعي الجاهلية، فإذا أخرجتموني فعليّ الباب ـ يعني أغلقوا الباب ـ، ولا تتبعني امرأة».

ـ قال فيه مرّة الطيِّب: «كان علقمة من الربانيِّين[33]. وقال ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث[34]». وقال الحافظ ابن حجر: «ثقة، ثبْت، فقيه، عابد[35]».

---

(٢٩) (٣٠) فقه أهل العراق وحديثهم: ص ٤٤.
(٣١) طبقات ابن سعد: ٦/ ٩٠.
(٣٢) المرجع السابق: ٦/ ٩٢.
(٣٣) المرجع السابق: ٦/ ٩١.
(٣٤) المرجع السابق: ٦/ ٩٢.
(٣٥) تقريب التهذيب: ٢/ ٣١.

٢ - عَبيدة بن عمرو (أوقيس) السَّلْماني (توفي ٧٢ هـ):

- أسلم قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، لكنه لم يلقه[٣٦].

- روى عن عمر وعلي وعبد الله [٣٧].

- كان محباً لرسول الله ﷺ، فعن محمد بن سيرين قال: «**قلت لعبيدة: إن عندنا من شَعَر رسول الله ﷺ شيئاً من قِبَل أنس! فقال عبيدة: لأن يكون عندي منه شعرة أحب إلي من كل صفراء وبيضاء على ظهر الأرض**[٣٨]».

- كما كان عالماً كبيراً، وقاضياً حاذقاً، حتى إن القاضي شريحاً المعروف بشدة اليقظة في الفقه وإحكام القضاء، كان إذا اشتبه عليه الأمر في قضية يرسل إلى عبيدة هذا فيستشيره[٣٩].

وهو في العلم من زمرة علقمة، فعن محمد بن سيرين قال: «كان أصحاب عبد الله بن مسعود خمسة، فمنهم من يقدِّم عبيدة، ومنهم من يقدِّم علقمة، ولا يختلفون أن شريحاً آخرهم[٤٠]».

ومع ذلك فقد كان يتخوّف من الفتيا ويتحرَّج من إجابة السائل، خاصة إذا كان السؤال عن آية في كتاب الله، فعن ابن سيرين قال: «**سألت عَبيدة عن آية، فقال: عليك باتقاء الله والسَّداد، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيما أنزل القرآن**[٤١]».

- قال فيه ابن حجر: «تابعي كبير، مخضرم، ثقة، ثبْت[٤٢]».

---

(٣٦) (٣٧) طبقات ابن سعد: ٩٣/٦. (٣٨) المرجع السابق: ٩٥/٦.
(٣٩) تقريب التهذيب: ٥٤٧/١، فقه أهل العراق وحديثهم: ص ٤٣.
(٤٠) طبقات ابن سعد: ١٠/٦، ٩٤، ويريد بأصحابه كبارهم.
(٤١) طبقات ابن سعد: ٩٥/٦.
(٤٢) تقريب التهذيب: ٥٤٧/١، وقد صحح ابن حجر أن وفاته قبل سنة سبعين.

٣ ـ الأسود بن يزيد (توفي ٧٤ أو ٧٥ هـ):

ـ هو الأسود بن يزيد بن قيس، ابن أخي علقمة بن قيس، وكان الأسود بن يزيد أكبر من علقمة[٤٣].

ـ روى عن أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، وسلمان، وأبي موسى، وعائشة، ولم يرو عن عثمان شيئاً[٤٤].

ـ كان رحمه الله شديد الحرص على الصلاة لوقتها، كثير الصيام، مفرطاً في إيثار الآخرة، كثير الحج والاعتمار، فعن رياح بن الحارث النخعي قال: **«سافرت مع الأسود إلى مكة، فكان إذا حضرت الصلاة نزل على أي حال كان، إن كان على حُزونة نزل فصلّى، وإن كان يد ناقته في صعود أو هبوط أناخ ولم ينتظر**. قال: والحزونة المكان الخشن[٤٥]».

وعن إبراهيم «أن الأسود كان يصوم في اليوم الشديد الحرّ، حتى يسودّ لسانه من الحرّ[٤٦]».

وعن رياح النخعي قال: **«كان الأسود يصوم في السفر حتى يتغير لونه من العطش في اليوم الحار، ونحن يشرب أحدنا مراراً قبل أن يفرغ من راحلته في غير رمضان[٤٧]»**.

وعن علي بن مدرك «أن علقمة كان يقول للأسود: لما تعذب هذا الجسد؟! فيقول: إنما أريد له الراحة[٤٨]».

---

(٤٣) (٤٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ٧٠.
(٤٥) طبقات ابن سعد: ٦/ ٧١.
(٤٦) المرجع السابق: ٦/ ٧٠ ـ ٧١.
(٤٧) (٤٨) المرجع السابق: ٦/ ٧١.

وعن أبي إسحاق أن الأسود طاف بالبيت ثمانين، ما بين حجة وعمرة[49]».

ـ وكان دائم الملازمة للقرآن العظيم، ويزداد ذلك في شهر القرآن، فعن إبراهيم عن الأسود «أنه **كان يختم القرآن في شهر رمضان في كل ليلتيـن**[50]». وعنه قال: «كان الأسود يقرأ القرآن في ستٍ[51].

ـ قالت فيه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما بالعراق رجل أكرم عليَّ من الأسود[52]».

وقال ابن سعد: «توفي الأسود بن يزيد بالكوفة سنة خمس وسبعين، وكان ثقة، وله أحاديث صالحة[53]».

وقال ابن حجر: «مخضرم، ثقة، مكثر، فقيه[54]».

٤ ـ مسروق بن الأجدع (توفي ٦٢ أو ٦٣ هـ).

ـ هو مسروق بن عبد الرحمن بن مالك بن أمية، من همدان، يكنى أبا عائشة.

ولقد غيّر له عمر اسمه، فعن الشعبي قال: «لما وفد مسروق على عمر قال: من أنت؟ قال: مسروق بن الأجدع، قال: الأجدع شيطان، ولكن مسروق بن عبد الرحمن، فكان يكتب: من مسروق ابن عبد الرحمن[55]».

---

(٤٩) طبقات ابن سعد: ٦/ ٧١.
(٥٠) (٥١) (٥٢) المرجع السابق: ٧٣/٦.
(٥٣) المرجع السابق: ٧٥/٦.
(٥٤) تقريب التهذيب: ٧٧/١.
(٥٥) طبقات ابن سعد: ٧٦/٦.

ـ روى عن عمر، وعلي، وعبد الله، وخباب بن الأرت، وأبيّ ابن كعب، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، ولم يرو عن عثمان شيئاً(٥٦).

ـ كان كثير التعبد، واسع الثقة بالله والتوكل عليه، فعن أبي إسحاق قال: «**حج مسروق فما نام إلا ساجداً على وجهه**(٥٧)».

وعن أبي إسحاق قال: «**أصبح مسروق يوماً وليس لعياله رزق، فجاءته امرأته قُمير فقالت له: يا أبا عائشة، إنه ما أصبح لعيالك اليوم رزق! قال: فتبسَّم وقال: والله ليأتينَّهم الله برزق**(٥٨)»!!.

ـ وكان كثير الخشية لله، مخلصاً متواضعاً، قال رحمه الله: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعمله». (٥٩) وقال: «والمرء حقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر ذنوبه فيستغفر الله(٦٠)».

وعن أبي الضحى «أن مسروقاً شفع لرجل شفاعة، فأهدى له جارية، فغضب وقال: لو علمت أن هذا في نفسك ما تكلمت فيها، ولا أتكلم فيما بقي فيها أبداً!! سمعت عبد الله بن مسعود يقول: «من شفع شفاعة ليردّ بها حقاً أو يدفع بها ظلماً، فأُهدي له فقبل، فذلك السحت! قالوا: ما كنا نرى السحت إلا الأخذ على الحكم! قال: الأخذ على الحكم كفر(٦١)».

---

(٥٦) المرجع السابق: ٦/٧٧.
(٥٧) المرجع السابق: ٦/٧٩.
(٥٨) طبقات ابن سعد: ٦/٧٩.
(٥٩) (٦٠) المرجع السابق: ٦/٨٠.
(٦١) المرجع السابق: ٦/٨١.

ـ ولقد بلغ من الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة ما تهفو إليه نفس المؤمن، وهذا ما يرويه حمزة بن عبد الله بـن عتبة بن مسعود قال: «وبلغني أن مسروق بن الأجدع أخذ بيد ابن أخ له، فارتقى على كناسة بالكوفة، فقال: ألا أريكم الدنيا؟! هذه الدنيا: أكلوها فأفنوها، لبسوها فأبلوها، وركبوها فأنضوها، سفكوا فيها دماءهم، واستحلوا فيها محارمهم، وقطعوا فيها أرحامهم[٦٢]».

ـ وكان قاضياً دون اقتضاء أجر، وأمنيته أن يصيب الحق، فعن القاسم بن عبد الرحمن قال: «كان مسروق لا يأخذ على القضاء رزقاً[٦٣]». وعن الشَّعْبي أنَّ مسروقاً قال: «لأن أقضي بقضية فأوافق الحق أو أصيب الحق؛ أحب إلي من رباط سنة في سبيل الله[٦٤]».

ـ أما أمنيته الوحيدة فيحدثنا أبو وائل عنها فيقول: «إن مسروقاً لما حضره الموت قال: **اللهم لا أموت على أمر لم يسنّه رسول الله ﷺ، ولا أبو بكر ولا عمر. والله ما تركت صفراء ولا بيضاء عند أحد من الناس، غير سيفي هذا، فكفنوني به**»[٦٥].

ـ قال فيه مرّة: «ما ولدت همدانية مثل مسروق[٦٦]».

وقال ابن سعد: «مات مسروق سنة ثلاث وستين، وكان ثقة، وله أحاديث صالحة[٦٧]».

وقال ابن حجر: «ثقة، فقيه، عابد، مخضرم[٦٨]».

---

(٦٢) (٦٣) (٦٤) المرجع السابق: ٦/٨٢.
(٦٥) المرجع السابق: ٦/٨٣.
(٦٦) المرجع السابق: ٦/٧٩.
(٦٧) المرجع السابق: ٦/٨٤.
(٦٨) تقريب التهذيب: ١/٢٤٢.

٥ ـ عمرو بن شرحبيل (توفي ٦٣ هـ):

ـ هو أبو ميسرة الهمداني ثم الوادعي، روى عن عمر وعلي وعبد الله[٦٩]. وكان «إمام مسجد بني وادعة[٧٠]».

ـ من أبرز خصاله أنه واسع الصدقة، سمح النفس، مبسوط اليد؛ فعن إسرائيل بن يونس قال: **كان أبو ميسرة إذا أخذ عطاءه تصدَّق فيه؛ فإذا جاء إلى أهله فعدّوه، وجدوه سواء!! فقال لبني أخيه: ألا تفعلون مثل هذا ؟! فقالوا: لو علمنا أنه لا ينقص لفعلنا! قال أبو ميسرة: إني لست أشترط هذا على ربي**[٧١]».

ـ وكان معظماً للسنة، مقتفياً أثر الصحب الكرام، وهذا ما يتضح من وصيته عند موته كما روى أبو وائل قال: قال عمرو بن شرحبيل حين حضرته الوفاة: إني ليسير للموت الآن ـ أظنه قال: وما بي إلا هول المطّلَع ـ ما أدع مالاً، وما أدع عليَّ من دين، وما أدع من عيال يهموني من بعدي، فإذا أنا متّ فلا تنعوني إلى أحد، وأسرعوا المشي، وألقوا على لحدي من القصب، فإني رأيت المهاجرين يستحبون ذلك، ولا ترفعوا جَدَثي فإني رأيت المهاجرين يكرهون ذلك[٧٢]».

ـ لذا فلقد كانت مكانته عالية، فعن أبي وائل قال: «ما رأيت همدانياً قط أحب إلي أن أكون في مسلاخه من عمرو بن شرحبيل[٧٣]». وقال: «ما اشتملت همدانية على مثل أبي ميسرة، فقيل له: ولا مسروق؟ فقال: ولا مسروق[٧٤]».

---

(٦٩) (٧٠) (٧١) طبقات ابن سعد: ١٠٦/٦.

(٧٢) طبقات ابن سعد: ١٠٨/٦.

(٧٣((٧٤) المرجع السابق: ١٠٦/٦، ومسلاخ الحية جلدها، كأنه يتمنى أن يكون في مثل هديه وطريقته.

٦ ـ أبو عبد الرحمن السُّلمي (توفي بعد ٧٠ هـ).

ـ اسمه عبد الله بن حبيب، روى عن علي وعبد الله[٧٥].

ـ كان يعلِّم الناس القرآن، ويلتزم به، ويحملهم على ذلك، فعن عطاء بن السائب أن أبا عبد الرحمن السلمي قال: «إنا أخذنا هذا القرآن عن قوم أخبرونا أنَّهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوهـن إلى العشر الأُخَر حتى يعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به. وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم ليشربونه شرب الماء، لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوزها هنا. ووضع يده على الحلق[٧٦]».

وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: «كان أبـو عبد الـرحمن يقرىء عشرين آية بالغداة وعشرين آية بالعشي، ويخبرهم بموضع العشر والخمس، ويقرىء خمساً خمساً، يعني خمس آيات خمس آيات[٧٧]».

ـ وكان لا يأخذ على كتاب الله أجراً، فعن أبي جعفر الفراء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «جاء وفي الدار جلال وجُزُر، قالوا: بعث بهذا عمرو بن حريث ـ إنك علمت ابنه القرآن، قال: ردّ إنا لا نأخذ على كتاب الله أجراً[٧٨]».

ـ أما أمنيته فيحدثنا عنها عطاء بن السـائب فيقول: «دخلت على عبد الله بن حبيب وهو يقضي في مسجده، فقلت: يرحمك الله، لو تحولت إلى فراشك! فقال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: لا يزال العبد في صلاة ما كان في مصلاه ينتظر الصلاة،

---

(٧٥) (٧٦) (٧٧) طبقات ابن سعد: ١٧٢/٦.

(٧٨) المرجع السابق: ١٧٣/٦.

والملائكة تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه! قال: **فأريد أن أموت وأنا في مسجدي**[٧٩]».

ـ وكان عظيم الرجاء لله عز وجل، فعن عطاء أيضاً قال: «**ذهبنا نرجّي أبا عبد الرحمن عند موته، فقال: أنا لا أرجو وقد صمت ثمانين رمضان؟!**[٨٠]».

ـ قال فيه ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث[٨١]».

ـ وقال الحافظ: «أبو عبد الرحمن السلمي، الكوفي، المقرىء، مشهور بكنية، ولأبيه صحبة، ثقة، ثَبْت[٨٢]».

٧ ـ الربيع بن خُثَيم الثوري (توفي ٦١ أو ٦٣ هـ):

ـ يكني أبا يزيد، روى عن عبد الله.

ـ كانت له عند ابن مسعود مكانة رفيعة، وقد امتدحه فيما رواه أبو عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: «كان الربيع بن خُثَيم إذا دخل على عبد الله لم يكن عليه يومئذ إذن لأحد، حتى يقضي كل واحد منهما من صاحبه حاجته، قال: وقال عبد الله: **يا أبا يزيد لو أن رسول الله ﷺ رآك لأحبك وما رأيتك الا ذكرت المخبتين**[٨٣]».

ـ وكان واسع الخشية، كثير الخوف من الله تعالى، دائم الاستعداد للآخرة والزهد في الدنيا، فقد كان يقول: يا عبد الله قل خيراً أو اعمل خيراً، ودُم على صالحة، لا يطولنّ عليك الأمد، ولا يقسونّ قلبك، ولا تكونن من الذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون. يا

---

(٧٩) المرجع السابق: ٦/١٧٤ ـ ١٧٥.
(٨٠) (٨١) المرجع السابق: ٦/١٧٥.
(٨٢) تقريب التهذيب: ١/٤٠٨.
(٨٣) طبقات ابن سعد: ٦/١٨٢ ـ ١٨٣.

عبد الله إن كنت عملت خيراً فأتبع خيراً خيراً، فإنه سيأتي عليك يوم تودّ لو ازددت، وإن كان مضى منك لهوٌ لا محالة فاعمل خيراً؛ فإنه يقول: ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين﴾. يا عبد الله ما علمك الله في كتابه من علم فاحمد الله عليه، وما استؤثر عليك فيه علم فكِلْه إلى عالمه، ولا تكلَّف فإنه يقول: ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلِّفين، إن هو إلا ذكر للعالمين، ولتعلمنّ نبأه بعد حين﴾. يا عبد الله اعلم أن العبد إذا طالت غيبته وحانت حينته فانتظره أهله، كأن قد جاء، فأكثروا ذكر هذا الموت الذي لم تذوقوا قبله مثله. والسرائر السرائر اللاتي يخفين من الناس وهنَّ لله بَوادٍ[٨٤]».

ـ وكان كثير الصمت لا يقول إلَّا خيراً، فعن إبراهيم التيمي قال: «**أخبرني من صحب الربيع بن خثيم عشرين عاماً، ما سمع منه كلمة تُعاب**[٨٥]»!!

ولقد كان يقول: «أقلّوا الكلام إلا من تسع: سبحان الله، والحمد الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن، ومسألة الخير، والاستعاذة من الشر[٨٦]».

ـ كما كان كثير التهجد، يطيل المثول بين يدي الله سبحانه، مع تفاعل وإدراك لمعاني القرآن، فعن نُسير بن ذعلوق عن الربيع «**أنه كان يتهجد في سواد الليل، فمرّ بهذه الآية: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات، سواءً**

---

(٨٤) طبقات ابن سعد: ٦/١٨٣ ـ ١٨٤.
(٨٥) (٨٦) المرجع السابق: ٦/١٨٥.

محياهم ومماتهم؟! ساء ما يحكمون﴾، فلم يزل يرددها ليلهُ حتى أصبح»[87]!!

ـ وأما حرصه على صلاة الجماعة فقلّ ما روي مثله إلا عن آحاد الناس، يدلنا على هذا الرواية التالية: «**كان الربيع بن خثيم يُقاد إلى الصلاة وبه الفالج، فيقال له: يا أبا يزيد، قد رُخّص لك! قال: إني أسمع حيَّ على الصلاة، حيَّ على الفلاح، فإن استطعتم أن تأتوها ولو حَبْواً**»[88]!!

ـ أما مكانته فعن عاصم قال: «كان عبد الله إذا رأى الربيع ابن خثيم قال: وبشِّر المخبتين»[89]. وعن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود قال: «ما رأيت أحداً أشد تلطفاً في العبادة من ربيع بن خثيم»[90].

وعن أبي وائل وقد سأله رجل: «أنت أكبر أو ربيع؟ فقال: أنا أكبر منه سناً، وهو أكبر مني عقلاً»[91]. وقال فيه الحافظ: «ثقة، عابد، مخضرم»[92].

* * *

تلك هي صورة مصغّرة عن مدرسة ابن مسعود وتلامذتها، ولقد كانوا خير خَلَف لخير سَلَف، اقتفوا أثرهم، وسلكوا فجَّهم، ونسجوا على منوالهم، فاستحقوا ثناء الصادق المصدوق ﷺ: (خير الناس قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم).

---

(٨٧) المرجع السابق: ٦/١٨٦ ـ ١٨٧.
(٨٨) المرجع السابق: ٦/١٨٩ ـ ١٩٠.
(٨٩) (٩٠) المرجع السابق: ٦/١٨٣.
(٩١) المرجع السابق: ٦/١٨٧.
(٩٢) تقريب التهذيب: ١/٢٤٤.

وإنَّ الناظر في صفات هؤلاء العظماء يجد فيها: التقوى والورع، والزهادة في الدنيا وإيثار الآخرة، والخوف من عذاب الله ورجاء عفوه وثوابه، والعلم الواسع والعمل العريض، والتمسك بهدي الصالحين وحمل الناس على سلوك سبيل الراشدين.

وإن هذا لممّا يتمِّم صورة عبد الله، ذلك أنَّ التلاميذ صورة لمعلِّمهم، كما أن أخلاق الناس دليل على مضامين المبدأ الذي تربَّوا عليه. وكأن ابن مسعود كان إناء من مسك يتضوَّع منه رائحته العَطِرة متمثلاً بهؤلاء الأصحاب النجباء، فكنت ترى في كل ناحية منهم رأساً وسيداً، وفي كل صوب منهم معلِّماً ومرشداً، وفي كل جهة منهم رائداً وهادياً، فرضي الله عنهم وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

الكوفة بعد ابن مسعود:

● نزل الكوفة من أصحاب النبي ﷺ العدد الكبير، وكان ابن مسعود من أكابرهم، قال إبراهيم: «**هبط الكوفة ثلاثمائة من أصحاب الشجرة، وسبعون من أهل بدر، لا نعلم أحداً منهم قصّر، ولا صلى الركعتين اللتين قبل المغرب**[٩٣]».

وكان من أعيان أولئك الصحابة رضي الله عنهم: «علي بن أبي طالب، سعد بن أبي وقاص، سعيد بن زيد - عبد الله بن مسعود، عمار بن ياسر، خباب بن الأرت، حذيفة بن اليمان، أبو موسى الأشعري، سلمان الفارسي، البراء بن عازب[٩٤]» وغيرهم كثير.

---

(٩٣) طبقات ابن سعد: ٦/ ٩.
(٩٤) المرجع السابق: ٦/ ٥ - ٦.

● لذا كثر فيها الإيمان والعلم، وطفحت بالأكابر من الزهّاد التقاة، والدعاة العلماء، وهذا ما أشار إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال: «العراق بها كنز الايمان، وهم رمح الله، يُجْزون عن ثغورهم، ويمدون الأمصار[٩٥]». وقال: «الكوفة جمجمة الاسلام، وكنز الإيمان، وسيف الله ورمحه يضعه حيث يشاء، وايمُ الله لينصرنَّ الله بأهلها في مشارق الأرض ومغاربها كما انتصر بالحجارة[٩٦]».

● ولقد أصبحت الكوفة إحدى أبرز منارات الاسلام، وكان لعبد الله في ذلك الحظ الأوفى، **ولذا لمَّا دخلها علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «رحم الله ابن أمِّ عبد، قد ملأ هذه القرية علماً[٩٧]».**

ولقد نبغ في الكوفة حفّاظ الاسلام وكبار العلماء، فمن هؤلاء خلا الذين ذكرتهم من طبقة التابعين: سعيد بن جبير، إبراهيم بن يزيد النخعي، عامر بن شراحيل الشَّعْبي.

وعلى مثل هؤلاء تفقه حماد بن أبي سليمان الذي كان شديد الملازمة لإبراهيم، وعلى حمّاد هذا تخرج الإمام الكبير أبو حنيفة النعمان بن ثابت صاحب المذهب رحمه الله[٩٨].

● ويكفي دلالة على كثرة العلم فيها ما **قاله إمام المحدِّثين بلا منازع أبو عبد الله البخاري**: «دخلت إلى الشام، ومصر، والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، **ولا**

---

(٩٥) (٩٦) المرجع السابق: ٦/٥ ـ ٦.
(٩٧) فقه أهل العراق وحديثهم: ص ٤٢.
(٩٨) باختصار عن فقه أهل العراق وحديثهم: ص ٤٧ ـ ٤٩.

أحصي كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدِّثين[٩٩]».

وإن واحداً كالإمام البخاري يكثر من دخول الكوفة والرحلة إليها؛ لدليل على ما كان يجده فيها من حديث رسول الله ﷺ، ويكفي دلالة على هذا أنه روى في صحيحه عن عبد الله بن مسعود وحده خمسة وثمانين حديثاً.

* * *

(٩٩) كتاب «الإمام البخاري» لتقي الدين النَّدْوي المظاهـري: ص ٣٩.

الفصل الحادي عشر

وزير مال الكوفة ومواقفه من ولاتها

أولاً ـ وزير المال

- بين التخصص والشمول
- مؤهلات ابن مسعود لوزارة بيت المال
- عطاؤه
- تصرفه في بيت المال وأمانته الكبرى.

ثانياً ـ مع الولاة

- الذين ولوا الإمرة خلال وجوده هناك
- مع سعد بن أبي وقاص
- مع الوليد بن عقبة

ثالثاً ـ مواقف أخرى

- قتل ابن النوَّاحة
- قتل الساحر

أولاً ـ وزير المال

بين التخصّص والشمول:

إن المرء إذا ألقى نظرة على مجتمعنا الذي نعيشه والناس الـذين نراهم فيـه، ثم يمد الـطّرف بعيداً إلى رجـالات الإسلام العظام، يجد عجباً من العجب، وتستولي عليه الدهشة، من ذلك البون الشاسع بين أولئك وهؤلاء.

فالواحد من كبار الناس اليوم تجده مبدعاً في مجال، مبرّزاً في علم، لكنه جهول في ما تبقّى، وقد لا يعرف الأساسيات والأوليات فيما عدا اختصاصه، خلا رجال يشذُّون عن هذه القاعدة. بينما ترى في رجالات الإسلام الأُوَل: الفقيه الكبير، المحدِّث المكثر، المعلِّم الفذ، الوالي الزاهد، القاضي العادل، السياسي المحنك، القائم على شؤون المال المجاهد في سبيل الله؛ كل ذلك مـع ربانيـة وورع، وزهادة وتقوى، وتواضع جمّ وعـريكة لينـة، وبساطـة في المعاش يخالطه دماثة في الخُلُق!!

وإن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ لهو أكبر دليل على صدق ما أسلفت، فالمرء يعجب: كيف يكون الرجل نفسه فقيه الأمة ومعلمها، وإمام مسجدها، ثم وزير مالها؟! وبالتعبير الحديث: كيف يجمع بين وزارة التعليم ووزارة المالية مع أهلية لكلتيهمـا؟!.

والحق أنه ليس من عجب إذا علمنا أن هؤلاء هم صنعة العقيدة التي لا تعرف التقوقع والتجزىء، ولا تقبل بالدون في واحد من الأمور، ثم هم أولاء الذين ربَّاهم رسول الله ﷺ وهو المثل الأعلى والقدوة المثلى في كل شيء.

لذا وجدنا ابن مسعود ذلك الفقيه، المعلِّم المحدِّث، القاضي، وزير المال والقائم على مصارفه.

مؤهلات ابن مسعود لوزارة بيت المال:

لقد كان لابن مسعود قبل أن يتولى هذا المنصب؛ سوابق مهدت لذلك، ومؤهلات جعلته محط نظر عمر رضي الله عنه في أن يكون واحداً من عماله في مِصْر كبير من أمصار الإسلام.

فلقد كان من أول تلك السوابق قوله للنبي ﷺ في أول لقاء له به، عندما طلب منه أن يسقيه لبناً: «**إني مؤتمن**»! ثم قول رسول الله عليه الصلاة والسلام له ـ عندما طلب عبد الله منه أن يعلمه ـ: «**إنك غلام معلَّم**».

والحق أن تولي أمور المال في واحد من البلاد يتطلب أمرين اثنين يتمم أحدهما الآخر: أمانة، وعلم.

ـ أمانة: حتى لا يفرِّط في شيء من المال سواءً في موارده أو مصارفه، ولا يتهاون في جمعه من الناس واسترداده منهم إذا استقرضوا وحان الأجل. ثم عدم التفريط في درهم واحد، ولو كان ذلك مع أكبر الناس قدراً وأرفعهم شأناً، فالمال أمانة، وهو حق الأمة، ومتوليّه مؤتمن عليه ومحاسب بين يدي الله تعالى.

ـ ثم هو يتطلب علماً، وأي أمر من أمور الإسلام يقوم على

الجهل؟! ومتى رضي الإسلام من معتنقيه أن يكونوا جهلاء؟! وكيف يقبله وأول كلمة جاء بها الوحي هي [إقرأ]؟! وضرورة العلم لوزير المال تكمن في معرفة أنصبة الزكاة، ومقدار الخراج، وحساب ذلك بالنقير والقطمير، ثم الإحاطة بأحوال الناس، واحتياطاتهم، وأماكن صرف المال، وأجل كل شيء، وحدوده، وما هو الحلال والحرام في تلك المعاملات، وأين المباح والمحظور؟! كل ذلك لا يمكن أن يقوم به إنسان عادي، بَلْهَ الجاهل! ولا بد من رجل كابن مسعود لأنه منذ صغره (غلام معلَّم).

زد على ذلك أن لابن مسعود سوابق في هذا المجال: فقد كان على الأقباض في معركة اليرموك، كما كان على الأخماس في فتح حمص، وقد وفّده أبو عبيدة إلى عمر عليهم رضوان الله تعالى.

عطاؤه:

بعث عمر رضي الله عنه عبد الله وعماراً إلى الكوفة، وأوصى بهما أهلها، وبيّن لكلٍ منهما عمله وعطاءه: عن حارثة بن مضرّب قال: «قرىء علينا كتاب عمر: إني قد بعثت إليكم عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وإنهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ، من أصحاب بدر، وقد جعلت عبد الله بن مسعود على بيت مالكم، فتعلّموا منهما، واقتدوا بهما، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسي[1]».

قال حارثة: «وبعث حذيفة على المدائن، ورزقهم جميعاً شاة: لعمار نصفها، ولابن مسعود ربع، ولحذيفة ربع»[2].

وفي رواية أخرى عن وكيع: «وقد جعلت ابن مسعود على

(١) (٢) طبقات ابن سعد: ٧/٦ ـ ٨.

بيت مالكم، وبعثت عثمان بن حُنَيف على السَّواد، ورزقتهم كل يوم شاة: فأجعل شطرها وبطنها لعمار بن ياسر، والشطر الباقي بين هؤلاء»(٣).

أما عطاء عبد الله السنوي فنتبينه من رواية أخرى عن القاسم بن عبد الرحمن قال: «كان عطاء عبد الله بن مسعود ستة آلاف»(٤).

تصرفه في بيت المال وأمانته الكبرى:

كان رضي الله عنه دقيقاً في أخذ المال وإدخاله إلى (صندوق وزارته)، بارعاً في ذلك، ذكياً في صرفه وإخراجه، يحرص على مضاعفة تلك الأموال في صالح المسلمين وضمن حدود الشرع وقيوده.

● روى البيهقي عن سعد بن إياس «عن عبد الله بن مسعود أن رجلاً من بني شمخ بن فزارة سأله عن رجل تزوج امرأة، فرأى أمها فأعجبته، فطلَّق امرأته؛ أيتزوج أمها؟ قال: لا بأس! فتزوجها الرجل. وكان عبد الله على بيت المال، وكان يبيع نفاية بيت المال، يعطي الكثير ويأخذ القليل. حتى قدم المدينة وسأل أصحاب محمد ﷺ، فقالوا: لا يحل لهذا الرجل هذه المرأة، ولا تصلح الفضة إلا وزناً بوزن. فلما قدم عبد الله انطلق إلى الرجل، فلم يجده ووجد قومه، فقال: إن الذي أفتيت به صاحبكم لا يحل، فقالوا: إنها قد نثرت له بطنها! قال: وإن كان!! وأتى الصيارفة فقال: **يا معشر الصيارفة، إن الذي كنت أبايعكم لا يحل، لا تحل الفضة بالفضة إلا وزناً بوزن**»(٥).

فهو رضي الله عنه حريص على تكثير مال المسلمين، ولكن في حلّ، راغب في زيادة مصارفه، إنما ضمن حدود الشرع؛ لذا عندما

(٣) طبقات ابن سعد: ٦/٧ ـ ٨.
(٤) المرجع السابق: ١٥٧/٣.
(٥) السنن الكبرى: ٢٨٢/٥.

وجد نفسه مخطئاً في ذلك التصرف أسرع إلى الحق وردّ الأمور إلى نصابها.

● وروى البيهقي أيضاً عن مسروق قال: «أتيت عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فقلتُ: إن رجلاً كان فينا نازلاً، فخرج إلى الجبل، فمات وترك ثلاثمائة درهم؟ فقال عبد الله: هل ترك وارثاً أو لأحدٍ منكم عليه عقد ولاء؟ قلت: لا، قال: ههنا ورثة كثير، فجعل ماله في بيت المال»(٦).

● وعن هزيل بن شرحبيل قال: «جاء رجل إلى عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ فقال: إني أعتقت غلاماً لي وجعلته سائبة، فمات وترك مالاً؟ فقال عبد الله: إن أهل الإسلام لا يسيّبون، إنّما كانت تسيّب أهل الجاهلية، وأنت وارثه وولي نعمته، فإن تحرّجت من شيء فأدِّناه نجعله في بيت المال»(٧).

● وكان إذا أعطى الناس عطاءاتهم وعظهم، وحذرهم فتنة المال، روى البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه «أنه كان يعطي الناس عطاءهم، فجاءه رجل فأعطاه ألف درهم، ثم قال: خذها فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما أهلك من كان قبلكم الدنيا والدرهم، وهما مهلكاكم)(٧).

ثانياً ـ مع الولاة

الذين ولوا الإمرة خلال وجوده هناك:

توالى على الكوفة من الولاة خلال قيام ابن مسعود على بيت

---

(٦) المرجع السابق: ٦/٢٤٣.

(٧) المرجع السابق: ١٠/٣٠٠، وقد أخرجه البخاري مختصراً برقم ٦٧٥٤. وقد سبق ذكر ذلك.

(٧) مكرر: الترغيب والترهيب: ٤/١٨٢. قال المنذري: رواه البزار بإسناد جيد.

مالها ستة من الولاة هم: عمار بن ياسر في عهد عمر، وقد ذهب وابن مسعود سوية كما سبق ذكر ذلك. ثم المغيرة بن شعبة في عهد عمر، وسنة من خلافة عثمان.

ثم سعد بن أبي وقاص الذي تولى إمرة الكوفة قبل مجيء عبد الله وعمار في عهد عمر، وقد عزله الأخير استجابة لطلب أهل الكوفة؛ وذلك وأداً للفتنة، من غير أن يريبه من شأن سعد شيء. ثم تولاها سعد ثانية في عهد عثمان، ووقع خلاف بينه وبين ابن مسعود، فعزل عثمان سعداً. والرابع هو الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط، حيث بقي عليها خمس سنوات، ثم عزله عثمان. وبعده سعيد بن العاص.

والأخير هو أبو موسى الأشعري، رضي الله عنهم جميعاً.

وقد كانت سيرة ابن مسعود مع الولاة حسنة حميدة، فكان وزير صدق لهم، ينصحهم، ويضيء لهم الطريق، ويجتاز معهم العقبات الكؤود، ويعرف لهم منزلتهم كرجال صحبوا النبي ﷺ، كما كانوا لا يجهلون منزلته عند رسول الله ﷺ، وهو أحد السابقين، وخادم النبي وصاحب نعليه، ثم هو بعد ذلك فقيه الكوفة ومعلِّمها بلا منازع.

ولكن ثَمَّة أمر يقع بين البشر، والصحابة لم تُنزع منهم بشريتهم، فلا بد أن يقع بينهم - ما داموا كذلك - ما قد يقع بين آحاد الناس من خلاف، ولكن الشيء الذي يجب التنبه إليه وعدم الغفلة عنه؛ أنهم ما كانوا يختلفون لدنيا ولا منصب، ولا مال أو شهوة نفس، إنما كان اختلافهم - حين يقع - للحق؛ لذا تراهم يضعون أمامهم شرعة الله التي قبلوها فيصلاً لهم، وقاضياً وحَكَماً في

مشكلاتهم، فإذا وضح الحق، واستبان الأمر، رجع كلهم إليه والتزم جانبه برضى وطمأنينة.

وفي ضوء هذه الكلمات ينبغي أن نسوق الأحداث ونفسر الوقائع التي حدثت بين عبد الله والولاة، ولا يكن للهوى نصيب في ذلك فنفسرها تفسيراً ذاتياً حسبما تشتهي النفس وكيفما ترغب!!

مع سعد بن أبي وقاص:

روى الطبري بسنده عن الشَّعْبي قال: «كان أول ما نُـزغ بين أهل الكوفة ـ هو أول مصر نزغ[٨] الشيطان بينهم في الإسلام ـ أن سعد بن أبي وقاص استقرض من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالاً، فأقرضه، فلما تقاضاه لم يتيّسر عليه، فارتفع بينهما الكلام حتى استعان عبد الله بأناس من الناس على استخراج المال، واستعان سعد بأناس من الناس على استنظاره، فافترقوا وبعضهم يلوم بعضاً، يلوم هؤلاء سعداً، ويلوم هؤلاء عبد الله»[٩].

ثم روى عن قيس بن أبي حازم قال: «كنت جالساً عند سعد، وعنده ابن أخيه هاشم بن عتبة، فأتى ابنُ مسعود سعداً، فقال له: أدِّ المال الذي قِبَلك، فقال سعد: ما أراك إلا ستلقى شراً! هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل؟! فقال: أجل والله، إني لابن مسعود، وإنك لابن حمينة، فقال هاشم: أجل والله، إنكما لصاحبا رسول الله ﷺ، يُنظَر إليكما!! فطرح سعد عوداً كان في يده ـ وكان رجلاً فيه حِدّة ـ ورفع يديه وقال: اللهم رب السموات والأرض، فقال عبد

---

(٨) نزغ الشيطان بينهم: أي أفسد.
(٩) تاريخ الطبري: ٢٥١/٤، أحداث سنة ٢٦.

الله: ويلك، قل خيراً ولا تلعن! فقال سعد عند ذلك: أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك! فولى عبد الله سريعاً حتى خرج»[10].

وبلغ خبرُ تثاورهما عثمانَ فغضب لذلك، وعزل سعداً، وهذا ما يرويه الطبري أيضاً، عن عبد الله بن عكيم قال: «لما وقع بين ابن مسعود وسعد الكلام في قرض أقرضه عبد الله إياه، فلم يتيسر على سعد قضاؤه، غضب عليهما عثمان، وانتزعها من سعد وعزله، وغضب على عبد الله وأقرَّه، واستعمل الوليد بن عقبة، وكان عاملاً لعمر على ربيعة بالجزيرة، فقدم الكوفة فلم يتخذ لداره باباً حتى خرج من الكوفة»[11].

والمتأمل لهذه النصوص يرى عظمة الصحابة الكرام رضي الله عنهم، فعبد الله قائم على بيت المال، ومسؤول أمام الله عن دريهماته قليلها وكثيرها، ونظراً لعِظَم المسؤولية حملته نفسه المؤمنة ألَّا يتقاعس عن أخذ الناس بالعزائم، حتى ولو كان الأمير. فهو عندما انتهى أجل الدَّين الذي أخذه سعد؛ مشى إليه بنفسه دونما واسطة، وطالبه بأن يؤدي الحق الذي عليه، وهذا من عبد الله عين الشرع، وفرض الواجب، وهو لم يطلب محالاً، وما سلك غير طريق الحق.

وأما سعد فقد كان ذا عسرة، فطلب الإنظار من وزير بيت المال، فأبى، مما دفع سعداً أن يلجأ إلى دعوته المستجابة ليدعو على ابن مسعود، فذكّره الأخير بالله، فرجع وأناب!

---

(١٠) تاريخ الطبري: ٢٥٢/٤، أحداث سنة ٢٦ هـ.

(١١) تاريخ الطبري: ٢٥٢/٤.

ولقائل أن يقول: ولماذا لم يأخذ عبد الله بنص الآية الكريمة: [وإن كان ذو عسرة فنظِرة إلى ميسرة]؟! فأقول: هذا إذا كان الدائن أعطى المدين من مال نفسه، أما إذا كان ذلك من مال الأمة فليس لذلك المفهوم دخل هنا.

والحق أن عظمة هذين الصحابيين تبرز ههنا في أن كل واحد منهما كان ملتزماً غرز الشرع، ولم يحد ذات اليمين أو ذات الشمال، فسعد لم يطلب من ابن مسعود أن يعفيه من ذلك الدَّين، أو أن «يمزق» العقد؛ مراعاة لشرف الوالي ومكانته!! كما أنه لم يلجأ إلى استعمال سلطته العليا في اختلاس المال أو الخلاص من ذلك الدَّين، وليس من الصعب على أمير أن يتخلص من واجب كهذا!! أما أولئك فلقد كانوا أمام مبدأ عريض هو: إن لم تؤدّ المال الآن فسوف يكون الوفاء يوم القيامة حسنات وسيئات، لا دنانير ودريهمات»!!

وابن مسعود رضي الله عنه لم تأخذه في الله لومة لائم، وما خشي السلطان، لأن الحق معه؛ فوقف رابط الجأش، يصرّ على أن يؤدي المال لأن الأجل قد حان، ولا مراعاة لأي إنسان، حتى ولو كان الوالي الأمير!!

وأين آحاد الناس اليوم الذين استرخصوا الذمم، وضيعوا الأمانات، في سبيل عَرَض زائل، ورضى عبد قليل الشأن مغمور الذكر؟!

وأما موقف أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، فكان مسدّداً فقد غضب عليهما جميعاً، وذلك استفظاعاً منه أن يقع هذا الأمر من صحابيين مثلهما، وعلى ملأ من الناس، وتحت سمع أهل الكوفة،

وفي الكوفة من فيها من مرضى النفوس الذين يصطادون في الماء العكر، وفيها من قد يبست نفوسهم وأرادت الاشتعال عندما تشم رائحة النار؛ لهذا عمد ـ ودونما تباطؤ ـ إلى وأد الفتنة فعزل سعداً، وكان له في هذا أسوة بعمر، فقد عزل سعداً «من غير عجز ولا خيانة».

ولقائل أن يقول: لماذا عزل سعداً ولم يعزل عبد الله؟! فلعل ذلك عائد إلى أنه كان بين سعد «وبين بعض أهل الكوفة في عهد عمر خصومة دعت إلى نزعه عنها، فلعل صدورهم لم تكن قد صفت له، وهذا مما يدعوهم إلى تحريك الفتنة نحوه كلما سنحت، وقد فتح لهم باب الخلاف بين الأميرين، فخبّوا فيها وأوضعوا، فكان من الحكمة السياسية تخليته عن الولاية على هؤلاء»(١٢). يضاف إلى ذلك مكانة عبد الله الرفيعة عند أهل الكوفة، وقد مضى عليه عندهم قرابة ست سنوات، ونزعه عنهم قد يؤجج نار الفتنة، ممّا يحدو ببعض الناس الذين يتمسكون ـ ظاهرياً ـ بحب عبد الله؛ فيتولون الدفاع عنه، فتضطرب الأمور، ويقع ما لا تحمد عقباه ـ فكان توفيق الله العظيم الذي حالف عثمان وعزل سعداً، وجاء بعده الوليد بن عقبة.

مع الوليد بن عقبة:

أرسل أمير المؤمنين عثمان إلى أهل الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط، وهو أخوه لأمه أروى بنت كُرَيز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس(١٣).

---

(١٢) «عثمان الخليفة المفترى عليه» للصادق عرجون رحمه الله، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(١٣) العواصم من القواصم: ص ٩٧ ـ ٩٨.

روى الطبري بسنده فقال: «لما بلغ عثمان الذي كان بين عبد الله وسعد فيما كان؛ غضب عليهما، وهمّ بهما، ثم ترك ذلك، وعزل سعداً وأخذ ما عليه، وأقرّ عبد الله وتقدم إليه، وأمَّر مكان سعد الوليد بن عقبة ـ وكان على عرب الجزيرة عاملاً لعمر بن الخطاب ـ فقدم الوليد في السنة الثانية من إمارة عثمان ـ وقد كان سعد عمل عليها سنة وبعض أخرى ـ **فقدم الكوفة وكان أحبّ الناس في الناس، وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين وليس على داره باب**»[١٤].

وأما عبد الله فقد بقي على هديه وسيرته، ما نكص ولا تراجع: رعاية للحقوق، وتعليماً للناس وقياماً على شؤون مال المسلمين، ونصيحة للولاة ومساعدة لهم على الحق، وله مع الوليد مواقف لا بد من ذكرها.

● روى الإمام أحمد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أبيه «أن الوليد بن عقبة أخّر الصلاة مرة، فقام عبد الله بن مسعود فثوَّب[١٥] بالصلاة، فصلَّى بالناس، فأرسل إليه الوليد: ما حملك على ما صنعت؟ أجاءك من أمير المؤمنين أمر فيما فعلت، أم ابتدعت؟! قال: لم يأتني أمر من أمير المؤمنين، ولم أبتدع؛ ولكن أبى الله عز وجل علينا ورسوله أن ننتظرك بصلاتنا وأنت في حاجتك»[١٦].

---

(١٤) تاريخ الطبري: ٢٥٢/٤، حوادث سنة (٢٦ هـ). ومعنى العبارة الأخيرة: أن دار الوليد ليس لها باب يغلق في وجه الناس، بل يدخلون عليه متى شاؤوا، وهذا من كمال سيرته الحسنة بين الناس رضي الله عنه.

(١٥) أي أقام الصلاة.

(١٦) المسند: رقم ٤٢٩٨، ورواه الهيثمي (٣٢٤/١) وعزاه إلى الطبراني في الكبير وقال: رجاله ثقات.

وفي سنن البيهقي بنحو هذه الرواية، وفيها زيادة ذات دلالة عميقة: «**فأرسل إليه الوليد: ما حملك على ما صنعت، أجاءك من أمير المؤمنين أمر فسمع وطاعة، أم ابتدعت الذي صنعت؟ قال: لم يأتنا من أمير المؤمنين أمر، ومعاذ الله أن أكون قد ابتدعت**»[17].

والناظر في هذا الخبر بإنصاف يرى دقة موقف هذين الصحابيين؛ فابن مسعود لم يرضَ أن يؤخر الصلاة عن وقتها، فأقامها وصلّى بالناس بدلاً من الأمير. والوليد قال: «**أجاءك من أمير المؤمنين أمر فسمع وطاعة**»، فهو واقف ضمن حدود الشرع، ملتزم بالسمع والطاعة لأميره، ولا يخرج عن طوره، ثم إنه من حقه - باعتباره أمير المصر - أن يسأل عبد الله عن سبب هذا الفعل، وناحية ثالثة تؤخذ من سياق الخبر وهي أنه ما أخر الصلاة هكذا لمحض التأخير مندفعاً وراء الدنيا، وهذا واضح من قول ابن مسعود «وأنت في حاجتك»، ومن يدرِ ما تلك الحاجة! فلعلها واحدة من شؤون المسلمين، وهب أنها من شؤونه الخاصة فتأخّر دونما قصد، أفينكر عليه ذلك، ولو أنها تكررت لكانت صيغة الخبر غير ما هي عليه؟!

● والموقف الثاني لابن مسعود مع الوليد هو قصة شرب الخمر: روى الطبري بسنده، قال «**جاء جندب ورهط معه إلى ابن مسعود فقالوا: الوليد يعتكف على الخمر! وأذاعوا ذلك حتى طُرح على ألسن الناس، فقال ابن مسعود: من استتر عنّا بشيء لم نتتبَّع عورته، ولم نهتك ستره، فأرسل إلى ابن مسعود فعاتبه في ذلك، وقال: أيُرضى من مثلك بأن يجيب قوماً موتورين بما أجبت عليّ؟!**

---

(١٧) السنن الكبرى: ٣/١٢٤.

فأيّ شيء أستتر به؟! إنما يقال هذا للمريب، فتلاحيا وافترقا على تغاضب، لم يكن بينهما أكثر من ذلك»[١٨].

وعبارة الوليد: «قوماً موتورين» توضحها رواية الطبري التالية: «فقدم[١٩] الكوفة وكان أحب الناس في الناس، وأرفقهم بهم، فكان كذلك خمس سنين، وليس على داره باب، ثم إن شباباً من شباب أهل الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي وكاثروه، فنذِر بهم، فخرج عليهم بالسيف، فلما رأى كثرتهم استصرخ، فقالوا له: اسكت، فإنما هي ضربة حتى نريحك من روعة هذه الليلة ـ وأبو شريح[٢٠] الخزاعي مشرف عليهم ـ فصاح بهم، وضربوه فقتلوه وأحاط الناس بهم، فأخذوهم وفيهم زهير بن جندب الأزدي، ومورِّع بن أبي مورِّع الأسدي، وشُبيل بن أبيّ الأزدي، في عدة. فشهد عليهم أبو شريح وابنه أنهم دخلوا عليه، فمنع بعضهم بعضاً من الناس، فقتله بعضهم، فكتب فيهم إلى عثمان، فكتب إليه في قتلهم، فقتلهم على باب القصر في الرحبة»[٢١].

وهذا الحادث الأخير أجج نار البغضاء في قلوب الآباء، فعزموا على النكاية بالوليد والمكر به، فدخل بيته ـ الذي ليس له باب ـ أبو زينب بن عوف وأبو مورّع وسرقا خاتمه «فطلبهما فلم يقدر عليهما، وكان وجههما إلى المدينة، فقدما على عثمان ومعهما نفر ممن يعرف عثمان، ممن قد عزل الوليد عن الأعمال، فقالوا له:

---

(١٨) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٤ ـ ٢٧٥، حوادث سنة ٣٠ هـ.
(١٩) يريد الوليد بن عقبة.
(٢٠) صحابي.
(٢١) تاريخ الطبري: ٤/٢٧١ ـ ٢٧٢.

فقال: من يشهد؟ قالوا: أبو زينب وأبو مورِّع، وكاعَ[22] الآخران، **فقال: كيف رأيتما قالا: كنا من غاشيته، فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر!! فقال: ما يقي الخمر إلا شاربها**، فبعث إليه، فلما دخل على عثمان رآهما، فقال متمثلاً:

ما إنْ خَشيتُ على أمر خَلَوْتُ به فلم أَخَفْكَ على أمثالها حارِ

فحلف له الوليد وأخبره خبرهم، فقال: نقيم **الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار، فاصبر يا أخي»[23]!!**

وذكر ابن الأثير عن عبد الله بن شوذب قال: «صلَّى الوليد بن عقبة بأهل الكوفة صلاة الصبح أربع ركعات، ثم التفت إليهم فقال: أزيدكم؟ فقال عبد الله بن مسعود: ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم»[24]!!

وعند مسلم في صحيحه: «حدثنا حضين بن المنذر أبو ساسان قال: شهدت عثمان بن عفان وأُتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال: أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان: أحدهما حُمْران أنه شرب الخمر، وشهد آخر أنه رآه يتقيأ! فقال عثمان: إنه لم يتقيأ حتى شربها! فقال: يا علي، قم فاجلد....»[25].

والمتأمل الأريب لهذه الروايات يشك بصحة وقوع الوليد في حمأة هذه القبيحة، والذي يقوِّي شكنا وعدم قبولنا أنه قارف الخمر النقاط التالية:

---

(22) أي جبنا.
(23) تاريخ الطبري: ٤/٢٧٦.
(24) أسد الغابة: ٥/٤٥٢.
(25) صحيح مسلم: رقم ١٧٠٧.

١ - إن وجود ابن مسعود في هذا الموقف، ووقـوعه على مشهد منه، كان من البدهي أن يبادر - وبسرعة - إلى رفعه لعثمان بنفسه ولم يترك الأمر لهؤلاء ذوي النفوس المغرضة؛ بل لَركب إلى المدينة وشخص إليها وأشهد الصحب الكرام الذين كانوا يصلون معه وراء الوليد إن صح ذلك[٢٦]!!

وهل يعقل من ابن مسعود الذي أنكر على الوليد تأخير الصلاة فقط، ولم ينتظره بل ثوّب بالصلاة وأمّ الناس؛ أقول: هل يعقل منه أن يرد عليه بتلك الكلمات الباردة الناعمة: «ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم»؟! ولعمر الحق لو أن ذلك وقع لحمل عبد الله جميع الناس ألا يصلوا وراء الوليد، أو لترك الكوفة له وذهب إلى غير رجعة!!

زد على ذلك أن أحد رجال السند «في رواية أسد الغابة» وهو ضمرة بن ربيعة قال فيه الحافظ ابن حجر: «صدوق، يهم قليلاً»[٢٧]؛ فلعل هذا الخبر الذي رواه من ذلك القليل!

٢ - والمتأمل في الروايات يجد أن الناس جاؤوا ابن مسعود، فذكروا له ما وقع من الوليد، فقال: «من استتر عنا بشيء لم نتتبع عورته»، وقد لامه الوليد في ذلك، وفي رواية أن عبد الله نفسه قد شهد صلاة الصبح وراء الوليد فصلّاها أربعاً وهو مخمور، وفي رواية مسلم أنه صلاها اثنتين ثم قال: أزيدكم، وليس فيها كلام عبد الله وهو يجيب الوليد، **فأي هذه الروايات هو الصحيح والواقع؟! وأيُّها يدل على وقوع هذا الأمر، وإن تناقضها ليسمح لنا بالقول، إن هذا**

---

(٢٦) انظر ابن مسعود للراجحي. ص ٣٣، عثمان الخليفة المفترى عليه: ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٢٧) تقريب التهذيب: ١/ ٣٧٤.

أمر قضي بليل مكراً بالوليد، فأقام عثمان الحد عليه لتوفر الشهود ليس إلا.

٣ ـ وإن وجود أولئك الشانئين للوليد يفصح عن ذلك الأمر المحبوك، فالوليد قد قتل أولادهم قصاصاً لذاك الذي تسوَّروا عليه بيته وقتلوه، فقام آباؤهم ـ كأبي مورّع وجندب ـ ففجأوا الوليد في بيته ذات ليلة واتهموه أنه يعاقر الخمر[٢٨]. وبعض هؤلاء هم أنفسهم دخلوا على الوليد مرة ثانية على غرة وأخذوا خاتمه، وذهبوا إلى المدينة فشهدوا عليه بشربها. **وعبارة الصحيح تدل على تشكك عثمان بشهادتهم عندما شخص إليه الوليد، فقد قال**: «**نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار**، فاصبر يا أخي»!! فقد طلب منه الصبر، وهو ملزَم بإقامة حدود الله كي لا يكون لأي أحد ذريعة وتهاون فيه.

٤ ـ وثمة ناحية رابعة لا تقل أهمية عن سابقاتها، وهي: **هل يعقل من أمير ليس له باب مغلق، وداره تفتح على المسجد، أن يشرب الخمر ويفضح أمره بين الناس هكذا؟ أم تراه يحتاط لنفسه فيغلق بابه ليكف الأعين عنه؟! ثم هل بلغ به الاستهتار أن يقارفها قبيل الصلاة حتى يُفتضح على ملأ من الناس؟!** ووالله إن هذا لأمر يستبعد وقوعه من آحاد الناس، فما ظنك بأمير مصر الكوفة، ومَنْ استعمله عمر بن الخطاب الذي ما أخطأت فراسته في عماله؟!

٥ ـ وناحية أخيرة جاءت في رواية مسلم، وهي أن **الحضين بن المنذر راوي الخبر لم يكن في الكوفة عند وقوع الحادث المزعوم، وليس هو من الشهود في شيء**[٢٩]، والكلام

---

(٢٨) انظر بالتفصيل: تاريخ الطبري: ٤/٢٧٣ ـ ٢٧٤.

(٢٩) انظر بالتفصيل: العواصم من القواصم هامش (١) ص ٩٤ ـ ٩٩.

الذي في الصحيح «شهدت عثمان بن عفان وأتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين، ثم قال: أزيدكم»؛ هو من كلامه حيث ينقل المشهد الذي دار بين عثمان والوليد. ولا يدري عن صدق الشهود شيئاً. فهذه الرواية تدل على صحة إقامة الحد، لا على صحة وقوع تلك الجريمة من الوليد.

كل ذلك مما يسمح لنا بالقول ببراءة الوليد من هذه الجريمة، والله تعالى أعلم.

ثالثاً ـ مواقف أخرى

١ ـ قتل ابن النوَّاحة:

جرت السُّنَّة ألا يُقتل رسول القوم الكفرة إذا جاؤوا إلى المسلمين ليعلموا أمرهم ودعوتهم، وقد جاء إلى رسول الله ﷺ ـ من جملة الوفود ـ رسولا مسيلمة الكذاب، فقد روى أبو داود الطيالسي عن ابن مسعود قال: «جاء ابن النواحة وابن أثال[٣٠] رسولين لمسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ، فقال لهما: (أتشهدان أني رسول الله)؟ فقالوا: نشهد أن مسيلمة رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: (آمنت بالله ورسله، ولو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما)، قال عبد الله بن مسعود: فمضت السُّنَّة بأن الرسل لا تقتل. قال عبد الله: فأما ابن أثال فقد كفاه الله، وأما ابن النواحة فلم يزل في نفسي منه، حتى أمكن الله منه»[٣١].

---

(٣٠) هما: عبد الله بن النواحة، وثمامة بن أثال. وثمامة أسلمَ رضي الله عنه، وانظر ترجمته في أسد الغابة: ١/ ٢٩٤.

(٣١) البداية والنهاية: ٥/ ٥٢، وتفسير ابن كثير: ٤/ ٥٦، ورواه أحمد في المسند: رقم ٣٧٠٨، والهيثمي (٥/ ٣١٤) وعزاه إلى البزار وأبي يعلى وقال: إسنادهم حسن.

وبقي ذلك المشهد شاخطاً في نفس ابن مسعود، وتمنى مجيء تلك الساعة التي يطوّح فيها برأس ابن النواحة الذي تابع مسيلمة على فتنته، وكان ذلك اليوم في الكوفة، روى البيهقي عن قيس بن أبي حازم قال: «**جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني مررت ببعض مساجد بني حنيفة وهم يقرؤون: قراءة ما أنزلها الله على محمد ﷺ: والطاحنات طحناً، والعاجنات عجناً، والخابزات خَبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً!! قال: فأرسل إليهم عبد الله، فأُتي بهم وهم سبعون رجلاً ورأسهم عبد الله بن النواحة**، قال: فأمر به عبد الله فقُتل؟ ثم قال: ما كنا بمحرزين الشيطان من هؤلاء، ولكن نحوزهم إلى الشام لعل الله أن يكفيناهم»[٣٢].

ويوضح لنا البيهقي **ما** جرى خلال ذلك في رواية أخرى عن حارثة بن مضرّب. قال: «صليت الغداة مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فلما سلّم قام رجل فأخبره أنه انتهى إلى مسجد بني حنيفة - مسجد عبد الله بن النواحة - فسمع مؤذنهم يشهد أن لا إلّه إلا الله وأن مسيلمة الكذاب رسول الله، وأنه سمع أهل المسجد على ذلك، فقال عبد الله: من ههنا؟ فوثب نفر، فقال: عليَّ بابن النواحة وأصحابه، فجيء بهم وأنا جالس. **فقال عبد الله بن مسعود لعبد الله بن النواحة: أين ما كنت تقرأ من القرآن؟ قال: كنت أتقيكم به! قال: فتبْ، فأبى، قال: فأمر قرظة بن كعب الأنصاري فأخرجه إلى السوق فضرب رأسه**. قال: فسمعت عبد الله يقول: من سرّه أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلاً في السوق، فليخرج فلينظر إليه. قال: حارثة: فكنت فيمن خرج، فإذا هو قد برد، ثم إن ابن مسعود استشار الناس في أولئك النفر، فأشار إليه عدي بن حاتم بقتلهم،

---

(٣٢) البداية والنهاية: ٥/٥٢.

فقام جرير والأشعث فقالا: لا، بل استتبهم وكفّلهم عشائرهم، فاستتابهم فتابوا فكفّلهم عشائرهم»[٣٣].

٢ ـ قتل الساحر:

كان من دأب عبد الله التحرِّي في الفتوى وتمحيص الحقائق، وقد روى لنا الطبري قصة لطيفة وقعت مع الوليد بن عقبة واشترك في حلّها ابن مسعود، قال: «وأُتيْ الوليد بساحر، فأرسل إلى ابن مسعود يسأله عن حدّه، فقال: وما يدريك أنه ساحر؟! قال: زعم هؤلاء النفر ـ لنفر جاؤوا به ـ أنه ساحر، قال: وما يدريكم أنه ساحر؟ قالوا: يزعم ذاك!! قال: **أساحر أنت؟ قال: نعم، قال: وتدري ما السحر؟ قال: نعم، وثار إلى حمار، فجعل يركبه من قِبل ذَنَبه، ويريهم أنه يخرج من فمه وإسته**[٣٤]**!! فقال ابن مسعود: فاقتله**»[٣٥].

* * *

(٣٣) السنن الكبرى، ٢٠٦/٨، ٢١١/٩، المسند رقم ٣٦٤٢ بنحوه، ورواه أبو داود والحاكم مطولاً، وجامع الأصول: ٤٨٥/٣ وفيه زيادة: «فأمر قرظة بن كعب ـ وكان أميراً على الكوفة فضرب عنقه في السوق» قال الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن.

(٣٤) الإسْت: العُجز، وقد يراد به حلقة الدبر.

(٣٥) تاريخ الطبري: ٢٧٥/٤.

الفصل الثاني عشر

مع الخليفة عثمان بن عفان
رضي الله عنه

- تمهيد.
- مبايعة ابن مسعود لعثمان بن عفان رضي الله عنهما.
- تودّد عثمان لابن مسعود ورغبته بتزويجه بكراً.
- مع عثمان في مناسك الحج.
- عزل ابن مسعود ومقدمه إلى المدينة.
- ما سجلته بعض كتب التاريخ من مهاترات بين عثمان وابن مسعود.

مَع الخليفةِ عُثمان بن عَفّان
رضي الله عنه

تمهيد:

يحلو لكثير من الدارسين للتاريخ ان يلتزموا في بحوثهم التاريخية «المذهب الذاتي» الذي شاد صرحه فرويد، ثم تابعه خلق كثير، ولم يكن حظ أمتنا الاسلامية المبتلاة برجال يحسبون عليها قليلاً من هذا الصنف!! وأصبحت أحداث التاريخ عند هؤلاء كالقدر الكبيرة التي تتبخر فيها أحداث الماضي ووقائعه، فتخرج أطيافاً يستطيع الكاتب (أو المخرج) أن يلوّنها في عيون الناس كيف شاء، بعيداً عن معرفة البواعث الكامنة وراءها والبيئة التي جرت عليها وطبيعة الأشخاص الذين وقعت منهم[١].

وهكذا أصبح التاريخ «مادة خام» يستطيع المؤرخون والدارسون تصنيعها حسبما يريدون، وغدا رجالات الاسلام ـ بله التاريخ كله ـ يتمتعون بنفسيات مختلفة، وأغراض متناقضة، ووجهات نظر متصارعة؛ وما ذلك إلا ليرضى مؤرخو العصر الحالي ذوو المذاهب المفترقة والآراء المتناحرة، ولكي يجد كل واحد منهم في أولئك الرجال بغيته ولا يفتقد طلبته، ويصبحوا أبطالاً

---

(١) انظر؛ هذ الافتراءات على التاريخ الاسلامي، د. سعيد رمضان البوطي ـ العربي ـ العدد ٢٥٤.

«لمسرحيتهم» يتصرفون بهم ويتكلمون على ألسنتهم، فيخرج مذهب كل منهم مدعوماً بالأدلة التاريخية، مشخصاً بكبار رجالات التاريخ!!.

من ذلك أن أجروا «المذهب الاقتصادي» على دعوة رسول الله ﷺ، وقالوا: إنها ثورة الفقراء على الأغنياء، والعبيد على السادة، وأنها كانت وليدة ظروف تمخضت عنها حاجة ملحّة في بيئة استشرى فيها الفساد.

وفسروا هجرة الصحابة بسبب ضيق ذات اليد، وقساوة البيئة، والسعي وراء العيش الهنيء والحياة الهادئة، وألصقوا بأبي ذر أنه قائد «اليسار الاسلامي» ضد تركز الأموال في أيدي «الرأسماليين»!!.

ولم يسلم ابن مسعود من أن يستغل المغرضون شخصيته، فلهثوا وراء نصوص نقلها مؤرخون ليسوا محل الثقة، فنفخوا فيها فأصبحت (كالطبل) إذا ما ضربت عليه بيدك سمعت عجيجاً وضجيجاً، والحقيقة خلاف ما كتبوا وغير ما صوّروا!!.

اغتنموا شخصية عبد الله ليلقوا باللائمة على عثمان الخليفة الراشد المظلوم، وما ذلك إلا لأن عثمان كان رجلاً هيناً ليّناً، سهل العريكة دمث الأخلاق، يعطي الناس أكثر ممَّا لهم، ويتنازل عن كثير من حقوقه الشخصية كي يقضي على نائرة الفتنة ويستأصل شأفة الشر؛ وأكبر دليل على ذلك تضحيته بدمه وعدم رضاه بأن يدافع عنه الصحابة يوم حُصر في بيته.

إذاً فَلْنُلْقِ نظرة سريعة على الأحداث، ولنمشِ على بصيرة على ضوء من نور الحق والإنصاف، ونسمع الذي جرى بين صحابيين كبيرين هما عثمان وابن مسعود، لنتبين وجه الحق،

ولتستقر في أنفسنا الصورة الصحيحة عن خير جيل عرفته البشرية.

مبايعة ابن مسعود لعثمان بن عفان رضي الله عنهما:

روى ابن سعد عن أبي وائل «**أن عبد الله بن مسعود سار من المدينة إلى الكوفة ثمانياً حين استُخلفِ عثمان بن عفان، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مات ـ فلم نرَ يوماً أكثر نشيجاً من يومئذٍ ـ وإنا اجتمعنا أصحابَ محمد، فلم نألُ عن خيرنا ذي فُوقٍ، فبايعنا أمير المؤمنين عثمان، فبايِعوه**»[٢].

وعن النزّال بن سبرة قال: «**شهدت عبد الله بن مسعود في هذا المسجد ما خطب خطبة إلا قال: أمّرنا خير من بقي ولم نألُ**»[٣].

وعن عبد الله بن سنان الأسدي قال: «قال عبد الله حين استخلف عثمان: ما ألونا عن أعلى ذي فُوق»[٤].

وهذه الكلمات الواضحات أكبر دليل على تلك المكانة الرفيعة التي كان يقتعدها عثمان في قلب ابن مسعود، وعند جميع الصحابة، أولئك الذين مدحهم الله تعالى ورضي عنهم، وهم خير من فقِه قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً﴾؛ فقول عبد الله صدق لا يعدو الحقيقة، كما أنه نابع عن قناعته وصادر عن محض إرادته؛ ما قاله خوفاً ولا خشية، ولم يقذف

---

(٢) طبقات ابن سعد: ٦٣/٣، ومعنى لم نألُ: لم نقصّر. ذو فُوق: الفوق مستعار من فُوق السهم وهو موضع الوتر منه، أراد: ولينا خيرنا وأكملنا، تاماً في الاسلام والسابقة والفضل.

(٣) طبقات ابن سعد: ٦٣/٣.

(٤) المرجع السابق: ٦٢/٣ ـ ٦٣.

به هكذا رخيصاً للاستهلاك والتغرير، أو ليحوز مكانة ومنصباً في الخلافة الجديدة!!.

وإذاً فمن بدهيات الأمور وأولياتها أن ليس ثمة حقد أو بغضاء في قلب أحدهما على الآخر، وإذا حدث شيء فإنما هو من أجل الحق وصالح المسلمين.

تودّد عثمان لابن سعود ورغبته بتزويجه بكراً:

عن علقمة بن قيس قال: «كنت مع عبد الله، فلقيه عثمان بمِنىً، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إن لي إليك حاجة، فخليا، فقال عثمان: هل لك يا أبا عبد الرحمن في أن نزوّجك بكراً تذكرك ما كنت تعهد[٥]؟ فلما رأى عبد الله أن ليس له حاجة إلى هذا أشار إليّ فقال: يا علقمة، فانتهيت إليه وهو يقول: أما لئن قلت ذلك، لقد قال لنا رسول الله ﷺ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة[٦] فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجاء[٧])[٨]».

وفي هذا دليل واضح على تلك المودة التي عقدها الله بين تلك القلوب، وفيه اهتمام الخليفة بابن مسعود وحبه له، ورغبته في

---

(٥) في رواية مسلم وأحمد: «لعلها أن تذكرك ما مضى من زمانك»، وعند ابن حبان: «لعلها أن تذكرك ما فاتك».
(٦) هي الجماع عليٍ قول، والقول الثاني: هي مؤ ن النكاح.
(٧) الوجاء: هو رضّ الخصيتين، والمراد هنا: أن الصوم يقطع الشهوة ويقطع شر المني كما يفعل الوجاء.
(٨) البخاري، الفتح: رقم ٥٠٦٥ واللفظ له، ومسلم: رقم ١٤٠٠، وأبو داود والترمذي والنسائي، والمسند: رقم ٣٥٩٢. وانظر جامع الأصول: ١١/٤٢٦.

أن يدخِل السرور عليه بتزويجه البكر، فتنجب له الـولد وتفـرحه وتعتني به وتعينه على شؤون الدنيا والآخرة، وذلك ما لا تستطيعه الثيِّب أو المرأة الكهلة.

ثم انظر إلى ما نادى به عثمان عبد الله، قال له: «يا أبا عبد الرحمن»، وفي هذا أدب جمّ وإكبار واحترام من أميـر المؤمنين لعامله على الكوفة الذي يعرف له قدره ومكانته من رسول الله ﷺ.

مع عثمان في مناسك الحج:

١ ـ الصلاة بمنى أربعاً:

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «صلّى بنا عثمان بن عفان بمنى أربع ركعات، فقيل ذلك لعبد الله بن مسعود فاسترجع [٩]، ثم قال: صليت مع رسول الله ﷺ بمنىً ركعتين؛ وصليت مع أبي بكر رضي الله عنه بمنى ركعتين، وصليت مع عمر رضي الله عنه بمنى ركعتين، فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبَّلتان»[١٠].

فابن مسعود رضي الله عنه كان يرغب بالتزام سنة رسول الله ﷺ والشيخين من بعده في قصر الصلاة بمنىً بصورة دائمة، ولكنه لم يكن يرى أن ذلك فرض، قال الحافظ ابن حجر: « قوله: «فليت حظي من أربع ركعات ركعتان متقبَّلتان»، يدل على أنه كان يرى الإتمام جائزاً، وإلا لما كان له حظ من الأربع ولا من غيرها، فإنها كانت تكون فاسدة كلها، وإنما استرجع ابن مسعود لما وقع عنـده من مخالفة الأَوْلَى، ويؤيده ما روى أبو داود «**أن ابن مسعود صلّى أربعاً،**

---

(٩) قال: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(١٠) البخاري، الفتح؛ رقم ١٠٨٤ واللفظ لـه، ومسلم؛ رقم ٦٩٥، وأبـو داود والنسائي، والمسند: رقم ٣٥٩٣، وانظر جامع الأصول: ٥/٧٠٤.

فقيل له: عتبتَ على عثمان ثم صليت أربعاً؟! فقال: الخلاف شر»، وفي رواية البيهقي: «إني لأكره الخلاف»، ولأحمد من حديث أبي ذر مثل الأول. وهذا يدل على أنه لم يكن يعتقد أن القصر واجب كما قال الحنفية ووافقهم القاضي اسماعيل من المالكية، وهي رواية عن مالك وعن أحمد. قال ابن قدامة: المشهور عن أحمد أنه على الاختيار، والقصر عنده أفضل، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين. واحتج الشافعي على عدم الوجوب بأن المسافر إذا دخل في صلاة المقيم صلى أربعاً باتفاقهم، ولو كان فرضه القصر لم يأتم مسافر بمقيم»[11]. ثم قال: «ونقل الداودي عن ابن مسعود أنه كان يرى القصر فرضاً، وفيه نظر لما ذكرته، ولو كان كذلك لما تعّمد ترك الفرض، حيث صلى أربعاً وقال: إن الخلاف شر»[12].

وما ذكر الحافظ ظاهر واضح يؤيده ما رواه البيهقي عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**كنا مع عبد الله بن مسعود بجمع، فلما دخل مسجد منىً فقال: كم صلَّى أمير المؤمنين؟ قالوا: أربعاً، فصلى أربعاً! قال: فقلنا: ألم تحدثنا أن النبي ﷺ صلى ركعتين وأبا بكر صلى ركعتين؟ فقال: بلى، وأنا أحدثكموه الآن، ولكن عثمان كان إماماً، فما أخالفه، والخلاف شر**»[13].

فكل عبارة من هذه الرواية تنص على أن ابن مسعود يرى جواز الإتمام وعدم وجوب القصر.

وتتضح عبقرية عبد الله في هذا الموقف بأنه لم يرض بمخالفة اجتهاد عثمان، بل إنه صلَّى مثله لأنه «كان إماماً»، وذلك خشية

(١١، ١٢) الفتح؛ شرح الحديث رقم: ١٠٨٤، والنووي شرح مسلم: ٢/٣٤٥-٣٤٦.

(١٣) السنن الكبرى: ١٤٤/٣.

وقوع الفتنة وأن يستيقظ أهلها ويفصحوا عن صمتهم المتربِّص.

بل انتقل إلى مرحلة أعلى، وخفف من عنفوان بعض الصحابة الذين انفعلوا للموقف، ووضَّح لهم وجه الحق في الأمر، وحمل بأنظارهم لرؤية ما وراء الأكمة، فقد روى الطبري قال: **فخرج عبد الرحمن**(١٤) **فلقي ابن مسعود، فقال: أبا محمد غير ما يُعلم؟! قال: لا! قال: فما أصنع؟ قال: اعمل أنت بما تعلم! فقال ابن مسعود: الخلاف شر، وقد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي أربعاً، فقال عبد الرحمن بن عوف: قد بلغني أنه صلى أربعاً فصليت بأصحابي ركعتين، وأما الآن فسوف يكون الذي تقول ـ يعني نصلي معه أربعاً»**(١٥).

أما عثمان رضي الله عنه فلم يبتدع في ذلك، وما خالف سنة المصطفى ﷺ ولا هَدْي الشيخين من قبله، روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: «صلَّيت مع النبي ﷺ بمنىً ركعتين وأبي بكر وعمر. ومع عثمان صدراً من إمارته، ثم أتمها»(١٦).

ولقد كان لعثمان العذرُ في إتمامه، قال الحافظ ابن حجر: «والمنقول ان سبب إتمام عثمان أنه كان يرى القصر مختصاً بمن كان شاخصاً سائراً، وأمَّا من أقام في مكان في أثناء سفره فله حكم المقيم فيتم، والحجة فيه ما رواه أحمد ـ بإسناد حسن ـ عن عبّاد بن عبد الله بن الزبير قال: «لمَّا قدم علينا معاوية حاجاً صلى بنا الظهر ركعتين بمكة، ثم انصرف إلى دار النَّدْوة، فدخل عليه مروان وعمرو

(١٤) هو الصحابي المبشر بالجنة عبد الرحمن بن عوف، يكنى أبا محمد.
(١٥) تاريخ الطبري: ٢٦٨/٤، أحداث (سنة ٢٩ هـ)، وانظر: العواصم من القواصم: هامش ص ٨٩ ـ ٩٠، عثمان الخليفة المفترى عليه ص ١٨٣.
(١٦) البخاري، الفتح: رقم ١٠٨٢ واللفظ له، مسلم: رقم ٦٩٤.

ابن عثمان فقالا: لقد عبت أمر ابن عمك، لأنه كان قد أتم الصلاة، قال: وكان عثمان حيث أتم الصلاة إذا قدم مكة صلى بها الظهر والعصر والعشاء أربعاً أربعاً، ثم إذا خرج إلى منى وعرفة قصر الصلاة، فإذا فرغ من الحج وأقام بمنى أتم الصلاة». وقال ابن بطال: الوجه الصحيح في ذلك أن عثمان وعائشة كانا يريان ان النبي ﷺ إنما قصر لأنه أخذ بالأيسر من ذلك على أمته، فأخذا لأنفسهما بالشدَّة إ. هـ. وهذا رجحه جماعة من آخرهم القرطبي، لكن الوجه الذي قبله أولى لتصريح الراوي بالسبب. وأما ما رواه عبد الرزاق عن مَعْمر عن الزهري ـ أن عثمان إنما أتم الصلاة لأنه نوى الإقامة بعد الحج، فهو مرسل، وفيه نظر لأن الإقامة بمكة على المهاجرين حرام»[17].

ثم قال الحافظ: «ومع هذا النظر في رواية معمر عن الزهري فقد روى أيوب عن الزهري ما يخالفه. فروى الطحاوي وغيره من هذا الوجه عن الزهري قال: إنما صلَّى عثمان بمنىً أربعاً لأن الأعراب كانوا كثروا في ذلك العام فأحب أن يعلمهم أن الصلاة أربع. وروى البيهقي من طريق عبد الرحمن بن حميد بن عبد الرحمن بن عوف عن أبيه عن عثمان أنه أتم بمنى ثم خطب فقال: إن القصر سنة رسول الله ﷺ وصاحبيه، ولكنه حدث طَغَام ـ بفتح الطاء والمعجمة ـ فخفتُ أن يستنّوا. وعن ابن جريج أن أعرابياً ناداه في منى: يا أمير المؤمنين ما زلت أصليها منذ رأيتك عام أول ركعتين! وهذه طرق يقوي بعضها بعضاً، ولا مانع أن يكون هذا أصل سبب الإتمام، وليس بمعارض للوجه الذي اخترته بل يقويه من

---

(١٧) الفتح: شرح الحديث رقم ١٠٩٠.

حيث أن حالة الإقامة في اثناء السفر اقرب إلى قياس الإقامة المطلقة عليها، بخلاف السائر، وهذا ما أدى إليه اجتهاد عثمان»[18].

وحاصل الأمر أن عثمان لم يخالف السُّنَّة، وما ترك هدي النبي عليه الصلاة والسلام، بل اجتهد في هذا الامر لدواعٍ هو أعلم بها، وأشياء خشي وقوعها. وفي موقف عبد الله منه أكبر دليل على التعاضد بينهما، وأن لا تباغض ولا شحناء، ولو كان من ذلك شيء لخالف ابن مسعود اجتهاد عثمان وأيد مخالفيه، ولكن الذي حدث أن تابعه، بل وأمر مخالفيه أن يتابعوه.

٢ ـ الدفع من عرفات والإفاضة من المشعر الحرام:

روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «حججنا مع ابن مسعود في خلافة عثمان، قال؛ فلما وقفنا بعرفة، قال: فلما غابت الشمس قال ابن مسعود: لو أن أمير المؤمنين أفاض الآن كان قد أصاب، قال[19]: فلا أدري كلمة ابن مسعود كانت أسرع أو إفاضة عثمان، قال : فأوضع الناس ولم يزدْ ابن مسعود على العَنَق[20].

وروى البخاري عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «خرجنا مع عبد الله رضي الله عنه إلى مكة، ثم قدمنا جَمْعاً فصلى الصلاتين كل صلاة وحدها بأذان وإقامة، والعشاء بينهما، ثم طلع الفجر حين طلع الفجر ـ قائل يقول: طلع الفجر، وقائل يقول: لم يطلع

---

(١٨) الفتح: شرح الحديث رقم ١٠٩٠.

(١٩) قال ابن حجر: قوله «فما أدري» هو كلام عبد الرحمن بن يزيد الراوي عن ابن مسعود، وأخطأ من قال: إنه كلام ابن مسعود.

(٢٠) المسند: رقم ٣٨٩٣.

الفجر ـ ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: إن هاتين الصلاتين حُوِّلتا عن وقتهما في هذا المكان: المغرب والعشاء، فلا يقدَمُ الناس جَمْعاً حتى يعتموا، وصلاة الفجر هذه الساعة، ثم وقف حتى سفر، ثم قال: لو أن أمير المؤمنين أفاض الآن أصاب السنة، فما أدري أقوله كان أسرع أم دفع عثمان ـ رضي الله عنه ـ فلم يزل يلبِّي حتى رمى جمرة العقبة يوم النحر»(٢١).

قال ابن حجر: «المراد أن السنة الدفع من المشعر الحرام عند الإسفار قبل طلوع الشمس، خلافاً لما كان عليه أهل الجاهلية»(٢٢).

ومراد ابن مسعود من كلامه أن يعلّم الناس سنة رسول الله من جهة، ويظهر لهم التزام الخليفة بها وعلمه بتفاصيلها من جهة ثانية، إذ أن عبد الله يعلم أن عثمان لا يفعل إلا الذي أخذه عن رسول الله وحفظه عنه، وليس يخفى على مثله هذه الأمور، وبهذا يكبر الخليفة في أعين الناس، ويزيد من حبهم له وطاعتهم إياه، وما كان عبد الله بالذي تفوته مثل هذه المواقف فيذكر الناس بها ويلفتهم إلى مكانة عثمان في نفسه هو، رضي الله عنهم جميعاً.

عزل ابن مسعود ومقدمه إلى المدينة:

كان ابن مسعود رضي الله عنه حريصاً على وحدة الصف، نزّاعاً إلى التئام الشمل ووحدة الكلمة، لذا حذّر كثيراً من الخلاف وبذر بذور الشر، وقد مر بنا ما يدل على هذه الناحية، وهذه أمثلة

(٢١) البخاري، الفتح: رقم ١٦٨٣.

(٢٢) في البخاري، الفتح: رقم ١٦٨٤: عن عمرو بن ميمون قال: «شهدت عمر رضي الله عنه صلى بجمع الصبح، ثم وقف فقال: إن المشركين لا يفيضون حتى تطلع الشمس، ويقولون: أشرق ثبير، وإن النبي ﷺ خالفهم ثم أفاض قبل أن تطلع الشمس».

أخرى تؤصل هذه الخصلة الحميدة عنده، فقد روى الطبراني عنه أنه قال: «**يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة، فإن** الله عز وجل لم يخلق شيئاً إلا خلق له نهاية ينتهي إليها، وإن الاسلام قد أقبل له ثبات، وإنه يوشك أن يبلغ نهايته، ثم يزيد وينقص إلى يوم القيامة، وآية ذلك الفاقة، وتفطُع حتى لا يجد الفقير من يعود عليه، وحتى يرى الغني أنه لا يكفيه ما عنده»(٢٣).

وقد رأى عثمان أن يعفي عبد الله من ولاية أمر بيت مال الكوفة «لا عن عجز ولا خيانة». ويسعه في هذا ما وسع عمر بن الخطاب الذي عزل سعداً وغيره ـ وإنما لتنشيط أمور الدولة، وتدريب ذوي الطاقات والمواهب الكافية، ثم لعل عثمان قد تأكد له من جملة أحداث وقعت في الكوفة، أن أهلها قد يستغلون شخصية ابن مسعود فيما وقع بينه وبين بعض الولاة، فيؤججون نار الشر، ويثيرون الفوضى في المجتمع المسلم! مما حدا به أن يجيء بعبد الله إليه ويساكنه في المدينة المنورة.

وحدث أن عثمان استدعى عبد الله، وما كان الأخير بالذي يرغب في منصب ولا مال، ولا يهوى تأليب الناس على أمير المؤمنين، تجد ذلك في كلماته السابقات، ويتجلَّى ذلك بصورة أوضح وبعبقرية أعظم ساعة الذهاب من الكوفة إلى غير رجعة، فقد روى الأعمش عن زيد بن وهب قال: «**لما بعث عثمان إلى ابن مسعود يأمره بالمجيء إلى المدينة، اجتمع إليه الناس فقالوا: أقم فلا تخرج ونحن نمنعك أن**

---

(٢٣) حياة الصحابة: ٢/٩٦ ـ ٩٧، ورواه الهيثمي (٧ /٣٢٨) وقال: رواه الطبراني بأسانيد، وفيه مجالد وقد وثّق، وفيه خلاف، وبقية رجال إحدى الطرق ثقات.

يصل إليك شيء تكرهه! قال: إن له عليّ حق الطاعة، وإنها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها. فردّ الناس وخرج إليه»[٢٤].

وهكذا فإن تنبؤات عثمان وما يخشاه بدأت تظهر خطمها، وبدأ أهل الشر يحركون الاضطرابات شيئاً فشيئاً في المجتمع الاسلامي، ولقد كان موقف عبد الله دقيقاً حيث ردّهم وبيّن لهم أن فتناً ستظهر ولا يجب أن يلج بابها، وفي هذا إلماح ذكي ـ لمن يعقل ـ أنه يجب على هؤلاء السامعين ألّا يقفوا هذا الموقف الآن، ولا أن يسعَوا إليه في قابل الزمان.

وخرج عبد الله من الكوفة، ولم يكن سبب ذلك قضية المصحف التي قد أتى عليها أكثر من ست سنوات، فابن مسعود بقي وزير بيت المال حتى عهد ولاية أبي موسى بعد سعيد بن العاص[٢٥]. كما لم يكن هناك ثمّة حفيظة من عثمان على ابن مسعود، يدل على ذلك موقفه منه في «قصة الزواج» آنفة الذكر، وكذا مبايعة عبد الله له وحمل الناس على مبايعته، ووصفه للناس بأنه خير الصحابة الباقين، ثم مواقفه منه في مناسك الحج.

ما سجلته بعض كتب التاريخ من مهاترات بين عثمان وابن مسعود:

قال اليعقوبي ـ المؤرخ الشيعي ـ في تاريخه: «وكتب عثمان في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل،

---

(٢٤) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٠، أسد الغابة: ٣/٣٩٠، الاستيعاب ذيل الإصابة: ٧/٣٣ ـ ٣٤.

(٢٥) وهذا الأخير ظل والياً على الكوفة إلى ما بعد سنة ثلاثين، وجمع المصحف وقع سنة خمس وعشرين.

وقيل: أحرقها. فلم يبق مصحف إلا فعل به ذلك، خلا مصحف ابن مسعود، وكان ابن مسعود بالكوفة، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، وكتب إليه عثمان أن أشخصه، إن لم يكن هذا الدين خبالاً وهذه الأمة فساداً، فدخل المسجد وعثمان يخطب، فقال عثمان: إنه قدمت عليكم دابة سوء، فكلّم ابن مسعود بكلام غليظ، فأمر به عثمان فجرَّ برجله حتى كُسر له ضلعان»[٢٦].

ثم قال: «واعتلّ ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرت الذي فعلته بي!! إنك أمرت بي فوطئت جوفي فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر، ومنعتني عطائي! قال: فإني أقيدك من نفسي فافعل بي مثل الذي فعل بك!! قال: ما كنت بالذي يفتح القصاص على الخلفاء! قال: هذا عطاؤك فخذه، قال: منعتنيه وأنا محتاج إليه، وتعطينيه وأنا غني عنه، لا حاجة لي به، فانصرف، فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي، وصلّى عليه عمار بن ياسر، وكان عثمان غائباً فستر أمره. فلما انصرف رأى عثمان القبر، فقال: قبر من هذا؟ فقيل: قبر عبد الله بن مسعود، قال: فكيف دفن قبل أن أعلم؟ قالوا: ولي أمره عمار بن ياسر وذكر أنه أمر ألا يخبر به»[٢٧].

وتذهب الروايات إلى أقبح مما سبق، حتى زعم بعض الرواة أن ابن مسعود قال: «اللهم إنك عظيم العفو، كثير التجاوز، فلا تتجاوز عن عثمان حتى تقيد لي منه، فلم يمنع ذلك عثمان من معاودته ليترضاه، فقال له: يا أبا عبد الرحمن، هذا عطاؤك فخذه، فقال ابن

(٢٦ ـ ٢٧) تاريخ اليعقوبي: ٢/١٤٧، وانظر «ابن مسعود» للراجحي ص ٣٨ ـ ٤٠.

مسعود: وما أتيتني به إذ كان ينفعني، وجئتني به عند الموت؛ لا أقبله!! فمضى عثمان إلى أم المؤمنين السيدة أم حبيبة، فسألها أن تطلب من ابن مسعود ليرضى عنه، فكلمته أم المؤمنين فلم يفعل، ثم أتاه عثمان بعد ذلك فقال له: يا أبا عبد الرحمن، ألا تقول كما قال يوسف لأخوته: ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾؟! فما أجابه بشيء»[٢٨].

أقول: إن هذه الروايات القبيحة التي تصور الصحابة قوماً متنازعين متباغضين، متعنتين متفاحشين في القول، هي روايات ساقطة غير مقبولة، يرفضها الذوق المؤمن والعقل الفطن، ولا تثبت أمام النقد الهادىء الموضوعي:

١ ـ فما نقله اليعقوبي ـ ونقلُه مطعون فيه ـ أن عثمان قال في عبد الله: «إنه قدمت عليكم دابة سوء»؛ يتنافى مع قول النبي ﷺ: (ليس المؤمن بطعّان ولا لعان ولا فاحش ولا بذيء،). والصحابة الذين تربَّوا على عين رسول الله ﷺ أبعد ما يكونون عن ذلك الخلق السيء.

ثم إن طبيعة عثمان الذي جبله الله على السماحة وفطره على الحياء؛ لتأبى عليه أن يقول هذا في غير المسلمين، فما بالك بالصحابة، بلهَ صاحب نَعْلي رسول ﷺ ووساده وسراره؟! وإن التاريخ لم يسجل ذلك العنف، وتلك الكلمات الفجّة لعثمان حتى مع الذين حاصروه يوم الدار، وأرادوا دمه؛ فكيف يتجاسر اليعقوبي ويتقوّل عليه هذا الخُلق في واحد من سادات الأصحاب؟!!

٢ ـ والرواية نفسها تبين أن عثمان استدعى عبد الله بشأن المصحف، وضربه، ثم عطف اليعقوبي على ذلك فقال: «واعتل ابن

---

(٢٨) عثمان الخليفة المفترى عليه ص ١٨١.

مسعود، فأتاه عثمان يعوده... فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي».

وظاهر هذه الرواية يدل على أن عبد الله بقي في المدينة حتى توفي - وربما بسبب ضربه!! -، وهذا ما يردّه الواقع، فجمع المصحف كان عام خمسة وعشرين، وإذا قدم ابن مسعود إلى المدينة عندها؛ لكنه رجع إلى عمله بالكوفة، ومقدمه الأخير للمدينة كان سنة ثنتين وثلاثين حيث مرض مرض الوفاة ومات رضي الله عنه. فالمدة بين الحدثين - الجمع والوفاة - كبيرة، ثم إن وفاة عبد الله كانت طبيعية وليست إثر ضربه، ولا عقب الجمع!! وهذا ما يفضح الأساس المنهار الذي بنيت عليه تلك الرواية.

٣ - ثم ما هو الذنب الذي قارفه عبد الله حتى يجرَّ من رجله ويكسر ضلعاه؟! ولو أنه ارتكب ما يستحق التعزير، أفيكون من شروط ذلك أن يكسر ضلعا المعزَّر، ثم يمرض على أعقاب ذلك ويموت!! ومن هوهذا الذي تولى ضرب ابن مسعود، ومن يتجرأ على أن يجرّه من رجله التي قال فيها النبي ﷺ: «لرجل عبد الله أثقل في الميزان يوم القيامة من أحد»؟!.

قال ابن العربي رحمه الله تعالى: «وأما ضربه - يريد عثمان - لابن مسعود ومنعه عطاءه؛ فزور»[٢٩].

٤ - وانظر بعد ذلك في مقولة ابن مسعود عن ما يدعي أنه منعه عطاءه: «منعتنيه وأنا محتاج إليه»، وإذا ما تفحّصت في الواقع وجدت أن عبد الله لم يكن محتاجاً إلى العطاء، يدل على ذلك ما رواه ابن

---

(٢٩) العواصم من القواصم: ص: ٦٣ مع الهوامش.

سعــد عن زرِّ بن حبيش قــال: «تــرك ابن مسعــود تسعــين ألف درهم»[٣٠]. وروى الذهبي فقال: «واتخذ لنفسه ضيعة براذان، فمات عن تسعــين ألف مثقال، ســوى رقيق وعروض ومـاشية رضي الله عنه»[٣١].

فالمتأمل لما تركه عبد الله وراءه يجد أنه يكفيه سنوات طوالاً، ولو قُطع عليه العطاء خمس سنوات، فأين الحاجة التي ادّعاها الراوي؟!

زد على ذلك أنه ثمة رواية تنقل عن بعض أغنياء الكوفة أنهم تركوا عطاءهم عند وفاة عمر، ومنهم ابن مسعود، نقل الذهبي عن أبي سيف «أن ابن مسعود ترك عطاءه حين مات عمر»[٣٢].

فرجل يترك عطاه زهداً به، ويخلِّف ذلك المال الوفير؛ يكون في حاجة إلى بضع آلاف من الدريهمات تزعم الرواية أن الخليفة حرمه اياها عند حاجته إليها؟!.

٥ ـ والأعجب من ذلك هو هذا الحوار بين هذين الصحابيين، وطلب عثمان المغفرة والصفح، وتعنُّت عبد الله في موقفه؛ ووالله إنني لأستبعد هذا من آحاد المسلمين ذوي النفوس الكريمة، فكيف نقبل ذلك عن الصحابة؟ بل كيف نتصور أن يصدر عن رجل أجمعت الصحابة على علوّ كعبه ديناً وتقوىً وورعاً وسماحة، حتى وصفوه بأنه أشبه الناس «هَدْياً ودَلًّا وسَمْتاً برسول الله ﷺ»؛ فهل كان من هدي النبي عليه الصلاة والسلام عدم العفو والصفح وهو الذي قال: (إذا أتاك أخوك متنصّلاً، فاقبل منه محقاً كان أم مبطلاً)!! هل يعقل من عبد الله أن يقف ذلك الموقف إن صحت الرواية وليست أهلاً لذلك؟!

---

(٣٠) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٦٠.
(٣١، ٣٢) سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٥٥.

هذا هو ابن مسعود رضي الله عنه سابقاً إلى الاسلام، ومجاهداً في سبيـل الله، القارىء المفسـر، والفقيه المحـدث، المعلم المبدع، والوالي الأمين؛ فكيف كانت سريـرته، وأين هـو في مجال العبـادة والخشوع البكاء وذرف الدموع، والمثول بين يدي الله رب العالمين؟! لنلقِ نظرة سريعة على ربانية عبد الله لتكتمل لنا الصورة، فما عرف ذلك الجيل العلم فقط، بـل أخذوا العلم والعمـل، وما انفصلت الكلمة عن السلوك في حياتهم قيد شعرة، فهم خير جيل ربط بين الكلمة والحركة، والقول والعمل، والتوجيه والتطبيق.

الفصل الثالث عشر

الرَّبَّانيّ العابدُ

- اقتداؤه بالنبي ﷺ وطاعته له
- التزامه بالسنة
- صلاته
- صومه
- حجه
- مع القرآن الكريم
- ذكره الله عز وجل وزجره لسانه
- استغفاره ودعواته وبكاؤه
- رغبته بالثواب
- أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر
- رضاه بالقضاء والقدر
- زهده وورعه وتواضعه واخلاصه
- بعده عن اللغو
- بين الخوف والرجاء.

الرّبّاني العابد

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**أتينا حذيفة فقلنا: حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ، هَدْياً ودَلًّا؛ فنأخذ عنه ونسمع منه، قال: كان أقرب الناس هدياً[1] ودلًّا[2] وسَمْتاً[3] برسول الله ﷺ ابن مسعود، حتى يتوارى منا في بيته، ولقد علم المحفوظون[4] من أصحاب محمد أن ابن أم عبد هو من أقربهم إلى الله زلفى**[5].

وكيف كان رسول الله عليه الصلاة والسلام؟

عن سعد بن هشام قال: «سألت عائشة فقلت: أخبريني يا أمَّ المؤمنين ـ عن خُلُق رسول الله ﷺ؟ فقالت: أتقرأ القرآن؟ قلت: نعم، فقالت: كان خلقه القرآن»[6].

---

(١) أي طريقة.

(٢) دَلًّا: ـ بفتح المهملة والتشديد ـ أي سيرة وحالة وهيئة، وكأنه مأخوذ مما يدل ظاهر حاله على حسن فعاله.

(٣) السمت: حسن الهيئة والمنظر في الدين، وليس من الحسن والجَمال.

(٤) أي الذين حفظهم الله من تحريف في قول أو فعل.

(٥) البخاري، الفتح: رقم ٣٧٦٢، أسد الغابة: ٣٨٨/٣، سير أعلام النبلاء: ٣٣٨/١، طبقات ابن سعد: ١٥٤/٣.

(٦) هذا لفظ ابن جرير، والحديث رواه مسلم مطولاً برقم ٧٤٦، وأبو داود والنسائي وأحمد. تفسير ابن كثير: ٢١٤/٨.

وإن هذه الكلمات لتكفي بأن تعطي أصدق صورة وأوضح بيان عن ربّانية ابن مسعود، وعبادته وخشيته وتقواه؛ لكن النفس تطمح وتلحّ بأن تعرف المزيد وتكتشف المخبوء، فلنسر مع أبي عبد الرحمن قليلاً، نمتّع النفس والروح بالنظر في منحنيات نفسه ونلج دروبها، فنستبين تلك الجوانب لنهتدي بها ونقفو أثرها وننسج على منوالها.

اقتداؤه بالنبي ﷺ وطاعته له:

● كان عبد الله يقفو أثر رسول الله عليه الصلاة والسلام في عبادته، ويلتزم بها في سره وجهره، في بيته وأمام الناس، فعن حجِّه روى عبد الله بن سخبرة قال: «غدوت مع عبد الله بن مسعود من منى إلى عرفات، فكان يلبِّي - قال: وكان عبد الله رجلاً آدم، له ضفران، عليه مسحة أهل البادية - فاجتمع عليه غوغاء من غوغاء الناس، قالوا: يا أعرابي، إن هذا ليس يوم تلبية، إنما هو يوم تكبير!! قال: فعند ذلك التفت إليّ فقال: أجهلَ الناس أم نَسُوا؟! والذي بعث محمداً ﷺ بالحق، لقد خرجت مع رسول الله ﷺ فما ترك التلبية حتى رمى جمرة العقبة، إلّا أن يخلطها بتكبير أو تهليل(٧)».

وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «رأيت ابن مسعود رمى الجمرة - جمرة العقبة - من بطن الوادي، ثم قال: هذا - والذي لا إله غيره - مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة»(٨).

وعن عبد الرحمن بن يزيد أيضاً قال: «**رمى عبد الله من بطن الوادي، فقلت: يا أبا عبد الرحمن، إن ناساً يرمونها من فوقها؟!**

---

(٧) المسند: رقم ٣٩٦١.
(٨) المسند: رقم ٣٥٤٨، وخصّ سورة البقرة بالذكر لأن معظم أحكام الحج فيها.

فقال: والذي لا إله غيره هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة ﷺ»[٩].

وفي رواية أخرى عنه أيضاً: «أنه حج مع ابن مسعود فرآه يرمي الجمرة[١٠] الكبرى بسبع حصيات، فجعل البيت عن يساره ومنىً عن يمينه، ثم قال: هذا مقام الذي أنزلت عليه سورة البقرة»[١١].

● أما في صلاته وصومه فعن أبي عطية قال: «دخلت أنا ومسروق على عائشة، فقلنا: يا أمَّ المؤمنين، رجلان من أصحاب محمد ﷺ، أحدهما يعجِّل الإفطار ويعجِّل الصلاة، والآخر يؤخر الإفطار ويؤخر الصلاة! قالت: أيهما الذي يعجل الإفطار ويعجل الصلاة؟ قال: قلنا: عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ قالت: كذلك كان يصنع رسول الله ﷺ» «زاد أبو كريب: والآخر أبو موسى»[١٢].

● ولقد طمحت نفس عبد الله إلى أن تقتدي بالنبي ﷺ في كل شيء، حتى في ضحكه، فقد روى الإمام مسلم رحمه الله تعالى حديثاً عجباً في هذا الشأن، «عن أنس عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ

(٩) البخاري، الفتح: رقم ١٧٤٧ جامع الأصول: ٣/ ٢٧٤ ـ ٢٧٦.

(١٠) قال ابن حجر: الجمرة اسم لمجتمع الحصى، سميت بذلك لاجتماع الناس بها يقال: تجمّر بنو فلان اذا اجتمعوا، وقيل: إن العرب تسمي الحصى الصغار جماراً، فسميت تسمية للشيء بلازمه، وقيل: لأن آدم أوإبراهيم لما عرض له إبليس فحصبه؛ جمر بين يديه أي أسرع، فسميت بذلك.

(١١) البخاري، الفتح؛ رقم ١٧٤٩، مسلم: رقم ١٢٩٦، وأهل السنن الأربعة، والمسند: رقم ٣٩٤١، ٣٩٤٢، والسنن الكبرى: ٥/ ١٢٩.

(١٢) مسلم: رقم ١٠٩٩، وانظر جامع الأصول: ٦/ ٣٧٥ ـ ٣٧٦. وقد مر بنا في فصل «ملازمته النبي ﷺ» اقتداؤه به في صلاته والتزام نهجه، مما لا حاجة لإعادته.

قال: (آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو[١٣] مرة، وتسفعه[١٤] النار مرة، فإذا جاوزها التفت إليها فقال: تبارك الذي نجاني منكِ، لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين، فتُرفع له شجرة فيقول: أي رب، أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها، فيقول الله عز وجل: يا ابن آدم، لعلِّي إن أعطيتكها سألتني غيرها؟! فيقول: لا يارب، ويعاهده ألا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها، لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها؟ فيعاهده ألا يسأله غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها. ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوّلَيْن، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها، وربه يعذره لأنه يرى ما لاصبر له عليها، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة، فيقول: أي رب، أدخلنيها! فيقول: يا ابن آدم، ما يَصْريني منك؟![١٥] أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟! قال: يارب أتستهزىء مني وأنت رب العالمين)؟! فضحك ابن مسعود فقال: **ألا تسألوني ممَّ أضحك؟ فقالوا: ممَّ تضحك؟ قال: هكذا ضحك**

---

(١٣) يكبو: أي يسقط على وجهه.

(١٤) تسفعه: معناه تضرب وجهه وتسوّده وتؤ ثر فيه أثراً.

(١٥) معناه: أي ما يقطع مسألتك مني، قال أهل اللغة: الصَّري هو القطع، فإن السائل متى انقطع من المسؤول انقطع المسؤول منه، والمعنى: أي شيء يرضيك ويقطع السؤال بيني وبينك.

رسول الله ﷺ، فقالوا، ممّ تضحك يا رسول الله؟ قال: (من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزىء مني وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزىء منك، ولكني على ما أشاء قدير)»[١٦].

● وأمّا طاعته للنبي ﷺ فيكفي للدلالة عليها هذه الحادثة الفذّة، التي رواها ابن عساكر عن جابر رضي الله عنه قال: **«لما استوى رسول الله ﷺ على المنبر يوم الجمعة قال: (اجلسوا فسمع ذلك عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ فجلس عند باب المسجد، فرآه النبي ﷺ فقال: (تعالَ يا عبد الله بن مسعود)»**[١٧].

التزامه بالسُّنَّة:

● عن علقمة عن عبد الله قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات[١٨]، والنامصات والمتنمِّصات[١٩]، والمتفلِّجات[٢٠] للحسن المغيِّرات خلق الله. قال: فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يقال لها: أم يعقوب ـ وكانت تقرأ القرآن ـ فأتته فقالت: ما حديث بلغني عنك، أنك لعنت الواشمات والمستوشمات، والمتنمِّصات، والمتفلِّجات للحسن المغيِّرات خلق الله؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن

---

(١٦) مسلم: رقم ١٨٧ واللفظ له، المسند: رقم ٣٧١٤، ٣٨٩٩.

(١٧) حياة الصحابة: ٦٢٨/٢.

(١٨) الواشمة: فاعلة الوشم، وهي أن تغرز إبرة أو مسلَّة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو الشفة أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل أو النيلة فيخضرَّ. وفاعلة هذا واشمة، والمفعول بها موشومة، فإن طلبت فعل ذلك فهي مستوشمة.

(١٩) النامصة هي التي تزيل الشعر من الوجه، والمتنمصة هي التي تطلب فعل ذلك.

(٢٠) المتفلجات للحسن: المراد مفلّجات الأسنان، بأن تبرد ما بين أسنانها الثنايا والرباعيات، ويقال له أيضاً: الوشر.

رسولُ الله ﷺ وهو في كتاب الله؟! فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته!! فقال: لئن كنت قرأتيه لقد وجدتيه، قال الله عز وجل: ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ - الحشر ٧ فقالت المرأة: فإني أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن! قال: اذهبي فانظري، قال: فدخلت على امرأة عبد الله فلم تر شيئاً، فجاءت إليه فقالت ما رأيت شيئاً! فقال: أما لو كان ذلك لم نجامعها[21]»[22]!!

وفي رواية أخرى: «**قالت المرأة؛ فلعله في بعض نسائك؟! قال لها: ادخلي، فدخلت ثم خرجت فقالت: ما رأيت بأساً، قال: ما حفظت إذاً وصية العبد الصالح: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾**»[23].

● وعن علقمة أيضاً «أن عبد الله بن مسعود أتى أبا موسى الأشعري في منزله، فحضرت الصلاة، فقال أبو موسى: **تقدّم يا أبا عبد الرحمن، فإنك أقدم سناً وأعلم! قال: لا، بل تقدم أنت؛ فإنما أتيناك في منزلك ومسجدك، فأنت أحق، قال: فتقدم أبو موسى فخلع نعليه، فلما سلّم قال: ما أردت إلى خلعهما، أبا الوادي المقدس أنت؟ لقد رأيت رسول الله ﷺ يصلّي في الخفّين والنعلين**»[24].

---

(٢١) لم نجامعها: قال جماهير العلماء: معناه لم نصاحبها، ولم نجتمع نحن وهي، بل كنا نطلقها ونفارقها.

(٢٢) البخاري، الفتح: رقم ٤٨٨٦، مسلم: رقم ٢١٢٥ واللفظ له، وأصحاب السنن الأربعة، والمسند: رقم ٣٩٤٥، وانظر جامع الأصول: ٤/٧٧٩.

(٢٣) المسند: رقم ٣٩٤٥.

(٢٤) المسند: رقم ٤٣٩٧، حياة الصحابة: ٣/٥٩٧، ورواه الهيثمي (٢/٦٦) وقال: رواه أحمد وفيه رجل لم يسمَّ، ورواه الطبراني متصلاً برجال ثقات، وأخرجه الطبراني عن ابراهيم مختصراً، ورجاله رجال الصحيح.

● وأخرج عبد الرزاق عن أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ أن أبا سعيد مولى بني أسيد ـ رضي الله عنه ـ صنع طعاماً ثم دعا أباذر وحذيفة وابن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ فحضرت الصلاة، فتقدم أبو ذر ليصلي بهم، فقال له حذيفة: وراءك، ربُّ البيت أحق بالإمامة! فقال له أبو ذر: كذلك يا ابن مسعود؟ قال: نعم، فتأخر أبو ذر، قال أبو سعيد: فقدَّموني وأنا مملوك فأممتهم[٢٥]».

وفي رواية أخرى: «فحضرت الصلاة، فأراد أبو ذر أن يتقدم، فقال له حذيفة: ربُّ البيت أحق، فقال له عبد الله: نعم يا أبا ذر»[٢٦].

صلاته:

أ ـ حرصه على الصلاة لوقتها:

يظهر ذلك من الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن عبد الله قال: «قال رسول الله ﷺ: (إنه سيلي أمركم من بعدي رجال يطفئون السنة، ويحدثون بدعة، ويؤخرون الصلاة عن مواقيتها) قال ابن مسعود: يا رسول الله، كيف بي إذا أدركتهم؟ قال: (ليس يا ابن أم عبد طاعة لمن عصى الله) قالها ثلاث مرات[٢٧]».

ب ـ حرصه على صلاة الجماعة:

عن طارق بن شهاب قال: «كنا عند عبد الله جلوساً، فجاء رجل فقال: قد أقيمت الصلاة، فقام وقمنا معه، فلما دخلنا المسجد رأينا الناس ركوعاً في مقدَّم المسجد، فكبَّر وركع وركعنا ثم مشينا،

---

(٢٥) حياة الصحابة: ٥٩٦/٣.

(٢٦) السنن الكبرى: ١٢٥/٣.

(٢٧) المسند: رقم ٣٧٩٠، ورواه ابن ماجه والبيهقي وعبد الرزاق.

وصنعنا مثل الذي صنع، فمر رجل يسرع فقال عليك السلام يا أبا عبد الرحمن، فقال: صدق الله ورسوله، فلمَّا صلينا ورجعنا، ودخل إلى أهله، جلسنا فقال بعضنا لبعض: أما سمعتم ردّه على الرجل: صدق الله وبلّغت رسله؟ أيكم يسأله؟ فقال طارق: أنا أسأله، فسأله حين خرج، فذكر عن النبي ﷺ: (إن بين يدي الساعة: تسليم الخاصة، وفشوَّ التجارة، حتى تعين المرأة زوجها على التجارة، وقطع الأرحام، وشهادة الزور، وكتمان شهادة الحق، وظهور القلم[٢٨]».

ج ـ صلاة الجمعة:

عن علقمة قال: «خرجت مع عبد الله بن مسعود يوم الجمعة، فوجد ثلاثة قد سبقوه، فقال: رابع أربعة، وما رابع أربعة من الله ببعيد، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس يجلسون من الله عزوجل يوم القيامة على قدر روحاتهم إلى الجمعات، الأول ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، وما رابع أربعة من الله ببعيد)[٢٩]».

د ـ صلاة النافلة وتهجده:

● ففي حرصه على نافلة النهار روى الطبراني عن عبد الله بن يزيد قال: «حدثني أوصل الناس بعبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، أنه كان إذا زالت الشمس قام فركع أربع ركعات، يقرأ فيهن

---

(٢٨) المسند: رقم ٣٨٧٠، ورواه الهيثمي (٧/٢٢٨ ـ ٢٢٩) وعزاه إلى البزار ببعضه وقال: رجال أحمدوالبزار رجال الصحيح. والمراد بالقلم هنا: الكتابة.

(٢٩) الترغيب والترهيب: ١/٥٠٣، قال المنذري: رواه ابن ماجه وابن أبي عاصم وإسنادهما حسن.

بسورتين من المئين، فإذا تجاوب المؤذنون شدّ عليه ثيابه ثم خرج إلى الصلاة[٣٠]».

وعنده أيضاً عن الأسود ومرة ومسروق قالوا: قال عبد الله: «ليس شيء يعدل صلاة الليل من صلاة النهار إلاَّ أربعاً قبل الظهر، وفضلهن على صلاة النهار كفضل صلاة الجماعة على صلاة الواحد[٣١]» . . .

● أما عن تهجُّده فعن علقمة بن قيس قال: «بتّ مع عبد الله ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ ليلة، فنام[٣٢] أول الليل، ثم قام يصلي، فكان يقرأ قراءة الإمام في مسجد حيه، يرتل ولا يرجّع[٣٣]، يسمع من حوله ولا يرجّع صوته، حتى لم يبق من الغَلَس إلا كما بين أذان المغرب إلى الانصراف منها ثم أوتر[٣٤]».

٥ ـ انتظاره ليلة القدر:

عن أبي عقرب قال: «غدوت على ابن مسعود ذات غداة من رمضان، فوجدته فوق بيته جالساً، فسمعنا صوته وهو يقول: صدق الله وبلّغ رسوله، فقلنا: سمعناك تقول: صدق الله وبلّغ رسوله؟ فقال: إن رسول الله ﷺ قال: (إن ليلة القدر في النصف من السبع

---

(٣٠) أخرجه في الكبير، وقال الهيثمي (٢/٢٢١): فيه راو لم يسمَّ.

(٣١) حياة الصحابة: ٣/٦١٠ ـ ٦١١، وقال الهيثمي: (٢/٢٢١): وفيه بشير بن الوليد الكندي وثقه جماعة وفيه كلام، وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال المنذري في ترغيبه (١/٤٠١): وهو موقوف لا بأس به.

(٣٢) في الأصل؛ مقام، ولعل الصواب ما أثبته.

(٣٣) الترجيع: ترديد القراءة.

(٣٤) حياة الصحابة: ٣/٦١٧، وقال الهيثمي (٢/٢٦٦): رواه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح.

الأواخر من رمضان، تطلع الشمس غداة إذٍ صافية ليس لها شعاع؛ فنظرت إليها فوجدتها كما قال رسول الله ﷺ[٣٥].

و ـ ما يقرأ من آيات في الركعة:

روى البخاري تعليقاً فقال: «وقرأ ابن مسعود بأربعين آية من الأنفال، وفي الثانية بسورة من المفصّل[٣٦].

ونقل عنه ابن الأثير أنه قرأ في الأولى من الصبح بأربعين آية من الأنفال، وفي الثانية بسورة من المفصل[٣٧].

ز ـ خشوعه:

عن الأعمش قال: «**كان عبد الله ـ رضي الله عنه ـ إذا صلى كأنه ثوب ملقىً**[٣٨]».

صومه:

● كان رضي الله عنه يقلّ من صوم النفل ويرغب في نافلة الصلاة، فعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «ما رأيت فقيهاً أقلّ صوماً

(٣٥) المسند: رقم ٣٨٥٧، ٣٨٥٨، ٤٣٧٤، ورواه الهيثمي (٣ / ١٧٤) وعزاه إلى أبي يعلى وقال: أبو عقرب لم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات. قلت: ترجم له الحافظ في التهذيب: ١٢ / ١٧١.

(٣٦) البخاري، الفتح قبل الحديث رقم ٧٧٤، قال الحافظ: «وصله عبد الرزاق بلفظه من رواية عبد الرحمن بن يزيد النخعي عنه، وأخرجه هو وسعيد بن منصور من وجه آخر عن عبد الرزاق بلفظ: «فافتتح الأنفال حتى بلغ: ونعم المصير» انتهى، وهذا الموضع هو رأس أربعين آية، فالروايتان متوافقتان». انتهى كلام الحافظ.

(٣٧) جامع الأصول: ٥/٣٣٧.

(٣٨) أخرجه الطبراني في الكبير وقال الهيثمي (٢/١٣٦): ورجاله موثقون والأعمش لم يدرك ابن مسعود. وانظر حياة الصحابة: ٣/٦٠٥.

من عبد الله بن مسعود، فقيل له: لِمَ لا تصوم؟ فقال: إني أختار الصلاة عن الصوم، فإذا صمت ضعفت عن الصلاة[39].

● ولكن هذا القليل الذي كان يصومه هو بالنسبة لأولئك الصحابة الذين كانوا يكثرون من صوم التطوع، وإلا فابن مسعود كان لا يترك صوم النفل الذي سنّه رسول الله عليه الصلاة والسلام، لقد أخرج الطبراني عنه رضي الله عنه «أنه كان لا يكاد يصوم، وقال: **إني إذا صمت ضعفت عن الصلاة، والصلاة أحب إليَّ من الصيام، فإن صام صام ثلاثة أيام من الشهر**[40]».

وينقل ابن سعد نوعاً ثانياً من صيامه النفل: «**عن زِرِّ بن حُبَيش عن عبد الله أنه كان يصوم الاثنين والخميس**[41]».

حجُّه:

● عن مسروق قال: «جئت مسلّماً على عائشة رضي الله عنها، وصحبت عبد الله بن مسعود حتى دخل في الطواف، فطاف ثلاثاً رملاً وأربعة مشياً، ثم إنه صلّى خلف المقام ركعتين، ثم إنه عاد إلى الحَجَر فاستلمه، ثم خرج إلى الصَّفا فقام على الشقِّ الذي على الصفا فلبّى، فقلت: إني نُهيت عن التلبية! فقال: ولكني آمرك بها، كانت التلبية استجابة استجابها إبراهيم، فلما هبط إلى الوادي سعى فقال: اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم[42]».

---

(٣٩) طبقات ابن سعد: ١٥٥/٣، حياة الصحابة: ٣/ ٥٤٢.
(٤٠) حياة الصحابة: ٥٤٢/٣، قال الهيثمي: (٢٥٧/٢): رجاله رجال الصحيح.
(٤١) طبقات ابن سعد: ١٥٥/٣، صفة الصفوة: ٤٠٤/١.
(٤٢) السنن الكبرى: ٩٥/٥، وقال البيهقي: هذا أصح الروايات في ذلك عن ابن مسعود.

● وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «**خرجت مع ابن مسعود إلى مكة، فلم يزل يلبي، فسمعه أعرابي عشية عرفة فقال: من هذا الذي يلبي في هذا المكان؟ فسمعت ابن مسعود يقول: لبيك عدد التراب لبيك، ما سمعته قالها قبلها ولا بعدها**، ثم قدمنا جمعاً فصلى بنا الصلاتين كل صلاة وحدها بأذان وإقامة...[٤٣]».

● وعن عبد الرحمن بن يزيد أيضاً قال: «كنت مع عبد الله حتى انتهى إلى جمرة العقبة، فقال: ناولني أحجاراً قال: فناولته سبعة أحجار، فقال لي: خذ بزمام الناقة، قال: ثم عاد إليها، فرمى بها من بطن الوادي بسبع حصيات ـ وهو راكب، يكبر مع كل حصاة، وقال: **اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً**، ثم قال: ههنا كان يقوم الذي أنزلت عليه سورة البقرة[٤٤]».

أما عن اقتدائه بالنبي ﷺ فقد كان حذو القَذَّة، بالقَذَّة، وقد سبق الكلام على ذلك في بداية هذا الفصل[٤٥].

مع القرآن الكريم:

أ ـ كثرة تلاوته له:

قال أبو بكر البيهقي: «وروينا عن ابن مسعود أنه **كان يختم القرآن في رمضان في ثلاث، وفي غير رمضان من الجمعة إلى الجمعة**[٤٦]».

---

(٤٣) السنن الكبرى: ٥/١٢١.

(٤٤) هذا لفظ أحمد في المسند: رقم ٤٠٦١، والحديث في الصحيحين وغيرهما.

(٤٥) وقد سبق من ذلك الشيء الكثير في تضاعيف هذا الكتاب، وأثبت هنا الجديد من الأخبار وتجنبت التكرار.

(٤٦) السنن الكبرى: ٢/٣٩٦.

وعن عون بن عبد الله عن أخيه عبيد الله قال: «كان إذا هدأت العيون قام فسمعت له دويّاً كدويّ النحل[٤٧]. وفي رواية أخرى: «كان عبد الله إذا هدأت العيون قام فسمعت له دوياً كدوي النحل حتى يصبح[٤٨]».

وكان يقول في ذلك: «اقرؤوا القرآن في سبع، ولا تقرؤوه في أقل من ثلاث، وليحافظ الرجل في يومه وليلته على جزئه[٤٩]. ويقول: «أديموا النظر في المصحف[٥٠]».

ب ـ تفاعله مع قراءته وتأثره بها:

عن عرفجة الثقفي[٥١] قال: «استقرأت ابن مسعود ﴿سبح اسم ربك الأعلى﴾ فلما بلغ: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ ترك القراءة وأقبل على أصحابه وقال: آثرنا الدنيا على الآخرة! فسكت القوم!! فقال: آثرنا الدنيا لأنا رأينا زينتها ونساءها وطعامها وشرابها، وزويت عنا الآخرة فاخترنا هذا العاجل وتركنا الآجل[٥٢]».

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذا منه على وجه التواضع والهضم؛ أوهو إخبار عن الجنس من حيث هو، والله أعلم...

فإذا كان ابن مسعود وهو أحد كبار الصحابة، وممن شهد بدراً والمشاهد بعدها، يقول هذا؛ فماذا يقول الذين غرقوا في لذاذات

---

(٤٧) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٣، أسد الغابة: ٣/٣٨٩.
(٤٨) أسد الغابة: ٣/٣٨٩.
(٤٩) السنن الكبرى: ٢/٣٩٦.
(٥٠) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف، وانظر حياة الصحابة: ٤/٢٤.
(٥١) هو عرفجة بن عبد الله الثقفي، قال ابن حجر: مقبول. تقريب التهذيب: ٢/١٨.
(٥٢) تفسير ابن كثير: ٨/٤٠٤.

الحياة، وجعلوا قبلتهم نساءهم، وهمَّهم بطونهم، وغفلوا عن الله والدار الآخرة؟؟!.

ج ـ تصديقه لأخباره:

● قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا شعبة عن السدي عن مرّة «عن عبد الله قال ـ أبى شعبة رفعه، وأنا لا أرفعه لك ـ في قول الله عزوجل: ﴿ومن يُرِدْ فيه بإلحاد بظُلْم نُذِقْه من عذابٍ أليم﴾؛ قال: **لو أن رجلاً همّ فيه بإلحاد وهو بعدن أبين**[٥٣] **لأذاقه الله عذاباً أليماً**[٥٤].

●وفي قوله تعالى: ﴿ فإنَّ مع العسرِ يُسْراً إنَّ مع العسر يسراً ﴾ روى عبد الرزاق في مصنفه عن عبد الله بن مسعود موقوفاً... **لو كان العسر في جحر ضبّ لتبعه اليسر حتى يستخرجه، لن يغلب عُسْر يُسْرين**[٥٥]».

د ـ حبه وتعظيمه لسور وآيات خاصة منه:

● أخرج الحاكم عن عبد الله بن مسعود قال: «يؤتى الرجل في قبره، فتؤتى رجلاه فتقول: ليس لكم على ما قِبلي سبيل، كان يقرأ سورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره ـ أو قال: بطنه ـ فيقول: ليس لكم على ما قِبلي سبيل، كان يقرأ فيَّ سورة الملك.

---

(٥٣) هي مدينة ساحلية باليمن، وهي غير عدن لاعه، وهي قرية بالقرب من جبل صير من نواحي اليمن.

(٥٤) المسند: رقم ٤٠٧١، ٤٣١٦، تفسير ابن كثير: ٤٠٧/٥، ورواه الهيثمي (٧٠/٧) وعزاه الى أبي يعلى والبزار وقال: رجال أحمد رجال الصحيح، وقال ابن كثير: هذا الإسناد صحيح على شرط البخاري، ووقفه أشبه من رفعه، ولهذا صمم شعبة على وقفه من كلام ابن مسعود.

(٥٥) كشف الخفاء: ١٤٩/٢ رقم ٢٠٧٩، وله روايات مرفوعة عنه وعن غيره فيها ضعف أو مرسلة، انظره هناك، وفي تفسير ابن كثير: ٤٥٣/٨.

ثم يؤتى من قبل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، كان يقرأ فيَّ سورة الملك. فهي المانعة، تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب».

وعند النسائي مختصراً: «من قرأ تبارك الذي بيده الملك كل ليلة منعه الله عزوجل من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسمِّيها المانعة، وإنها في كتاب الله عزوجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطَاب[56]».

● وعن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**إن في سورة النساء لخمسَ آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها**: ﴿إن الله لا يظلم مثقال ذرة﴾ الآية، و﴿إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه﴾ الآية، و ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، و ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك﴾ الآية، و ﴿ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً﴾[57]».

● وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «آل حم[58] ديباج

---

(٥٦) قال الحاكم: صحيح الإسناد، وانظر الترغيب والترهيب: ٢/٣٧٨، حياة الصحابة: ٤/٢٧.

(٥٧) رواه الحاكم وقال: هذا إسناد صحيح ان كان عبد الرحمن سمع من أبيه، فقد اختلف في ذلك. تفسير ابن كثير: ٢/١٧٨، جامع الأصول: ٨/٤٧٩، وذكره الهيثمي (٧/١١ ـ ١٢) ونسبه للطبراني وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٥٨) قال ابن كثير في تفسيره (٧/١١٦): قد كره بعض السلف، منهم محمد ابن سيرين أن يقال: «الحواميم»، وإنما يقال: «آل حم». قلت: وهذا واضح من تسمية ابن مسعود لها.

القرآن». وقال: «إذا وقعتُ في «آل حم» فقد وقعت في روضات أتأنق فيهن[٥٩]».

ذكره الله عزوجل وزجره لسانه:

● يصف أبو عبيدة بن عبد الله أباه فيقول: «كان عزيزاً على عبد الله بن مسعود أن يتكلَّم إلَّا بذكر الله»[٦٠].

● وكان ينصح بذلك وبملازمة من يساعد عليه، فقد أخرج البيهقي عنه قال: «**أكثروا ذكر الله عزوجل، ولا عليك ألَّا تصحب أحداً إلَّا من أعانك على ذكر الله**[٦١]».

● وهذه الطريقة التي رسمها لنفسه تتفق مع زجره لسانه وحمله على أن يقول الخير دائماً، قال رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره ما على ظهر الأرض من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان[٦٢]».

وعن أبي وائل عن عبد الله رضي الله عنه: «أنه **ارتقى الصفا فأخذ بلسانه فقال: يا لسان قل خيراً تغنم، واسكت عن شرتسلم؛ من قبل أن تندم**. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أكثر خطايا ابن آدم من لسانه)[٦٣]».

(٥٩) تفسير ابن كثير: ١١٦/٧، ومعنى أتأنق بهن: أي أعجب بهن، وأستلذ بقراءتهن، وأتتبع محاسنهن.
(٦٠) أخرجه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي (٢١٩/٢): وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه، وبقية رجاله ثقات، حياة الصحابة: ١٢/٤.
(٦١) حياة الصحابة: ٨/٤.
(٦٢) الترغيب والترهيب: ٥٢٦/٣، قال المنذري: رواه الطبراني موقوفاً بإسناد صحيح. حلية الأولياء: ١٣٤/١.
(٦٣) الترغيب والترهيب: ٥٣٤/٣، حياة الصحابة: ٢٧١/٣، قال المنذري: =

استغفاره ودعواته وبكاؤه:

أ ـ استغفاره:

عن القاسم بن عبد الرحمن أن ابن مسعود كان يقول في دعائه: «خائف مستجير، تائب مستغفر، راغب راهب[٦٤]». . .

وعن عبد الرحمن بن يزيد النخعي عن ابن مسعود «أنه لما فرغ من رمي جمرة العقبة قال: اللهم اجعله حجاً مبروراً، وذنباً مغفوراً[٦٥]».

وعن عبد الله بن عُكيم عن ابن مسعود أنه كان يدعو مستغفراً فيقول: «**اللهم إن كنت كتبت عليّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة**[٦٦]».

ب ـ دعواته:

عن سُلَيم بن حنظلة «أن عبد الله أتى سدّة السوق فقال: اللهم إني أسألك من خيرها وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها وشر أهلها[٦٧]».

وعن أبي الأحوص قال: «سمعت عبد الله ـ يعني ابن مسعود ـ يدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك بنعمتك السابغة التي أنعمت

= رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح، وأبو الشيخ في الثواب، والبيهقي بإسناد حسن. وقال الهيثمي (١٠/٣٠٠): رجاله رجال الصحيح.

(٦٤) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٤.

(٦٥) الفتح: شرح الحديث رقم ١٧٥٠.

(٦٦) تفسير ابن كثير: ٤/٣٩٠، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدعو بمثله وهو يطوف بالبيت.

(٦٧) حياة الصحابة: ٤/١٦٧، وقال الهيثمي (١٠/١٢٩): رواه الطبراني موقوفاً ورجاله رجال الصحيح، غير سليم بن حنظلة وهو ثقة.

بها، وببلائك[٦٨] الذي ابتليتني، وبفضلك الذي أفضلت علي أن تدخلني الجنة. اللهم أدخلني الجنة بفضلك ومنّك ورحمتك[٦٩]».

وعن عبد الله بن عكيم أن ابن مسعود كان يدعـو فيقول: «اللهم زدني إيماناً ويقيناً وفهماً ـ أو قال: وعلماً[٧٠]».

ج ـ بكاؤ ه:

يكفي للدلالة عن ذلك ما رواه زيد بن وهب قال: «رأيت بعيني عبد الله أثرين أسودين من البكاء»[٧١].

رغبته بالثواب:

عن أبي الأحوص قال: بَيْنا ابن مسعود يخطب ذات يوم. فإذا هو بحيّة تمشي على الجدار، فقطع خطبته ثم ضربها بقضيبه ـ أو بقصبة، قال يونس: بقضيبه ـ حتى قتلها، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قتل حيّة فكأنما قتل رجـلاً مشركـاً قد حـلَّ دمه[٧٢])».

وأخرج رزين قال: «مرض عبد الله بن مسعود فعدناه، فجعل يبكي، فعُوتب، فقال: إني لا أبكي لأجـل المرض لأني سمعت

---

(٦٨) في الأصل: وبلائك.

(٦٩) حيـاة الصحـابـة: ٤/١٦٥، قال الهيثمي: (١٠/١٨٥): رجـاله رجـال الصحيح.

(٧٠) حياة الصحـابة: ٤/١٦٦، قـال الهيثمي (١٠/١٨٥): وإسناده جيد.

(٧١) سير أعلام النبـلاء ١/٣٥٤.

(٧٢) المسند: رقم ٣٧٤٦، ٣٩٩٦، ورواه عبد الرزاق والهيثمي (٤/٤٥ ـ ٤٦) وعزاه إلى أبي يعلى والبزار بنحوه، والطبراني في الكبير مرفوعاً وموقوفاً وقال: رجال البزار رجال الصحيح.

رسول الله ﷺ يقول: (المرض كفارة) وإنما أبكي أنه أصابني على حال فترة ولم يصبني في حال اجتهاد، لأنه يكتب للعبد من الأجر إذا مرض ما كان يكتب له قبل أن يمرض، فمنعه منه المرض[٧٣]».

أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر:

● عن ابن مسعود رضي الله عنه «أنه دخل على امرأته وفي عنقها شيء معقود، فجذبه فقطعه، ثم قال: لقد أصبح آل عبد الله أغنياء عن أن يشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك. قالوا: يا أبا عبد الرحمن، هذه الرقى قد عرفناها، فما التِّوَلة؟ قال: شيء تصنعه النساء يتحببن إلى أزواجهن[٧٤]».

● وعن مسروق قال: «كنا عند عبد الله بن مسعود، فجيء بضَرع، فتنحَّى رجل، فقال عبد الله: ادنُ فقال: إني حرّمت أن آكله، فقال عبد الله: ادنُ فاطعم وكفّر عن يمينك، وتلا هذه الآية: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم﴾... الآية[٧٥]».

● وعن حارثة قال: «كنت عند ابن مسعود، فجاء رجلان فسلّم أحدهما ولم يسلّم الآخر، فقال ما شأنك؟ قال أصحابه: حلف

(٧٣) جامع الأصول: ٥٨٦/٩.
(٧٤) رواه ابن حبان في صحيحه، والحاكم باختصار وقال: صحيح الإسناد، كذا في الترغيب والترهيب: ٣١٠/٤. وقد رواه النسائي نحوه كما في جامع الأصول: ٥٧٤/٧، قال المحقق الشيخ الأرناؤوط: إسناده حسن. وفي المسند: رقم ٣٦١٥.
(٧٥) تفسير ابن كثير: ١٦١/٣، رواه الحاكم وقال: على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وفي القاموس المحيط: الضروع عنب أبيض كبير الحب.

ألا يكلم الناس اليوم! فقال عبد الله بن مسعود: كلِّم الناسَ وسلّم عليهم؛ فإنما تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدّقها أنها حملت من غير زوج - يعني بذلك مريم عليها السلام - ليكون عذراً لها اذا سئلت[٧٦]».

● وعن أبي الكنود قال: «مر عبد الله - يعني ابن مسعود - على قاصّ وهو يذكّر الناسَ، فقال: يا مذكّر، لِمَ تقنِّط الناسَ؟! ثم قرأ: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله﴾[٧٧]».

رضاه بالقضاء والقدر:

عن قيس بن حبتر عن عبد الله قال: «**ألا حبذا المكروهان: الموت والفقر، وايمُ الله، إنْ هو إلا الغنى أو الفقر، وما أبالي بأيهما ابتليت**،إن كان الغنى إن فيه لَلعطف، وإن كان الفقر إن فيه للصبر[٧٨]».

وقال رضي الله عنه: «والله الذي لا إله غيره، ما يضر عبداً يصبح على الاسلام ويمسي عليه ما أصابه في الدنيا[٧٩]».

وقال: «**ما أبالي إذا رجعت إلى أهلي على أي حال أراهم، بخير أو بشر أم بضرّ، وما أصبحت على حالة فتمنيت أني على سواها**[٨٠]».

---

(٧٦) رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. انظر تفسير ابن كثير: ٥/٢٢٠.
(٧٧) رواه ابن أبي حاتم، تفسير ابن كثير: ٧/٩٩.
(٧٨) حلية الأولياء: ١/١٣٢، سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٤ وفيه: قيس بن جبير، وهو غلط، حياة الصحابة: ٤/٣٥٣. وقيس بن حبتر التميمي الكوفي، نزيل الجزيرة، ثقة. تقريب التهذيب: ٢/١٢٨.
(٧٩) حلية الأولياء: ١/١٣٢.
(٨٠) صفة الصفوة: ١/٤٠٨.

زهده وورعه، وتواضعه وإخلاصه:

● عن عون بن عبد الله قال: قال عبد الله: «لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يحلَّ بذروته، ولا يحل بذروته حتى يكون الفقر أحب إليه من الغنى، والتواضع أحب إليه من الشرف، وحتى يكون حامده وذامه عنده سواء. قال: ففسرها أصحاب عبد الله قالوا: حتى يكون الفقر في الحلال أحبَّ إليه من الغنى في الحرام، والتواضع في طاعة الله أحب إليه من الشرف في معصية الله، وحتى يكون حامده وذامه عنده في الحق سواء[٨١]».

● وأما عن ورعه فقد روى البخاري عنه تعليقاً فقال: «واشترى ابن مسعود جارية، فالتمس صاحبها سنة فلم يجده، وفُقد، فأخذ يعطي الدرهم والدرهمين، وقال: اللهم عن فلان، فإن أتى فلان فلي وعليَّ، وقال: هكذا فافعلوا باللقطة[٨٢]».

قال الحافظ ابن حجر: «وقد وصله سفيان بن عيينة في جامعه رواية سعيد بن عبد الرحمن عنه، وأخرجه أيضاً سعيد بن منصور بسند له جيد: «أن ابن مسعود اشترى جارية بسبعمائة درهم، فإما غاب صاحبها وإما تركها، فنشده حولاً فلم يجده، فخرج بها إلى مساكين عند سدة بابه، فجعل يقبض ويعطي ويقول: اللهم عن صاحبها، فإن أتى فمني، وعليَّ الغُرْم»، وأخرجه الطبراني من هذا الوجه أيضاً، وفيه: أبى، بالموحدة[٨٣]».

---

(٨١) حلية الأولياء: ١٣٢/١، حياة الصحابة: ٣٥٣/٤.

(٨٢، ٨٣) البخاري، كتاب الطلاق ـ باب حكم المفقود في أهله وماله، قبل الحديث رقم ٥٢٩٢. قال ابن حجر: «قوله: هكذا فافعلوا باللقطة» يشير إلى أنه انتزع فعله في ذلك من حكم اللقطة للأمر بتعريفها سنة والتصرف فيها بعد ذلك، فإن جاء صاحبها غرمها له، فرأي ابن مسعود أن يجعل التصرف صدقة، =

● وأما عن تواضعه، فعن حبيب بن أبي ثابت قال: «خرج عبد الله بن مسعود ذات يوم، فاتّبعه ناس، فقال لهم: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، و لكن أردنا أن نمشي معك، قال: ارجعو فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[٨٤]».

● وللدلالة على إخلاصه يكفي قوله: «من راءى في الدنيا راءى الله به يوم القيامة، ومن يُسَمِّع في الدنيا يسمّع الله به يوم القيامة، ومن يتطاول تعظيماً يضعه الله، ومن يتواضع تخشُّعاً يرفعه الله»[٨٦].

بعده عن اللغو:

● روى ابن أبي حاتم عن إبراهيم[٨٧] بن مَيْسرة **«أن ابن مسعود مرّ بلهو معرضاً، فقال النبي ﷺ: لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريماً»**.

وفي رواية أخرى بنحوه وفيه زيادة: «ثم تلا إبراهيم بن ميسرة: ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراماً[٨٨]﴾»...

● وروى أبو يعلى وعلي بن معبد في كتاب الطاعة: «أن

=فإن أجازها صاحبها إذا جاء حصل له أجرها، وان لم يجزها كان الأجر للمتصدق وعليه الغرم لصاحبها.«اهـ». أي أن هذه الحالة لها حكم اللقطة في رأي ابن مسعود. قوله: فلي وعليَّ: فلي الثواب وعلي الغرامة. وانظر جامع الأصول: ٧١٢/١٠.

(٨٤) صفة الصفوة: ٤٠٦/١.

(٨٥) أي يتكلم عن عمله ليسمع الناس.

(٨٦) حلية الأولياء: ١٣٨/١، حياة الصحابة: ٣٥٨/٤.

(٨٧) هو إبراهيم بن ميسرة الطائفي. نزيل مكة، ثبت حافظ، مات سنة ٣٢ هـ، تقريب التهذيب ٤٤/١، وطبقات ابن سعد: ٤٨٤/٥.

(٨٨) تفسير ابن كثير: ٦ /١٤٠.

رجلاً دعا ابن مسعود إلى وليمة، فلما جاء ليدخل سمع لهواً، فلم يدخل، فقيل له؟ فقال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من كثَّر سواد قوم فهو منهم، ومن رضي عمل قوم كان شريك من عمل به)[89]».

بين الخوف والرجاء:

ومع تلك الخصال الحميدة، وهاتيك الفعال الرشيدة، وفوق ذلك الالتزام الكبير والامتثال الشديد، والحاشية الرقيقة، والروح الأوّاهة الأوّابة؛ كان شديد الخوف من الله تعالى، واسع الرجاء بعفوه، عريض الأمل بقبول أعماله والتجاوز عن خطاياه. ولقد سجلت أقلام المؤرخين له مواقف مدهشة، وكلمات عجيبة، أسوق أنموذجاً عنها:

● أخرج يعقوب بن سفيان وابن عساكر عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**لأن أكون أعلم أن الله يقبل مني عملاً أحب إليَّ من أن يكون لي ملء الأرض ذهباً**[90]».

● وعن عامر عن[91] مسروق قال: «قال رجل عند عبد الله: ما أحب أن أكون من أصحاب اليمين، أكون من المقرَّبين أحب إليَّ! قال: فقال عبد الله: لكن ههنا رجل ودّ لو أنه إذا مات لم يبعث ـ يعني نفسه ـ[92]»!!.

---

(٨٩) كشف الخفاء: ٢/٢٧٤، رقم ٢٥٨٨، إحياء علوم الدين: ٣/١٧٧.

(٩٠) حياة الصحابة: ٣/٢٥١.

(٩١) في الأصل: عامر بن مسرورق، والصواب ما أثبته، إذ لم أجد من اسمه عامر بن مسروق. وعامر هو ابن شراحيل الشعبي، ومسروق هو ابن الأجدع.

(٩٢) حلية الأولياء: ١/١٣٣، حياة الصحابة: ٣/٢٥٦.

● وعن إبراهيم التَّيْمي قال: قال عبد الله: «لو تعلمون ذنوبي ما وطئ عقبي اثنان[٩٣]، ولحثيتم التراب على رأسي، ولوددت أن الله غفر لي ذنباً من ذنوبي وأني دعيت عبد الله بن روثة[٩٤]».

● لكنه كان يرجو رحمة الله وعفوه وغفرانه، فعن الحارث بن سُوَيد قال: قال عبد الله: «**والذي لا إله غيره ما أصبح عند آل عبد الله ما يرجون أن يعطيهم الله به خيراً، أو يدفع عنهم به سوءاً، إلا أن الله قد علم أن عبد الله لا يشرك به شيئاً**[٩٥]».

* * *

---

(٩٣) أي ما تبعني اثنان.

(٩٤) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٤، ورواه الحاكم وصححه وأقره الذهبي.

(٩٥) حلية الأولياء: ١/١٣٢.

الفصل الرابع عشر

مَنزلتُهُ الرَّفيعة

أولاً - في القرآن الكريم.

ثانياً - عند النبي ﷺ.

ثالثاً - عند الصحابة.

رابعاً - عند التابعين وتابعيهم.

خامساً - عند أئمة الاسلام.

مَنزلتُهُ الرّفيعة

يكفي مما سبق أن يستبين المرء المكانة الرفيعة التي كـان يقتعدها ابن مسعود رضي الله عنه عند النبي ﷺ والصحابة فمن بعدهم، فالمتصفح لسيرته لا بد أن يقرّ له بعلوّ كعبه في كل شيء، وأن يـذكره بـالثناء الحسن الجميـل، إذ لا مجال للمكـابرة بعـد المعاينة. ويقيناً أنه لو لم يتكلم عنه واحد من الناس بكلمة ثناء، لكانت سيرته كافية للدلالة على عظمته، فليس الصمت عن مديح أحد الرجال دليل قلّة شأنه، ولربما كان السكوت أشد تعبيراً من النطق!! فما بالك إذا أثنى عليه الله سبحانه وتعالى الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ ثمَّ النبي عليه الصلاة والسلام الذي لا ينطق عن الهوى؟! وبعده الصحابة أصدق النـاس لسانـاً، وأقلُّهم تكلفاً، والتابعون الذين مدحهم رسول الله، وبعد ذلك كانت خاتمة الثناء من مؤرخي الاسلام الثقـات الصادقين. لا شـك أن واحداً تحصّل له ما سبق لهو رجل لا كالرجال، بل قد وصل مرتبة تخضع لها الرقاب، وتقصر عنها الهمم العاليات.

أولاً ـ في القرآن الكريم:

أ ـ عن علقمة عن عبد الله قال: «**لما نزلت هذه الآية: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جُناح فيما طَعِموا إذا ما اتَّقوا**

وآمنوا﴾ ـ ٥ المائدة ٩٣ ـ إلى آخر الآية[١] قال لي رسول الله ﷺ (قيل لي أنت منهم)[٢] [٣].

فأي شهادة أعظم مما نطقت به هذه الآية من أن الله يحب ابن مسعود: ﴿والله يحب المحسنين﴾؟!.

ب ـ قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: **نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن مسعود**، قال: كنا نسبق إلى النبي ﷺ، وندنو منه، ونسمع منه، فقالت قريش: يدني هؤلاء دوننا؟! فنزلت: **﴿ولا تطرد الذين يدعون ربَّهم بالغَداة والعَشيِّ﴾**[٤].

وتتمة الآية: ﴿يريدون وجهَه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء، فتطردَهُم فتكونَ من الظالمين﴾. وبالتأمل في هذه الآية تجد المكانة العظيمة لابن مسعود ـ ومن معه ـ إذ أنها تصفهم بأنَّهم ﴿ يريدون وجهه ﴾، وكفى بالله شهيداً.

جـ ـ وعن علقمة عن عبد الله قال: «**لمَّا نزلت: ﴿ الذين آمنوا ولم يَلْبسُوا إيمانهم بظُلْم ﴾؛ قال رسول الله ﷺ: (قيل لي أنت منهم)**[٥].

---

(١) تتمتها: (وعملوا الصالحات، ثم اتقَّوا وآمنوا، ثم اتقَّوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين).

(٢) قيل لي: (أنت منهم): قال النووي: معناه أن ابن مسعود منهم. شرح مسلم للنووي: ٥/٣٢٣.

(٣) مسلم: رقم ٢٤٥٩، والترمذي، وانظر جامع الأصول: ٩/٤٩ ـ ٥٠، وتفسير ابن كثير: ٣/١٨١.

(٤) تفسير ابن كثير: ٣/٢٥٥، سير أعلام النبلاء: ١/٢٥٥، والآية في سورة الأنعام رقم (٥١).

(٥) تفسير ابن كثير: ٣/٢٨٨. ومعنى بظلم: بشرك. والآية في الأنعام رقم (٨٢).

وتتمة الآية: ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾، وهذه فيها شهادة جديدة لعبد الله بأنه يوم القيامة آمن، وهو في الدنيا مهتدٍ وعلى صراط مستقيم.

د ـ عن جابر بن عبد الله «أن النبي ﷺ كان يخطب قائماً يوم الجمعة، فجاءت عيرٌ من الشام، فانفتل الناس إليها، حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلاً، فأنزلت هذه الآية التي في الجمعة: ﴿وإذا رأوا تجارةً أو لَهْواً انفضوا إليها وتركوك قائماً﴾ الجمعة الآية ١١»[٦].

وفي تسمية أولئك الاثني عشر قال ابن حجر: «وأما تسميتهم فوقع في رواية خالد الطحان عند مسلم أن جابراً قال «أنا فيهم»، وله في رواية هُشَيم: «فيهم أبو بكر وعمر»[٧]، ثم قال: «وروى العقيلي عن ابن عباس «أن منهم الخلفاء الأربعة وابن مسعود وأناساً من الأنصار» وحكى السهيلي أن أسد بن عمرو روى بسند منقطع «أن الاثني عشرهم: العشرة المبشرة، وبلال، وابن مسعود» قال: وفي رواية: «عمار» بدل ابن مسعود إهـ. ورواية العقيلي أقوى وأشبه بالصواب، ثم وجدت رواية أسد بن عمرو عند العقيلي بسند متصل لا كما قال السهيلي أنه منقطع. أخرجه من رواية أسد عن حصين عن سالم»[٨].

---

(٦) البخاري، الفتح: رقم ٩٣٦، مسلم: رقم ٨٦٣ واللفظ له. وعند البخاري: «بينما نحن نصلّي مع النبي ﷺ إذ أقبلت عير تحمل طعاماً...». قال النووي: المراد بالصلاة انتظارها في حال الخطبة كما وقع في رواية مسلم. شرح مسلم للنووي: ٢/٥١٥.

(٧) مسلم: رقم ٨٦٣ وأطرافه.

(٨) الفتح: شرح الحديث ٩٣٦ ـ كتاب الجمعة.

وهكذا فابن مسعود قد تجمَّع له في آيات القرآن الكريم أربع **صفات عظيمة**: فهو من المحسنين الذين يحبهم الله تعالى، والإحسان أعلى درجات الايمان. ثم من الذين يعبدون الله بإخلاص، ويريدون وجهه سبحانه دون سواه، وهذا علامة الاحسان، وشرط القبول. وتأكد إخلاصه في الصفة الثالثة فهو بعيد عن الشرك، فجمع بين إيجابية الايمان وسلبية الانخلاع من الشرك؛ فكان من الآمنين يوم القيامة. وتوّج ذلك كله بعدم التلهِّي بمتاع الدنيا، وإيثار الآخرة، فمكث يستمع خطبة النبي ولم يلتفت إلى عرض زائل. وبذا استحق ذلك الثناء الذي أثنى به عليه الصادق المصدوق ﷺ.

ثانياً ـ مكانته عند النبي ﷺ:

أ ـ عن مسروق قال: «كنا نأتي عبد الله بن عمرو فنتحدث اليه ـ وقال ابن نمير: عنده ـ فذكرنا يوماً عبد الله بن مسعود، فقال: لقد ذكرتم رجلًا لا أزال أحبه بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **(خذوا القرآن من أربعة: من ابن أمِّ عبد ـ فبدأ به ـ ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب، وسالم مولى أبي حذيفة)**[٩].

ب ـ وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «سمعت ابن مسعود يقول: قال لي رسول الله ﷺ: (إذنك عليَّ أن يُرفع الحجاب، وأن تستمع سوادي حتى أنهاك)[١٠].

---

(٩) البخاري، الفتح: رقم ٣٧٦٠، مسلم: رقم ٢٤٦٤، جامع الأصول: ٨/٥٦٨ ـ ٥٦٩.

(١٠) مسلم: رقم ٢١٦٩، المسند: رقم ٣٦٨٤، وابن ماجه، ومعنى إذنك =

جـ - وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كنا جلوساً عند النبي ﷺ فقال: **(إني لا أدري ما قدر بقائي فيكم، فاقتدوا باللَّذين من بعدي - وأشار الى أبي بكر وعمر - واهتدوا بهدي عمار، وما حدثكم ابن مسعود فصدّقوه)**[11].

وفي رواية أخرى عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اقتدوا باللَّذين من بعدي من أصحابي: أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدي عمار، وتمسكوا بعهد ابن مسعود)[12].

د - وعن زِرٍّ بن حُبيش عن ابن مسعود: «أنه كان يجتني سِوَاكاً من الأراك - وكان دقيق الساقين - فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: (ممَّ تضحكون)؟ قالوا: يا نبي الله، من دقَّة ساقيه! فقال: **«والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد»**[13].

وفي رواية أخرى عن أم موسى[14] قالت: سمعت علياً يقول: «أمر النبي ﷺ ابن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها، فنظر

عليّ: أي في الدخول عليّ. والسواد - بكسر السين - المراد به السرار، والسواد اسم لكل شخص.

(11، 12) أخرجه الترمذي برقم ٣٨٠٤ وقال: هذا حديث حسن، ورواه الحاكم وأحمد. انظر: جامع الأصول: ٨/٥٧٢ - ٥٧٣، حياة الصحابة: ١/٢٧، كشف الخفاء: ١/١٦٠ رقم ٤٨٢، سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٢.

(13) المسند: رقم ٣٩٩١، والطيالسي، والهيثمي (٩/٢٨٩) وعزاه إلى أبي يعلى والبزار والطبراني من طرق وقال: أمثل طرقها فيه عاصم بن أبي النُّجود، وهو حسن الحديث على ضعفه، وبقية رجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح. وانظر أسد الغابة: ٣/٣٨٨.

(14) هي سرية علي بن أبي طالب، قيل: اسمها فاختة، وقيل: حبيبة، مقبولة، من الثالثة. تقريب التهذيب: ٢/٦٢٥.

أصحابه الى حموشة ساقيه فضحكوا منها، فقال النبي ﷺ: (ما تضحكون؟ لرجل عبد الله يوم القيامة في الميزان أثقل من أحد)[١٥].

هـ ـ عن علي قال: قال رسول الله ﷺ: (لو كنت مؤمِّراً أحداً دون شورى المسلمين، لأمّرت ابن أمِّ عبد)[١٦].

و ـ عن زر عن عبد الله «**أن النبي ﷺ أتاه مع أبي بكر وعمر، وعبد الله يصلِّي، فافتتح النساء فسحلها**[١٧]**، فقال النبي ﷺ: (من أحب أن يقرأ القرآن غضّاً كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أمِّ عبد)، ثم تقدم فسأل، فجعل النبي ﷺ يقول: (سَلْ تُعْطه، سَلْ تُعْطه)**، فقال فيما سأل: اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد، ونعيماً لا ينفد، ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد. قال: فأتى عمر رضي الله عنه عبد الله يبشره، فوجد أبا بكر رضوان الله عليه قد سبقه، فقال: إن فعلت، لقد كنت سبّاقاً بالخير»[١٨].

ز ـ وقال ابن عبد البر في ترجمة ابن مسعود: «**وشهد له**

---

(١٥) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٥، والإصابة: ٦/٢١٧، وقد حسَّن الحافظ إسناده من طريق علي، وسير أعلام النبلاء: ١/٣٤٢.

(١٦) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٤، الاستيعاب: ٧/٢٣، أسد الغابة: ٣/٣٨٨، سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٢.

(١٧) أي قرأها كلها قراءة متتابعة متصلة.

(١٨) المسند: رقم ٣٦٦٢، ٤٢٥٥، ٤٣٤٠. وروى الجزء الأول منه ابن ماجه، والطيالسي بنحوه، والهيثمي (٩/٢٨٧ ـ ٢٨٨) وعزاه إلى البزار والطبراني ـ وقال: فيه عاصم بن أبي النجود، وهو على ضعفه حسن الحديث، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه الترمذي بنحوه وقال: حسن صحيح، انظر: جامع الأصول: ٤/١٥٦، إحياء علوم الدين: ١/٢٧٩ ـ ٢٨٠، سير أعلام النبلاء: ١/٣٤٠.

رسول الله ﷺ **بالجنة في حديث العشرة** بإسناد حسن جيد»، ثم ساق الحديث مسنداً عن سعيد بن زيد قال: «كنا مع رسول الله ﷺ على حراء، فذكر عشرة في الجنة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن مالك، وسعيد بن زيد، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم»[١٩].

ثالثاً ـ مكانته عند الصحابة رضي الله عنهم:

أ ـ عند عمر بن الخطاب:

لقد كان ابن مسعود يتبوأ منزلة عالية عند عمر، وتتجلى تلك المنزلة في الروايات التالية:

● قال زيد بن وَهْب: «إني لجالس مع عمر إذ جاءه ابن مسعود يكاد الجلوس يوارونه من قصره، فضحك عمر حين رآه، فجعل يكلِّم عمر ويضاحكه وهو قائم، ثم ولَّى، فأتبعه عمر بصره، حتى توارى، فقال: **كنيف ملئ علماً**»[٢٠].

وفي رواية أخرى أيضاً عن زيد بن وهب قال: «كنت جالساً في القوم عند عمر، إذ جاء رجل نحيف قليل، فجعل عمر ينظر إليه ويتهلَّل وجهه، ثم قال: كُنَيف مليء علماً، كُنَيف مليء **علماً**، كُنَيف مليء علماً، فإذا هو ابن مسعود»[٢١].

● وعن علقمة قال: «سمعت عمر يقول: آثرت أهل الكوفة بعبد الله على نفسي»[٢٢].

---

(١٩) الاستيعاب: ٧/٢٢ ـ ٢٣.

(٢٠) أسد الغابة: ٣/٣٨٩، وسير أعلام النبلاء: ١/٣٥١، اعلام الموقعين: ١/١٧، وكُنَـيف: تصغير تعظيم للكِنْف، وهو الوعاء.

(٢١) طبقات ابن سعد: ٣/١٥٦.

(٢٢) المرجع السابق: ٦/٩.

وعن الضحاك قال: «قال عمر: **لقد آثرت أهل الكوفة بابن أم عبد على نفسي، إنَّه من أطولنا فُوقاً، كُنَيف ملىء علماً**»[٢٣].

وعن مالك بن الحارث عن أبي خالد ـ رجل من أصحاب عمر ـ قال: «وفدنا إلى عمر فأجازنا، ففضَّل أهل الشأم علينا بالجائزة، فقلنا: يا أمير المؤمنين، أتفضِّل أهل الشأم علينا؟ فقال: يا أهل الكوفة أجزعتم أن فضلت أهل الشأم عليكم لبعد شقتهم؟! لقد آثرتكم بابن أمِّ عبد»[٢٤].

● وعن أبي وائل أن ابن مسعود رأى رجلاً قد أسبل إزاره، فقال: ارفع إزارك، فقال: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك! فقال له عبد الله: إني لست مثلك، إنَّ بساقيّ حموشة، وأنا أؤم الناس، **فبلغ ذلك عمر، فجعل يضرب الرجل ويقول: أتردّ على ابن مسعود؟!**»[٢٥].

ب ـ عند علي بن أبي طالب:

● عن أبي البختري قال: «أتينا علياً فسألناه عن أصحاب محمد ﷺ فقال: عن أيِّهم؟ قال: قلنا: حدثنا عن عبد الله بن مسعود، قال: علم القرآن والسنة، ثم انتهى، وكفى بذلك علماً»[٢٦].

● وعن حبَّة بن جُوَين قال: «كنا عند علي فذكرنا بعض قول

---

(٢٣) و (٢٤) طبقات ابن سعد: ٦/ ٩.

(٢٥) سير أعلام النبلاء: ١/ ٣٥١، حياة الصحابة: ٣/ ١٩. وقد مرَّت أقوال كثيرة لعمر تعبر عن مكانة ابن مسعود وعنده، وقد تركت ذكرها هنا تجنباً للتكرار.

(٢٦) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٤٦، حلية الأولياء: ١/ ١٢٩.

عبد الله، وأثنى القوم عليه، فقالوا: يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلاً كان أحسن خلقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشدَّ ورعاً، من عبد الله بن مسعود، فقال علي: نشدتكم الله، إنه لصدق من قلوبكم؟!. قالوا: نعم، قال: اللهم إني أشهدك، اللهم إني أقول فيه مثل ما قالوا أو أفضل(٢٧).

● وعن حبَّة أيضاً قال: «لما قدم علي الكوفة أتاه نفر من أصحاب عبد الله، فسألهم عنه حتى رأوا أنه يمتحنهم، قال: **وأنا أقول فيه مثل الذي قالوا أو أفضل، قرأ القرآن فأحلّ حلاله، وحرّم حرامه، فقيه في الدين، عالم بالسنة**»(٢٨).

جـ - عند حذيفة بن اليمان:

عن عبد الرحمن بن يزيد قال: «أتينا حذيفة فقلنا: حدثنا بأقرب الناس من رسول الله ﷺ هدياً ودلاً، فنأخذ عنه ونسمع منه، قال: كان أقرب الناس هدياً ودَلاً وسَمْتاً برسول الله ﷺ ابن مسعود، حتى يتوارى منّا في بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد أنَّ ابن أمِّ عبد من أقربهم إلى الله زلفى»(٢٩).

د - عند أبي الدرداء:

● عن علقمة قال: دخلت الشام فصليت ركعتين فقلت: اللهم يسِّر لي جليساً صالحاً، فأتيت قوماً، فجلست إليهم، فإذا شيخ قد جاء جلس إلى جنبي، قلت: من هذا؟ قالوا: أبو الدرداء، فقلت:

---

(٢٧) طبقات ابن سعد: ١٥٦/٣، أسد الغابة: ٣٨٨/٣ - ٣٨٩.
(٢٨) طبقات ابن سعد: ١٥٦/٣، سير أعلام النبلاء: ٣٥٢/١.
(٢٩) البخاري مختصراً، الفتح: رقم ٣٧٦٢، سير أعلام النبلاء ٣٤٦/١، أسد الغابة: ٣٨٨/٣، طبقات ابن سعد: ١٥٤/٣، حلية الأولياء: ١٢٦/١، الإصابة: ٢١٦/٦، وهنا قال الحافظ: أخرجه الترمذي بسند صحيح.

إني دعوت الله أن ييسر لي جليساً صالحاً، فيسّر لي، قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل الكوفة، قال: أوليس فيكم ابن أمٍّ عبد صاحب النَّعْلين والوسادة والمطهرة - يعني ابن مسعود - ؟ وفيكم الذي أجاره الله من الشيطان على لسان نبيه - يعني عماراً - ؟ . .»(٣٠).

● وعن حُرَيث بن ظهير قال: جاء نعي عبد الله بن مسعود الى أبي الدرداء، فقال: «**ما ترك بعده مثله**»(٣١).

هـ - عند معاذ بن جبل:

● عن معبد الجهني قال: «كان رجل يقال له: يزيد بن عُميرة السكسكي، وكان تلميذاً لمعاذ بن جبل، فحدث أن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة قعد يزيد عن رأسه يبكي، فنظر إليه معاذ فقال: ما يبكيك؟ فقال له يزيد: أما والله ما أبكي لدنيا كنت أصيبها منك، ولكني أبكي لما فاتني من العلم! فقال له معاذ: **إن العلم كما هو لم يذهب، فاطلب العلم بعدي عند أربعة: عند عبد الله بن مسعود، وعبد الله بن سلام الذي قال رسول الله ﷺ (هو عاشر عشرة في الجنة)، وعند عمر، ولكن عمر يشغل عنك، وعند سلمان الفارسي . .**»(٣٢).

و- عند أبي موسى الأشعري وأبي مسعود البدري:

---

(٣٠) البخاري، الفتح: رقم ٣٧٦١، مسلم: رقم ٨٢٤ الجزء الأخير منه، والترمذي، وانظر جامع الأصول: ٨/٥٧٠، سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٤.

(٣١) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٢، الإصابة: ٦/٢١٦، وقال الحافظ: عند البخاري في التاريخ بسند صحيح.

(٣٢) طبقات ابن سعد: ٢/٣٥٢-٣٥٣، ورواه ابن خزيمة وابن عساكر، والترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وفيه: . . . «عند عويمر أبي الدرداء». بدلاً من «عمر»، وانظر: جامع الأصول: ٨/٥٦٩، حياة الصحابة: ٣/١٩٦-١٩٧.

● عن أبي الأحوص قال: «شهدت أبا موسى وأبا مسعود حين مات ابن مسعود، فقال أحدهما لصاحبه: أتراه ترك بعده مثله؟! فقال: إن قلت ذاك، إن كان ليؤذن له إذا حجبنا، ويشهد إذا غبنا[٣٣].

● وعن أبي الأحوص أيضاً قال: «كنا في دار أبي موسى في نفر من أصحاب عبد الله، وهم ينظرون في مصحف، فقام عبد الله، فقال أبو مسعود: ما أعلم رسول الله ﷺ ترك بعده أعلم بما أنزل الله من هذا القائم!. فقال أبو موسى: أما لئن قلت ذاك، لقد كان يشهد اذا غبنا، ويؤذن له إذا حجبنا[٣٤].

● وعن أبي عمرو الشيباني: «أن أبا موسى استفتي في شيء من الفرائض، فغلط، فخالفه ابن مسعود، فقال أبو موسى: لا تسألوني عن شيء ما دام هذا الحبر بين أظهركم[٣٥]..

● وعن أبي عبيدة قال: سمعت أبا موسى يقول: مجلس كنت أجالسه ابن مسعود أوثق في نفسي من عمل سنة»[٣٦].

ز ـ عند عمرو بن العاص:

عن الحسن قال: «قيل لعمرو بن العاص: قد كان رسول الله ﷺ يحبّك ويستعملك، قال: قد كان والله يفعل، فلا أدري أحب أم تألّف يتألّفني، ولكني أشهد على رجلين توفي رسول الله ﷺ وهو يحبهما: عبد الله بن مسعود، وعمار بن ياسر[٣٧].

(٣٣ ، ٣٤) مسلم: رقم ٢٤٦١ طبقات ابن سعد. ٣٤٣/٢، وابو مسعود هو: عقبة بن عمرو الأنصاري، الصحابي، الجليل، البدري.
(٣٥) سير أعلام النبلاء: ٣٥٢/١، طبقات ابن سعد: ٣٤٣/٢.
(٣٦) سير أعلام النبلاء: ٣٥٢/١.
(٣٧) طبقات ابن سعد: ٢٦٣/٣، سير أعلام النبلاء: ٣٤٥/١.

رابعاً ـ مكانته عند التابعين وتابعيهم:

أ ـ عند تلميذه مسروق:

● عن مسروق بن الأجدع قال: «**لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ[٣٨]: فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم[٣٩]، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ**[٤٠].

● وعن مسروق أيضاً قال: «شاممت[٤١] أصحاب رسول الله ﷺ، فوجدت علمهم انتهى الى ستة: إلى عمر وعلي وعبد الله ومعاذ وأبي الدرداء وزيد بن ثابت، فشاممت هؤلاء الستة فوجدت علمهم انتهى إلى علي وعبد الله»[٤٢].

ب ـ وعن عامر بن شراحيل الشعبي قال: «**ما كان أحد من أصحاب النبي ﷺ أفقه من صاحبنا عبد الله، يعني ابن مسعود**»[٤٣].

وقال: «**ما دخلها**[٤٤] أحد من أصحاب محمد ﷺ أنفع علماً، ولا أفقه صاحباً منه، يعني ابن مسعود»[٤٥].

---

(٣٨) هو مجتمع الماء.
(٣٩) الصَّدَر: هو رجوع الشاربة من الوِرْد.
(٤٠) طبقات ابن سعد: ٢/٣٤٣، حياة الصحابة: ٣/٧٩١.
(٤١) يقال: شاممت فلاناً إذا قاربته وتعرفت ما عنده بالاختبار والكشف، وهي مفاعلة من الشم، كأنك تشم ما عنده، ويشم ما عندك، لتعملا بمقتضى ذلك.
(٤٢) طبقات ابن سعد: ٢/٣٥١، حياة الصحابة: ٣/٧٩٣.
(٤٣) طبقات ابن سعد: ٦/١٠.
(٤٤) يعني الكوفة.
(٤٥) طبقات ابن سعد: ٦/١١.

خامساً ـ مكانته عند أئمة الاسلام:

● قال الإمام النووي رحمه الله تعالى: «وكان من كبار الصحابة وساداتهم وفقهائهم، ومقدّميهم في القرآن والفقه والفتوى، وأصحاب الخلق، وأصحاب الاتباع في العلم»(٤٦).

● وقال الحافظ الذهبي عليه رحمة الله:

«أبو عبد الرحمن، عبد الله ابن أم عبد، الهذلي، صاحب رسول الله ﷺ وخادمه، وأحد السابقين الأولين، ومن كبار البدريين، ومن نبلاء الفقهاء والمقرئين، كان ممن يتحرّى في الأداء، ويتشدّد في الرواية، ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ»(٤٧).

● وقال أبو نعيم الأصبهاني:

«ومن طبقة السابقين المهاجرين، المعروفين بالنُّسك من المعمَّرين، القارىء الملقَّن، والغلام المعلّم، والفقيه المفهَّم، صاحب السِّواد والسّرار، والسباق والبدار، أقربهم وسيلة وأرجحهم فضيلة، كان من الرُّفقاء النجباء، والوزراء الرقباء، عبد الله بن مسعود، الكلف بالمعبود، والشاهد للمشهود، والحافظ للعهود، والسائل الذي ليس بمردود»(٤٨).

* * *

(٤٦) تهذيب الأسماء واللغات: ١/ ٢٨٩.
(٤٧) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٣.
(٤٨) حلية الأولياء: ١/ ١٢٤.

الفصل الخامس عشر

أخبارٌ متفرّقة

- أولاً ـ مدحه للأكابر من الصحابة رضي الله عنهم
- ثانياً ـ آراء له متفرقة
- ثالثاً ـ إنكاره الشديد على رجلٍ نظر إلى أجنبية
- رابعاً ـ ذهابه لرؤية الشجرة التي استظل تحتها موسى عليه الصلاة والسلام
- خامساً ـ إملاؤه المصحف عن ظهر قلب
- سادساً ـ حوار بين عمر بن الخطابِ وركب فيهم ابن مسعود
- سابعاً ـ رؤيا جميلة وعظيمة في حقِّه
- ثامناً ـ دفنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه.

أخبار متفرقة

أولاً ـ مدحه للأكابر من الصحابة رضي الله عنهم:

مع تلك المنزلة الرفيعة في العلم والفقه، والقرآن والتفسير، والورع والزهد، ومع الثناء الجميل من أصحاب ألسنة الصدق ـ ما كان ابن مسعود ليهضم ذوي الحقوق حقوقهم، بل كان يعرف لهم فضلهم وينشره بين الناس.

أ ـ مدحه لعمر بن الخطاب:

● يقول في أهمية إسلامه بالنسبة للمسلمين: «**لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلِّي بالبيت حتى أسلمَ عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي**»[(١)].

ويقول: «ما زلنا أعزَّة منذ أسلم عمر»[(٢)].

● وعن هديه واتباعه فجّه يقول فيما رواه زيد بن وَهْب: «أتيت ابنَ مسعود أستقرئه آية من كتاب الله، فاقرأنيها كذا وكذا، فقلت: إنَّ عمر أقرأني كذا وكذا، خلاف ما قرأها عبد الله، قال: فبكى حتى رأيت دموعه خلال الحصى، ثم قال: اقرأها كما أقرأك عمر، فوالله لهي أبين من طريق السَّيْلَحَين. إنَّ عمر كان للإسلام حصناً حصيناً يدخل الإسلام فيه ولا يخرج منه، فلما قُتل عمر انثلم

(١، ٢) طبقات ابن سعد: ٣/ ٢٧٠.

الحصن، فالاسلام يخرج منه ولا يدخل فيه»[٣].

● وعن حبِّـه له يروي أبو وائل فيقول: **«قدم علينا عبد الله بن مسعود فنعَى إلينا عمر، فلم أر يوماً كان أكثر باكياً ولا حزيناً منه، ثم قال: واللهِ لو أعلم عمرَ كان يحبُّ كلباً لأحببته، والله إني أحسب العِضـاه وَجَد فقْدَ عمر»**[٤].

● وفي علمه يقول: «لو أن علم عمر وضع في كِفَّة ميزان، ووضع علم أهل الأرض في كِفّة؛ لرجح علمه بعلمهم، قال وكيع: قال الأعمش: فانكرت ذلك، فأتيت إبراهيم[٥] فذكرت له، فقال: وما أنكرت من ذلك! فوالله لقد قال عبد الله أفضل من ذلك؛ قال: إني لأحسب تسعة أعشار العلم ذهب يوم ذهب عمر»[٦].

ب ـ مدحه معاذ بن جبل:

عن فروة بن نوفـل الأشجعي قال: «**قـال ابن مسعود: إنَّ معاذ بن جبل كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولـم يكُ من المشركين!** فقلت: غلط أبو عبد الرحمن، إنما قال الله: ﴿ إنّ إبراهيم كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين ﴾! فأعادها عليّ فقال: إنَّ معاذ بن جبل كان أمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يكُ من المشركين، فعرفت أنه تعمّد الأمر تعمّداً فسكتُّ، فقال: أتدري ما الأمّـة وما القـانت؟ فقلت: الله أعلم، فقال: الأمّة الذي يعلّم الناس الخير، والقانت المطيع لله

(٣) المرجع السابق: ٣/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٤) المرجع السابق: ٣/ ٣٧٢. والعضاه: من شجر البادية.
(٥) هو إبراهيم النخعي التابعي الجليل.
(٦) حياة الصحابة: ٣/ ٧٨٩، اعلام المـوقعين: ١/ ١٦، طبقات ابن سعـد: ٢/ ٣٣٦، وقال الهيثمي (٩/ ٦٩): رواه الطبراني بأسانيد، ورجال هذا رجال الصحيح غير أسد بن موسى، وهو ثقة.

ورسوله، وكذلك كان معاذ، كان يعلِّم الناس الخير، وكان مطيعاً لله ورسوله»[7].

جـ ـ مدحه ابن عباس:

● روى يعقوب بن سفيان في تاريخه عن ابن مسعود قال: **«لو أدرك ابن عباس أسناننا ما عشّره رجل منا»**[8].

● ويقول: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس، وفي رواية: «نعم الترجمان للقرآن ابن عباس»[9].

ثانياً ـ آراء له متفرقة:

أ ـ رأيه في الكبائر:

عن إبراهيم عن علقمة كلاهما عن ابن مسعود قال: «الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها»[10]

وعن زر بن حبيش عن ابن مسعود قال: «الكبائر من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها، ثم تلا: [إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه]. . الآية»[11].

ب ـ الحلف بغير الله:

روى الطبراني عن عبد الله بن مسعود قال: «لأن أحلف بالله

---

(7) طبقات ابن سعد: ٢/٣٤٩، تفسير ابن كثير: ٤/٥٣٠، والآية هي ١٢٠/من سورة النحل.

(8) ذكره الحافظ في شرح الحديث رقم: ٣٧٥٦ وقال: إسناد صحيح، وطبقات ابن سعد: ٢/٣٦٦.

(9) الفتح والطبقات في المكانين السابقين، وتفسير ابن كثير: ١/١٣، وقال ابن كثير: إسناد صحيح إلى ابن مسعود.

(١٠ـ١١) تفسير ابن كثير: ٢/٢٤٥ ـ ٢٤٦. والآية/ ٣١/ من سورة النساء.

كاذباً أحبّ إلي من أن أحلف بغير الله وأنا صادق»[12]

جـ - تصديق الكاهن والعرّاف:

روى البزار عن ابن مسعود قال: «من أتى عرّافاً أو ساحراً أو كاهناً، فسأله، فصدّقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[13].

وعنه أيضاً قال: «من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهناً، يؤمن بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[14].

د - كراهية إسناد الظهر إلى قبلة المسجد:

أخرج الطبراني في الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه «أنه رأى قوماً قد أسندوا ظهورهم إلى قبلة المسجد بين أذان الفجر والإقامة، فقال: لا تحولوا بين الملائكة وبين صلاتها»[15].

هـ - الخمر ليست دواءً:

عن شقيق بن سلمة قال: «اشتكى رجل منا بطنه، فوجد فيه الصفر - يعني الماء الأصفر - فأتى عبدَ الله فقال: إني اشتكيت بطني، فنُعت لي السُكْر! فقال عبد الله: إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرّم عليكم»[16].

---

(١٢) الترغيب والترهيب: ٣/٦٠٦، قال المنذري: رواه الطبراني موقوفاً، ورواته رواة الصحيح، ومراد عبد الله هو التشنيع على الحلف بغير الله سبحانه لااستمراء الكذب.

(١٣) الترغيب والترهيب: ٤/٣٦، قال المنذري: رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد موقوفاً.

(١٤) المرجع والمكان السابقان وقال المنذري: رواه الطبراني في الكبير، ورواته ثقات.

(١٥) حياة الصحابة: ٣/٥٩١، وقال الهيثمي (٢/٢٣): رجاله موثقون.

(١٦) السنن الكبرى: ١٠/٥.

و ـ رأيه في الزوج الولود:

قال رضي الله عنه: «ذروا الحسناء العقيم، وعليكم بالسوداء الولود»[17].

ز ـ رأيه في أن النبي ﷺ لم يرَ ربَّه سبحانه ليلة المعراج:

عن سليمان الشيباني قال: «سألت زر بن حبيش عن قول الله عز وجل: [فكان قاب قوسين أو أدنى]. ـ النجم: ـ ٩)، قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح»[18].

وعن زر «عن عبد الله قال: [ما كذب الفؤاد ما رأى] ـ (النجم: ١١) قال: رأى جبريل عليه السلام له ستمائة جناح»[19].

وعن سليمان الشيباني «سمع زر بن حبيش من عبد الله قال: [لقد رأى من آيات ربه الكبرى] ـ ﴿ النجم: ١٨ ﴾ قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح»[20].

وعند البخاري في الآية الأخيرة، عن علقمة «عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه [لقد رأى من آيات ربه الكبرى] قال: رأى رفرفاً أخضر قد سدّ الأفق»[21].

قال ابن حجر: «والحاصل ان ابن مسعود كان يذهب في ذلك إلى أن الذي رآه النبي ﷺ هو جبريل، كما ذهبت إلى ذلك عائشة»[22].

---

(١٧) كشف الخفاء: ١/٤١٧، رقم ١٣٣٦.
(١٨ ـ ١٩): مسلم رقم: ١٧٤.
(٢٠) مسلم: رقم ١٧٤.
(٢١) البخاري، الفتح: رقم ٤٨٥٨، وانظر جامع الأصول: ٢/٣٦٧ ـ ٣٦٨.
(٢٢) الفتح: شرح الحديث رقم ٤٨٥٧. وقد ذهب أبو هريرة وجماعة من =

ثالثاً ـ انكاره الشديد على رجل نظر إلى أجنبية:

عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: «دخل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ على مريض يعوده ومعه قوم، وفي البيت امرأة، فجعل رجل من القوم ينظر إلى المرأة، فقال له عبد الله: لو انفقأت عينك كان خيراً لك»(٢٣).

رابعاً ـ ذهابه لرؤية الشجرة التي استظل تحتها موسى ﷺ:

روى ابن جرير عن «عمرو بن ميمون عن عبد الله ـ هو ابن مسعود ـ قال: حثثت على جمل ليلتين حتى صبّحت مَدْيَن، فسألت عن الشجرة التي أوى إليها موسى، فإذا شجرة خضراء ترفّ، فأهوى إليها جملي ـ وكان جائعاً ـ فأخذها جملي فعالجها ساعة ثم لفظها، فدعوت الله لموسى ـ عليه السلام ـ ثم انصرفت»(٢٤).

خامساً ـ املاؤه المصحف عن ظهر قلب:

عن علقمة قال: «جاء رجل إلى عمر ـ وهو بعرفة ـ فقال: جئت يا أمير المؤمنين من الكوفة وتركت بها رجلاً يُملي المصاحف عن ظهر قلبه! فغضب وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شعبتي الرَّحل، فقال: من هو ويحك؟! قال: عبد الله بن مسعود! فما زال يطفأ ويسير عنه الغضب حتى عاد إلى حاله التي كان عليها، ثم قال:

= المحدثين مذهب ابن مسعود. وقد نقل النووي أن جمهور المفسرين وأكثر العلماء على أن النبي ﷺ رأى ربه بعيني رأسه، وقد رجّح هو ذلك. يُنظر بالتفصيل: النووي شرح مسلم: ١/٤١٥ ـ ٤١٧.

(٢٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وانظر حياة الصحابة: ٣/٩١.

(٢٤) تفسير ابن كثير: ٦/٢٣٧.

ويحك، والله ما أعلم بقي من الناس أحد هو أحق بذلك منه، وسأحدثك عن ذلك: كان رسول الله ﷺ لا يزال يسمُر عند أبي بكر الليلة كذلك في أمر من أمور المسلمين، وإنه سمر عنده ذات ليلة وأنا معه، فخرج رسول الله ﷺ وخرجنا معه، فإذا رجل قائم يصلي في المسجد، فقام رسول الله ﷺ يستمع قراءته، فلما كدنا نعرفه قال رسول الله ﷺ: (من سرّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)، قال: ثم جلس الرجل يدعو، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: (سَلْ تُعْطه، سَلْ تُعْطَه)، قال عمر: فقلت: والله لأغدونّ عليه فلأبشرنّه، قال: فغدوت عليه فبشرته، فوجدت أبا بكر قد سبقني فبشره، ولا والله ما سابقته إلى خير قط إلا سبقني إليه»[٢٥].

سادساً ـ حوار بين عمر بن الخطاب وركب فيهم ابن مسعود:

عن الشعبي قال: «ذكروا أن عمر بن الخطاب لقي ركباً في سفر له فيهم عبد الله بن مسعود، فأمر عمر رجلاً يناديهم: من أين القوم؟ فأجابه عبد الله: أقبلنا من الفجِّ العميق. فقال عمر: أين تريدون؟ فقال عبد الله: البيت العتيق. فقال عمر: إن فيهم عالماً!! وأمر رجلاً فناداهم: أيُّ القرآن أعظم؟ فأجابه عبد الله: [الله لا إلّه إلَّا هو الحيُّ القيُّوم] حتى ختم الآية. قال: نادهم: أيّ القرآن أحكم؟ فقال ابن مسعود: [إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان].. الآية. فقال

---

(٢٥) صفة الصفوة: ١/٣٩٨، حلية الأولياء: ١/١٢٤ ـ ١٢٥، سير أعلام النبلاء: ١/٣٤١ وفي هذا الأخير أن الرجل الذي كلم عمر في عرفة هو قيس بن مروان. قال ابن حجر: قيس بن أبي قيس مروان، الجعفي، الكوفي، صدوق، تقريب التهذيب: ٢/١٣٠.

عمر: نادهم: أيّ القرآن أجمع؟ فقال ابن مسعود: [فمن يعملْ مثقال ذرَّة خيراً يَرَه، ومن يعمل مثقال ذرَّةٍ شراً يَرَهْ]. فقال عمر: نادهم: أيّ القرآن أخوف؟ فقال ابن مسعود: [ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهلِ الكتابِ، مَنْ يعملْ سُوءاً يُجْزَ به]. فقال عمر: نادهم: أيّ القرآن أرجى؟ فقال ابن مسعود: [يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله]. فقال: نادهم: أفيكم ابن مسعود؟ قالوا: اللهم نعم»[٢٦]!!

سابعاً ـ رؤيا في حقِّه:

عن محمد[٢٧] بن يزيد الأسفاطي قال: «رأيت النبي ﷺ فيما يرى النائم، فقلت: يا رسول الله، حديث ابن مسعود الذي حدث عنك فقال: حدثني رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق؟ فقال ﷺ: (والذي لا إلَه غيره حدثته به أنا) يقوله ثلاثاً، ثم قال: غفر الله للأعمش كما حدث به، وغفر الله لمن حدث به قبل الأعمش، ولمن حدث به بعده»[٢٨].

ثامناً ـ دفنه أبا ذرٍّ رضي الله عنه:

عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال: «لما

---

(٢٦) صفة الصفوة: ١/٤٠٠.

(٢٧) هو محمد بن يزيد بن عبد الملك الأسفاطي البصري الأعور، خال العباس ابن الفضل، صدوق. تقريب التهذيب: ٢/٢١٩. وفي الأصل؛ ابن زيد، وبالهامش: ابن يزيد.

(٢٨) جامع العلوم والحِكم: ص ٤٤، والحديث هو: «حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق: إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك...» رواه الشيخان.

نفى عثمان أبا ذر إلى الربذة[٢٩]، وأصابه بها قدره، ولم يكن معه أحد إلّا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن اغسلاني وكفناني وضعاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرّ بكم فقولوا: هذا أبـو ذر صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فلما مات فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبد الله بن مسعود في رهط من أهل العراق عُمّاراً، فلم يَرُعْهم إلّا بالجنازة على ظهر الطريق، قد كادت الإبل أن تطأها، فقام إليه الغلام فقال: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله ﷺ، فأعينونا على دفنه، فاستهلّ عبد الله يبكي ويقول: صدق رسول الله: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتُبعث وحدك، ثم نزل هو وأصحابه فواروه، ثم حدّثهم عبد الله بن مسعود حديثه وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك»[٣٠].

* * *

(٢٩) بل الصحيح أن أباذر هو الذي اختار الذهاب الى الربذة.
(٣٠) طبقات ابن سعد: ٤/٢٣٤ ـ ٢٣٥، سيرة ابن هشام: ٢/٥٢٤.

الفصل السادس عشر

وفاته رضي الله عنه

- إرهاص بذلك
- وصيته
- وفاته وحضور عثمان رضي الله عنه له
- وقت الوفاة ومكانها وعمره آنذاك والصلاة عليه
- تركته

وَفاتُه رَضيَ اللهُ عَنهُ

إرهاص بذلك:

عن عبد الله بن أبي الهذيل قال: «لمّا بنى عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - داره قال لعمّار - رضي الله عنه - هلمَّ انظر إلى ما بنيت، فانطلق عمَّار فنظر إليه فقال: بنيت شديداً، وأمّلت بعيداً - أو تأمل بعيداً - وتموت قريباً»[1].

وقال سلمة بن تمَّام: «لقي رجل ابنَ مسعود فقال: **لا تعدم حالماً مذكِّراً، رأيتك البارحة ورأيت النبي ﷺ على منبر مرتفع، وأنت دونه، وهو يقول: يا ابن مسعود هلمّ إليّ، فلقد جُفيت بعدي!** فقال: آللّه لأنت رأيت هذا؟ قال: نعم، قال: فعزمتُ أن تخرج[2] من المدينة حتى تصلي عليّ، فما لبث أياماً حتى مات»[3].

وصيته:

- روى ابن سعد عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: «أوصى عبد الله بن مسعود إلى الزبير - وكان رسول الله ﷺ آخى بينهما -

---

(1) حلية الأولياء: ١/١٤٢، حياة الصحابة: ٢/٥٥٤.

(2) أي أن لا تخرج.

(3) أسد الغابة: ٣/٣٨٩.

فأوصى إليه وإلى ابنه عبد الله بن الزبير: هذا ما أوصى عبد الله بن مسعود، إن حدث به حدث في مرضه؛ إنّ مرجع وصيته إلى الزبير بن العوام وإلى ابنه عبد الله بن الزبير، وإنهما في حلّ وبلّ فيما وليا من ذلك وقضيا من ذلك، لا حرج عليهما في شيء منه، وإنه لا تزوّج امرأة من بناته إلا بعلمهما، ولا يُحجز ذلك عن امرأته زينب بنت عبد الله الثقفية. وكان فيما أوصى به من رقيقه: إذا أدى فلان خمسمائة فهو حر»(٤).

- وعن خثيم بن عمرو: «أن ابن مسعود أوصى أن يكفَّن في حلّة بمائتي درهم»(٥).

- وعن أبي عبيدة بن عبد الله عن عبد الله بن مسعود قال: «ادفنوني عند قبر عثمان بن مظعون»(٦).

- وعن إسماعيل بن أبي خالد قال: «**أوصى ابن مسعود أبا عبيدة ابنه بثلاث كلمات، أي بني: أوصيك بتقوى الله، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك**»(٧).

وفاته وحضور عثمان رضي الله عنه له:

قال أبو ظبية: «مرض عبد الله فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي! قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي! قال: ألا آمر لك بطبيب؟ قال: الطبيب أمرضني! قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه! قال: يكون لبناتك! قال: أتخشى على بناتي الفقر؟! إني أمرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني

(٤، ٥، ٦) طبقات ابن سعد: ٣/ ١٥٩.

(٧) حياة الصحابة: ٣/ ٣٠٠، ورواه الهيثمي (١٠/ ٢٩٩) وقال: رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح.

سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من قرأ الواقعة في ليلة لم تصبه فاقة أبداً»[٨].

وقت الوفاة ومكانها، وعمره آنذاك، والصلاة عليه:

- توفي سنة اثنتين وثلاثين هجرية في المدينة المنورة[٩].
- أما عمره آنذاك فقد كان بضعاً وستين سنة[١٠].
قال يحيى بن أبي عتبة: «عاش ثلاثاً وستين سنة»[١١].

وفي رواية أنه «مات سنة ثلاث وثلاثين»، قال الذهبي: «لعلَّه مات في أولها»[١٢].

وقال بعضهم: «مات قبل عثمان بثلاث سنين»[١٣]، وهذا مؤيِّد للرواية الأولى. والله أعلم.

- والذي صلَّى عليه هو أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، قال الواقدي: «وقد روي لنا أنه صلّى على عبد الله بن مسعود عمّار بن ياسر، وقال قائل: صلّى عليه عثمان بن عفان، واستغفر كل واحد منهما لصاحبه قبل موت عبد الله. قال: «وهو أثبت عندنا: إن

---

(٨) أسد الغابة: ٣/٣٨٩ - ٣٩٠، وحديث فضل سورة الواقعة ضعّفه بعض الحفّاظ، وقال الترمذي: حسن غريب. انظر جامع الأصول: ٨/٤٨١ - ٤٨٢.
(٩) أسد الغابة: ٣/٣٩٠، وتفسير ابن كثير: ١/١٣، تقريب التهذيب: ١/٤٥٠، تذكرة الحفاظ، وقال ابن كثير: توفي سنة اثنتين وثلاثين على الصحيح.
(١٠) أسد الغابة: ٣/٣٩٠، طبقات ابن سعد: ٣/١٦٠، تقريب التهذيب، وغيرها.
(١١، ١٢، ١٣) سير أعلام النبلاء: ١/٣٥٧.

عثمان بن عفان صلى عليه»[14].

تركته

عن زر بن حبيش قـــال: «تــرك ابن مسعـــود تسعين ألف درهم»[15].

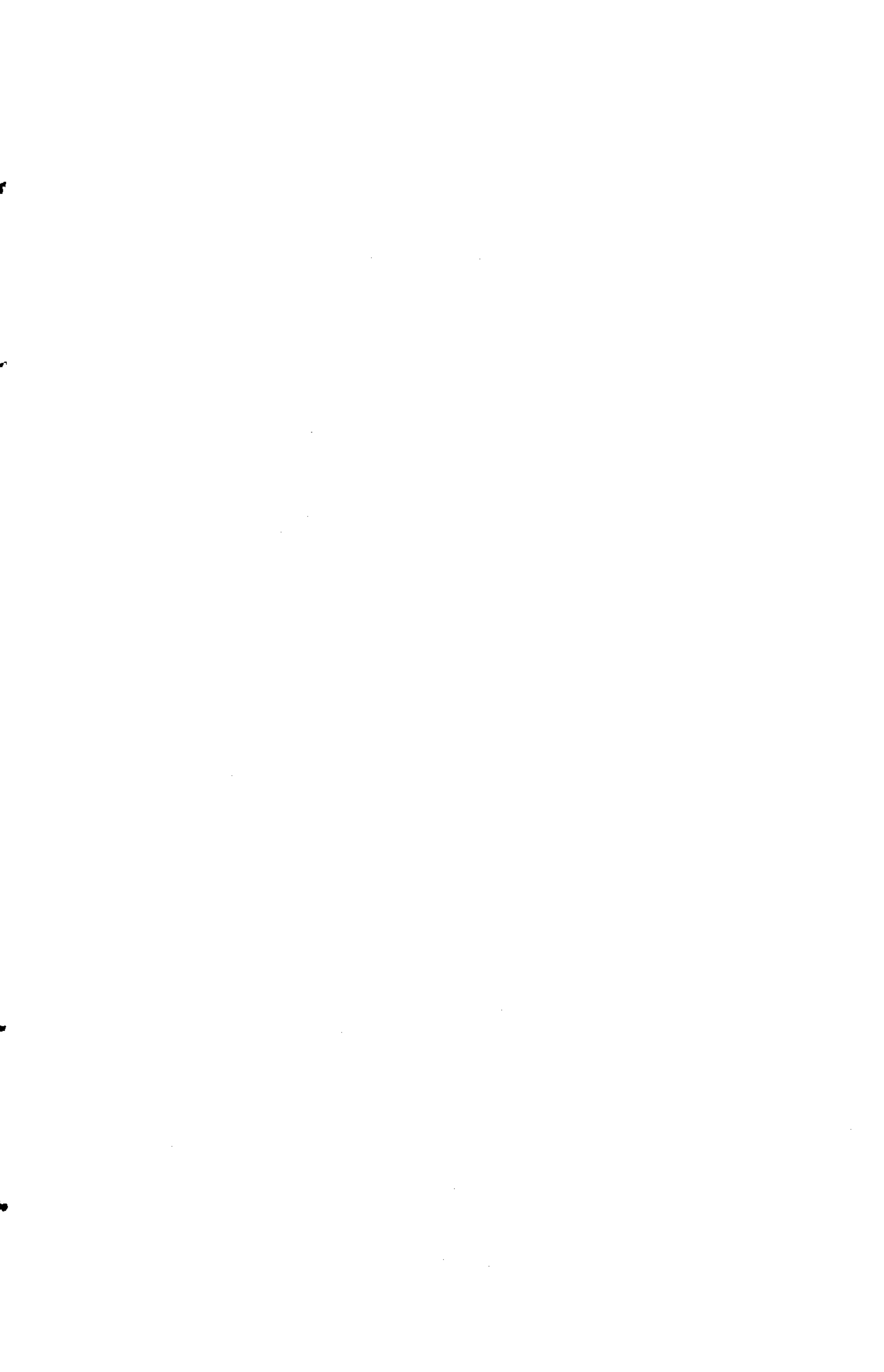
وعن قيس بن أبي حازم قال: «دخل الزبير بن العوام على عثمان بن عفان بعد وفاة عبد الله بن مسعود، فقال: أعطني عطاء عبد الله فأهل عبد الله أحق به من بيت المال، فأعطاه خمسة عشر ألف درهم»[16]

وفي رواية أن الزبير قال لعثمان: «إنَّ عياله أحوج إليه من بيت المال، فأعطاه عطاءه عشرين ألفاً، أو خمسة وعشرين ألفاً»[17].

* * *

(١٤، ١٥، ١٦) طبقات ابن سعد: ٣/١٦٠.

(١٧) المرجع السابق: ٣/١٦١.



الفصل السّابع عشر

مِنْ أقوالِهِ وَوَصَايَاه

- في القرآن وحَمَلته والعمل به
- في النبي ﷺ وصحبه الكرام
- في اتباع السُّنَّة والنُّصْرة على الحق
- في الإيمان
- في العلم والعلماء
- في الصلاة
- في الموت والصراط والآخرة
- في الكبائر
- ركوب الدابة
- نظرات في المستقبل
- مواعظ
- من خطبه

مِنْ أقْوالِهِ وَوَصَايَاه

إذا كان الناس يقولون: «كل إناء بالذي فيه ينضح»، وأن كل امرءٍ ينفق مما عنده؛ فماذا عسى ذلك الرجل الذي قال فيه رسول الله ﷺ: (وما حدثكم ابن أُمِّ عبد فصدِّقوه)، والذي قال فيه الخليفة المحدَّث عمر: كُنَيف مُلىء علماً» ـ أقول: ماذا عساه أن ينطق، وبمَ يتكلم إن لم يكن العلم والصدق والحكمة وفصل الخطاب؟!

والحق الذي لا مرية فيه أن كلمات المرء ونصائحه هي انعكاس لما يعتمل في قلبه وتنطوي عليه نفسه؛ لذا رأيت أن أختم هذا البحث بدُرَر من كلماته الجامعات، علّ ذلك أن يلقي ضوءاً جديداً على شخصيته ويكشف جانباً مخبوءاً من جوانبه المتعدّدة.

في القرآن وحَمَلته والعمل به:

● عن مرّة عن عبد الله قال: «**إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإنّ فيه علم الأوَّلين والآخِرين**»[1].

● وعن أبي الأحوص قال: قال ابن مسعود: «إنّ هذا القرآن مأدبة الله، فمن استطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفر[2]

(١) تذكرة الحفاظ: ١/ ١٦، إحياء علوم الدين: ١/٢٧٣.
(٢) أي أخلى البيوت.

البيوت من الخير الذي ليس فيه من كتاب الله شيء، وإن البيت الذي ليس فيه من كتاب الله شيء كخراب البيت الذي لا عامر له، وإن الشيطان يخرج من البيت الذي تُسمع فيه سورة البقرة»(٣).

● وفي حَمَلة القرآن يقول: «**ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشوعه إذا الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكياً محزوناً، حكيماً عليماً، سِكِّيتاً، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافياً، ولا غافلاً ولا صخّاباً، ولا صياحاً ولا حديداً**»(٤).

● ويقول في العمل به: «أُنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً، وسيأتي قوم يثقفونه مثل القناة ليسوا بخياركم، **والعالم الذي لا يعمل كالمريض الذي يصف الدواء، والجائع الذي يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها**»(٥).

في النبي ﷺ وصحبه الكرام:

● عن أبي وائل عن عبد الله قال: «**إنَّ الله نظر في قلوب العباد فاختار محمداً ﷺ فبعثه إلى خلقه، فبعثه برسالته وانتخبه بعلمه. ثم نظر في قلوب الناس بعده فاختار الله له أصحاباً، فجعلهم أنصار دينه ووزراء نبيه ﷺ، فما رآه المؤمنون حسناً فهو**

---

(٣) حلية الأولياء: ١/١٣٠ ـ ١٣١، حياة الصحابة: ٣/٧٤٣، وقد أخرجه البزار بنحوه، قال الهيثمي (١/١٢٩): ورجاله موثقون.
(٤) حلية الأولياء: ١/١٣٠، حياة الصحابة: ٣/٧٥٨.
(٥) إحياء علوم الدين: ١/٦٤.

حسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح»(٦).

● وقال أيضاً: «من كان منكم متأسِّياً فليتأسّ بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هَدْياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم»(٧).

في اتباع السُّنَّة والنُّصْرة على الحق:

● عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله قال: «**الاقتصاد في السنة أفضل من الاجتهاد في البدعة**»(٨).

, وقال رضي الله عنه: «**من نصر قومه على غير الحق فهو كالبعير الذي رُدِّي في مهواة**(٩)، **فهو ينزع بذنبه**»(١٠).

وقال: «الحق ثقيل مريّ، والباطل خفيف وبيّ، رب شهوة تورث حزناً طويلاً»(١١).

---

(٦) حلية الأولياء: ١/٣٧٥-٣٧٦، حياة الصحابة: ١/٤٧، وفي المسند رقم ٣٦٠٠ بنحوه، ورواه الطيالسي والهيثمي (١/١٧٧-١٧٨) وعزاه الى البزار والطبراني في الكبير وقال: رجاله موثقون، وتفسير ابن كثير: ٣/٣٢٥. وكشف الخفاء: ٢/١٨٨ رقم ٢٢١٤ وقال العجلوني: موقوف حسن..

(٧) جامع بيان العلم: ٢/٩٧، حياة الصحابة: ٧/٧٧٣.

(٨) تذكرة الحفاظ: ١/١٦.

(٩) المهواة: الحفرة في الأرض، وكل مهلكة مهواة.

(١٠) هكذا رواه أبو داوود موقوفاً، وفي رواية أخرى مرفوعاً، قال الشيخ الأرناؤوط: إسناده صحيح. وهو في المسند: رقم ٣٧٢٦، وقال الخطابي في معنى الحديث: «أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه ويمدّه، ولا يقدر على الخلاص».

(١١) حلية الأولياء: ١/١٣٤، حياة الصحابة: ٤/٣٥٥.

في الإيمان:

● أخرج الطبراني عنه قال: «إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم، وإنَّ الله يؤتى المال من يحب ومن لا يحب، ولا يؤتى الإيمان إلا من أحب، فإذا أحب الله عبداً أعطاه الإيمان»[١٢].

● وعن سعيد بن مسروق عن منذر قال: «جاء ناس من الدَّهاقين إلى عبد الله بن مسعود، فتعجب الناس من غلِظ رقابهم وصحتهم! قال: فقال عبد الله: إنكم ترون الكافر من أصح الناس جسماً وأمرضهم قلباً، وتلقَون المؤمن من أصح الناس قلباً وأمرضهم جسماً؛ وايمُ الله لو مرضت قلوبكم وصحّت أجسامكم لكنتم أهون على الله من الجعلان»[١٣].

في العلم والعلماء:

● قال رضي الله عنه: «لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه من أصاغرهم هلكوا»[١٤].

وقال: «إنكم لن تزالوا بخير ما دام العلم في كباركم، فإذا كان العلم في صغاركم سفّه الصغير الكبير»[١٥].

● وفي العلماء يقول: «**المتَّقون سادة، والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة**»[١٦].

---

(١٢) حياة الصحابة: ٤١٢/٣، ورواه الهيثمي (٩٠/١٠) وقال: رواه الطبراني موقوفاً ورجاله رجال الصحيح.

(١٣) حلية الأولياء: ١٣٥/١، حياة الصحابة: ٣٥٦/٤.

(١٤، ١٥) حياة الصحابة: ٧٠٣/٣.

(١٦) أخرجه الطبراني في الكبير، وقال الهيثمي (١٢٦/١): ذكر هذا في حديث طويل، ورجاله موثقون.

ويقول: «لو أن أهل العلم صانوا العلم ووضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم، ولكنهم وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا من دنياهم، فهانوا عليهم! سمعت نبيكم ﷺ يقول: (من جعل الهموم همًّاً واحداً: همّ المعاد؛ كفاه الله سائر الهموم، ومن شعبته الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك)[١٧].

وقال أيضاً «تدرون كيف يُنقص الإسلام؟ قالوا: كما يُنقص صبغ الثوب، وكما يُنقص سمَن الدابة، وكما ينقص الدرهم من طول الخباء! قال: إن ذلك لمنه، وأكبر من ذلك موت ـ أو ذهاب ـ العلماء»[١٨].

وعن أبي الأحوص قال: قال عبد الله: «إنَّ الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم»[١٩].

في الصلاة:

● ففي النوم أثناءها يقول: «النُّعاس في القتال أَمَنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان»[٢٠].

● وعن كثرتها وديمومتها يقول: «إنك ما دمت في الصلاة فأنت تقرع باب الملك، ومن يكثر قرع باب الملك يُفتح له»[٢١].

---

(١٧) حياة الصحابة: ٨٠٣/٣، كشف الخفاء: ١٥٢/٢، رقم ٢٠٨٩.

(١٨) حياة الصحابة: ٨٠٧/٣، وأخرجه الطبراني في الكبير، ورواه الهيثمي (٢٠٢/١) وقال: رجاله موثقون.

(١٩) جامع بيان العلم ١٠٠/١، حياة الصحابة: ٦٣٩/٣، إحياء علوم الدين: ٨/١.

(٢٠) تفسير ابن كثير: ٥٦٢/٣، ويشير بهذا إلى قوله تعالى: (إذ يغشّكم النعاس أمنة منه...) الأنفال ١١.

(٢١) السنن الكبرى: ٤٨٦/٢.

● وعن عبد الرحمن بن يزيد قال: «قيل لعبد الله: إن فلاناً يطيل الصلاة، قال: إنّ الصلاة لا تنفع إلا من أطالها»[٢٢].

في الموت والصراط والآخرة:

● عن الأسود قال: قال عبد الله: «ما من نفس بَرَّة ولا فاجرة إلّا الموت خير لها، لئن كان بَرّاً لقد قال الله: ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾[٢٣]».

● ويقول في إيثار الآخرة: «**من أراد الدنيا أضرّ بالآخرة، ومن أراد الآخرة أضرّ بالدنيا، يا قوم فأضرُّوا بالفاني للباقي**»[٢٤].

● ويقول في واحد من مواقف الحشر: «يحشر الناس يوم القيامة أعرى ما كانوا قط، وأجوع ما كانوا قط، وأظمأ ما كانوا قط، وأنصب ما كانوا قط، فمن كسا لله كساه الله، ومن أطعم لله أطعمه الله، ومن سقى لله سقاه الله، ومن عفا لله أعفاه الله»[٢٥].

● وفي الصراط يقول: «**يأمر الله بالصراط فيضرب على جهنم، فيمر الناس على قدر أعمالهم زمراً زمراً: أوائلهم كلمح البصر، ثم كمرّ الريح، ثم كمرّ المطر، ثم كمرّ البهائم، حتى يمر الرجل سعياً، وحتى يمر الرجل مشياً، حتى يمر آخرهم يتلبَّط على بطنه فيقول: يا رب لِمَ أبطأت بي؟! فيقول: إنِّي لم أبطىء بك، إنما أبطأ بك عملك**»[٢٦].

---

(٢٢) تفسير ابن كثير: ٦/٢٩٠.
(٢٣) تفسير ابن كثير: ٢/١٦٧.
(٢٤) حلية الأولياء: ١/١٣٨، حياة الصحابة: ٤/٣٥٧.
(٢٥) جامع العلوم والحكم: ص ٣١٨ - ٣١٩.
(٢٦) المرجع السابق: ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

في الكبائر:

قال رضي الله عنه: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والإياس من رَوْح الله، والقنوط من رحمة الله، والأمن من مكر الله»(٢٧).

ركوب الدابة:

عن أبي معمر(٢٨) عن ابن مسعود قال: «إذا ركب الرجل الدابة فلم يذكر اسم الله؛ ردفه الشيطان فقال له: تغنَّ، فإن لم يحسن قال له: تمنَّ»(٢٩).

نبوءات:

● قال رضي الله عنه: «كيف بكم إذا لبستكم فتنة يربو فيها الصغير ويهرم فيها الكبير، وتتخذ سنة؛ فإذا غيّرت يوماً قيل: هذا منكر؟! قالوا: ومتى ذلك؟ قال: إذا قلّت أمناؤكم، وكثرت أمراؤكم، وقلّت فقهاؤكم، وكثرت قراؤكم، وتُفقّه لغير الله، والتمست الدنيا بعمل الآخرة»(٣٠)!!

● ويقول: **«سيأتي على الناس زمان تملح فيه عذوبة القلوب، فلا ينتفع بالعلم يومئذ عالمه ولا متعلمه، فتكون قلوب علمائهم مثل السِّبَاخ من ذوات الملح، ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عذوبة، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة، فعند ذلك يسلبها الله تعالى ينابيع الحكمة، ويطفىء مصابيح**

---

(٢٧) تفسير ابن كثير: ٢٤٣/٢، قال ابن كثير: وهو صحيح إليه بلا شك.
(٢٨) هو عبد الله بن سخبرة تلميذ ابن مسعود.
(٢٩) السنن الكبرى: ٢٥٢/٥.
(٣٠) خرجها عبد الرزاق في كتابه، وانظر جامع العلوم: ص ٨٧.

الهـدى من قلوبهم، فيخبرك عـالمهم حين تلقـاه أنـه يخشى الله بلسانه، والفجور ظاهر في عمله! فما أخصب الألسن يومئذٍ وما أجدب القلوب!! فوالله الذي لا إلّه إلا هو ما ذلك إلاَّ لأنَّ المعلِّمين علّموا لغير الله تعالى، والمتعلِّمين تعلَّموا لغير الله تعالى»[٣١].

مواعظ:

● عن عبد الرحمن بن حجيرة عن أبيه عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه كان يقول إذا قعد: **«إنكم في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، فمن يزرع خيراً يوشك أن يحصد رغبة، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، لا يسبق بطيء بحظِّه، ولا يدرك حريص ما لم يقدَّر له، فمن أُعطي خيراً فالله تعالى أعطاه، ومن وُقي شراً فالله تعـالى وقاه، المتَّقـون سادة، والفقهـاء قادة، ومجالستهم زيادة»[٣٢].**

● وكان يقول لأصحـابه: «كـونـوا ينـابيع العلم، مصـابيح الهدى، أحلاس البيوت[٣٣]، سُرُج الليل، جُدُد القلوب، خلقـان الثياب، تعرفون في السماء وتخفون على أهل الأرض»[٣٤].

● ويقول: «ليس العلم عن كثرة الحديث، ولكن العلم عن كثرة الخشية»[٣٥].

---

(٣١) إحياء علوم الدين: ١/ ٦٤.

(٣٢) حلية الأولياء: ١/ ١٣٤، حياة الصحابة: ٤/ ٣٥٤، صفة الصفوة.

(٣٣) ملازمي البيوت.

(٣٤) جامع بيان العلم: ١/ ١٢٦، حياة الصحابة: ٣/ ٨٠١.

(٣٥) تفسير ابن كثير: ٦/ ٥٣١، إحياء علوم الدين: ١/ ٦٤.

● ويقول: «إن للقلوب شهوة وإقبالاً، وإن للقلوب فترة وإدباراً، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، ودعوها عند فترتها وإدبارها»[٣٦].

من خطبه:

● عن عمرو بن مرَّة سمعت مرة[٣٧] الهمداني يقول: «قال عبد الله: إنّ أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هَدْي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وإن ما توعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين[٣٨]».

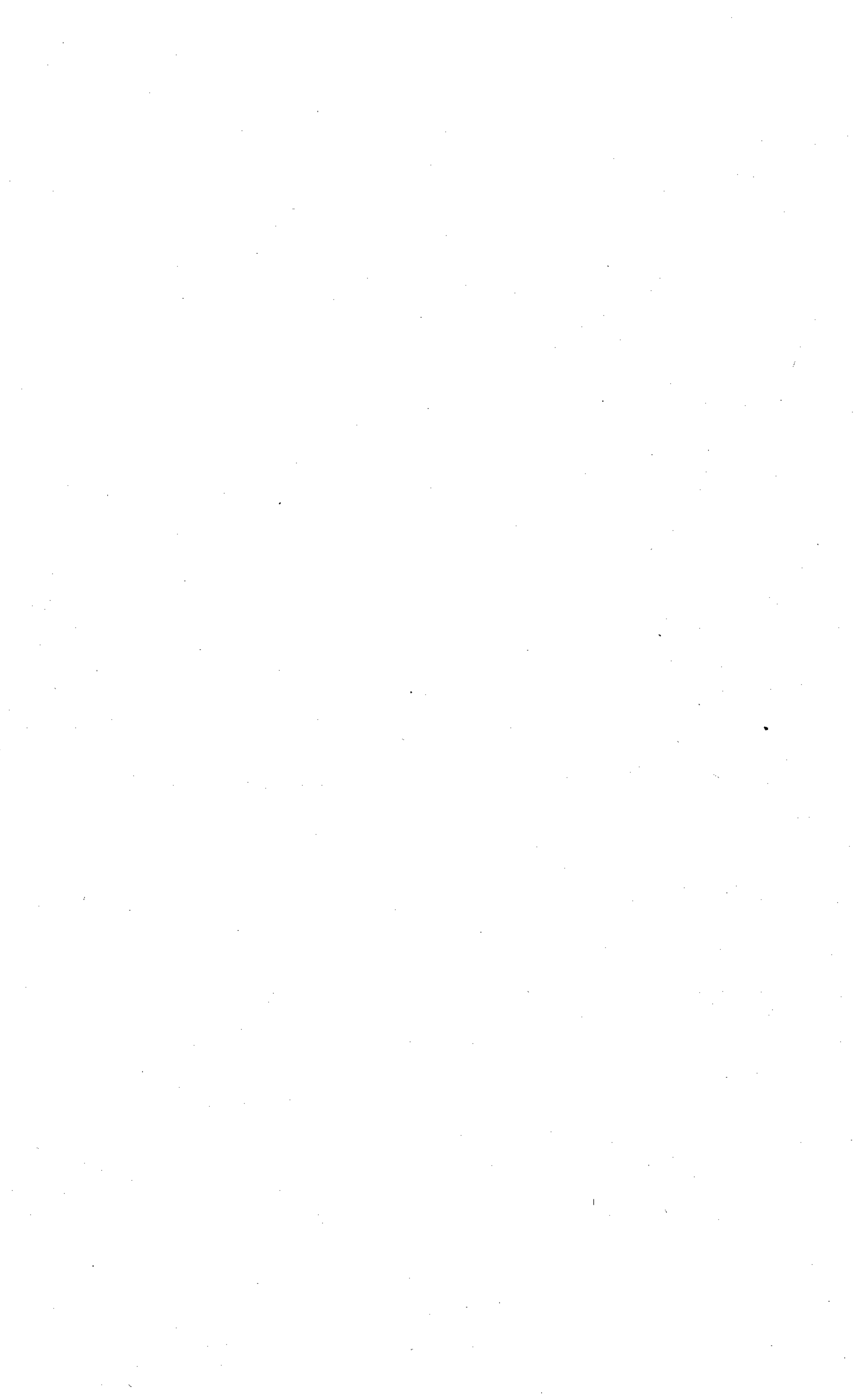
● وقال رضي الله عنه في خطبة جليلة جامعة: «إنَّ أصدق الحديث كتاب الله عز وجل، وأوثق العُرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وأحسن السنن سنة محمد ﷺ، وخير الهدى هدي الأنبياء، وأشرف الحديث ذكر الله، وخير القصص القرآن، وخير الأمورعواقبها، وشر الأمور محدثاتها، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، ونفس تُنجيها خير من إمارة لا تُحصيها، وشر العذيلة حين يحضر الموت، وشر الندامة ندامة القيامة، وشر الضلالة الضلالة بعد الهدى، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، وخير ما ألقي في القلوب اليقين، والريب من الكفر، وشر العمى عمى القلب، والخمر جماع الإثم، والنساء حِبالة الشيطان، والشباب شعبة من

(٣٦) حلية الأولياء: ١/١٣٤، حياة الصحابة: ٤/٣٥٥.
(٣٧) هو مرة بن شراحيل، ويقال له: مرة الطيِّب، وليس هو والد عمرو الراوي عنه.
(٣٨) البخاري، الفتح: رقم ٧٢٧٧، جامع الأصول: ١/٢٨٩.

الجنون[٣٩]، والنَّوْح من عمل الجاهلية، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبراً، ولا يذكر الله إلا هجراً، وأعظم الخطايا الكذب، وسباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يعف يعف الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يغفر يغفر الله له، ومن يصبر على الرزية يعقبه الله، وشر المكاسب الربا، وشر المأكل مال اليتيم، والسعيد من وُعظ بغيره، والشقي من شقي في بطن أمه، وإنما يكفي أحدكم ما قنعت به نفسه، وإنما يصير إلى أربعة أذرع، والأمر إلى آخرة، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وأشرف الموت قتل الشهداء، ومن يعرف البلاء يصبر عليه، ومن لا يعرفه ينكره، ومن يستكبر يضعه، ومن يتولَّى الدنيا تعجز عنه، ومن يطع الشيطان يعصِ الله، ومن يعصِ الله يعذبه»[٤٠].

(٣٩) قال ابن الغرس: وإنما جعله شعبة من الجنون لأن الجنون يزيل العقل وكذلك الشباب قد يسرع إلى قلة العقل، لما فيه من الميل إلى الشهوات والإقدام على المضار. كشف الخفاء: ٢/٤، رقم ١٥٣٠.

(٤٠) حلية الأولياء: ١/١٣٨ - ١٣٩، وجاء عن النبي ﷺ مرفوعاً قريباً منها، وأخرجه ابن أبي شيبة والقضاعي في الشهاب عن ابن مسعود موقوفاً، وقال بعض شراح الشهاب: حسن غريب. حياة الصحابة ٤/٢٢٥.



خاتمة

وبعد: فهذه ترجمة متوسطة لسيرة هذا الصحابي العَلَم، والرباني الكبير، وهو لا يعدو أن يكون واحداً من النماذج الحية. والصور الواقعية للمبادىء الإلهية التي أكرم الله بها البشرية، وأرشدها إليها لتقيم عليها حياتها، وتبني عليها تصوراتها وتصرفاتها. ثم هو بعد ذلك واحد من ذلك الرعيل الذي رباه النبي ﷺ على عينه.

وما دام رجال الإسلام كما وصفنا، وحياتهم كما صوّرنا، فهم جديرون بأن نعتز بهم، ونتتبع أخبارهم وننشر على الدنيا عبير سيرتهم، ونبرزهم إلى عالم الشهادة أناساً يُقتدى بهم ويُنسج على منوالهم؛ خاصة وأننا في زمان كثر فيه اعتزاز الأمم برجالاتها الذين إذا وضعوا بجانب عظمائنا فسيكونوا كشمعة جاءت لتضيء في حضرة الشمس في رابعة النهار!! هذا إن أحسنا الظن بهؤلاء الذين يعتبرون ـ تجاوزاً ـ عظماء، إذ أن البشرية اليوم تعظمهم بناءً على المبادىء التي ارتضتها لنفسها، وقد انحرفت عندها القيم، واضطربت الموازين، فأصبحت القيمة للجسم لا للروح!! وشتان بين ما أخرجه الإسلام وما جادت به الحضارة المادية على مر العصور: [صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أحسنُ من اللهِ صِبْغَةً]؟!

ولكن ينبغي ألا تكون قراءة سِيرَ هؤلاء الأئمة لمجرد البحث

والدرس، ولا المعرفة والاطلاع، أو التسلية وتزجية الوقت، فإن هذا - إن كان كذلك - أقل من أن يبذل الجهد في سبيله، ذلك أن هؤلاء الرجال جاؤوا في زمن غطّت فيه البشرية في حمأة البعد عن الله، ونأت عن شرعه، وعاش أهلها كالوحوش في غاباتها، وها هو الزمان قد استدار كهيئته يوم بُعث رسول الله ﷺ الذي صنع ذلك الجيل، فكان مشعلاً للبشرية تستضيء به في ظلمات حياتها؛ وهكذا فإن دراسة حياة هؤلاء ينبغي أن تكون بقصد العظة والاقتداء والعبرة والاهتداء، تتخذ أفعالُهم منهجاً، وسيرتهم مسلكاً، ومواقفهم سُرُجاً، يستضاء بها ما ادلهَّمت الخطوب، وأحاطت بالمرء عاتيات الفتن!! وبذلك يكون الثمن غالياً والنتيجة نفيسة، وبهذا يستمر الركب المؤمن متصل الحلقات، فهو ما يفتأ ينتج النماذج الحية والصور الواقعية التي تبرهن على أحقية التمسك بشرع الله تعالى وفجّ الصالحين ممن غبر. وعندئذٍ يكون للكلمة وزنها وثقلها، فلا تغدو رخيصة للاستهلاك، ولا يصبح القلم - الذي كرمه الله تعالى فذكره في أول آيات أنزلها [الذي علَّم بالقلم]، بل وأقسم به - وسيلة للكسب! وعندها يكون كاتب الكلمة وسامعها ممَّن قصد الله في قوله: [الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه]، فتستحيل الفكرة واقعاً حياً متحركاً.

ولكن إذا كان على جيلنا أن يقرأ عن سلفه الصالح، وإذا فرض عليه أن يتتبع أخبارهم، ويتعرف أحوالهم - باعتبارهم الترجمة الحيّة للإسلام - فليس من السهل على كل أحد أن ينال ذلك بالجهد اليسير، وذلك لتفرّق أخبارهم في بطون عشرات الكتب - إن لم نقل مئاتها -، ومن هنا كان لا بد من تذليل الصعوبات، وتمهيد الطريق أمام هذا النشء ليسير الهوينا مع ذلك الجيل الفريد، كي يصل إلى

الغاية المرجوّة. وهذا يفرض على علماء الإسلام وكتّاب المسلمين ـ وخاصة المعنيين بالدراسات التاريخية ـ أن يشمِّروا عن ساعد الجد، لييسِّروا لغيرهم الطريق، فإن الجيل يهتف بهم: أميطوا اللثام عن العظام، فقد كثر الطَّغام!!

إنها لأمانة كبيرة تضعها الناشئة في رقاب المخلصين الصادقين بأن يكشفوا الستار عن أولئك العظماء، ويضعوها ميسَّرة بين أيديها. ولن يكون ذلك إلا بترجمة المئات من تلك النماذج حتى تتضح صورة الإسلام العظيم، وتتكامل جنبات الأسوة الكاملة.

وهكذا فالمجال رحب واسع خصب، وعلى المسلمين أن يكدّوا الذهن، ويلهبوا الجسم بسياط العزيمة، ليصلوا إلى تلك الغاية، فإن حياة الأمم برجالاتها.

والذي أرجوه من الله سبحانه أن تكون هذه السيرة لهذا الصحابي الجليل إسهاماً خيّراً في هذا المجال العريض، كما أسأله جل جلاله ـ قبل ذلك ـ أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن يكتب لها القبول في السماء والأرض، وأن يدخرها لي حينما ألقاه [يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم].

وأنا ـ بعد ذلك ـ سائل أخاً قرأ هذا الكتاب أن يدعو لي ولوالدي، ولمشايخي، ولسائر أحبابنا من المؤمنين، بالمغفرة وحسن العاقبة، وأن يجعلنا ممن يستعملهم فيما يحب ويرضى. وبعد هذا أرجوه إن وجد عثرة أن يقيلها، فيغض الطرف عنها، أو يسدي لي بها نصيحة خالصة لوجه الله الكريم.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عبد الستار الشيخ

رجب ١٤٠١ هـ

أيار ١٩٨١ م

المراجع

١ ـ **إحياء علوم الدين**، الإمام الغزالي، دار المعرفة ـ بيروت.

٢ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، (ذيل الإصابة)، ابن عبد البر، تحقيق ـ طه محمد الزيني ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٣ ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ابن الأثير، تحقيق البنَّا وعاشور ـ كتاب الشعب.

٤ ـ **الإصابة في معرفة الصحابة**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق طه محمد الزيني ـ نشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٥ ـ **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ طبعة في ثمانية مجلدات.

٦ ـ **اعلام الموقعين**، ابن قيِّم الجوزية، تعليق طه عبد الرؤوف سعد ـ دار الجيل ـ بيروت.

٧ ـ **الأم وبهامشه كتاب اختلاف الحديث**، الإمام الشافعي، كتاب الشعب.

٨ ـ **الباعث الحثيث**، ابن كثير، تأليف أحمد شاكر ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩ ـ **البداية والنهاية**، ابن كثير، مكتبة المعارف ـ بيروت.

١٠ ـ **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، الفيروز أبادي، تحقيق ـ محمد علي النجار ـ لجنة إحياء التراث الإسلامي ـ القاهرة..

١١ ـ **تاريخ خليفة**، خليفة بن خياط، تحقيق أكرم العمري ـ دار

القلم ـ دمشق.
١٢ ـ **تاريخ الرسل والملوك**، ابن جرير الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار المعارف ـ مصر.
١٣ ـ **تجريد أسماء الصحابة**، الذهبي.
١٤ ـ **تذكرة الحفاظ**، الذهبي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٥ ـ **الترغيب والترهيب**، المنذري، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
١٦ ـ **تفسير القرآن العظيم**، ابن كثير، تحقيق البنّا وعاشور وغنيم ـ كتاب الشعب.
١٧ ـ **تقريب التهذيب**، ابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد الوهاب عبد الله ـ دار المعرفة ـ بيروت.
١٨ ـ **تهذيب الأسماء واللغات**، الإمام النووي، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
١٩ ـ **تهذيب التهذيب**، ابن حجر العسقلاني، دار صادر ـ بيروت
٢٠ ـ **جامع الأصول**، ابن الأثير، تحقيق الأرناؤوط ـ نشر مكتبة الحلواني ودار البيان.
٢١ ـ **جامع العلوم والحِكم**، ابن رجب الحنبلي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
٢٢ ـ **الجمع الصوتي الأول للقرآن**، د. لبيب السعيد، دار المعارف مصر.
٢٢ ـ **الجوهر النقي في الرد على البيهقي (ذيل السنن)**، ابن التركماني، طبعة الهند ـ حيدر آباد الدكن.
٢٤ ـ **حلية الأولياء**، أبو نعيم الأصبهاني، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٢٥ ـ **حياة الصحابة**، محمد يوسف الكاندهلوي، تحقيق الشيخ نايف العباس ومحمد علي دولة، دار القلم ـ دمشق.
٢٦ ـ **روائع البيان تفسير آيات الأحكام**، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي ـ دمشق.
٢٧ ـ **السنة ومكانتها في التشريع**، د. مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي ـ دمشق.
٢٨ ـ **السنن الكبرى**، البيهقي، طبعة الهند ـ حيدر آباد الدكن.
٢٩ ـ **سنن النسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي**، النسائي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٠ ـ **سير أعلام النبلاء**، الذهبي، تحقيق د. صلاح الدين المنجد.
٣١ ـ **السيرة النبوية**، ابن هشام، تحقيق السقا والأبياري وشلبي.
٣٢ ـ **صحيح مسلم**، الإمام مسلم بن الحجاج، تحقيق وفهرست محمد فؤاد عبد الباقي.
٣٣ ـ **صفة الصفوة**، ابن الجوزي، تحقيق رواس قلعجي.
٣٤ ـ **الطبقات الكبرى**، ابن سعد، دار صادر ـ بيروت.
٣٥ ـ **طرح التثريب شرح التقريب**، الحافظ العراقي وابنه أبو زرعة، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٣٦ ـ **عبد الله بن مسعود**، د. عبده الراجحي، دار الشعب ـ مصر.
٣٧ ـ **عثمان الخليفة المفترى عليه**، محمد الصادق عرجون، مكتبة الغزالي ـ دمشق.
٣٨ ـ **العواصم من القواصم**، ابن العربي، تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب.
٣٩ ـ **غاية النهاية في طبقات القراء**، ابن الجزري.
٤٠ ـ **فتح الباري**، ابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية.

٤١ ـ **الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ**، ابن كثير، تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحيي الدين مستو، دار القلم ـ مؤسسة علوم القرآن.
٤٢ ـ **فضائل القرآن**، ابن كثير، دار الأندلس.
٤٣ ـ **فضل الله الصمد توضيح الأدب المفرد**، للبخاري ـ شرح فضل الله الجيلاني، المطبعة السلفية ومكتبتها.
٤٤ ـ **فقه أهل العراق وحديثهم**، زاهد الكوثري، تحقيق أبو غدة ـ نشر مكتب المطبوعات الإسلامية.
٤٥ ـ **فقه السنة**، سيد سابق، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
٤٦ ـ **كشف الخفاء ومزيل الإلباس**، العجلوني، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.
٤٧ ـ **المسند**، الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق وتعليق د. محمد أحمد عاشور ـ كتاب الإعتصام.
٤٨ ـ **معجم قبائل العرب القديمة والحديثة**، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة.
٤٩ ـ **مقدمة ابن الصلاح**، ابن الصلاح، دار الحكمة ـ دمشق.
مقدمة ابن **الصلاح ومحاسن الاصطلاح**، ابن الصلاح والبلقيني، تحقيق بنت الشاطىء ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٥٠ ـ **المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، الإمام النووي، تحقيق عبد الله أحمد أبو زينة، كتاب الشعب.
٥١ ـ **ميزان الاعتدال**، الذهبي. تحقيق علي محمد البجاوي ـ دار المعرفة ـ بيروت.
٥٢ ـ **نصب الراية لأحاديث الهداية**، الزيلعي، دار إحياء التراث العربي.
٥٣ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ابن الأثير، تحقيق الزاوي والطناحي ـ المكتبة الإسلامية.

فهرس